القرآن الكريم

سورة الأنعام – سورة الأعراف

التحليل الروائي

عبد الباقي يوسف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الأنعام

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾
وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ
ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾
وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا
لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ
بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ
ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾
۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ
إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ
قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ
تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ
ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ
عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا
نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ
ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا
سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾
قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ
كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ
مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا
فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا
يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ
إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ
بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟

بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٩﴾ قُلۡ
أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ
فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم
بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ
ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ هُمۡ يَصۡدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ
جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ
وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ
يَفۡسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن
يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم
بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ
فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ
عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ
عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ
وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلۡ إِنِّي
نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهۡوَآءَكُمۡ قَدۡ ضَلَلۡتُ إِذٗا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ
ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ

بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ
وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ
يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ
ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا
يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم
مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ
يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ
مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّۚ وَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ
ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن
شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ
ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن
تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا
بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَاۗ قُلْ
إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ وَهُوَ
ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن
فَيَكُونُۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ

مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ
عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا
قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ
بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ
وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ
قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي
كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ
أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ
ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ
وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ
وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنۡ
ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ
مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ
وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ
فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ
حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ
تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ
يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ

أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى
ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا
خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ
وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ
ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ
حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ
وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ
قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ
شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ
مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ
لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ
شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ
ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠
عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾
ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا
جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ
ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾
وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا

جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ
يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ
لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَجۡهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ
ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا
يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم
مُّقۡتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ
ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ
صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ
يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ
عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ﴿١١٨﴾
وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ
وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ
وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ
ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ
لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ
لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ
أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ
ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ
ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ
صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ
كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ

فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾
وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا
ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ
رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ
وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا
عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن
رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ
بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ
لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ
مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ
ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ
لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ
مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ
أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ
فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ
بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا
كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ
عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى
ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ

مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟
مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾
وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ
ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ
أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ
طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ
لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ
ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن
كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا
تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ
يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ
رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ
نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ

أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ
فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ
هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ
لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ
وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ
تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ
لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن
رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ
عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ
يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ
فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ
إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ
بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ
إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾
لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ
نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ
سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾ ۞

استهلال

تمتاز هذه السورة الكريمة بمزاياها الخاصة، كما تمتاز كل سورة من سوَر التنزيل الحكيم بما حباها الله تعالى من مزايا، وبذلك تكتمل أركان عمارة البناء القرآني، حيث تتكامل مزايا هذه السُوَر مع نسيج بعضها البعض، لتنتج عن ذلك مزية القرآن المجيد كوحدةٍ متكاملةٍ، تستمدّ من ثنايا هذا التكامل مَعالِم التجدّد القرآني مع كل حقبة بشرية جديدة، فيُتاح لها أن تستكشف، وتستشرف في القرآن ما لم يستكشفه، وما لم يستشرفه غيرُها، وتقرأ في القرآن ما لم يقرأه غيرُها، حتى يُتاح لها أن تنجز ما لم ينجزه غيرُها.

وبذلك فإن المُنجَز البشري الجديد، يستند إلى المُستَكشَف القرآني الجديد، ذلك أن الإنسان لا ينفصل عن الله، ولا يبتعد عنه مهما مضى الزمن، ومهما تحاقبت الأجيال البشرية، وما دام ثمة جديد في الإنسان، فإن الله - عز وجل - يَمدّه بمعارِفَ جديدة حتى يُقدّم من خلالها منجزات جديدة لمقتضيات سيرورة إيقاع الحياة، وفق كل عصر بشري جديد.

ذلك أن التنزيل الحكيم، فيه هذا الحِساب، حِساب كل جيل في استكشاف وإنجاز ما هو جديد، وبذلك تتجدَّد الحياةُ بِرمَّتِها، وتلبث قابلة وجديرة بالعيش، لأن عجلة الحضارة الإنسانية، تكون في عملية تقدّم وازدهار.

فكل سورة تنضح بإشراقة الجديد الذي ليس في غيرها، ومع كل سورة، تكون في رِحَابِ إشراقة قرآنية جديدة وفق كل مقوّمات الجديد، وهكذا فإن كل ذرة فيك، تشرق في حضرة كل سورة إشراقة جديدة، لم تدركها من قبل.

واعلم أنه ليس بمقدورك أن تلمس لحظة إشراق واحدة، دون نور الله: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

والذي يتعرَّض لقبسات الإشراق الإلهية، فإن كل شيء فيه يُضيء: مُحيّاه، مُقلتاه، هيأته، صوته، بسمته، بل حتى الثياب التي يرتديها، والبيت الذي يقطنه. فثمة

ثياب تبدو باهتة مهما كانت جودتها عالية، وباهظة الثمن عندما يرتديها أناس، وثمة ثياب تشعّ مهما كانت جودتها متواضعة، ومنخفضة الثمن، عندما يرتديها أناس.

وثمة منازل، وأنت تدلفها، تراها مُنطَفِئة رغم ما هي عليه مِن فخامةِ البِناء، والزينة، والأثاث، وكل ما فيها يبدو واجِماً منطفئاً أمامك.

وثمة منازل تدلفها، تراها مُضاءة رغم تواضع بنائها، وتواضع ما تحتويه من أثاث.

كذلك الموائد، فيمكن أن تجلس إلى مائدة عامرة بأشهى وألذ أصناف الطعام والشراب في ذاك البيت، غير أنك تشعر بأن كل ما عليها يفتقد النكهة، والشهيّة.

وتجلس إلى مائدة متواضعة في بيت متواضع، فتأكل بشهيّة، وكل لقمة تكون أكثر طِيباً من الأخرى، وكل شربة تكون أكثر لذة من الأخرى.

وهكذا الإنسان، فترى شخصاً كُلُّ ما فيه مُظلم، مُطفأ، رغم أنّه بالغ الثروة، أو النفوذ، في حين تلفى شخصاً كلُّ ما فيه مشرق، ومُضيء، رغم ما هو عليه مِن تواضعٍ، وإمكاناتٍ محدودة. وإن عدتَ إلى الأصل، سترى الفارق الوحيد بين الشخصين هو الإيمان.

ذلك أن المؤمن هو كائِنٌ مُباركٌ بِبَرَكَةِ الله، وكلُّ ما يُصبِحُ في عهدَتِه، يَغدو مُبارَكاً بِبَرَكَةِ الله. في حينِ أن الكافِرَ، يفتقِدُ مِيزةَ المُباركة الإلهية.

فاعلم أنه:

لا سورة في القرآن، لا لزوم لها،

لا آية في القرآن، لا لزوم لها،

لا كلمة في القرآن، لا لزوم لها،

لا حرفاً في القرآن، لا لزوم له،

لا نقطة في القرآن، لا لزوم لها،

لا حركة في القرآن، لا لزوم لها،

لا ترتيباً في النزول، لا لزوم له،

لا ترتيباً في تناسق مواضع السور، لا لزوم له،

لا تسمية لسورة، لا لزوم لها... كل ما في القرآن يحمل شيئاً من نورِ الله جل شأنه.

بعد خمس سور مدنية - وفق ترتيب المصحف العثماني - تأتي سورةُ الأنعام التي أُنزلت ليلاً على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مكّة، وهي السورة الخامسة والخمسون، وفق ترتيب النزول، حيث أُنزلت بعد سورة الحجر، وقبل سورة الصافات.

وهذا يعني بأننا مع آيات هذه السورة الكريمة، سنكون في أجواء بداياتِ نَشرِ الدعوةِ الإسلامية، تلك البدايات الصعبة التي مَرّ بها رسوله الله صلى الله عليه وسلم، ومَرّ بها صحابته الكرام رضوان الله عليهم، حتى تَمَكّنوا مِن وضعِ اللّبِناتِ الأساسية لهذا الدين.

فنحن الآن في قلب مكّة المشتعلة، والمضطربة، حيث يقف الكفار والمشركون بكل قوتهم في وجه هذه الدعوة، ويلجؤون إلى سائر أشكال التضييق على شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل مَن يواليه، ولو بكلمة واحدة.

وهذا يُتيح لنا أن نقف على عين الواقع، نتغلغل في تفاصيل وقائع الحياة اليومية التي كان العرب يعيشونها قبل بزوغ فجر الإسلام عليهم.

إننا نتعرّف على كل شيء ككتابٍ مفتوحٍ دون حرج، وهذا ما يَتَمَيَّز به القرآن الكريم، ذلك أنه كِتابٌ مفتوحٌ على كل الآفاق دون حرج.

فالقرآن هنا يكون حائلاً بين العرب، وبين ذاك الماضي الذي وثَّقَته، وصوَّرته الآيات القرآنية، وهم سيلبثون على ما كانوا عليه في أي زمان، أو مكان، إن تجنَّبوا العمل بهذا القرآن، فالنزعات هي، هي، والعرب هم، هم. والمُغَيِّر الوحيد هو القرآن، والتَخلّي عن هذا المُغَيّر، يعني أن كل شيء يعود إلى ما كان عليه.

ولا يعني حضور القرآن كظاهر، بل حضوره كمضمون، ولا يعني مجرَّد قراءة المبنى، بل العمل بالمعنى، فدوماً يقترن الإيمانُ بالعمل الصالح الذي يُفَعِّل هذا الإيمان، ويجعل له معنى.

جاء في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إِذَا سَرَّكَ أَنْ تَعْلَمَ جَهْلَ العَرَبِ، فَاقْرَأْ مَا فَوْقَ الثَّلَاثِينَ وَمِائَةٍ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهَۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ١٤٠﴾ [الأنعام: ١٤٠]).

حملت هذه السورة اسم الأنعام، وهي كلمة ينشرح لها الصدر، وتُذَكِّر أول ما تُذَكِّر بالنعومة، والنِعمة، واللّين. فعندما توافق على شيءٍ، تقول: نَعَمْ. وذلك يعطي للسامع انطباعاً إيجابياً، لأن نَعَمْ فيها إيحاء بالنِعمة. وتقول: نِعمَ الرجل، ونِعمَ المرأة، وذلك يعني أنهما على نعمة الأخلاق، ونعمة القيم، فتتوسَّم فيهما الخير.

أمّا الأنعام، فهي ما أنعَمَ الله تعالى به على الإنسان من: الإبل، والبقر، والضأن، والماعز. كي تُغني حياة الإنسان على الأرض، وينتفع بها، وهذه الأنعام تَغتَني بكثيرٍ من المنافع، وليس للإنسان غِنى عنها، فهي من المصادر الأساسية التي يتغذّى بها الإنسان قبل كل شيء، فالمواد الأساسية التي يحتاجها بدن الإنسان متوافرة في هذه الأنعام، فهي مِن المصادر الأساسية للحليب، وكل ما يُمكن أن يُشتقّ منه، ومِن مصادرِ الصوف، وكل ما يُمكن أن يُشتقّ منه.

والإبل تُعدُّ مِن وسائلِ الركوبِ، وحملِ الأمتعةِ في الصحراء، والطرقات الوعرة، إضافة إلى كون هذه الأنعام من المصادر الأساسية للّحوم، حيث تحتوي على كميات كبيرة منها، وينتفع بها الناس في التجارة، والتربية.

وهي تنتمي إلى صنف الحيوانات الناعِمة القابلة للتربية، والاستئناس، والألفة، حيث يألف لها الناس، ويستأنسون بها، وحتى مظاهرها توحي بالسلم، وهي حيوانات مُسالِمة، لا تؤذي أحداً، وكل ما فيها نفع في نفع، حتى الروث، فإنه يُستَخدم كنوعٍ من الأسمدة في المزروعات، فتكون مرغوبة، ويُقبل الناسُ عليها ولا يكاد يخلو بيتٌ في الأرياف، والقرى، والمناطق، بل حتى بعض الأحياء في المدن الكبيرة والصغيرة، من هذه الأنعام نظراً لِما تنتجه مِن فوائدَ جَمَّة، فهي تدر أشكال النِعَم على الناس، وهم ينعمون بما تدر عليهم من هذه النِعَم.

وقد ذُكِرت كلمة الأنعام ست مرات في هذه السورة الكريمة، منها ثلاث مرات في آية واحدة، هي: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

وذُكرت ثلاث مرات في:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾.

فكَرّم الله تعالى الأنعام بأن حَمَلَتْ هذه الآية الكريمة اسمها، وذلك بمثابة التذكرة للناس كي ينتبهوا إلى مدى نعمة الله عليهم من خلال هذه الأنعام، وهم ينتفعون بمنافعها، وألّا يكون ذلك بشكلٍ آلي، بل وهم يستخدمون هذه المنافع، عليهم أن يذكروا نعمة الله، ويشكروه عليها:

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: ٨٠].

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المؤمنون: ٢١].

فبدون هذه النِعمة لحُرِمَ الإنسانُ من منافع جَمَّة، لقد خُلِقتْ هذه الأنعام لِنَفعِ الإنسان، فيستمتع بكل ما خصّها الله تعالى من منافع يحتاجها سواء في عافيته، أو

في رزقه، فجسم الإنسان يحتاج إلى اللحوم الحمراء، بل إن كل موضعٍ من أعضاء هذه الأنعام يغتني بخواص غذائية، مثل: لحم الفخذ، ولحم الرأس، ولحم الظهر، والكبد، والقلب، والكليتين، واللسان، والطحال، والمخ، والدهون.

وما يحتويه لحم الطير، والسمك، يختلف عَمّا تحتويه لحوم الأنعام، ولذلك يرشد الطب إلى تنوّع استخدام اللحوم، ومن مختلف الأعضاء. كما الأمر بالنسبة للبيضة التي تختلف خواص صفارها، عن خواص البياض، رغم أن البيضة واحدة، أو بالنسبة للتفاح الذي تختلف فيه خواص الأحمر، عن خواص الأخضر، وخواص الأصفر عن الأحمر، رغم أن التفاح واحد.

لكن هذه السورة الكريمة لاتقتصر على بيان فضل الله على الإنسان من خلال الأنعام فحسب، بل تتسع إلى العقيدة، والتوحيد، والحركة من أجل اكتشاف الحياة، وتقدير نِعَمِ الله، والإسهام في فعل الخير.

وهذه الأنعام، وإن كانت أربعة، فهي مزدوجة تُشكّل ثمانية: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]. فَذَكرُ هذه الأنعام يَتَمَتَّع بخواصه، كما أن أنثاها تَتَمَتَّع بخواصها، فنحن إزاء ثمانية أنعام، هي: جمل وناقة، ثور وبقرة، خروف ونعجة، تيس وعنزة.

والأنعام ليست عدوانية، أو شريرة، أو مؤذية بأي شكلٍ من الأشكال، بل هي مُسالِمة، رفيقة، ناعمة رغم كِبَرِ حجمها، وهي لا تأكل اللحوم، بل تتغذّى على الأعشاب، وما يتفرَّع منها، والأعشاب تجعل الكائنات التي تتغذَّى بها هادئة، مُسالِمة.

وإذا نظرتَ إلى الحيوانات المفترسة، سترى بأنها تتغذَّى على اللحوم، ومنظرها يكون مُفزِعاً غير مُسالِم مثل: النمر، والفهد، والأسد، والذئب. وهي خَشِنة، عدوانية، شريرة، أي هي حيوانات دموية، يبدو الشر في هيأتها، ولذلك لا يقربها الناس، وتعيش في الغابات والكهوف. وهذا يأتي حتى على القطط والكلاب التي تعيش في البيوت ولكنها لا تؤتَمَن من الأذى، خاصة عندما تجوع، ويأتي حتى على

بعض الطيور التي تعيش على اللحوم، فيُقال عنها: طيور جارحة. ويمكن أن تفقأ عين الإنسان، أو تجرحه بمنقارها، أو أظافرها. والأمر يأتي على الأسماك أيضاً، كونها تأكل اللحوم، فهي يمكن أن تجرح، أو تؤذي عندما تكون حية، وحتى عندما تُطهى، يكون الإنسان حذراً ممّا يحتوي لحمها من أشواك رغم طراوته.

من كل هذا، يمكنك استنتاج أن تناول اللحوم بشكلٍ مُبالَغٍ فيه، أمر غير محمود بالنسبة للإنسان، لأن هذه اللحوم يمكنها أن تُزيد وتيرة نزعة الهيمنة لديه، فتراه يسعى للهيمنة على كل شيء، ويمكن لكثرة تناول اللحوم أن تُفَعّل لديه النزعات العدوانية بدرجاتٍ مرتفعةٍ، وبأشكالٍ مختلفةٍ، ولذلك يُستَحسَن أن يكتفي الإنسان بحاجة بدنه فقط من تناول اللحوم، وألّا يجعلها مادة أساسية في وجباته الغذائية بشكل يومي.

ولعل ذلك يحدث مع بعض الحُكّام، والقادة، والأباطرة، فهم يُكثرون من تناول اللحوم، بل مِنهم مَن يستخدمها في وجباته الثلاث، فحتى في الصباح، يتناول بعض أصناف اللحوم الباردة، ولذلك ترى هؤلاء يُقبلون على الانتهاكات، ويُشعلون الحروب الفتّاكة في الناس، فكلّما أكثروا من تناول اللحوم، ازدادوا تأججاً، وعدوانية، وشراسة، وكذلك تَضَخَّمت لديهم نزعة الهيمنة، والسيطرة على كل شيء يتمكّنون منه.

ثم إنك ترى أن ذلك من شأنه أن يفرز أشكالاً أخرى مِن العدوانيين، مثل: القَتَلة، والقنّاصين، والمغتصبين الذين يُمارسون أقصى أشكال العدوان على الناس بدماء باردة، - ووفق المصطلحات الحديثة -: (الساديين) الذين يتلذذون بتعذيب الآخرين، أو (المازوخيين) الذين يتلذذون بتعذيب أنفسهم، وهذه النماذج تستفحل غالباً في المجتمعات الثرية التي تكون الضوابط الدينية في سلوكياتها مُتَدَنية، وكذلك في بعض العائلات الثرية التي تعيش في مجتمعات فقيرة، حيث ترى الفشل الذريع الذي يُحالف أبناء هذه العائلات، إلى جانب تفاقم المشاكل التي تقع في هذه البيوت، وبطبيعة الحال، فإن هؤلاء ليسوا نباتيين.

فالعوامل الخارجية يمكن لها أن تُسهم في الانحراف حتى في مجتمع ملتزم، أو في بيت ملتزم، والاعتدال يكون محموداً وفق كل المقاييس، فالانقياد خلف الشهوات،

والرغبات، وهوى النفس لاضفاف له، ويودي بصاحبه إلى التهلكة، وكُلّما تَمَّت التلبية، تأجَّجَتْ النفسُ أكثر، كالنار التي كُلّما مددتها بالوقود، سعرتْ أكثر، ولا تتوقف عن سعيرها، إلّا إذا أوقفتَ عنها الوقود، كذلك عندما تمسك بزمام نفسك، وتقودها، وتُدرّبها على الصبر، تعتاد منك على ذلك: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١].

فالاعتدال في تناول اللحوم، يكون مُفيداً، ويأتي بنتائجه الإيجابية، للناس جميعاً، وخاصة بالنسبة لأولئك الذين يشعرون بأن لديهم نزعات سلبية، مثل شعورهم بالحسد تجاه الآخرين، أو يُعانون نوبات عصبية، أو اضطرابات في السلوك، أو يلمسون في أنفسهم شيئاً من العدوانية، والميل إلى الاعتداء على أموال الناس، أو استباحة أعراضهم، أو يَستَلذّون عندما يَستَفزّون الآخرين.

فكل هذه النزعات التي هي بذور يمكن لها أن تنمو، وتُفصح عن ذاتها أكثر من خلال العوامل الخارجية، ومن خلال التلبية تلو الأخرى، حتى تستقوى عليك، وتأبى قيادتك لها، وتتولى هي قيادتك، فتنقاد إلى المنعرجات، والمستنقعات التي تقودك إليها.

ولذلك يستطيع المرء أن يَتَجنَّبَ تصعيدها، والتغذية تُعدّ من العوامل الفَعّالة في ذلك، ومن ذلك عدم الإفراط في تناول اللحوم، وأن تكون نسبة الخضار، والفاكهة، والبقول، والحبوب، هي الأكثر في التغذية، وتكون ثمة أيام خالية من تناول اللحوم، بل وحتى الزيوت أيضاً، فتتناول طعاماً خفيفاً لراحة معدتك، وهذا بذاته يعكس راحة لسائر الأعضاء، وللنفس كذلك.

هذا جانب من الجوانب التي تُعلّمك إياها قراءتك المتأنيّة لسورة الأنعام الكريمة، فلا يكون نظرك مقتصراً على ظاهر الكلام فحسب، بل إن كل آية تجعلك ترفع نظرك لتنظر إلى آيات الكون، وتنهض لتسير في الأرض كي ترى قبسات من جمال الله في مخلوقاته. فعندما تقرأ، لاتكتفي بالقراءة فقط، وتغمض عينيك، بل عليك أن تقرأ،

وتنظر، وتتفكّر، وتستنير، وإلّا لو أمضيتَ عمرك كله في القراءة، ما نفعك ذلك في شيء، واعلم أن القرآن أُنزِل ليُغيّر، والقراءة هي وسيلة للتغيير، وليست قراءة للقراءة: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤].

فعلى القراءة النَظَريّة أن تُحيلك إلى الحياة العَمَليّة، وعندها يقوى نَظرُك، فترى ما لا يراه غيرُك، وكذلك تستمتع بما لم يستمتع به غيرُك، وتستنير بما لم يستنر به غيرُك. وكما أن القراءة تُحيلك إلى الخَلق، فإن الخلق أيضاً يُحيلك إلى القراءة، في علاقة تكاملية بين ما تقرأ، وما تنظر، وما تستنتج.

لذلك سوف نرى أن السورة لا تقتصر على الأنعام فحسب، بل تتسع إلى جوهر العقيدة، والتوحيد، والعلاقة بين الله والإنسان، وبين الإنسان والطبيعة. أي أنها سورة اكتشافية، تجعلك تكتشف ما لَم تكتشفه، وتنتبه إلى ما لم تنتبه إليه. بمعنى تجعلك تتعرّف على الله أكثر مما تعرف، ونظراً لأن هذه السورة أُنزلت في مرحلة مضطربة من المواجهة بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين مشركي مكّة، ترى كيف أن الله تعالى يبيّن قدراته التي يتفرّد بها، ولا يقدر عليها أحد سواه. وفي ذلك حض للإنسان كي يتحرّك، ويسعى إلى التعرّف على الحياة، والإسهام في فعل الخير، ويُقدّر نِعَم الله تعالى، شُكراً لله المُنعِم، وأن الخسارة الأكثر فداحة والتي لاتُعَوَض بأي حال مِن الأحوال، هي أن يفوت الإنسان الانتباه إلى كل هذه الاشراقات الروحية، ويلبث يمضي عمره في عتمة الروح.

تُظهر لك السورة لمعات السطوع التي يتمتع بها المؤمن، فهو إنسان ساطع نَشِط، ممتلئ ببريق الحيوية، يعيش كل تفاصيل حياته بطولها وعرضها، وهو يستمدّ من ثنايا هذا السطوع مرتكزات الاعتدال، والرفق، والتوازن، والتهذيب، وبذلك يتجنّب عوامل الاضطراب، والعدوان، والكِبر، والتمادي، وتجاوز حدود كل ما هو إنساني.

إنه يُشكّل بحضوره في الحياة، حالةً من البطولة، وكل شيء من حوله، يستأنس به، ويسطع بسطوعه.

تُطلِعك السورة أيضاً على وقائع الأحداث التي جرت في مكّة، وكيف بدأ الناسُ يخرجون مِن وباء الأوثان، إلى عافية التوحيد. وهذا من شأنه أن يُعزّز المناعة والحصانة لديك من كل آفات الريبة، والوساوس، والجور، والإعجاب بالنفس، والاستقواء بالمال، أو السلطة، أو الولد.

إنك تستمدّ من قراءتك معالِم الانضباط، والصبر، وتغدو أكثر تحكّماً بما تجنح النفس إليه من أهواء، وشيئاً فشيئاً تفضي بك إلى الانفلات الذي ينتهي بك إلى الهلاك، فتتعلّم أن لا نهاية لاتّباع الأهواء، وهي تلبث تنخر في القلب حتى تتمكّن من إفساده.

تُعلّمك السورة أن مساحةُ الإنسان تتسع لديك وتنمو، على قدر ما تتسع لديك مساحةُ الإيمان، وأنك لن تستطيع أن تكون إنساناً تتمتّع بمقوّمات الإنسان لديك، إلّا إذا كنتَ مؤمناً، فإن كنتَ مؤمناً، أمِنَ الناس إليك، وأمنتَ إلى نفسكَ، وأمنتْ نفسُكَ إليك.

الباب الأول: الخَلق والجَعل

[١]

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾

نحن الآن في قلب الليل، في شِعاب مكة، والوضعُ العامُ محتقنٌ، بل على حافة الانفجار، حيث تتصاعد المواجهة الفعلية بين توجه فكري وعقائدي جديد، وما هو سائد في المجتمع المكّي الذي ينحدر منه، وينتمي إليه هذا الرجل الذي يتولى بنفسه قيادة هذا الانقلاب على ما تعارف عليه أبناءُ جلدته، وأمسى بالنسبة إليهم منهج حياة.

لقد أُنزلت حتى الآن أربعٌ وخمسون سورة من الكِتاب المؤسّس لهذا الانقلاب، والذين يعيشون في ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ يتشبثون بتلابيبها، ويأبون مغادرتها إلى ﴿وَٱلنُّورَ ۖ﴾ وقد تحوَّل قائد هذا الانقلاب إلى عدوٍ لدودٍ لهم.

السوَر التي أُنزلت، استطاعت أن تستقطب بعض أفراد هذا المجتمع، وتجعلهم قوة مساندة للقائد الذي يقود هذا الانقلاب، بكل ما أوتي مِن عزيمة، بَيدَ أن الطرف الآخر يبدو قوةً لا يُستهان بها، رجالاً، وسلاحاً، ومالاً، ونفوذاً، وبذلك يَسعى إلى إلحاق أقصى أشكال العقوبات، والأذى على الخارجين عنه إلى ما يدعو إليه ذاك الرجل، ويقول بأنه يحمل من الله إليهم ﴿ٱلنُّورَ﴾ الذي من شأنه أن يُبدّد ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ - هم -.

في هذه المرحلة الملتهبة المضطربة، تنزل سورة الأنعام.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، المستحق للحمد، والذي لا أحد يستحق الحمد سواه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فَمَن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ هو الجدير بالحمد.

أول ما يبيّن الله في مستهل هذه السورة، ومستهل هذه الآية، أنه وحده: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وعلى ذلك، فتعود حاكمية كل ما في: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إليه، و: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِى﴾ ﴿جَعَلَ الظُّلُمَاتِ﴾، وكلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ مفتوحة الآفاق، ولا تقتصر على الليل الذي به ظلام، وهو فرعٌ مِن فروع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، فـ: ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ الكهوف، و﴿ظُّلُمَاتِ﴾ الأقبية، و﴿ظُّلُمَاتِ﴾ المحيطات. كذلك: ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ النفس، و﴿ظُّلُمَاتِ﴾ الأفكار، و﴿ظُّلُمَاتِ﴾ مشاعر الاغتراب، ومشاعر اللا انتماء، ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ الضلال، ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ القلب، ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ الوساوس، ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ الشرك، ﴿ظُّلُمَاتِ﴾ عقدة الاستعلاء.

فهذه ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، لا يظنن أحد بأنها أتت مِن المجهول، وبالتالي لا أحد بوسعه السيطرة عليها، أو تبديدها، بل الله هو منشئها، وهي - وفق كل مستوياتها - عاجزة ألّا تستجيب لِمَن أنشأها.

وهذا يقودك إلى نتيجة أن الوساوس القهرية، أو غيرها، مهما استَفحَلَتْ عليك، فإن الله قادر أن يصرفها عنك، ومهما تصاعدتْ وتيرةُ مشاعر الاغتراب، أو اللاانتماء في دواخلك، فإن الله قادر أن يستأصلها، ومهما ضللت، فإن الله قادر أن يهديك، ومهما غلظتْ عُقدةُ الاستعلاء لديك، فإن الله قادر أن يواضعك، ومهما أشركت، فإن الله قادر أن يجعلك موَحِداً، ومهما فسد قلبُك، فإن الله قادر أن يُصلحه.

فاعلم أن كل هذه ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إنما جاعِلها الله، ولعلك تسأل عن قوله - جل شأنه -: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]. فالله هو الذي خلق الحسنة، والسيئة معاً، والله يُفَضّل عليك بالنفع الكامِن في الحَسَنة، والسَيّئة لم تَتَشكَّل مِن تلقاء نفسها، وإلّا لجاز لها ألا تُؤتَمَر بأمر الله، ولكنك تجلب الضر الكامن في السيئة على نفسك من خلال ارتكاب المعصية.

فكل هذه ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ إنما هي تحت أمرته، ولا يمكن لها بأي حال من الأحوال أن تخرج عن أمرته، فجاءت كلمة ﴿وَجَعَلَ﴾ حاسمة، فهو الذي ﴿جَعَلَ﴾ لها حضوراً، وهي غير قادرة إلّا أن تستجيب لجاعلها، أينما كانت، ومهما كان شكلها.

كذلك ﴿جَعَلَ﴾ الله ﴿النُّورَ﴾. جاءت كلمة ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جمعاً بكل ما تعنيه مِن تفرّعات ذكرتها لك، أو لم أذكرها، ولكن كلمة ﴿النُّورَ﴾ جاءت بصيغة المفرد، لأن ﴿النُّورَ﴾ بصيغته المفردة يمكن له أن يُبدّد كل تلك ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جملة واحدة. فالله لاينقذك مِن عتمات ومُستَنقعات تلك ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ فحسب، بل ويجعلك تستنير بنوره. فبعد أن كُنتَ في: ظلمة، أو ظلمتين، أو ﴿ظُلُمَاتِ﴾، يجعلك الله تعالى في ﴿نُورَ﴾ من أمرك.

وكون ﴿النُّورَ﴾ يعود بمرجعيته إلى الله، فهو أيضاً لايملك إلّا أن يستجيب لأمره، ويؤتَمَر بأمره. والإنسان إمّا أن يكون في ﴿ظُلُمَاتِ﴾ أو يكون في ﴿نُورَ﴾، لأنه إمّا أن يكون في درجات الجنّة، أو يكون في دركات النار، وإن دخل دركات النار، يمكن له أن يخرج إلى درجات الجنة، وإن دخل درجات الجنة، لايمكن له أن يخرج إلى دركات النار.

لكن الأمر ليس كذلك في درجات ودركات الحياة، فإن كان في دركات ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، يمكن له أن يخرج إلى درجات ﴿النُّورَ﴾، كذلك إن كان في درجات ﴿النُّورَ﴾، يمكن له أن يخرج إلى دركات ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾.

وعلى هذا المفصل، يكونُ جهدُ الإنسان، فعليه أن يجهد ويُجاهِد للخروج من ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وبذات الوقت، إن كان في ﴿نُورَ﴾، فعليه أن يَجهَد ويُجاهِد كي يُحافظ على ما أنعم به الله تعالى عليه من ﴿نُورَ﴾.

مفتتح السورة موجه إلى الناس جميعاً، سواء الذين آمنوا بما يحمل محمد صلى الله عليه وسلم، أو الذين أنكروا، أمّا الذين آمنوا، فيحمدون الله على ما أنعم عليهم بنعمة

الإيمان، وأمّا الذين أنكروا، فالدعوة إليهم، كي يؤمنوا، ثم يحمدوا، لأن الحمد يأتي عَقِب الإيمان، فأن تحمد الله، ذلك يعني أنك مؤمِنٌ به.

فيا أيها الذين تجعلون لله شركاء، آمنوا بوحدانيته، لأن الله وحده هو: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾، وهو وحده جدير بالإيمان، والحمد.

﴿ثُمَّ﴾ أي بعد الذي تبيَّن للناس جميعاً، وقد آمن منهم، مَن آمن، أمّا: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ أخفوا ما تَبيَّن لهم من الحق، ﴿يَعْدِلُونَ ۝١﴾. يُعادلون مع الله غيره من الأوثان، فـ ﴿يَعْدِلُونَ ۝١﴾ بمعنى يُشركون، يجعلون مع الله تعالى شُركاء، ويساوونهم به. قال: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ ولم يقل بالله، وذلك تذكرة بأنهم يشركون ﴿بِرَبِّهِم﴾ الذي وحده قد خلقهم، وبذلك وحده يستحق الإيمان والحمد.

ويجوز أن تعني كلمة ﴿يَعْدِلُونَ ۝١﴾ إضافة إلى ذلك، أنهم ﴿يَعْدِلُونَ ۝١﴾ عن الحق الذي تَبَيَّن لهم، وينحرفون عنه، فقد مالوا عن التوحيد، ووفق هذا المَيل جعلوا لله سبحانه وتعالى نُظَراء، يعبدونهم كعبادتهم لله، ويؤمنون بمقدرتهم، كما يؤمنون بمقدرة الله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠﴾ [النمل: ٦٠]. فالأصل هو الله جل جلاله، وهؤلاء بعدلهم عن التوحيد، يجعلون له شركاء.

عندما يتزوَّج رجلان من أختَين، يُقال بأن أحدهما عديل الآخر، أي هُما سواء في الاقتران بأختَين، وهذا ليس محض كلام فحسب، بل تترتَّب عليه عوامل تعادلية، مثل أن زوجة كل واحد منهما تكون خالة لأبناء الآخر، كما أن أخواتهما تكنَّ خالات لأبنائهما معاً، وأخوتهما يكونون أخوالاً لأبنائهما معاً، ويكون أبواهما جدَّين لأبنائهما معاً، فهذا التساوي في هذه النتائج جاء على أساس أنهما عديلان، ولولا ذلك، لَما نتج كل هذا التساوي بينهما. فالمشرك لا يكون شِركُه محض كلام، أو محض تصرّفات لا مسؤولة، بل هو يؤمِن ويقتنع بأن هؤلاء الشركاء يمكن لهم أن يفعلوا شيئاً مجدياً له، ويكونوا له وسطاء عند الله، فيعقد عليهم آمال التوبة، أو المغفرة، أو دخول الجنة، فيُقدّم لهم العطايا أملاً بعطايا مقابلة، ولذلك كان الحسم القاطع في هذه المسألة ببيان الله في آيتَين مِن سورة النساء:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ۝٤٨﴾ [النساء: ٤٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١١٦﴾ [النساء: ١١٦].

وعبارة: ﴿لَا يَغۡفِرُ﴾ فيها حسم بأن ما تَدّعون بأنهم شركاء الله ليس بوسعهم بأي حالٍ مِن الأحوال أن يكونوا لكم وسطاء، أو شفعاء، فيجعلوه يغفر، فالله - جلّت قدرته - يجزم لهم ولغيرهم بأنه: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾. وأي أملٍ في الشفاعة هو وهمٌ كبيرٌ يعشعش في المخيّلة: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣﴾ [الزمر: ٤٣].

﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١].

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦﴾ [يونس: ٦٦].

﴿قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الرعد: ١٦].

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ۝٤٠﴾ [فاطر: ٤٠].

فيبيّن الله كيف أن هؤلاء يتخلّون عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ۝٨٦﴾ [النحل: ٨٦].

﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ۝٦٤﴾ [القصص: ٦٤].

ومع مرور الزمن، استجدَّت اشكالٌ أخرى من الشرك، فأصبح بعض الناس يذكرون أشخاصاً أكثر من ذكرهم الله، ويدَّعون أنهم لا يدخلون الجنة إلّا عن طريق هؤلاء الأشخاص، سواء أكانوا صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أم غيرهم، فالتوبة بالنسبة إليهم تكون من خلال هؤلاء الشفعاء. وترى أناساً يعتقدون بأن الشيطان الرجيم، يكون شفيعهم عند الله، وما إلى ذلك من أشكال الشرك الذي يبقى شِركاً سواء أكان المُتخَذ شريكاً لله من الملائكة، أو من الرسل، أو المقرّبين من الرسل، أو من الأوثان، أو كان الشيطان الرجيم. فالإدانة هي لفكرة الشرك، لأنه عند فكرة الشرك بذاتها، يكون العدول عن جوهر العلاقة بين العبد وربه، فهؤلاء هم الذين قال فيهم الله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾، والله أعلم.

الباب الثاني: وظيفة الطين

[٢]

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾

﴿هُوَ﴾ الله وحده ﴿ٱلَّذِى﴾ بعد أن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾، ﴿خَلَقَكُم﴾ وكان يمكن له ألّا يخلقكم، وعندها لم يكن بوسع أحد أن يخلقكم، وكما أنه ﴿خَلَقَكُم﴾، فهو قادر أن يُذهبكم، وعندها لن يكون بوسع أحد أن يُعيدكم. واعلموا أن الله الذي أوجَبَ عليكم حَمده، قد ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾، أي قد خلق أباكم آدم - الإنسان الأول الذي تعودون بأصلكم إليه - ﴿مِّن طِينٍ﴾.

ولم تنته وظيفةُ الطين، بل لبث سبباً في تكاثركم، فالمَني الذي يتسبب في تكاثركم اعتباراً من وجود آدم، يتشكّل من خلال الطين. فلولا التغذية، لما تجمّع المَني، ولولا الطين، لما كانت هذه الأغذية، فالحيوان الذي تعتمدون عليه في تناول اللحوم، ليس بمقدوره أن يعيش إلا على ما ينبت في الطين، ولولا النبات، لَما كان لكم أن تتناولون هذا اللحم، أو ما تنتجه هذه الحيوانات من أصناف التغذية.

والأرض اليابسة دون أن نمدّها بالأمطار للتحوّل إلى ﴿طِينٍ﴾ تعجز أن تنتج النبات: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)﴾ [الحج: ٥].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾ [السجدة: ٢٧].

بل وحتى إذا استغنى الإنسان عن الأمطار في مزروعاته، فإن الله هو الذي جعل الماء في العيون التي تُسقى منها المزروعات: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر: ١٢].

فالمحصّلة تؤوب إلى الله، وحَمْدُكم يكون لله ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ فهذا الوجود الذي أنتم فيه، إنما هو من الله الذي لولاه، لما كان لكم أي وجود، وما كان بمقدور أحد أن يحقق لكم هذا الوجود: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم: ٩].

فإذن لولا الطين، لما كان للإنسان أن يتكاثر. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ يلبث هذا الطين سبباً في استمرار نسلكم، فلا يذهب بكم الظن بأن الله قد خلق آدم من الطين، وكان ذلك منذ عهد بعيد، وقد انتهت وظيفة الطين، وأنتم الآن ما عدتم بحاجة إليه، وأنكم تتكاثرون من خلال المَني. فاعلموا أن الله في كل زمان ومكان يخلقكم من الطين، ولولا الطين، سينقطع نسلكم.

﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ فليست الحياة وحدها بيد الله، بل الموت أيضاً، فهو بعد أن خلقكم ﴿قَضَى أَجَلًا﴾ وضع لكل واحد منكم ﴿أَجَلًا﴾، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ يوم القيامة حيث تُبعثون جميعاً، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ بعد هذا البيان ﴿تَمْتَرُونَ (٢)﴾ تشكّون في وحدانية الله، وأن بيده ملكوت كل شيء.

جاءت خاتمة هذه الآية الثانية ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾، استئنافاً لخاتمة الآية الأولى ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾، فهم يُشركون استناداً إلى ما في قلوبهم من ريب في التوحيد، وهذا البيان الذي يُقدّمه الله سبحانه وتعالى، مِن شأنه أن يَمحقَ أي ريب، لأن ما تم ذِكره، ليس بوسع أحد أن يفعله سوى الله، فبيّن - جل شأنه - أنه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، وأنه خلق الإنسان، ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ أيها المشركون ﴿تَمْتَرُونَ ۝٢﴾، تَشكّون بوحدانية الله. والامتراء هنا، هو اعتقادهم بأن الله يستعين بغيره في إدارة الكون، وهذا الغير المُستَعان به، إنما هو شريك لله، وعلى ذلك، فإنه يمتلك إمكانية التدخل في الثواب والعقاب، وبالتالي يستحق العبودية، فالله غير قادر أن يردّ له مطلباً نظراً لحاجته إليه، ووفق هذا المُعتَقَد، يقف: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ على قاعدة ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. فحتى الإيمان بالله هنا، لم يعد ينفعهم لأنه إيمانٌ شابه فَساد، وأمسى مُصاباً بلوثة الشرك.

فالله - جلّت قدرته - يُستَعان، ولا يَستَعين، وهو يُصدِر الأوامر إلى جميع خَلقه، ولا يَستَعين بهم، لأن الاستعانة، نقص، والمُستعان به، يسدّ هذا النقص لدى المُستَعين: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]. كامل القدرة، لاشيء يعجزه، والذي يرفض أمر الله، يلقى الجزاء كما الأمر بالنسبة لإبليس، ولو استعان به الله، لتنازل له حتى تتم الاستعانة، لكن الله الذي يُتَنازَل له، لايَتَنازَل لأحد، لأنه يُصدر الأوامر، والخلق جميعاً بحاجةٍ إليه، وهو تعاظَمَ شأنه، لايَحتاج أحداً. عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن الله عز وجل: "يا عِبَادِي إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ على نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَمُوا، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلَّا مَن هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إلَّا مَن أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ، إلَّا مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ

مِنكُمْ، ما زَادَ ذلكَ في مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا علَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، ما نَقَصَ ذلكَ مِن مُلْكِي شيئًا، يا عِبَادِي لو أنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلكَ ممَّا عِندِي إلَّا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبَادِي إنَّما هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاهَا، فمَن وَجَدَ خَيْرًا، فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَن وَجَدَ غيرَ ذلكَ، فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَهُ"(١). فعندما عصى إبليس، عاقبه الله، ولم يستطع إلّا أن يمتثل للعنة الله التي حلّت عليه كعقوبة للعصيان. والشرك يبقى شركاً وفق جميع المقاييس، مهما كان الذي يُتخَذ شَريكاً:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨].

فهؤلاء يَتَّبعون الرَيب الذي في قلوبهم، هذا الرَيب الذي يجعلهم يعدلون عن الحق، وهذه دعوة لسائر المشركين، بكل تفرّعات الشرك، ومستوياته، كي يخرجوا من ظلمة الامتراء، إلى نور الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

الباب الثالث: السر والجَهر

[٣]

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾

ذُكِرَت السماوات والأرض هنا مرة ثانية، وذِكرُ السماوات يقترن بِذِكرِ الأرض

(١) صحيح مسلم.

في كتاب الله، وقد أحصيتُ ذلك (١٨٨) مرة، باستثناء ست مرات وردت دون ذكر الأرض: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾ [الرعد: ٢].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: ٨٦].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ﴾ [الملك: ٣].

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥].

إن وجودكم في الأرض، لا يفصلكم عن الله الذي في السماء، فقد بدأ خلقكم في السماء، ثم إليها تُرجعون، وإن كنتم قد أُنزِلتُم إلى الأرض، فإن رائحتكم ما تزال في السماء، وأنتم أبناء السماء أكثر ممّا أنتم أبناء الأرض: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل: ١٢].

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ﴾ [النمل: ٦٠].

فالأرض لم تبعدكم عن الله الذي ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ربكم ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أنتم عباده: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ

ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزخرف: ٨٤]. فإن كنتم في السماء، هو إلهكم، وإن كنتم في الأرض، هو إلهكم، فكل ما ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يخضع لمشيئة الله الذي ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ﴾ كل ما يختلج في قلوبكم، أو يخطر لكم ولو لومضة واحدة: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

وقد تقدّم السر على الجهر ﴿يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ﴾ لأن الفكرة تخرج من السر إلى الجهر، فإن خرجت إلى الجهر، ما عاد بإمكانها العودة إلى السر، لكنها يمكن أن تلبث في السر ولا تخرج إلى الجهر، فالله يعلمها أينما كانت، سواء ألبثت في السر، أو خرجت إلى الجهر.

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ من خير، أو شر، في السر، أو العلانية، فلا شيء يخفى عن الله، ولا أحد سواه يملك ألّا يخفى شيء عليه.

إننا هنا مع تفاصيل الأمور الدقيقة التي يبيّن الله من خلالها ربوبيته ووحدانيته بما لا يدع الشك في ذلك، وهذا من شأنه أن يعرّفنا على حقيقة ما يكون عليه الإنسان المشرك، فهو لا يجهل الحق، بل يعلمه، لكنه يأبى الخروج من القوقعة المظلمة التي وضع نفسه فيها، بل لا يريد للنور أن يسطع على غيره أيضاً، فيُقاتل الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي يدعو إلى هذا الحق، ويُقاتل الذين يُسلِمون بهذا الحق، وهذا هو لب العناد والاستكبار، ولم يكن ذلك مقتصراً على زمن، أو فئة، بل إنه مستمر مع أحقاب الزمن، في أوساط سائر المجتمعات البشرية بأشكال وألوان مختلفة، فترى شخصاً يستهزئ بالقرآن، أو يسعى إلى النيل من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو يكفر بالله، أو يشرك به.

﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠].

سورة الأنعام هنا تُحصّن المسلم من هؤلاء، وتُبيّن له كيف أن الإسلام انتصر عليهم، ومعاذ الله أن يكون النصر لغير دين الله، مهما مرّ المسلمون بأزمات.

الباب الرابع: أنتم وهم

[٤]

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾

الآن، وبعد أن عدل هؤلاء عن الحق، وامتروا في وحدانية الله، لا يكتفون بذلك ويلتزمون بيوتهم، بل يخرجون ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ عن نشر هذا الحق الذي أنزله الله تعالى هدى للعالمين، فلاهم يهتدون به، ولا يريدون للناس أن يهتدوا به، ويتحوّلون إلى ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ له، فيعترضون سبيل نشر الدين بكل ما أمكنهم فعله حتى يمنعوا وصوله إلى الناس ما أمكنهم ذلك، وهم ينتشرون في كل زمان ومكان، ولَعَلّنا نرى نماذج من هؤلاء الـ ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾ في زماننا، وكيف أنهم يسعون إلى الحدّ من انتشار الدين، يمنعون بناء المساجد، يُشَوّشون على وسائل الاتصال التي تنشر الدين، يُسيئون إلى الرموز الدينية، يُضَيّقون على الدعاة، وبذات الوقت، يُشجّعون كل ما يُعادي الدين.

فكلما يروا ﴿ءَايَةٍ﴾ برهاناً ﴿مِّنْ ءَايَٰتِ﴾ براهين ﴿رَبِّهِمْ﴾ الذي خلقهم، ويربيهم، ويمدّهم من الأعمار، يجحدون ما فيها، كما جحد الذين مِن قبلِهم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

و ﴿كَانُوا۟﴾ هنا بالغة الدلالة، فهم يلبثون في الماضي كل ﴿مَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ استمروا لِما ﴿كَانُوا۟﴾ عليه، ولا يريدون أن يبدّلوا، أو يتجاوزوا ما ﴿كَانُوا۟﴾ عليه، فالماضي يمسي بالنسبة إليهم حاضراً، فهم يتشبثون به، ويأبون أن يتحوّلوا من ﴿كَانُوا۟﴾ إلى أصبحوا بمقتضى ما ﴿مَا تَأْتِيهِم﴾ ﴿مِّنْ﴾ براهين ﴿رَبِّهِمْ﴾. وشأن هؤلاء في أي حاضر، وفي أي زمن، هو شأن أولئك، فهم يستأنفون الانضمام إلى مَن ﴿كَانُوا۟﴾، ولا يكتفون بإنكار هذه البراهين والأدلة

الدامغة التي تحملها إليهم آيات الله، بل يقفون عرضة لها، أي يسعون إلى منع تداولها في الناس، كمن يعترض سبيلك، فيمنعك من المضيء، فهم يعرضون عنها، ويدعون إلى الإعراض عنها، ويجعلون من أنفسهم عرضة في سبيل ذيوعها.

[٥]

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾

لم يؤمنوا بما ﴿جَآءَهُمْ﴾ القرآن ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي يُخرجهم من الباطل الذي يتخبطون ببعضهم البعض في مستنقعاته.

بعد ذلك يُبشّر الله تعالى رسوله والمسلمين بأن الإسلام سينتصر على الكفر، وبذات الوقت، يُحَذّرالمستهزئين من مَغَبّة استهزائهم بآيات القرآن: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ يا محمّد، و﴿سَوْفَ﴾ تـ ﴿أْتِي﴾ كـ ﴿مْ﴾ يا مستهزئين ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا﴾ أنتم ﴿بِهِۦ﴾ تـ ﴿سْتَهْزِئُونَ﴾.

الاستهزاء هنا، التعالي، فالمرء لا يستهزئ بشيء إلّا إذا وجد نفسه متعالياً عليه، فهؤلاء، يُكذّبون، ويعرضون، و﴿يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ وقد زيّن لهم معتقدهم الجاهلي بأنهم فوق الإيمان بهذه الآيات، وهذا يسري إلى يومنا؛ حيث ترى البعض يتعالى ويستكبر عن عبادة الله، ويستهزئ بالشعائر التي يؤدّيها المسلمون، فيذهبون إلى الغمز واللمز بذلك، وهؤلاء هم استمرار لأولئك، كما أن المسلمين هم استمرار لِمَن سبقهم من المسلمين، والصراع هو واحدٌ، مُتجدّد وبذلك، فهذا التنزيل الحكيم يلبث مُتجدّداً.

لكن تُبَيِّن لك الآيةُ أنه رَغمَ كل ما فعله هؤلاء وهم كفّار مكّة، الذين يقفون عَقَبة أمام انتشار الدِين، تبقى الدعوة مفتوحة لهم كي يؤمنوا. فنحن في ذروة الأحداث بين بدايات انتشار الإسلام، وردود أفعال كفّار مكّة، وهداية البعض، ونزول الآيات وفق تتابع الأحداث، وهم يعرضون عنها ويصفونها بالكَذِب، وفي هذه المرحلة ﴿يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ بهذه الآيات، وبكل مَن يؤمِن بها. وعبارة: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ فيها

شيء من التهديد والوعيد كي يُراجِعوا أنفسهم قبل أن يتلقوا: ﴿أَنبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾. وهذا أمر مفتوح في الدنيا، والآخرة، فهؤلاء سيتلقون ذلك في الدنيا، وكذلك في الآخرة ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: ٨٨].

وإن كان أولئك الذين لبثوا في عنادهم قد تلقوا الـ ﴿أَنبَٰٓؤُاْ﴾ حيث جاء الانتصار الكبير في بَدر، وجاءت الفتوحات الإسلامية، وانتصر الحق على الباطل، فالكلام موجّه كذلك إلى الذين يستأنفون مسيرة العناد: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ أيضاً ﴿أَنبَٰٓؤُاْ مَا﴾ هم ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾. وهذا بذاته يحمل أمرَين معاً، أولهما أن الإسلام لايُمكن أن يُنتَصَر عليه، وثانيهما أن الذين يكفرون، سينتهون إلى ما انتهى إليه الذين يقتدون بهم، ويمضون على خطاهم؛ ولكن هذا لا يعني أن هؤلاء لايلقون الإنعاش في بعض المراحل الزمنية، وأن المسلمين لن يُصابوا ببعض النكسات على مختلف مستوياتها كما وقع في أُحد، وما تلا ذلك، لكن توالت الانتصارات الكبرى فيما بعد، ولبثت ثنائية الانتصارات والانكسارات، في المراحل الزمنية، لكن في كل الأحوال، فإن الإسلام بقي بخير، وبقي المسلمون بخير، وما حققوه من انتصارات في تبليغ الإسلام ونشره، ومنجزات علمية ومعرفية وإنسانية، تُعدّ علامات بارزة في سجل الحضارة الإنسانية. وأمّا الانكسارات فهي تنبيه لهم كي يَلبثوا يَقظين، ويردفوا المسيرة الإسلامية بمزيد من المُنجزات العلمية والمعرفية والمواقف الإنسانية، وإذا تراخوا، سيدفعون ثمن ذلك، كما أنهم إذا أخلصوا العمل، سينعمون بنتائج عملهم.

لكن الإسلام يبقى منتصراً في جميع الأحوال، ولذلك فعندما يلقى المسلمون إخفاقات، نرى بعض الذين يعلمون الحق من غير المسلمين، يقولون بعظمة الإسلام، ولكنهم يُدينون المسلمين على التقصير، فعلى قدر تمسك المسلمين بتعاليم الإسلام وإخلاصهم العمل في سبيل ذلك يبلغون التألق، وعلى قدر التجاوزات والتخاذلات، يُمنَون بالإحباط.

وهذا لايكون على مستوى الأمة الإسلامية فحسب، بل يتفرّع إلى مستوى الدول، وكذلك إلى مستوى العائلات ضمن هذه الدول، والأفراد ضمن هذه العائلات.

الباب الخامس: حِكمةُ التمكين

[٦]

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾﴾

التمكين هنا، مدى المقدرة على تمكّن ما تسعى إلى التمكّن منه ليُصبحَ تحت أمرتك، وتُصبحَ مُتَمَكّناً منه بشكل جيّد، وكلّما تتسع إمكانات الإنسان، فإنه يغدو مُتَمَكّناً أكثر، وبذلك فإن الإنسان يمكن له أن يأخذ العِبرةَ من التمكّنِ، فقد يودي التمكينُ بصاحبه، إلى التواضع وفعل الخير، ثم إلى النجاة، وقد يودي بصاحبه إلى البطر والبطش، ثم إلى الهلاك. وللتمكين مستويات، لكن النتائج هي، هي، فالتمكين في الدولة، والتمكين في المدينة، في المؤسسة، في العائلة، في العلاقات الاجتماعية، الصحة، في المال، في المهنة. فهذه مسؤولية التمكين الجسيمة.

يُذكّر الله الـ ﴿مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾﴾، الذين ﴿كَذَّبُوا﴾ و﴿يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥﴾﴾ بالتنزيل الحكيم بأنه قادر على إهلاكهم: ﴿أَلَمْ يَرَ﴾ هؤلاء ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، فلينظروا إلى المتمكّنين من قَبلهم، ويتخذوا منهم عبرة.

إن التمكين ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، وما يتفرّع عنه من أسباب القوة، والنفوذ، والثروة، والصحة، لايعني بأن الله غير قادر على أخذ كل شيء، بل الله الذي مَكّنَكم، قادر أن يأخذكم:

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤٢]. كما أخذ الذين سبقوكم، فانظروا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِ﴾ كـ ﴿م﴾ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾، بمعنى ﴿مِّن﴾ جيل بشري خلال مائة عام بعد أن: ﴿مَّكَّنَّاهُمْ﴾.

جعلنا لهم مكاناً ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، وجعلناهم متمكّنين فيه: ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾.

فاعلموا يا أهل مَكّة بأن ما أنعمناكم به هو أقل مِمّا أنعمنا به قوم عاد، وثمود، وشعيب، وفرعون، وغيرهم. حيث كانوا أكثر منكم لياقة وقوة في الأبدان، وأكثر جاهاً، ومالاً، ونفوذاً، وبنيناً: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾. المطر الغزير الذي جعلهم في خصوبة، ونماء، وكثرة الثمار والأرزاق، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾. بيد أنهم لم يُقدّروا النعمة، ولبثوا في الذنوب: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

إن ذلك يجعلنا نتأمّل ما يمكن أن يفرزه التمكينُ مِن خَير، وشَر، فالمتمكّن الذي يسعى إلى الخير، يكون قادراً على ذلك بشكل أوسع وأشمل بِحُكمِ إمكاناتِهِ المتاحة، والمُتَمَكّن الذي يسعى إلى الشر، يكون قادراً على ذلك بشكل أوسع وأشمل بحكم إمكاناته المُتاحة، وكما أن الأول يتمدّد في بسطة الخير، فإن الثاني يتمدّد في بسطة الشر.

فالذنوب لا بد أن تنتهي بصاحبها إلى الهلاك مهما بدا له، أو للآخرين بأنه قوي، ومُتَمَكِّن في الأرض. وَلَدَينا في العصر الحديث شواهد على جبابرة مَكَّنهم الله في الأرض، وتَمَتّعوا بأسباب القوة، والنفوذ، والسلطان. لكنهم انتهوا نهايات مُذلة، مهلكة، فأقرب سبيل إلى الهلاك هو سبيل الذنوب، وأقرب سبيل إلى النجاة هو سبيل التوبة. وكأن الله – جل شأنه – يقول: كفاكم ذنوباً حتى لا تلحقوا بالذين ﴿أَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ بعد أن أغدقناهم بأسباب الرفاهية ورَغَد العيش، فَمَهما كُنتم أقوياء ومُتَمَكّنين، فقد أهلكنا مَن هم أقوى، وأمكن منكم، عندما اتبعوا الشهوات، ولبثوا في الذنوب.

الباب السادس: آفة الاستكبار

[٧]

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

التقصير ليس منك يا محمّد، والتقصير ليس منكم يا أمة محمّد بل هم الذين

يستكبرون على الإيمان بعد أن اتضح لهم كل شيء، اكمل المسيرة يا محمّد، واكملوا المسيرة يا أمّة محمّدٍ مِن بَعده، وليؤمِن مَن يؤمِن، ويَكفر مَن يَكفر: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ﴾ - يا محمّد - ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ﴾ ورق، ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ - على رسولكم يا مَن أسلمتم به - ﴿كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ لا تأبهوا بهؤلاء، وامضوا في نشر نور الله، ولا تُكرهوا أحداً: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إنهم يعيشون في وهم كبير، ويحلو لهم أن يلبثوا في هذا الوهم، ولا يسعون للخروج منه قيد أنملة، فحتى لو أنزل الله كتاباً مكتوباً، ولمسوا هذا الكتاب، ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾.

[٨]

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾

يشترطون شروطاً على الله، ويريدون أن يرسل الله ﴿مَلَكًا﴾ مع محمد صلى الله عليه وسلم، ويُخبرهم بأنه مُرسَلٌ من عند الله، فهم يريدون أن يملوا شروطاً، وأن يمضي كل شيء وفق مشيئتهم.

هنا يبيّن الله تعالى بأنه حتى لو استجاب لهم، فإن ذلك لاينفعهم، بل يؤذيهم، فيقول جل شأنه: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ استجابة لمطلبهم ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

يُحتَمل أن يكون قضاء ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ بأنهم لن يحتملوا رؤية الملك، فيكون بذلك مصرعهم؛ لكن الرسل والأنبياء كانوا يرونهم بقدرة الله، عندما يرسلهم الله لمحادثتهم، ويتمثلون بصور بشرية، مثلما حدث مع موسى، أو مثل ضيف إبراهيم، أو ضيف لوط، أو جبريل عندما كان يتراءى لمحمد صلى الله عليه وسلم في صورة بشرية، وأنه قد غُشي عليه عندما رأى جبريل في صورته الأصلية، فإذا كان ذلك مع

رسل الله وأنبيائه، فالنتيجة هي: قضاء ﴿ٱلۡأَمۡرُ﴾ بالنسبة لهؤلاء، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ٨﴾ لايحتملون البقاء بعد ذلك طرفة عين.

حتى مريم التي كانت تمرّ بظروف شديدة الخصوصية في ولادتها، عندما شاء الله تعالى أن يُرسل لها ملكاً، أرسل جبريل: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ١٧﴾ [مريم: ١٧]، حيث إن إمكانات الإنسان في الأرض، لا تحتمل رؤية بعض مخلوقات الله، ورأفة من الله بالإنسان، فقد جعلها غير مرئية بالنسبة إليه، ولكن أن يتحدّى الإنسان طبيعته، وإمكاناته، فإنه يقود نفسه بذلك إلى التهلكة، ولأن باب التوبة يلبث مفتوحاً، فإن الله يمهل عباده لعلّهم يتقون.

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن محمد بن إسحاق قال: (دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه إلى الإسلام وكلمهم فابلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بي كلدة، وعبدة بن عبد يغوث، وأبي خلف بن وهب، والعاصي بن وائل بن هشام: لو جعل معك يا محمّد ملك يحدث عنك الناس ويرى معك، فأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٌ .. ﴾ الآية).

[٩]

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ ٩﴾

طبيعة الإنسان تستأنس إلى الإنسان، ولذلك جعل الله الأنبياء والرسل من سلالة الإنسان، وهذه هي مشيئة الله التي هي لصالح الإنسان، وليست عليه، ولو كان الأنبياء والرسل من الملائكة، لبدوا غرباء على الإنسان بسبب اختلاف الخَلق، واختلاف الطبيعة، فما يفعله الملائكة، لايفعله الإنسان، وما يفعله الإنسان، لايفعله الملائكة، مثل الطعام، والشراب، والزواج، والذنوب، وما إلى ذلك ممّا يكون عليه الإنسان، ولا يكون عليه الملائكة، ويكون عليه الملائكة، ولا يكون عليه الإنسان. وعندها كان الإنسان يتمنى من الله فيما لو أنه جعل الأنبياء والرسل من جنسه.

في هذه الآية يبيّن الله جلّت قدرته، أن هذا الملك سيكون على صورة رجل، وذلك رحمة بالإنسان الذي لا تحتمل قدراته أن ينظر إلى الملك ويتحاور معه إذا لبث في صورته الأصلية؛ ولأنه سيكون ذلك، سيرتدي ثياب الرجال؛ وفي كل الأحوال، لا بدّ من الإنسان أن يكون مساهِماً لنشر دِين الله، من خلال العلماء، والدعاة، والمساجد، والمنابر العلمية، والآباء عليهم أن يفقّهوا أبناءهم في أصول الدين، ويزرعوا فيهم القِيَم الدينية، وهذا يأتي إلى المدرّسين، في المدارس، والجامعات، بمعنى أن النتيجة هي واحدة، ويلبث هؤلاء على ما هم عليه من كفر وشرك.

فلله حِكمة في اختيار رسله وأنبيائه إلى الناس، ودوماً فإن كل الخير يكمن للإنسان فيما يختاره له ربه. فهؤلاء يقفون على نوايا سيئة، ولا يُحسنون الظن في اتباع ما أنزل الله من الحق.

الباب السابع: الحيق

[١٠]

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾

فَيا مُحَمّد، استأنف نشر ما يأتيك من ربك، وهؤلاء استمرار لِما هُم مِن قبلِهم من أهل العصيان، كما أنك استمرار، واستكمال للرسل من قبلِك، وأن هؤلاء ليس بوسعهم أن يقفوا عقبة بين دِين الله، وبين عِباده الصالحين؛ ليس بوسعهم أن يحجبوا دين الله، أو يحولوا بينه وبين الانتشار. فإن قابلك هؤلاء بالاستهزاء ممّا تُبشّر به، فاعلم أنك لستَ أول مَن يلقى ذلك، وأن هؤلاء ليسوا أول المستهزئين بما أنزل الله: **﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾**، وكانت النتيجة أن **﴿حَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾**. فهؤلاء ينتهون إلى الحيق الذي حاق بأضرابهم الأولين.

نرى هنا كيف أن الله يخفف عن رسوله، عندما يضيق قلبه ممّا يسمع من عبارات الاستهزاء، ويسيئون معه الأدب، وكيف يستمدّ الرسول صلى الله عليه وسلم القوة والعزيمة ممّا يبيّن له الله، فيعلم أن سوء أدب هؤلاء ليس مقتصراً عليه، بل لاقى رسل الله وأنبياؤه ذات الاستهزاء، وسوء الأدب، ﴿فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾.

أن يحيق بك شيء، بمعنى أن تعود نتيجته عليك، أي غدوا هم أنفسهم موضع استهزاء، والحيق هو الإحاطة، أي أمسوا مُحاطين بما كان يبدر منهم: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٤٣].

[١١]

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾

هذه الآية هي استئناف للآية السادسة: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾. فإن لم يكونوا يروا، فـ ﴿قُلۡ﴾ لهم يا مُحمّد: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ﴾ وسوف ترون ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١١﴾.

فقد كانوا هنا، كما أنتم الآن هنا، وقد انتهوا نهايات مخزية نتيجة تكذيبهم بآيات الله.

و﴿ثُمَّ﴾ التي أتت بعد ﴿سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، لعلّها تجعل من الأمر جَمعاً، فيكون الكلام موَجَهاً للناس جميعاً، مؤمنين، وغير مؤمنين، وإن كان غير المؤمنين يجدون العبرة في تلك العاقبة، وذلك من شأنه أن يجعلهم يؤمنوا، فإن المؤمنين يزدادون ثباتاً في إيمانهم، فـ ﴿ٱنظُرُواْ﴾، ليست مقتصرة على الكفار فحسب، بل حتى أنتم أيها المؤمنون إن سرتكم ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: ﴿ٱنظُرُواْ﴾.

تُبيّن هذه الآية بأن الثبات في موضعٍ واحدٍ، يجعل معرفةَ الإنسان محدودة، ويجعل مدركاته محدودة مقتصرة على ذاك المكان، وقد وسّع الله تعالى الأرض

حتى يَسير الناسُ فيها، وبصيغةِ الأمرِ جاء قَولُه تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾. فلا يكون السير للسياحة، أو للتجارة فحسب، ﴿ثُمَّ﴾ أي لكم الحرية في ذلك إن سرتم للمنافع الدنيوية، لكن عليكم أيضاً أن تـ ﴿نظُرُواْ﴾. تتأمّلوا وتأخذوا العِبرةَ مِمّا ترون في هذه الأرض التي تسيرون فيها الآن، ﴿كَيْفَ﴾ انتهى الذين كَذَّبوا بآياتنا.

[١٢]

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾

علينا أن نذكر بأننا ما نزال في شِعاب مَكّة، وأن الطرف الرافض للهداية، يَقدم على فعلِ كلِ شيءٍ في مواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام، ومَن أصبح مؤمِناً بِما يُبشّر به، ويؤازره، ويُشكّل قوة إلى جانبه، ويوماً بعد يوم يَستقطب المسلمون المزيد من الطرف الآخر للهِداية، ونور القرآن ينتشر في ظلمات مكّة، وظلمات أهلها: ﴿قُل﴾ لهم يا مُحمّد: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مَن الذي خلقهما، ولِمَن تعود ملكيتهما؟

ولَعلّ ظاهر الآية يُبيّن بأن هؤلاء لا يعترفون بأنهما لله، ولذلك يُخبر الله رسوله: ﴿قُل لِّلَّهِۚ﴾، وهذه دعوة سلمية إلى الإيمان، بل تستمر الدعوة السلمية في استئناف القول: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، أي إن تبتم واهتديتم إلى الإيمان، يتجاوز لكم عَمّا قد سلف.

فالله الذي له ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ قد ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾، وأن الله وحده هو الذي يجمعهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢﴾.

وهنا إرشاد لهم بأن يؤمنوا، حتى لا يكونوا من الخاسرين.

الباب الثامن: ولايةُ الله

[١٣]

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ ﴾

﴿وَ﴾ - ﴿قُل﴾ - لهم يا محمّد: لله ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾.

في الآية الأولى ذكر الله - جَلّ شأنه - ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.

وفي الآية التي تسبق هذه الآية ذكر: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. والآن: ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾.

وعلى هذا النحو، يتكامل السياق الروائي لمضمون هذه السورة الكريمة مع بعضه البعض، فالليل لا يكون ليلاً دون ظلمة، والنهار لا يكون نهاراً دون نور، والأرض تستقبل ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ من السماء، في علاقة تكاملية بين السماء والأرض؛ وهنا فإن الأرض لا يمكنها الاستغناء عن السماء، لأن مصادر الاستمرار، والتجدّد تأتي من السماء، في الوقت الذي يمكن للسماء أن تستغني عن الأرض؛ وهذا يُبيِّن لنا بأن الله يمكن أن يستغني عن الإنسان، بل وعن الأرض، وكل ما فيها جملة واحدة، بَيدَ أن الإنسان لا يكون بوسعه أن يستغني عن الله، بصرف النظر إن كان هذا الإنسان مؤمناً، أو كافراً، فملكية ما يسكن ﴿فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾، تعود إلى الله.

ولعل (السَكَنْ) هنا يعني الإقامة، وليس نقيض الحركة، فلله كل ما يَتَحَرّك، وما يَسكن عن الحركة. وعبارة: ﴿مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾ المفتوحة الشاملة تعني السكّان عموماً، وليس الذين يسكنون إلى الراحة بعد عناء: ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

والسَكَنُ هنا، يشمل كل ما يَسكن الأرض من إنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، وما شاء الله أن يجعله ساكِناً في الأرض، ويحل عليه ﴿ٱلَّيۡلِ﴾، ويسطع عليه ﴿النَّهَارِ﴾.

ثم يُخبر الله تعالى بأنه يسمع ويعلم كل ما يبدر من عموم ما سكن، سواء ﴿فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أو في ﴿النَّهَارِ﴾.

[١٤]

﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤﴾

بعد أن تُبَيِّن لهم ذلك يا مُحَمّد: ﴿قُلۡ﴾ لهم ﴿أَ﴾ بعد هذا البيان تريدون ﴿غَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً﴾، بمعنى أن وليي هو الله، الذي أدعوكم إليه استناداً إلى كل هذه البراهين التي أحملها من الله إليكم. إن الله - جَلّ شأنه - يُعَلِّم رسوله ما يقوله، فكل ذلك ضمن توجّه الله الذي يُعَلِّمه هذا الكلام، ف ﴿قُلۡ﴾ لهم: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ﴾. كما في قوله: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: ٦٤].

فلا أحد جدير بأن يكون ولياً سوى ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وكلمة ﴿فَاطِرِ﴾ تُشير إلى الإنشاء، والابتداء. فبعد أن ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فطرهما، أي جعل لهما فِطرة، وهذا لا يكون إلّا لله.

وقد أصبحنا مع كلمات ثلاث، هي: ﴿خَلَقَ﴾ ﴿وَجَعَلَ﴾ و﴿فَاطِرِ﴾، وقد قُرِئَت (فطر). وكل كلمة تُعبّر عن قدرة الله المتفرّدة في الـ: الخَلق، والجَعل، والفَطر.

إضافة إلى ذلك، أَمَرَ الله رسوله أن يقول للمشركين الذين دعوه إلى عبادة الأوثان، بأن ربي الذي أعبده: ﴿يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾. فهو مصدر الرزق، يُحتاج، ولا يَحتاج، يُعطي، ولا يُعطى.

وجاء ذِكرُ الطعام لأن الإنسان يَتغَذّى به بشكل يومي، والبَدَن ينمو عن طريق هذا الطعام الذي أطعمه الله تعالى لعباده، فواجب أن يشكر الإنسان ربه مع كل لقمة

يتناولها، فكل لقمة تُذَكّره بفضل الله عليه، وبذلك فإن العافية التي يَتمتَّع بها الإنسان، إنما هي من الله تعالى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "دَعَا رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ قُبَاءٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، فَلَمَّا طَعِمَ وَغَسَلَ يَدَهُ، أَوْ يَدَيْهِ، قَالَ: (الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، مَنَّ عَلَيْنَا فَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكُلَّ بَلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا، الْحَمْدُ لِلهِ غَيْرَ مُوَدَّعٍ وَلَا مُكَافأً وَلَا مَكْفُورٍ وَلَا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَطْعَمَ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَقَى مِنَ الشَّرَابِ، وَكَسَا مِنَ الْعُرْيِ، وَهَدَى مِنَ الضَّلَالَةِ، وَبَصَّرَ مِنَ الْعَمَى، وَفَضَّلَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلًا، الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"[1].

فإذا كان كل شيء يعود بملكيته إلى الله، فَمَن يستحق أن ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ﴿غَيْرَ اللَّهِ﴾. إن الله هو وليي، وقد ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾، ولن أكون مثلكم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٤﴾، بل أرسلني الله رحمة لكم كي أخرجكم من ظلمات الشرك، إلى نور الإيمان.

[١٥]

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾

العصيان يفضي إلى غضب الله: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ - استجابة لمطلبكم - ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾. وليس بوسعكم أن تنجوني من العذاب، لأن كل شيء بيد الله كما تَبيَّن، وفي ذلك إشارة بالغة لدعوتهم كي يَتَخَلّوا عن الأوثان، نجاة من ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾.

[١٦]

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝١٦﴾

الفَوزُ، كل الفَوزِ، يَكمنُ في نجاةِ الإنسان من العذاب يوم القيامة، وهذا الكلام دعوة للناس كي يؤمنوا، ويعملوا الصالحات كي يصرف الله تعالى ذكره، عنهم

(١) رواه النسائي وابن حبان.

عذاب يوم الحساب برحمته، بمعنى أن تعمل كي تكون أهلاً للرحمة، وليس أهلاً للعذاب، أهلاً للفوز، لا للخسارة.

و﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ هنا يكون من وجهَين، وجه صرف العذاب، ووجه دخول الجنة، ولذلك جاءت كلمة ﴿رَحِمَهُۥ﴾، أي صَرَفَ عنه العذاب الذي يستحقه، وأدخله الجنة برحمته.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فلولا الرحمة لَما ﴿زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾ ولما صُرِفَ عنه العذاب، وبالتالي ما دخل الجنة، وما ﴿فَازَ﴾ وبناءً على ما تقدّم: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

الباب التاسع: قُدرةُ الله

[١٧]

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾

إذا أراد الله لإنسان مرضاً، أو فقراً، فليس بوسع أحد أن يرفع إرادة الله، وإذا أراد لإنسان صحة، وغِنى، فليس بوسع أحد أن يدفع إرادته، فهو وحده عز وجل يمتلك المقدرة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: (كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: "يَا غُلامُ، أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِنَّ" فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: "احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ، فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ

كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا"(١).

فيا مَن تُشركون بالله، فإن الأوثان لاتستطيع أن ترفع، أو تدفع عنكم أمراً قَدّره الله. وإن كانت الأوثان بشكلها الماضي قد أُزيلَت، فإنها مستمرّة بأشكال مختلفة لدى البعض، فَمِنهم مَن يؤمِن بأن هذا الحاكم، أو هذا الوجيه، يمكن له أن ينفعه، أو يضره، وبذلك فإنه يعقد عليه كل آماله، ويفعل كل شيء من أجل مرضاة هذا الشخص، أو ذاك).

[١٨]

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾

يُقهِر، ولا يُقهَر، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ الذي لا قاهر سواه - جَلّت قدرته - ومهما طغى الإنسان وتمادى، فإن الله قادر أن يُقهره: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾. لا يملك العِباد إلّا أن يستجيبوا لمشيئته: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧]. وبذلك فإن الله ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾، يحكم كل شيء، ويخبر بكل شيء.

[١٩]

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةًۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰۚ قُل لَّآ أَشْهَدُۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾

لعل التكرار في ﴿قُلْ﴾، هو نظير تكرار طلب المشركين من محمّد - صلى الله عليه وسلم - كي يؤمن بأوثانهم، أو يعترف بها إلى جانب الإسلام، وهم يسعون ما بجهدهم، ويقدّمون له بعض المغريات كي يتخلى عن نشر الدعوة:

---

(١) رواه أحمد.

- (يا محمد والله لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله).
- (يا محمد إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة فنحن نجعل لك نصيباً في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلاً وترجع عما أنت عليه).
- (يا محمد ما نرى أحداً يصدقك بما تقول من أمر الرسالة ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم).

فأجبهم يا محمّد: ﴿ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ واعلموا ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾. فما عند الله، يُغني عمّا عند سواه، وهو قادر على ما لا تقدر عليه أوثانكم.

قال ابن أبي حاتم: (حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا وكيع وأبو أسامة وأبو خالد، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن كعب في قوله: ﴿وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ قال من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم - زاد أبو خالد -: وكَلّمه).

روى ابن جرير من طريق أبي معشر، عن محمد بن كعب قال: (من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد صلى الله عليه وسلم).

الباب العاشر: عَقيدةُ التَكذيب

[٢٠]

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾

اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾ أنعَمَ الله تعالى عليهم بـ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، التوراة والإنجيل: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾، يعرفون مُحَمّداً صلى الله عليه وسلم ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ﴾.

جاء الأبناءُ، لأن الابن هو أقرب الناس لأبيه، وأينما وَجَدَه، عَرَفَه. روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة قال عمر رضي الله عنه لعبد الله بن سلام: (أنزل الله تعالى على نبيه هذه الآيةَ وكيف هذه المعرفة؟ فقال: يا عمر، لقد عرفتُه فيكم حين رأيته كما أعرِف ابني، ولأنا أشدُّ معرفةً بمحمدٍ مني بابني، لأني لا أدري ما صنع النساء، وأشهد أنه حقٌّ من الله تعالى).

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، بنكرانهم أن محمّداً عليه الصلاة والسلام، رسول الله ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾. الخسارة هنا لأنهم يعرفون حق المعرفة، لكنهم يستكبرون على الإيمان.

[٢١]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾

بمعنى لا أحد أكثر ظلماً مِن الذي ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾، ادّعى النبوّة مثل مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، أو ابتدع أحكاماً في الحلال والحرام، ونَسَبَها إلى الله.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ﴾، أنكر آيات الله. فلا أحد ﴿أَظْلَمُ﴾ من هؤلاء الذين ادّعوا النبوّة، وابتدعوا أحكاماً نسبوها إلى الله، وقالوا بأن آيات الله التي حَمَلَها إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي من السحر. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾﴾. بيانٌ من الله بأن هؤلاء لايلقون الفلاح بظلمهم.

[٢٢]

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

جاء الكلام هنا بالغ الدلالة: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾، ولا يملكوا من أمرهم إلّا أن يُحشَروا إلينا، وهذا بيانٌ بأن ما ادّعوه كان كذباً في كذب، ويجوز أن يكون مبتدأ الآية استئنافاً لنهاية الآية السابقة، فهم لا يُفلحون في الدنيا، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً﴾، وقد تبيَّن أن هؤلاء لم يلقوا الفلاح في الدنيا، بل

خرجوا منها مخذولين، مخرج سوء. فيخبر الله عز وجل بأنهم لن يلقوا الفلاح أيضاً يوم يحشرهم.

﴿ثُمَّ﴾ يقول ﴿لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ بأنهم سيشفعون لكم، فليس بوسع أحد أن ينقذهم، لأن الأمر لله وحده لاشريك له.

[٢٣]

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾

يسعون للتهرّب مِمّا كانوا عليه من شرك، فقد تَبَيَّن بأن لا أحد يمكن له أن يكون معهم، فهؤلاء كانوا في وهم، وقد تَجَلَّت لهم الحقيقة، ولذلك يريدون نكران الشرك.

[٢٤]

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

عاد وبال ما ﴿كَذَبُواْ﴾ به عليهم، وقد تلاشى عنهم كل شيء، وأصبحوا في مواجهة ما كانوا عليه من ظلم. والذين جعلوهم شركاء مع الله، وعَقَدوا عليهم الآمال، لا ينفعونهم بشيء.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ وضعوا ﴿أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ في وهم، وأرادوا أن يُصَدّقوا الوهم على أنه حقيقة، في الوقت الذي أنكروا فيه الحقيقة الساطعة.

﴿وَضَلَّ﴾ توارى وتَخَلّى ﴿عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الأوثان التي جعلوها شركاء لله. ودوماً فلا تقتصر التوجيه الإلهي على الكرة المجرَّدة سواء للإيمان، أو الشرك، أو الإلحاد، بل ما يترتَّب على هذه الفكرة. فعندما يؤمن الإنسان، فهذا يجعله يتفاعل مع الشرع الذي يضعه الله الذي يؤمن به، وهذا الشرع يُحسّن للإنسان حياته. وكذلك عندما يشرك، فهو يتخلّى عن هذا الشرع، ويتَبع المُعتقدات الشركية، أو عندما يلحد، فهو لا بدّ أن يتّبع المُعتقدات الإلحادية. ولكن لماذا يُحسّن الشرع للإنسان حياته، وما دون ذلك يفسد له حياته؟ لأن الشرع دوماً فيه الأفضل الذي

لا أفضل منه، أينما اتّجه الإنسان، فليس ثمة ما هو أفضل من الصدق عندما يتحدّث الإنسان، وليس ثمة أفضل من الزواج عندما يريد العشرة، وليس ثمة أفضل من الوفاء بالوعد، إذا وعد الإنسان، وليس ثمة أفضل من الحصول على الرزق بالعمل، وليس ثمة أفضل من إماطة الأذى عن الطريق، وحُسن التعامل مع الجوار، وصلة الرحم، وأن يقدّم الغني من ماله للفقير بأمرٍ من الله عز وجل، وما إلى ذلك. وهذه القِيَم المُتكاملة التي هي الأفضل، لا يجدها الإنسان سوى في الدين، وهو يفعلها لأن الدين يعده بالمقابل الذي يتضاعف، وكذلك فإن الصالح يكون في عناية الله، لأن ما يفعله إنما يدخل ضمن طاعة الله الذي يأمره بذلك.

[٢٥]

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾

كان بعض المشركين في مَكّة يستمعون القرآن، ليس للهداية، بل للإنكار، ولعل ذلك حتى لا يُقال بأنهم يرفضون القرآن وهم لم يستمعوا إليه، فكان الاستماع بهدف التحجج والتآويل الخاطئة.

﴿وَمِنْهُم﴾ مِن مُشركي مَكّة ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وأنت تقرأ القرآن يا مُحَمّد، ﴿وَ﴾ لأن استماعهم بِنيَّة الإنكار: ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾.

هنا نَتَعرَّف على أهمية النِيَّة في مسألة الاستيعاب، فكأن الله - جَلّ شأنه - يُخبر بأنهم ما داموا قد عَزَموا على نِيَّة الرفض أول الأمر، وقبل أن يحضروا، جعل ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾. فما دمتَ لا تريد أن تفقه، وقد عَزَمتَ على ذلك، فإن الله لا يفرض عليك أن تفقه، بل عليك أن تسعى وتشقى حتى تفقه، وعندها، يجعلك الله تفقه آياته، إن شاء.

﴿أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾، جمع كِنان، وهو الغطاء، فقد جعل الله تعالى أغطية ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، تحول بينها وبين استيعاب آيات الله، والاهتداء بها. ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾،

والوقر ثقل في الأذن يحول دون الاستماع بشكل جيد، كونهم حضروا بنيّة مسبوقة في إنكارها. ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟﴾، رؤية آيات الكون والمعجزات والدلالات التي تبيّن وحدانية الله، لكنهم يأبون الإيمان.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾. يلبثون على موقفهم في عدم الإيمان بهذه الآيات، و﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ إشارة بأن بعض المشركين لم يكونوا على ذاك الإصرار، بل كان لديهم استعداد للفهم.

وإذا عدنا إلى الكلمة الأولى من الآية: ﴿وَمِنْهُم﴾، يَظهر لنا ذلك، فليس جميع المشركين في مكّة، بل ﴿وَمِنْهُم﴾. أمّا ما تبقّى مِن الـ مِن، فهو خارج الأكنّة، والوقر رغم أنه يمشي مع المشركين، لكنه لا يُشاطرهم النيّة المسبوقة في الرفض.

ولعل ذلك يُعيدنا إلى أسباب النزول، حتى نرى المشهد، ومِمّا قيل في أسباب نزول هذه الآية الكريمة، أنه ذات يوم: (اجتمع أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأمية وأبي ابنا خلف، والحارث بن عامر، يستمعون القرآن وكان النضر صاحب قصص وأسفار، فسمع أقاصيص في ديار العجم مثل قصة رستم وأسفنديار، فكان يحدثهم، قالوا له: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقاً، فقال أبو جهل: كلا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ﴾).

لذلك، فإن مِن هؤلاء، هداه الله إلى الإسلام، لأنه لم يقل: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾، أي لم يقل بأن هذه الآيات هي الأحاديث التي قالها الأولون، وليست من عند الله.

عندما استمعوا إلى هذه الآيات، بدأوا يؤمنون بأنها أُنزلت على محمد عليه الصلاة والسلام، حتى أعلنوا إيمانهم، ودخلوا الإسلام.

الباب الحادي عشر: النَهي والنأي

[٢٦]

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

ما يزال أبو طالب يقف في الوسط بين مَحَبّته لابن أخيه، وبين تَرَدّده من الإيمان بما يَتَنَزّل عليه من القرآن.

يأتيه رؤوس الشرك كي يثنوه عن موقفه: يا أبا طالب خذ شاباً مِن أصبحنا وجهاً، وادفع إلينا محمداً.

يجيب: ما أنصفتموني، أدفع إليكم ولدي لتقتلوه، وأربّي ولدكم.

يراقب الكفار النبي - صلى الله عليه وسلم - في تحرّكاته، وذات يوم يخرج إلى الكعبة للصلاة، وعندما يُباشر في صلاته، يقول أبو جهل: مَن يقوم إلى هذا الرجل، فيفسد عليه صلاته؟

ينهض ابن الزبعري، يتناول فرثاً ودماً، يتقدّم إليه، ويُلطّخ به وجهه. عندئذ يفتل النبي - صلى الله عليه وسلم - من صلاته، ثم يأتي إلى أبي طالب شاكياً: "يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي".

يقول العم وقد بدا لاستياء عليه: مَن فعل بك هذا؟

يجيب: "عبد الله بن الزبعري".

يحمل أبو طالب سيفه، ويتجه مع ابن أخيه على الفور إلى القوم، عندما تفاجأوا به متقدّماً إليهم، أخذوا ينهضون، فانبعثت نبرات صوته تسبقه إليهم: والله لئن قام رجل، جللته بسيفي.

عندئذ لبثوا في جلوسهم حتى وصلا إليهم، فقال على الفور: يا بني مَن الفاعل بك هذا؟

قال: "عبد الله بن الزبعري".

فأخذ أبو طالب فرثاً ودماً، وراح يلطّخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم، ويوبخهم بالقول.

يعود النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن ردّ عليهم عمّه بما ردّ، ويأتيه جبريل - عليه السلام -: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾. بعد أن يتلقى الآية الكريمة، يتّجه إلى عمّه قائلاً له: "يا عم نزلت فيك آية". يقول أبو طالب: وما هي؟ يقول: "تمنع قريشاً أن يؤذيني وتأبى أن تؤمن بي".

يطمئنه بأنه سيبقى مؤازراً له، ولن يتخلى عنه تحت أي ظرف. وعندما يعلم الصحابة - رضوان الله عليهم - هذا الموقف الإيجابي من عمّه، يسألوه: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته؟

يقول: "نعم دفع عنه بذاك الغل ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جب الحيات والعقارب إنما عذابه في نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذاباً".

يوجّه الله تعالى رسوله بالصبر ويُنزل عليه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، يصبر على ما يتلقى من الأذى، ويستمر في نشر الدعوة، وعندما يرى عمّه يقول له: "قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة".

يجيبه العم: لولا تعيرني قريش بالقول: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررتُ بها عينك.

فيأتيه جبريل - عليه السلام - ويخبره بأن الله يقول له: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، وفي ذلك يرى النبي صلى الله عليه وسلم، ذات يوم في عام الفتح عبد الله بن الزبعري، الذي أساء إليه وهو في صلاته، يُقَدّم إليه اعتذاره، فيقبل النبي صلى الله عليه وسلم منه الاعتذار، ويدخل الإسلام، وممّا قاله في اعتذاره شعراً حيث كان يكتب الشعر:

منع الرقاد بلابل وهموم   والليل معتلج الرواق بهيم

مما أتاني أن أحمد لامني … فيه فبت كأنني محموم
يا خير من حملت على أوصالها … عيرانة سرح اليدين غشوم
إني لمعتذر إليك من الذي … أسديت إذ أنا في الضلال أهيم
أيام تأمرني بأغوى خطة … سهم وتأمرني بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودني … أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبي محمد … قلبي ومخطئ هذه محروم
مضت العداوة فانقضت أسبابها … وأتت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدى لك والداي كلاهما … زللي فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة … نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه … شرفا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق … حقا وأنك في العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفى … مستقبل في الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم … فرع تمكن في الذرى وأروم

﴿وَإِن﴾ كان الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٢٦﴾، فإن الذين ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ ﴿وَ﴾ لا ﴿يَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ ينجون ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ وهم ﴿يَشْعُرُونَ ٢٦﴾.

كنا هنا مع شخصين، أحدهما عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمدافع عنه بقوة، ولكنه نأى رغم قناعته بهذا الدين، ومن قوله: (وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا).

لكن الذي منعه من دخول الإسلام كما قال: (لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذاك يقينا).

والثاني عبد الله بن الزبعري، الذي هداه الله تعالى، وقدّم اعتذاره عَمّا بدر منه بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل دين الإسلام. ولا تقتصر هذه المسألة

على هذين الشخصين، بل لهما امتداد في سائر الأجيال البشرية، فترى شخصاً يعترف بأن الإسلام دين حق، لكنه ينأى بنفسه من دخول الإسلام، وترى شخصاً يُعادي الإسلام، لكن فيما بعد يعلم الحق، فيدخل الإسلام، وينقلب من المعادين له، إلى المدافعين عنه.

تبيّن لك الآية الكريمة بأن باب الأمل في الإصلاح يلبث مفتوحاً، لأن ﴿ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ ولا يجوز لك أن تفقد الأمل في إصلاح أي شخص كائناً مَن كان، وفاعلاً ما فعل، فالناس عندما يكونون في جهالة من أمرهم، يفعلون ما يفعلون دون رادع، وعليك أن تفعل ما باستطاعتك في سبيل إصلاح هؤلاء، وأقل الاستطاعة، هو عدم فقدان الأمل.

الباب الثاني عشر: الخسران

[٢٧]

﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾

الآن تُبيّن لك الآية مصير المؤمن، ومصير الكافر، ولعلّ أحدهما يرى مصير الآخر.

عندئذ يقول الذين تكون النار مصيرهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾. وجواب ﴿وَلَوۡ﴾ محذوف، وفي ذلك إفساحٌ أمام المُخيّلة كي تَتَخيّل مناظر أولئك، وهم يقفون لدخول النار، وبذات الوقت يرون المؤمنين، يدخلون الجنة؛ وهذا محض إنذار، لأنه لم يقع، فتنذرك الآية حتى لا تكون من أولئك الذين سيستحقون نتيجة عصيانهم، واستكبارهم ذاك المصير: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾ [سبأ: ٤٢].

يمكن لك أن تتجنّب ذلك بالإيمان بوحدانية الله، والعمل الصالح بدلاً عن الشرك، بكل تفرّعاته، وعن الاستكبار، والإفساد في الأرض.

[٢٨]

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يُخبر الله تعالى ذكره الذي: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]، وجواباً على قولهم: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾، أنهم يكذبون حتى في قولهم، وما ذلك إلّا لأنه: ﴿بَدَا﴾ ظهر ﴿لَهُم﴾ الذي ﴿كَانُواْ يُخْفُونَ﴾ علمهم به ﴿مِن قَبْلُ﴾ أن يُبعثوا إلى الآخرة.

والآن يُثاب الصادق، ويُجازى الكاذب، فحتى لو ردّهم الله تعالى إلى الحياة الدنيا ﴿لَعَادُواْ﴾ إلى ما كانوا عليه من عصيان لأن الكَذِب دَيدَنهم.

[٢٩]

﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾

الفكرة التي يستندون إليها في عصيانهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ لأن هذه الفكرة من شأنها أن تجعلهم يستمرّوا في العصيان، وإنكار الشرع الإلهي، ولذلك فحتى في الآخرة، يريدون العودة إلى الدنيا، كي يتهرّبوا من المواجهة مع الحق الذي كانوا يعلمونه وبذات الوقت يخفونه، وهم يقولون بالحياة الدنيا فحسب، وينكرون البعث. ﴿وَقَالُوٓاْ﴾ أي شعارهم في ذلك: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ﴾ عندما نخرج من الدنيا ﴿بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إلى الحِساب.

[٣٠]

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

للمرة الثانية يبيّن الله جل جلاله في مبتدأ آيتين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾، والكلام موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا يجعله أكثر قوة، وأكثر صبراً، فالله جَلّ شأنه، يبيّن له عاقبة هؤلاء، وإلى جانب ذلك، فالكلام مفتوحٌ أمام الناس جميعاً في بيان عاقبة الكفار، وهذا بذاته تحذير للكفار كي يقوا أنفسهم هذه النهاية، وألّا يستأنفوا مسيرة

العِناد التي انتهجها سالفوهم. وإن كان الله عز وجل قد بيّن حجم عِناد أولئك، فالقول لِمن يحذون حذوهم بأن يتّعظوا من هذا الإنذار الإلهي.

قال الله في الآية ٢٧: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، والآن يقول: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾. وجاءت كلمة ﴿وُقِفُواْ﴾ بكسر القاف، وهذه الحركة تفرّق بين حالتين من الوقوف، فيمكن لك أن تقف في مكان ما من تلقاء نفسك، وتمتلك حرية ترك المكان الذي وَقَفتَ فيه، ولكن إذا وُقِفتَ، فذلك يعني بأنك لم تعد قادراً على المغادرة من تلقاء نفسك، لأنك بالأصل وُقِفت رغماً عنك، وليس وَقَفت بمحض إرادتك، فأنت موقوفٌ، ولستَ واقفاً، وفي السجون، غُرَف التَوقيف، أي يتم توقيف الناس فيها ريثما يُبَث في شأنهم، والموقوف أصبح رهن غرفة التوقيف.

فهنا الموقِف هو الله تعالى، وقد أوقف الناس جميعاً يوم الحِساب، وهم يرون النار، فقال الله جل جلاله: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ﴾ أي وُوجِهوا بالعِقاب الذي وعدهم به ﴿رَبِّهِمۡۚ﴾، فَمَن ذهب إلى الجنة، قد ذهب، ولبث هؤلاء في مواجهة العقاب، وعندئذ يُخبرهم الله: ﴿أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ الذي كنتم تخفونه وتكذّبون به. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾.

دوماً عليك أن تُدرك أن هذه الآيات هي تحذير للناس كي لايجعلوا أنفسهم في ذاك الموقف، والقرآن مفتوح لهم من أجل هذا المقصد.

الباب الثالث عشر: الحَسرة

[٣١]

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾

ما يزال التحذير الإلهي مستمرّاً لأهل العِناد والاستكبار، فاعلموا أنه: ﴿قَدۡ خَسِرَ

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ الخسارة الجسيمة التي لا تعويض لها، وأنكم سوف تُمنَون بذات الخسارة إن سلكتم نهجهم.

هنا إخبار من الله بما سيحدث لأولئك، وما الذي سيقولوه، فقد أصبحوا في حكم الذين حق عليهم العقاب نتيجة عصيانهم، ونتيجة ما ألحقوه من الأذى بأنفسهم، وبكل مَن تمكّنوا منهم، فهؤلاء واستناداً إلى قولهم بعدم البعث، وعدم الحِساب، يُقدمون على فعل أي شيء دون رادع، فينتهكون الناموس الإنساني، يستحلّون أعراض، وأموال، ودماء الناس، يبثّون الفتن، يُطلقون الإشاعات، فكل ما فيهم أذى في أذى.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ساعة الحِساب يوم القيامة ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فجأة، وفي ذروة هول هذه المباغتة التي ستضعهم في مواجهة أعمالهم: ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾. الحسرة هنا بمعنى الندم الشديد على عدم فعل عمل من باب الاستهتار، وكان بالمستطاع فعله، فيتحوّل الندم إلى حسرة في القلب.

﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٣٩﴾ [مريم: ٣٩].

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [الزمر: ٥٦].

فالحسرة تنتج عن التفريط، والذي يكون قادراً على التفريط، يكون قادراً على عدم التفريط، لكنه يجنح إلى التفريط استهتاراً ولا مبالاةً ﴿قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾. أي في حياتنا، والتفريط هنا بشرع الله، فلم يكونوا وقّافين عند حدود الله تعالى، بل كانوا معتدين هذه الحدود، وللتفريط فروع، مثل التفريط بالصحة، فيستهلك المرء صحته بالأهواء، والتفريط بالمال، فيبذر ماله دون طائل، وفي العلاقات الاجتماعية، فيفسد كل علاقاته مع الآخرين، والتفريط بالسمعة، فيسيء إلى سمعته بالمجون، ولكل تلك الفروع عواقبها وآثارها على الإنسان، لكن التفريط الأكبر يكون في الدين.

تنتهي الآية الكريمة بإخبار الله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾، وهذا مشهد تصويري يحفز مخيّلتك على التصوّر استناداً إلى إخبار الله.

والأوزار، جمع وزر، وهو الذنب، فكما أن أهل الجنة تحملهم صالحات أعمالهم إلى درجات الجنة، لأنهم كانوا يحملون، ويتحمّلون مشقّة الطاعات، والإحسان، والإنفاق في سبيل الله، بكل ما يستطيعون من طاقات الصبر، وكظم الغيظ، فهذه الأعمال الصالحة، حان وقتها الآن كي تكافئهم بأمر الله، فيجنوا الحصيلة: ﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٧١]، فكذلك أهل النار، يمضون في أفواج، ﴿وَهُمْ﴾ يرزحون تحت أثقال ﴿أَوْزَارَهُمْ﴾ التي يحملونها ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ﴾ إلى دركات النار.

وَزِرَ، يَزِرُ، فهو وازر، ويُشتق من ذلك الوزير، لأنه يتولى حمل الأثقال: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾ [طه: ٢٩ - ٣٢].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الفرقان: ٣٥].

تلك هي الحصيلة الوخيمة التي نتجت عن تلك السيئات التي اقترفوها: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

من هنا يمكنك معرفة أن الوزر، هو الذنب الثقيل، وكان يمكن أن تكون كلمة الذنب بدلاً عن الوزر، لكن جاء الوز، لثقل الذنب وعظمته.

[٣٢]

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾

بَيّن الحق سبحانه وتعالى بأن ﴿الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ هي ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ﴾ مقارنة بالدار ﴿الْآخِرَةُ﴾ التي هي ﴿خَيْرٌ﴾ من لعب الدنيا ولهوها ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ﴾، واللعب مهما طال أمده، فلا بدّ أن ينتهي، ومهما طال أمد اللهو بإنسان، فلا بد له من نهاية، ولذلك على الإنسان ألّا يعقد الآمال الكبرى على أمر زائل، بل يتخذ من حياته

الدنيا وسيلة لفعل الخير، والعمل الصالح، وهنا إخبار من الله تعالى ذكره للناس جميعاً بأن الدار ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾ هي ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ التي ما هي ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ قياساً بالخير الذي يكون في الدار ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ حتى تكونوا متقين كي تبلغوا خير الدار ﴿ٱلْآخِرَةُ﴾، ولا تعقدوا كل أمانيكم على خير ناقص وزائل. فنحن ما نزال ضمن أجواء الذين يتعلقون كل التعلق بـ ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾، ويقولون: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾، فجاء بيان الله: ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ ردّاً على قولهم: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، وبيانه: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ردّاً على قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وفي كل ذلك: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ دعوة من الله جل شأنه بأن يعقلوا هذه الحقيقة، ويتركوا عِنادهم، ويتّقوا قبل أن يفوت الأوان، ويصبحوا مِن مِلّة أولئك الذين: ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ وأن الله عز وجل يدعوهم إلى عدم ذلك، بل يعقلوا، ويعملوا الحسنات، فتحملهم حسناتهم إلى جنات النعيم.

الباب الرابع عشر: الجحود بالرسالة

[٣٣]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ذات ليلة جاء أبو جهل خلسة ليستمع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن لأصحابه، وصدف أن تسلل إلى ذات الموضع أبو سفيان صخر بن حرب، وكذلك الأخنس بن شريف، دون أن يعلم أحدهم بوجود الآخر، وهم يسترقون السمع إلى قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للقرآن، وطال بهم ذلك حتى الصباح، فانصرفوا، ولكنهم التقوا معاً في الطريق، فسأل أحدهم الآخر

عن سبب مجيئه إلى هذا المكان في ذاك الوقت المبكّر، فكانت المصارحة بينهم. عند ذاك بدأ القلق يساورهم في حال سماع شباب قريش بذلك، ولعلّهم يحذون حذوهم في المجيء والاستماع إلى محمّد - صلى الله عليه وسلم - وهو يقرأ القرآن. فكان أن اتفقوا بألّا يعودوا إلى ذلك مرة أخرى، لكن في الليلة التالية، تسللوا واحداً تلو الآخر ظناً من كل واحد منهم بأنه الوحيد القادم للاستماع، وحدث أن التقوا مصادفة مرة أخرى في طريق العودة، فأخذ كل واحد يكيل اللوم للآخر على نقض الاتفاق، ثم عادوا واتفقوا كرة أخرى على عدم العودة. لكن في الليلة الثالثة تكرر ذات الأمر معهم، فلم يملكوا أنفسهم من عدم التسلل خلسة، وكل واحد يظن بأنه الوحيد المتسلل إلى المكان، وحدث أن التقوا في طريق العودة للمرة الثالثة، فاتفقوا مرة أخرى على عدم تكرار ذلك.

بعد ذلك أخذ الأخنس بن شريف عصاه، وقدم إلى أبي سفيان في بيته، وقال له: (أخبرني يا أبا حنظلة، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟).

قال أبو سفيان: (يا أبا ثعلبة، والله لقد سمِعتُ أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمِعتُ أشياء ما عرفتُ معناها، ولا ما يُراد بها).

قال الأخنس: (وأنا والذي حلفتَ به).

عندئذ بَرَحَه، مُتجِهاً إلى أبي جهل في بيته، وقال له: (يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟

قال: (تنازعنا نحن وبنو عبد مناف لشرف أطعِموا، فأطعمنا، وحملوا، فحملنا، وأعطوا، فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كَفَرَسَي رهان، قالوا: منّا نبي يأتيه الوحي من السماء. فمتى نُدرك هذه؟ والله لا نؤمن به، ولا نُصدّقه).

أمام هذه الازدواجية التي ينتهجها القوم تجنّباً من الاعتراف بنبوّته، وقد اختلطتْ بهم الأوراق، فهم ما يزالوا ينظرون إلى الأمر من منظور دنيوي صرف، فيتهيّأ لهم بأن الاعتراف يُرَتّب عليهم تنازلات دنيوية، هي في جوهرها اقتصادية، ولذلك يريد أحدهم أن يعرف لبّ هذه الحقيقة من فم الآخر، ولو كان ذلك في خلوة بينهما، فذات يوم عندما اختلى الأخنس بأبي جهل، واجهه بهذا السؤال البالغ

الحساسية، وطلب منه الإجابة، فلم يكن من أبي جهل إلّا أن يعترف له بهذه الحقيقة.

قال له الأخنس: (أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس هاهنا أحد يسمع كلامك غيري)؟

أجاب أبو جهل: (والله أن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء، والسقاية، والحجاب، والندوة، والنبوة، فما الذي يكون لسائر قريش).

وكان أبو جهل قد صارح رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما التقاه وصافحه، وحينها قال له رجل: (ألا أراك تصافح هذا الصابي)؟!

ردّ عليه أبو جهل: (والله أعلم أنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً).

وقال أبو جهل للنبي صلى الله عليه وسلم: (لا نتهمك، ولا نكّذبك، ولكنا نكذّب الذي جئتَ به).

فهذا الواقع المرير من شأنه أن يبعث الحزن إلى النبي عليه الصلاة والسلام فهو يدعو إلى أمّة إسلامية كبرى تنقذ العالم من الظلمات إلى النور، ولا أحد يكون فيها مفضّلاً على أحد إلّا بمقدار ما هو عليه من تقوى، كائناً مَن كان: لوناً، أو لغة، أو قوماً، أو نفوذاً، أو مالاً. عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ، يَقُولُ: "أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي فُلَان، لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ"[١]. وهؤلاء يُحجّمون الأمر، ويقصرونه على القبيلة، والعشيرة، وتبقى نظرتهم ضيّقة محدودة، فلا يبتغون أن يتحرروا من ضيق النظر إلى فسحة ما هو إنساني عام.

فانظر إلى دقّة الآية، وإلى جماليات تنسيق كلماتها، وإلى سِعة معانيها رغم قِصَرِها: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾. إننا ﴿نَعْلَمُ﴾ ما ينتابك من حزن نتيجة ما يطلقون من أقاويل، ولا عليك ممّا يقولون: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ كشخص، أو

(١) صحيح مسلم.

يريدوا أن ينالوا منك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ فأنت تحمل آياتي إليهم، وهم يجحدون آياتي، فهؤلاء يجعلون من أنفسهم عقبة ليس أمامك، بل أمام نشر شريعتي التي تحملها إلى عِبادي.

ونظير ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ [الفتح: ١٠].

وجاءت كلمة: ﴿يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ بمعنى ينكرون رغم أنهم يعلمون، وتكتنز الكلمة بقوة معانيها ودلالاتها ضمن سياق الآية، فالجاحد هو ناكر المعروف، فهؤلاء يتزمّتون ولا يريدون أن يروا ما هو أبعد من هذا الضيق الذي وضعوا أنفسهم فيه، ولذلك وصفهم الله تبارك وتعالى بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والكلمة تشير إلى الظلمة، وكل ظالم يعيش في ظلمة النفس، ومن منطلق تلك الظلمة الداكنة، يمارس أفعال الظلم، وآيات الله وحدها، هي القادرة على إنارة النفس المظلمة، مهما كانت الظلمة مستبدّة بها.

إن هؤلاء ﴿يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾ هذا الفضل من الله الذي يبيّن لهم سبيل تحرير نفوسهم من قوقعة القبيلة، والأوثان، والوأد، والتمييز، إلى ما هو أسمى وأرقى.

وهذا الكلام يلبث مستمراً للذين ينشرون القرآن، بعد محمّد صلى الله عليه وسلم، ويلقون ما لقيه من الجاحدين.

[٣٤]

﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾

فاعلم يا مُحَمّد أنك تُكمل مسيرة إصلاح العالم، وأن هؤلاء استمرار لـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الذين سبقوهم في تكذيب الرسل الذين ﴿صَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ ولم يفقدوا أمل الإصلاح، رغم كل ما لقوه من تكذيب، وما لحقهم من أذى ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ﴾ وكذلك سيأتيك نصرنا مع الصبر والاستمرار في نشر الإصلاح. ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، فلا شيء يمكن له أن ينال من هذا النصر،

فهـذه: ﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ التـي ﴿لَا مُبَدِّلَ﴾ لهـا، ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ﴾ أيهـا النبـي ﴿مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣٤﴾ الذين نصرناهم على الظالمين.

[٣٥]

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٥﴾

تتعرّف في هذه الآية الكريمة على جانب من جوانب العلاقة بين الله عز وجل المُرسِل، وبين محمد صلى الله عليه وسلم، الرسول إلى الناس، وكيف أن مهمّة الرسولية لا تُخرجه عن طبيعته الإنسانية، وهذا يُتيح لك أن تتعرّف على ملامح شخصيته كإنسان ينتمي إلى ما تنتمي إليه.

ثم ترى كيف أنه يتدرّج في تطوير شخصيته من خلال ما يُعلّمه الله سبحانه وتعالى، ومن حُسن حظ الإنسان أن هذه النقلات التعليمية الكبرى لا تحدث سراً بين المُرسِل ورسوله، وبذلك كان سيفوت الإنسان الاطلاع على حيثيات هذا التطوّر لدى الشخصية الإنسانية، ولكن وفضلاً من الله تعالى على عِباده، فإنه - جل شأنه - جعل حيثيات هذه العلاقة في العَلَن، وهذا يفسح أمام الإنسان مجالاً كي يطوّر شخصيته في علاقته مع الله أولاً، ثم علاقته مع نفسه، ثم علاقته مع أسرته، ثم علاقته مع مريديه وخصومه. فالنزعات الإنسانية، سلبية كانت أم إيجابية، تبقى هي هي لدى الناس جميعاً، ولكنهم يتطوّرون على مقدار ما يتحكّمون بهذه النزعات، ويوظفونها توظيفاً إيجابياً.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ﴾ يا مُحَمّد ﴿إِعۡرَاضُهُمۡ﴾، وهذه المرحلة جاءت وفق تدرّج، ولعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يريد لهؤلاء أن يؤمنوا، لأنه يعلم عاقبة الجاحدين، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لإنسان يتمتّع بروح إنسانية عالية، وبذلك فإنه لايريد الأذى لأي إنسان، وعندما يرى هذا الإنسان يقدم على أذى نفسه، يحاول أن ينقذه.

هنا يبيّن الله تعالى ذكره جوهر العلاقة بين الإنسان الصالح، والإنسان الفاسد، فلا يذهب الصالح إلى تقديم تنازلات، أو فرض الإصلاح بالقوة على الفاسد، ويكون الاكتفاء بالموعظة الحسنة، فالذي يبتغي الفهم، تكفيه الموعظة الحسنة، والذي لايبتغي الفهم، لاتكفيه كل التنازلات، ولا تثنيه قوة العالم عن نيّة الفساد. وما دام عاقداً على نيّة الفساد، فإنه يلبث في دائرة سوء الظن، فلا يُحسن الظن بأي بادرة خير تبدرها نحوه، وإن قدّمتَ تنازلاً، ظن بأن ذلك نتيجة قوة منه، وضعف منك، فيزداد تشبثاً بموقفه، ويُطالبك بتنازلات أخرى، وعليك أن تميّز جيداً بين الإرشاد، وبين التنازلات، أو استخدام القوة، ففي جميع الأحوال يبقى الأمل قائماً بالإصلاح مهما بلغ حجم الفساد لدى شخص ما، ولا يجوز فقدان أمل إصلاحه بأي حال من الأحوال، لكن دون تنازلات، ودون قوة.

﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتى تثنيهم عن ﴿إِعْرَاضُهُمْ﴾، لن تكون هدايتهم إلّا بمشيئة الله ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ولَمَا أذِنَ لهم أن يُكذّبوا بآياته. فلو أتى لهم ببرهان من نفق، والنفق يكون تحت الأرض، فيدلفه المرء من موضع، ويخرج من موضع آخر، وقد جاءت كلمة النفق لتدل على مدى ازدواجيتهم، وظلمتهم في آن، فالنفق بطبعه مظلم، وهنا إشارة إلى الظلمة التي يعيشون فيها، والكلمة قريبة من النفاق الذي هم فيه، فهؤلاء عندما يطلبون منك يا محمد ما يطلبون، لا يكون ذلك حتى يؤمنوا، بل إنهم ينافقون، وبراهين الله جلية في آياته، وهم يعلمونها، لكنهم يكتمون علمهم بها.

﴿أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وهي كلمة تشير إلى السِلم، فالسُلّم هو وسيلة للصعود إلى مكان ما بسلام، ودرجات السُلّم، تسند قدميك مع كل خطوة صعود، وتُصعِدك بأمان حتى تبلغ ما تريد، فإذن نظير النفق المظلم الذي في جوف الأرض، فسحة السماء المُنارة، فلو هبطتَ ﴿نَفَقًا﴾ وأتيتَ لهؤلاء ببرهان من براهين وحدانية الله من جوف ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، أو صعدتَ ﴿سُلَّمًا﴾ وأتيت لهم بمعجزة من عند الله، سوف يُطالبونك بالمزيد، ولن يهتدوا بأي برهان، أو معجزة، لأنهم لا ينشدون الهداية، بل

يبتغون المكوث في قعر العصيان، فليس ذلك لأن الله غير قادر على هِدايتهم، بل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

من كل هذا تعلم بأن الإنسان عندما يريد الهداية، فإنها تأبى أن تأتيه إلّا إذا أذِنَ لها الله، وعندما يريد الضلال، فإنه يأبى أن يأتيه إلّا بإذن الله، وقد كان ذلك حتى بالنسبة لإبليس الذي أذِنَ له الله أن يضل عندما استكبر، وأراد الخروج عن طاعة الله، وكان بمقدور الله أن يجعله يسجد طوعاً، أوكرهاً. لكن مشيئته تكمن في منح عِباده الحرية المطلقة سواء في الطاعة، أو العصيان، وعبارة: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ لعل فيها إشارة بأنه لو استطاع ذلك، لفعل ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ بمعنى أنك لا تستطيع، وحتى لو ﴿ٱسْتَطَعْتَ﴾ أي جعلك الله مستطيعاً ذلك، لكان الأمر عندهم سيّان.

وهذا الأمر يكون لعموم المسلمين، حيث يقوموا بتبليغ الإسلام إلى الناس، ولا يقتصر ذلك على أهل العلم فحسب، بل يشمل سائر المسلمين في جميع مواقعهم، فكل واحد يمكن له أن يعطي انطباعاً إيجابياً عن التعاليم الإسلامية؛ ولعل شخصاً غير مسلم يتأثّر بموقف طيّب من مسلم، فيكون ذلك سبباً في هدايته إلى الإسلام. فأنتَ الغاية من الرسالة التي حملها الرسول مِن المُرسِل إليك، وقد أودع الرسول القرآن في أمانتك، وفي عهدتك، فلبثتْ العلاقة بينك وبين الله في استئناف مسيرة الاصلاح بما يُقدّرك الله عليه، وقد تبيّن لك من خلال هذه الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يكبر عليه الإعراض، وكان يريد أن يتجاوز مهمّة الإبلاغ، رأفة بالناس، ومن منطلق المعرفة الإنسانية، ولكن الله تبارك وتعالى، بيّن له الاكتفاء بالبلاغ، وهو أعلم بالذين يستكبرون على الإيمان، ويستهزؤون بآيات الله، وهذه تعاليم الله عز وجل مع أنبيائه ورسله، وممّا يُروى عن أبي الأنبياء، إبراهيم عليه السلام، عندما جاءه رجل جائع يسأله طعاماً، ولمّا عَلِم إبراهيم أن هذا الرجل لا يؤمن بوحدانية الله، قال له: لن أطعمك إلا إذا آمنت بما أدعوك إليه من عبادة الواحد الأحد. رفض الرجل وآثر جوعه على أن يؤمن بنفاق وقال بأنه مصر على عبادة النار وانصرف جائعاً.

فأوحى الله إلى نبيه بأنه يطعم ذاك الشخص أربعين سنة على كفره، فلِمَ اشترط عليه تبديل دينه، فانتبه إبراهيم أن ربه أعظم من أن يفرض الإيمان به على شخص يأبى هذا النور، وأن ربه لا يهدد بالجوع والفقر والمرض حتى يؤمَن به عنوة، فتعلّم درساً جديداً في مدرسة ربه، وما لبث أن ركض يلتحق بالرجل حتى يزيل عنه سوء الفهم الذي أعطاه عن الله، وهذا بذاته نوع من الاعتذار لعبد الله هذا، فانظر كيف أن نبياً بحجم إبراهيم يعرض الاعتذار على شخص غير مؤمن، وبإيعاز من الله حتى لا يخرج هذا العبد من عند النبي غضباناً، وهذا النبي يمثل كلمة الله. عندما لحق به، عرض عليه الطعام ساحباً عرضه السابق، فوقف عابد النار ونظر لإبراهيم قائلا له: لن أقبل دعوتك حتى تخبرني ما الذي غيرك؟

ولم يكن أمام النبي إلا أن يصارحه بما جرى بينه وبين ربه، الذي نظر من عليائه في تحاورهما وتدخل دافعاً نبيه هذا التوجه، فوقف عابد النار دَهِشاً وقال: سبحان الله، هكذا يعاملني ربك وأنا أعبد سواه. فكانت خطواته الأولى نحو مملكة الإيمان بالله.

إن الإيمان هو شعلة نور إلهي تنير نفس الإنسان وروحه حتى لا يلجأ لغير الله، حتى لا يسأل غير الله.

الإيمان بالله يرفع الإنسان ويسمو به حتى لا يستضعف أمام بشر، أو حيوان، أو جان، أو جماد، ثم إن الإيمان يجعلك في سعة من أمرك، فلا ترغم على بشر أن يؤمن كما أنت مؤمن، ولا ترغم على ابنتك رجلاً لا تبغاه، ولا ترغم على رجل أن يعطيك من ماله، ولا ترغم على شخص أن يواليك خشية أذى، ولا ترهب شخصاً بحضورك، وأن تكون أعمالك هي التي تقرب الناس إليك وتحببك بهم، وتحببهم بك.

يمنحك الإيمان فرصة ثمينة لتتجلى وتتألق فتعيش حالة راقية من الالتذاذ بكمال الإنسان الروحي، يشرق نور الإيمان في عمقك لينمّي فيك الإنساني، إنه ينبهك ويبقظك على حالة الإنسانية العامة لديك في جو من الصحوة والصفاء الذهني والروحي.

[٣٦]

﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

هذا استئنافٌ لحريّة الإنسان ضمن نسيج البناء الروائي للسورة، حيث يكون له أن يقرّر ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أو يقرّر ﴿ٱلنُّورَ﴾، فنحن نستمر ضمن مفرزات ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ منذ الآية الأولى، حتى بلغنا في الآية السابقة إلى ظلمة النفق، ونور الفضاء المفتوح: ﴿۞إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ أي يهيّئون أنفسهم للتغيير، و﴿يَسْتَجِيبُ﴾ - ون - لِما ﴿يَسْمَعُونَ﴾، لأن لديهم نيّة الاستجابة، ولا يعني ذلك أن الجاحدين لا ﴿يَسْمَعُونَ﴾، بل أرتنا الآيات السابقة أن البلاغ يصلهم، وأن البعض كان يتسلل في دجى الليل كي يسمع القرآن من رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا الصنف من الجاحدين يستمرّ، فيمكن أن ترى شخصاً جاحداً يستمع إلى القرآن، أو يقرأه خلسة، فيعرف الحق، لكن لايؤمن به، فبيّن الله بأن هؤلاء ليسوا أحياء، رغم أنهم يتحرّكون، ويتحدّثون، وأن قلوبهم ميتة لأنها لا تستجيب للحق. ولذلك ترى أناساً يمضون في الطرقات، ويتحدّثون، لكنك عندما تنظر إليهم، وتتحدّث إليهم تشعر بأن المشاعر الإنسانية ميتة في قلوبهم، وقد فقدوا الحساسية الإنسانية، فقدوا كل فضيلة يتمتع بها الإنسان. فلا مساحة للمحبة الإنسانية في قلوبهم، بل هي ممتلئة بظلمة الحقد والضغينة، فلا تريد أن ترى أحدهم، في حين تسعى إلى رؤية المؤمن، لأنه مُنار ببريق الحيوية التي يكمن فيها نبض الحياة المشعّة. وهذا ضمن السياق العام للمحوَر الذي تنبني عليه آيات السورة، فنرى كيف أن الآيات، تُشكّل سورة من خلال ما تتسوّر به السورة، وكلُ سورة هي محورٌ تتفرّع منه فروع، تنبض في قلب جسد كل آية، فتتحوّل كل سورة بذلك إلى حديقة، وكل آية إلى شجرة يانعة من أشجار تلك الحديقة، وكل كلمة إلى غصن من غصون تلك الشجرة، وكل حرف إلى ثمرة من ثمار تلك الغصون. والسوُرُ شائكٌ حولها، ولا يسمح بدخول أي عابث بشكل مخالف للعبث بالأشجار، لكن أبواب الحديقة مفتوحة ليل نهار لا

تُغلق في أي وقت من الأوقات، ومهما كانت عوامل الطقس، فيدخل الناس وينتقلون من شجرة إلى أخرى، يستريحون تحت ظلالها، يقطفون ثمارها، يشربون مياه جداولها، يستنشقون عبير زهورها.

وهنا أمام مراحل تعلّم النبي صلى الله عليه وسلم، من الله، وأمام انفتاحه على حكمة الله مرحلة تلو مرحلة، يتبيّن له وللمسلمين كافة، مدى فعالية الكلمة الطيبة: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]. فنرى على مدار الزمن، بعض الذين يكونون في أوج كفرهم وشركهم، يُشهرون إسلامهم عن قناعة تامة، وهؤلاء لو اجتمعت قوة العالم كلها عليهم، لما استطاعت أن تجعلهم يعتنقون الإسلام، ولكن الكلمة الطيبة استطاعت أن تحيي قلوبهم الميتة، وتمدّها بإشراقة الحياة الجديدة التي انبثقت من نور الإيمان.

[٣٧]

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)﴾

ترى في هذه الآية إضاءة إلى ما جاء في الآية ٣٥، فيتبيّن لك أن كفّار مكة كانوا يطلبون من النبي صلى الله عليه وسلم أن يُنزل الله تعالى آية عليه، بمعنى معجزة مثل: الناقة، والعصا، والمائدة. ويبدو أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يريد ذلك حتى يقتنعوا ويهتدوا، ولكن الله عز وجل، رأفة منه على كفار مكة لم يستجب حينما قال لرسوله: **﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ﴾**. بمعنى أنك لاتستطيع دون أن نمدّك بمقوّمات هذه الاستطاعة، وإن أنزلنا هذه الآية، لن يؤمنوا، وعند ذاك سوف يحل عليهم العقاب، كما حل على الذين من قبلهم. ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ﴾ [الإسراء: ٥٩]، وهذا يبقى ضمن

حرية الإنسان، لأن الله قادر على فرض الإيمان عليهم: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء: ٤].

إذن، فإن النبي صلى الله عليه وسلم، يريد أن يستجيب الله عز وجل، رأفة بهؤلاء لعلّهم يؤمنون عندما يروا هذه المعجزة التي طلبوها، والنبي صلى الله عليه وسلم، هو إنسان، لايعلم ما يبيّت هؤلاء من نوايا سيّئة، لكن الله الذي لا يخفى عليه شيء، يعلم بتلك النوايا، ولذلك لايريد أن يهلكهم بهذه الاستجابة، لأن نيّة السوء مُبَيّتة لديهم حتى لو أنزل الله تعالى هذه الآية.

﴿وَقَالُواْ﴾ كفار مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ معجزة خارقة ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أجبهم يا مُحَمّد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ بأن هذه الاستجابة فيها هلاكهم. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ بمعنى ليس جميعهم، بل هناك مَن يعلمون هذه الحقيقة.

فعدم الاستجابة هي فسحٌ للمجال أمام مَن يمكن له أن يؤمن منهم مع مرور الوقت وتتالي تنزيل آيات القرآن الذي سيبقى كتاباً مفتوحاً للهدى أمام البشرية.

الباب الخامس عشر: أُمَم

[٣٨]

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

الأمة، هي النوع، والناس جميعاً يشكّلون أمة، فكل إنسان ينتمي إلى أمة البشر، أي نوع البشر، وهو خلق يتمتع بخصائص مستقلة. يبيّن الله للعَبَثيين الذين يظنون أن الحياة فوضى، فيعيشون كالهَمَج بدوافع غريزية مُنفَلِتة، بأن كل شيء مُقنّن، ومنضبط. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الدابة، هي كلُ ما يدبّ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من صنف

الحيوان بشكل عام، ممّا كبر أو صغر، والدب ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يكون من خلال الأرجل، أو الزحف على البطن، وما إلى ذلك ممّا يعين على التنقل، ومن ذلك دبيب النمل، ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ مهما كانت نسبة الطيران، منخفضة مثل الدواجن الأهلية حيث تطير بشكل منخفض، أو مرتفعة مثل الطيور البرّية التي تحلّق في الفضاء وترتحل من خلال جناحَيها من بلد إلى آخر؛ فكل نوع من أنواع هذه الدواب، وهذه الطيور، يُشكّل أمة مستقلة عن الأخرى: فلا الأرنب يشبه الأفعى، ولا النمل يشبه الفيل، كذلك لا البعوضة تشبه الخفّاش، ولا الدجاجة تشبه النحلة، وما إلى ذلك ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ﴾ مستقلة كما أنتم. وهذا يبيّن غِنى الله في خَلقه. ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ﴾، ما فرّط الله عز وجل في كِتاب الخَلق الذي هو اللوح المحفوظ ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾، فلا شيء البتة مِن خَلق الله لاوجود له في هذا الكتاب، فكل شيء مكتوب فيه بدقّة بالغة.

عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ"(١).

﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ فكل شيء متقن، منضبط، والذين يفرّطون عليهم أن يعتدلوا من خلال التشريع الإلهي الذي لا تفريط فيه، وقد سبق أن وردت ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ في الآية ٣١ عندما قال ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ﴾: ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ فالحسرة ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا﴾ هناك، وهنا ﴿مَّا فَرَّطۡنَا﴾ فهنا يتخلّص المفرّطون من كل حالة للتفريط في حياتهم، كونهم يأتون إلى تشريع إلهي معتدل لا تفريط فيه.

وهذا مجدّداً ينبهك إلى أهمية اليقظة، فلعل لحظة لا مبالاة تبدر منك، تقلّب كل شيء رأساً على عقب بالنسبة إليك، فمادام كل شيء جاء من الله دون تفريط، فإن السلامة تكمن في اتخاذ الحياة بمسؤولية عالية دون تفريط، لأن التفريط يفضي

(١) رواه الترمذي.

بصاحبه إلى الحسرة، سواء في الدنيا، أو الآخرة. وقد وردت الكلمة مرتين تنبيهاً لك، للنظر إلى هذه المعادلة، فما أتاك دون تفريط، لايجوز لك أن تتخذه بتفريط، لأن ذلك يُحدث خللاً في المعادلة؛ وهذا يعكس خللاً إلى حياتك برمّتها، فيختل توازنك، وتختل علاقتك الزوجية، وتختل تربيتك لأبنائك، وتختل مهنتك، وتختل علاقتك الإنسانية بالمجتمع، وما ذلك إلّا لأن علاقتك بنفسك قد اختلت، وأنك جنحتَ بها شطر الإفراط: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾، أي أنك إمّا أن تقطف زهور الانضباط، أو تُوخَز بأشواك الإفراط، هذا في الحياة الدنيا، ﴿ثُمَّ﴾ بعد ذلك ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾، أي كل هذه الأمم تُحشر إلى ربها الذي خلقها لأنه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾.

[٣٩]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ لا يُبالون بهذه الحقائق التي تبيّنها لهم آيات الله، هم ﴿صُمٌّ﴾ لأنهم يستمعون الحق، ويتولّون عنه، فإن جاء تحذير إلى ثلاثة أشخاص يتواجدون في مكان واحد، اثنان منهم يسمعان، والثالث به ﴿صُمٌّ﴾. أحد الاثنين يعمل بما سَمِع ويتجنّب الأذى، والثاني لايبالي به، فيقع الأذى عليه وعلى الثالث الأصم معاً، وبذلك يكون مثله مثل الأصم الذي لم يسمع التحذير. فنفع السمع يكمن في مدى الانتفاع به، سواء بتحقيق المكسب، أو بتجنّب الأذى، فإن لم يحقق لصاحبه مكسباً، أو يُجنّبه أذى، فوجوده يكون كعدم وجوده. ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ قال ﴿كَذَّبُوا۟﴾، أي استمعوا، ثم ﴿كَذَّبُوا۟﴾، فلا تستطيع أن تُكذّب شيئاً إلّا إذا سمعته، فهؤلاء ﴿صُمٌّ﴾، لا ينتفعون بما أنعم الله به عليهم من نعمة السمع، ﴿وَبُكْمٌ﴾، ليس بالضرورة أن يكون الإنسان الأصم أبكماً في الحالة الطبيعية، فقد يكون أصماً، وقد يكون أبكماً فحسب. لكن في هذه الحالة، كون الصم والبكم أصبحا قِياسَين، يكون

الأصم أبكماً أيضاً، وما ذلك إلّا لأنه قادر على النطق بالحق، لكنه لا يفه بهذا الحق الذي يعلمه، فوصفه الله تعالى بالبكم، ثم قال: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾، فحتى لو كان الإنسان في الحالة الطبيعية أصم السمع، وأبكم النطق، قد يكون في النور، لأن الأصم يمكن له أن يُدرك شيئاً من خلال حدسه، فيعلم الحق، وهو قادر على التعبير عن نفسه بوسائل غير النطق، مثل الكتابة، والإيماء. فهذا يكون أصماً وأبكماً كحالة عضوية، ولكنه يتلقى الحق، وينطق به بِما آتاه الله تعالى مِن مَلِكاتٍ أخرى، وبذلك فإنه لايكون ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ رغم ما به من صم، وبكم، لكن هؤلاء الذين يصفهم الله عز وجل في الآية يعيشون ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ لايستنيرون بما يسمعون، ولا تخرج كلمة حق من أفواههم. وذلك هو الصم الأكبر الذي يكمن في عدم الاستجابة لسماع الحق، وذلك هو البكم الأكبر الذي يكمن في عدم النطق بشهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله.

﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ﴾ يدعه في ظلامية ضلاله ﴿وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ يُبارك له ما هو عليه من ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾.

[٤٠]

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾

يوجّه الله تعالى رسوله كي يقول لأهل مكة الذين يشركون بالله، ويعدلون به غيره:

﴿أَرَءَيۡتَكُمۡ﴾، وهذه كلمة بلاغية مكثّفة بمعنى أرأيتم حالكم ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾. ما يمكن أن يلقاه الإنسان في الدنيا نتيجة مرض، أو محنة، أو كرب، ﴿أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ﴾ تسألون النجاة ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾ في قولكم بأن الأصنام تنفعكم. وقد جاءت الآية بصيغة سؤال، أي: أخبروني ﴿إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤٠﴾. بمعنى عليكم أن تواجهوا أنفسكم بهذه الحقيقة، وتتركوا الأصنام.

[٤١]

﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾

الحقيقة أنكم تسألون الله، لأنكم تعلمون أن الأصنام لا تملك أن ترفع عنكم الضر، ﴿فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ﴾، وهنا تبقى مشيئة الله مفتوحة، فـ ﴿إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾ كَشَفَ الضر، ﴿وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي تعرضون عن الأصنام حين يأتيكم العذاب لأنها غير قادرة على كشف الضر.

[٤٢]

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾

تكمن مهمّة الرسل في إيصال شرع الله إلى الناس، ويستأنف أهلُ العِلم، والدعاة هذا المنهج، دون تجاوز ذلك، لأن الله هو الذي يتولى أمر عباده بحكمته. فاعلم أيها الرسول بأننا ﴿أَرۡسَلۡنَآ﴾ رسلاً ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾، وقد أوصلوا ما حملوه إلى أقوامهم، ﴿فَـ﴾ عندما كذّبوا بآياتنا ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾.

تبيّن لك الآية بأن الناس كلّهم عيال الله، ولا يجوز لإنسان صالح أن يعتدي على أخيه الفاسد، ثم لعلّ الذي يظهر بأنه صالح، يكون فاسداً في عقيدته، والذي يظهر بأنه فاسد، يكون صالحاً في عقيدته، وإلّا ستتحوّل الحياة إلى فوضى عارِمة، كل شخص يقول بأن الآخر على خطأ، فيجيز بذلك لنفسه الاعتداء عليه. هنا تنتبه بأن الله لم يأذن حتى للأنبياء والرسل بمثل هذا الإجراء.

ولكن لماذا نهى الله عن ذلك؟ الجواب، أن الإنسان لا يعلم ما الذي سيحدث غداً، فلعلّ هذا الذي تعتدي عليه حتى يؤمن بالقوة، تكون لديه نيّة الإيمان من خلال الكلمة الطيبة التي أرسلها الله تعالى إليه من خلال الرسل وتدخّلك التعسفي يعيقه عن ذلك، لأنك ستُشعِره بأنه آمَنَ خوفاً منك، وتفادياً لوقوع عِقابك عليه، وفي ذلك فإنك تُفسِد ما أسّسَته الكلِمةُ الطيبةُ في قلبه، ثم لعلّك أنت تتحوّل إلى إنسان فاسد، بعد أن كُنتَ صالِحاً، وذاك الذي كُنتَ تراه فاسِداً، يهديه الله، ويُصبح مِن دُعاة الإيمان.

تبيّن لك الآية بأن الله وحده هو الذي يعلم الغيب، وأمرُه أن تبلّغ القرآن، دون

أن تتجاوز ذلك، والله يفعل ما يشاء.

في هذه الآية تعلم بأن الله أخذ المُكذّبين ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي جعلهم تحت سطوة ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ حتى أصبحوا بائسين، يُعانون وبال البؤس الذي أخذهم الله تعالى به. لم يقل: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بالبؤس، بل ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾، لأن ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ تشمل ألوان الفاقة، والعَوَز، وكل تفرّعات المحل والجفاف، من جوع، وبرد، وخوف، ممّا يجعل المرء بائساً، فترى علامات البؤس على مَظهره، وقد يحل عليه ذلك، وهو يكون معافى في بدنه، بل ولديه أموال وممتلكات، لكن الحِصار الشديد أدّى إلى نفاذ المواد الغذائية، فلا يستطيع الحصول عليها، بل ويُعاني البرد وهو في قصره الفاخر، بسبب انقطاع الكهرباء، وعدم وجود الوقود، وحتى شربة الماء، لا يحصل عليها إلّا بالكاد، بسبب انقطاع المياه، فترى كل وسائل الرفاهية قد انقطعت بهؤلاء الناس، وغدوا يعيشون في نمط واحد من المعيشة البائسة. ثم قال الله جَلّ شأنه: ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وهذا يعني إضافة إلى ذلك، جعلهم يتضررون، أي يتعرّضون للأوبئة، وتتعرّض أموالهم وممتلكاتهم للضرر، نتيجة الزلازل، أو الفيضانات، أو العواصف، أو الفلتان الأمني، أو حتى الحروب، سواء أكانت خارجية، أو داخلية، ممّا يجعل الخراب يطال البنية التحتية برمّتها. ذلك أن الله عز وجل، يتولى عقاب المفسدين بهذا الإجراء، ليس للعقاب بذاته، بل: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي يصلحون من شأنهم، و﴿يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلى الله كي يكشف ما حل بهم من مفرزات ﴿الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾، وبذلك يبدؤون صفحة جديدة من حياتهم على أنقاض صفحة الفساد.

[٤٣]

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يبيّن لك الله بأن ذاك الإجراء الذي انتهى بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي لعل ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ تلين لِما لاقوا مِن مُعاناة شديدة، فيجعلهم ذلك يصلحون،

و﴿يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ إلى الله تعالى بالتوبة، لكن هنا يبيّن الله أنهم لبثوا في عِنادهم، وبدل أن تلين ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ و﴿يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾، ﴿قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ واتّبعوا خطوات الشيطان الذي ﴿زَيَّنَ لَهُمُ﴾ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ من الفساد.

تعلم من ذلك بأن الآلام التي يتلقاها الإنسان، تجعله رقيقاً، فيتنازل عمّا هو عليه من استعلاء، ويتواضع، ويتضرّع إلى الله، ﴿وَلَكِن﴾ هؤلاء على ما كانوا عليه من جور، لم تلن ﴿قُلُوبُهُمْ﴾، بل ﴿قَسَتْ﴾، فقد جعلهم الشيطان يُعجَبون بمعاصيهم، وهنا تعلم بأن المعاصي، تُغلّظ القلوب، وتجعلها قاسية، فتتفاقم لدى المرء نزعة الإعجاب بنفسه، حيث يزيّن له الشيطان كل هذه العوامل.

[٤٤]

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾

في هذه الآية يأتي استكمال ما يشاء الله لهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ انظر إلى بلاغة العِبارة ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. النسيان هنا بمعنى عدم الاتعاظ من الذي وقع عليهم نتيجة ﴿الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾، فقد تجاهلوا السبب الذي جعلهم يتلقون كل ذلك، مثل الذي يعلم بأن هذه المعصية، تُسبّب له هذه الكارثة، فبدل أن يتّعِظ بهذه المعرفة، ويتجنّب المعصية، يُعاود إليها.

وهنا ترى بأن الله ينعم عليهم بنقيض ﴿الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾، ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الخيرات، والعمار، والازدهار ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾ أي بدل أن يجعلهم ذلك يشكروا الله على تلك النِعَم، أحسّوا بأنهم انتصروا في نهاية الأمر، و﴿فَرِحُوا﴾ بنصرهم، عند ذاك: ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أخرجناهم ممّا هم عليه من رفاه ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾. جُرِدوا مِن كل شيء، وكلمة ﴿مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ دلالة إلى الذي لاقى الوجهَين من المعيشة، ولم يتعظ، فخرج مفلِساً مُتحسّراً، والمبلس هو

الشخص الذي فقد الأمل من شدّة ما مُني به مِن خَسارة جَسيمة، وهنا يتبيّن لك بأن المؤمن لا يبلس مهما أصابه، وإن لم يكن مؤمناً، فإن الإيمان دليله للخروج من الإبلاس ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٥٣].

[٤٥]

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

وفي ذلك يتبيّن لك بأن الظالم مهما بدا قوياً، فإن الخلفية التي يستند إليها، سوف يقطعها الله، ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ﴾ استأصلهم، وأهلكهم بظلمهم. ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ الذي أراح العالم من شر هؤلاء، وهذه إفادة بأن الله لا يترك الأرض للظالمين، حتى لو فتح ﴿عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ في مرحلة ما، وأن الله جَلّ شأنه، يقطع دابرهم.

الباب السادس عشر: الصرف والصدف

[٤٦]

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لكفار مكة يا رسولنا: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أرأى بعضكم حال بعض ﴿إِنْ أَخَذَ﴾ استردّ ﴿ٱللَّهُ﴾ منكم ﴿سَمْعَكُمْ﴾ الذي به تسمعون الحق وتجحدونه، ﴿وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ التي تنظرون بها، وتتجاهلون ما ترون من الحق ﴿وَخَتَمَ﴾ طَبَعَ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُم﴾ التي لاتخشع لِما تسمعون وترون.

إن استردّ الله منكم كل ذلك: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ يعوّضكم ﴿بِهِ ۗ﴾.

وفي ذلك دعوة لتحفيز المخيّلة إلى تصوّر هذه الحال، ليتخيّل كفار مكة منظراً يجتمعوا فيه، ويرى أحدهم الآخر وهو يفقد سمعه، ثم يفقد بصره، ثم يفقد المشاعر، وبذلك يُصبح مُهَلوَساً، وهكذا حتى يفقد الجميع كل هذه النِعَم واحداً تلو الآخر. فتخيّلوا ذلك وقد تحوّل إلى واقع، ولا أحد يستطيع أن يُحيله إلى واقع سوى الله، ثم اسألوا أنفسكم أيها الكفار: ﴿مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم﴾ يمكن له أن يعيدكم إلى ما كنتم عليه.

و﴿إِنْ﴾ بمعنى لم يفعل ذلك، لكنه قادر على فعله، و﴿إِنْ﴾ فعل، هل بمقدور أحد سواه أن ينجيكم، ومن هذه الحقيقة يستمدّ التصوّر مشروعيته، وفي ذلك تنبيه كي ينتفعوا بهذه الملكات التي أنعم بها الله عليهم قبل فوات الأوان.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا رسولنا وأنت تستخدم نظرك لرؤية الحق: ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الأدلة الدامغة ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾، يعرضون عنها.

[٤٧]

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أرأى كل واحد منكم حاله، ثم أرأيتم جميعكم حال بعضكم البعض، ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ﴾ وقع عليكم ﴿عَذَابُ﴾ عقاب ﴿ٱللَّهِ﴾ على إعراضكم ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة دون أن تروه ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ عَياناً وأنتم تنظرون إليه. وهنا أيضاً من باب التخيّل تفادياً لتحويله إلى واقع، فـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ و﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ بصيغة السؤال الذي يحفّز على التخيّل والتصوّر، مثل قولك لشخص: أرأيتَ إن فعلتَ كذا، ستُودَع في السجن، وأرأيتَ حالك إن وقع عليك رجال الدولة ﴿بَغْتَةً﴾ دون أن تراهم، ورأيتَ نفسك ﴿بَغْتَةً﴾ بين أياديهم، أو أنهم قَدِموا إليك وأنت تنظر إليهم حتى ألقوا القبض عليك، أرأيتَ ما الذي سيحل بك وأنت تودَع في السجن، فلأجل أن تتفادى ذلك سواء ﴿بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ تجنّب هذا الذي أنتَ فيه، ويودي بك إلى تلك النهاية.

﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾، لا يقع عِقابُ الله ﴿إِلَّا﴾ على الذين يعرضون عن آياته، ويظلمون أنفسهم.

[٤٨]

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

تكمن مهمة ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في تقديم البِشارة للمطيعين شرع الله، والعاملين به، وتقديم الإنذار للمعرضين عنه، والمنتهكين حدوده، ﴿فَمَنْ﴾ منكم ﴿ءَامَنَ﴾ بما تلقى من آيات ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل بما ﴿ءَامَنَ﴾ به ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مِمّا سبق مِن ذنوب، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ لأنهم لن يتلقوا عِقاب ما ارتكبوا من تلك الذنوب، حيث يغفرها الله لهم.

[٤٩]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أمّا ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنكروها واستهزأوا بها ﴿يَمَسُّهُمُ﴾، المَس هنا، بمعنى الصَعق، أو يُصعَق بمَس العذاب. تقول: فُلان صُعِق بماس كهربائي، أي احتك جسده بمس الكهرباء، فتلقى الصَعقة، وهذا شكلٌ مِن أشكال الإنذار الذي يحمله المرسلون للمكذّبين بآيات الله، فذلك لايصيب إلا الذين ﴿يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾، والفاسق، هو الذي يُداوم على المعاصي، ويتخذها منهاجاً لحياته.

[٥٠]

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أجب عليهم يا رسولنا وهم يسألونك، و﴿قُل﴾ لهم: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ حتى أغنيكم منها، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ كي أطلعكم عليه، ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾

حتى أقوم بالخوارق، لأنني وإن كُنتُ رسولاً، فإن قدراتي الإنسانية هي قدرات محدودة، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ لا أملك سوى أن أمضي وفقما يوحيه الله ﴿إِلَيَّ﴾. هذا ما أخبركم به.

﴿هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ شتّان بين ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي لا يرى هذه الحقيقة، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يراها، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾، التفكّر السليم يؤدّي إلى هذه الحقيقة، فلا يعمى الإنسان عن رؤيتها، وفحوى الآية: لا تُطالبوني بشيء لم قل لكم يوماً بأنني قادر عليه.

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [فاطر: ٢].

يتبيّن لك في ذروة هذه الأجواء كيف أن الله تبارك وتعالى، يُعلّم رسوله الكلام الذي يجيب به على كفار مكة، فهم يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويتولى الله عز شأنه، الإجابة عن رسوله، فهي إجابة لهم من الله، على لسان رسوله.

﴿قُل﴾ لهم يا محمد: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ۝٥٠﴾.

والخزائن، جمع خزانة، أي التي تخزن ما يُضَع فيها، وتخزن بمعنى تحفظ، فكل هذه الأرزاق مُخزّنة في ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ولا أحد بمقدوره أن يتصرّف بها سوى الله، فكفّار مكة الذين كانوا يطلبون من النبي عليه الصلاة والسلام أن يغدق عليهم بالأرزاق نظير أن يؤمنوا، فإن ذلك فوق صلاحياته، لأنه لا يستطيع أن يجعل من غني فقيراً، ولا من فقير غنياً. وعندما يطلبون منه أن يُخبرهم بما سيقع معهم بعد حين، يقول لهم: ﴿لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾، وعندما يطلبون منه أن يتجاوز حدوده البشرية، ويكون مثل الملائكة، يقول لهم: ﴿لا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾. فأنا لم أقل لكم ﴿عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ حتى أغنيكم منها، ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ حتى أخبركم بما سيحدث

معكم، ولم أقل ﴿لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ﴾ حتى أتجاوز إمكاناتي البشرية، فليس بمقدوري تجاوز ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾.

[٥١]

﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾

هذه الآية موجّهة إلى المؤمنين الذين يرتكبون المعاصي، والإنذار في الآية بمثابة التحذير من التعرّض للعذاب في حال الاستمرار في المعاصي، فشخصٌ مؤمن، لكنه يرتكب المعاصي، ولا يتراجع عنها، تبيّن الآية بأن الإيمان لوحده لا يكون له حصانة من العذاب إذا أوغل في المعاصي، حتى تُصبح هذه المعاصي بالنسبة إليه أكثر من الطاعات. ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾، أي يؤمنون بالله، و﴿يَخَافُونَ﴾ عِقابه في معاصيهم، والإنذار هنا بالقرآن، ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾ حذّر بالقرآن المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ من وقع العذاب عليهم عندما ﴿يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ نتيجة ما ارتكبوا من آثام. وبعد هذا التحذير، أخبرهم يا رسولنا أن: ﴿لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ﴾ يمكن له أن ينفعهم ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ يشفع لهم كي يتجنّبوا العذاب ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٥١﴾. وهذه بِشارة من الله للذين يُذنبون، وثقلت عليهم ذنوبُهم، بأنهم مهما أوغلوا في الذنوب، فإن الله يبقى وليهم، وشفيعهم، إذا أصلحوا، وأقلعوا عن المعاصي، وأن الله يقبل توبة التائب.

الباب السابع عشر: بُنية المساواة

[٥٢]

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢﴾

هذه هي البيئة التي ينزل فيها خِطابُ الله، وهؤلاء هم الأشخاص الذين تنزل

فيهم الآيات، وهذه هي حيثيات العلاقة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المشركين الذين يشترطون عليه شروطاً حتى يُخفّفوا عنه مِن تعسّفِهم. ومع كل هذه الوقائع يأتي توجيه الله إلى رسوله، ويبدو أن ظاهر الآية يُشير بأن مشركي مكة اشترطوا على النبي صلى الله عليه وسلم، أن يُخرِج فقراء المؤمنين مِن المسجد، حتى يأتوا ويجلسوا إليه، وهذه إشارة إلى تعاليهم واستكبارهم، فهم يرون بأن الجلوس مع الفقراء، انتقاصٌ من شأنهم. وهنا ترى بأن أي اعتبار دنيوي لإنسان مِن مال، أو جاه، أو نفوذ، لا يأخذ الإسلام به، إذ يَكمن اعتبار الإنسان في إيمانه فحسب، فالفقير المدقع يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بإيمانه، وترى هنا بأن الله عز وجل يُدافع عن هذا الفقير، ويوجّه رسوله بأن يُبقي الفقراء في المسجد، ﴿وَلَا﴾ يطردهم، استجابة لمطلب المشركين، فحتى يكون الحوار سليماً، فلا بدّ له من قاعدة سليمة، لأنها ستكون الأساس لِما هو قادم بعد الحوار. فالبداية تكمن في تنازل هؤلاء عن استكبارهم، وإن أبوا ذلك، لا تستجب لهم يا محمد: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ لا تُخرج عبادنا الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هديناهم وآمنوا ﴿يَدْعُونَ﴾ يبتهلون إلى ﴿رَبَّهُم﴾ بالدعاء ويعبدونه ﴿بِٱلْغَدَوٰةِ﴾ عندما يستفتحون يومهم في الصباح الباكر، ﴿وَٱلْعَشِيِّ﴾ وحتى ينهون يومهم في الليل المتأخر ﴿يُرِيدُونَ﴾ يأملون من هذه العبادة ﴿وَجْهَهُۥ﴾ مرضاته.

﴿مَا عَلَيْكَ﴾ لايقع على عاتقك ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن﴾ أي ﴿شَيْءٍ﴾، ويبدو أن المشركين كانوا يكيلون الاتهامات لهؤلاء الفقراء، ويقولون بأنهم لم يؤمنوا عن قناعة، بل إن الحاجة دفعتهم إلى الإيمان حتى يحصلوا على بعض المنافع التي يتم توزيعها على المسلمين، فهؤلاء فقراء، وقد جلبهم الفقر إلى المسجد، ولم يجلبهم الإيمان بك، فعليك أن تطردهم حتى نجلس إليك.

هنا تأتي شهادة الله سبحانه وتعالى دفاعاً عن هؤلاء الذين ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ بشكل خالص دون أي طمع في منافع دنيوية، والله أعلم بِما يبطن هؤلاء، وما يظهرون، وما دام الأمر على هذا النحو ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، فخذ

الظاهر، ودع الباطن على الله، لأنه لايعلم الباطن غير الله، وهو الذي يتولى حساب الناس على ما يظهرون، وعلى ما يبطنون. فهؤلاء لا ينفعونك بشيء إن استجبتَ لهم لأن: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، وحِسابك على الله.

إنه موقف يريد المشركون أن يسجلوه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، تحتَ هذه الذريعة، وينبّهه الله إلى ذلك بصيغة الأمر الحاسم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾، وفي نهاية الآية، يتكرر الحسم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾. ولذلك أصبح النبي صلى الله عليه وسلم، يُطيل البقاء مع الفقراء، حتى أنه لاينهض إلّا عندما يراهم ينهضون، فعندما ينتهي من حديثه، ويحل وقت عودته إلى البيت، ينهضون قبله، ثم يخرج بعدهم.

[٥٣]

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا﴾ بيّنا خذلان ﴿بَعْضَهُم﴾ مشركي مكة الأغنياء الذين لبثوا في الشرك ﴿بِبَعْضٍ﴾ مشركي مكة الفقراء الذين هداهم الله تعالى، وآمنوا. ويكمن الخذلان في قولهم: ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ﴾، وعبارتهم تحمل شيئاً من التعجّب، وشيئاً من الاستفهام، بمعنى: ﴿أ﴾ - يُعقَل أن - ﴿هَؤُلاء﴾ الفقراء ﴿مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فضّلهم بنعمة الإيمان ﴿مِّن بَيْنِنَا ۗ﴾ ونحن الوجهاء، والأغنياء، والأسياد.

ولذلك يأبون الاعتراف بهذه الحقيقة، ويرفضون حتى الجلوس معهم في مكان واحد، ويشترطون إخراجهم من المسجد، حتى يأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويتفاوضوا معه. ولكن الله عز شأنه، لا يُحقق لهم هذه الأمنية بذاك الحسم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ الذين اهتزّت جوارحُهم عندما سَمعوا آيات الله، فآمنوا وشكروا الله على نعمة الإيمان، وأصبحوا ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُۥ﴾، فهؤلاء تحرّكت جوارحهم للحق الذي سمعوه، فمنّ الله عليهم بنعمة الإيمان: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣]. في حين أن الآخرين لبثوا في شركهم واستكبارهم، فمُنيوا بالخذلان.

[٥٤]

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾

تبيّن الآية بأن هؤلاء كانوا يُداومون على المجيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلى المسجد، أو إلى مجلس تدعو فيه إلى الله، فسمعوا بحضورك وتوافدوا إليك، استقبلهم، و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ﴾، السلامُ مِنَ السِلم، والسِلمُ مِنَ الأمان، وقد جاءت عِبارة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ تحمل معها تحقيق الأمن والحماية لهم من المشركين الذين يملكون نفوذاً، بمعنى لا ندع المشركين يؤذونكم، وأنتم معنا. وهنا يُدافع المسلمون جميعاً عن هؤلاء، كونهم أصبحوا مسلمين مِنهم، وفيهم، وغدوا مِن مِلّة الإسلام. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ﴾، وفي ذلك أيضاً بشارة من الله إلى كل شخص يدخل الإسلام، فيأتي له قول الله عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾. ويجوز أن يكون السلام من الله إليهم، أي عندما يؤمنون، ويُشهرون إسلامهم، يجب تبليغ سلام الله - عز وجل - إليهم، ﴿فَقُلْ﴾ بلّغ مِن الله، كون الكلام هو لله جل شأنه إليهم، على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم. والمسلم يقول لِمَن يدخل الإسلام في أي زمان أو مكان، بأن الله تعالى ذكره، أجرى هذا التبليغ بصيغة الأمر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحن نبلغكم هذا السلام من الله تعالى. وبذلك يجوز

أن يستقبله المسلم، ويبدأه بالسلام، كقوله: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

قيل: (الألف واللام للعهد، فيُراد بها الرحمة الواحدة التي أنزلها الله تعالى من المائة الرحمة التي خلقها وأخر تسعة وتسعين يرحم بها عباده في الآخرة. وقال الزجاج: ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، فلم يعاجلهم على كفرهم).

فلا تكون العقوبة على العاصي عاجلة، إمهالاً له لعلّه يتوب، فيغفر الله له، وذلك من رحمته بعباده. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهْوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي"(١).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ لِلهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(٢).

وليس ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فحسب، بل تستمر البشارة: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ كل ما ارتكبتموه من ذنوب سابقة مهما كانت، صغيرة، أم كبيرة، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ﴾ العمل ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لذنوب التائبين المصلحين ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ بهم.

الباب الثامن عشر: الاستبانة

[٥٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نبيّن ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ البراهين والأدلّة حتى تظهر إلى العيان وتتضح ﴿سَبِيلُ﴾ طريق، والسبيل يُذكّر في القرآن، ويونّث: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢) صحيح مسلم.

لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦].

فَفِصال الآيات من الله تعالى يجعل من ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ مستبيناً أمام الناس جميعاً، سواء أكانوا مؤمنين، أو مشركين، وفي ذلك تثبيتٌ للإيمان لدى المؤمنين، وفرصةٌ للخروج من تلك السبيل بالنسبة للمشركين الذين ليس لديهم استكبار، ويمكن أن تخشع قلوبُهم، عندما يستمعون الآيات، فهؤلاء يكونون من المترددين في الشرك، ويستمعون لنداء التوحيد إذا سمعوه، فهنا ﴿تَسْتَبِينَ﴾ أمامهم ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فيتركونها ويتبرّؤون منها.

السبيل هنا، ليس الطريق الذي يمضي عليه المرء بقدَمَيه، بل هو المنهج الذي يسلكه في معتقده، فهذا المنهج، غير بائن بالنسبة للناس، ولعلّهم لا يعلمون عنه سوى الظاهر، وهذا يجعل البعض يمضي وفق ذاك المنهج دون أن يعلم كينونته، أمّا بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو بصفته نبي، يعلم ضلال هذا المنهج، لكنه يقترب إليهم، ويحاورهم حتى يقنعهم بترك الأوثان، والإيمان بالقرآن الذي يحمله إليهم، لكن الله عز وجل، يُحدّد له العلاقة بينه وبينهم، كون الله يعلم ما في نفوسهم، والرسول لا يعلم ما في نفوسهم، فيأمره ما يفعل، وما لا يفعل. ثم يعلّمه الكلام الذي يردّ به عليهم، ﴿وَ﴾ - من خلال ذلك - ﴿لِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ﴾ الضلال الذي يسلكه المجرمون.

وهذا فِصال حكيم من الله جل شأنه، وقد كان لهذا الفِصال أثره كما تبيّن معنا في الآيات السابقة، عندما اعتنقت أفواج الناس دين الاسلام وتخلّت عن عبادة الأوثان، وكان ذلك يغيظ المشركين الذين أبوا الإصغاء إلى قول الحق، استكباراً واستعلاءً منهم، وقد وصفهم الله تعالى بـ ﴿الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ كونهم لم يكتفوا بما هم عليه من ضلال، بل أرادوا من النبي صلى الله عليه وسلم، أن يطرد الذين هداهم الله من حوله.

[٥٦]

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

في هذه الآية بيان آخر ممّا يُفصّله الله من ﴿الْآيَاتِ﴾ في استبانة ﴿سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾، فهم يتّبعون ﴿سَبِيلُ﴾ الأهواء، فيمضون وفق ما تمليه عليهم أهواؤهم في الشرك بالله، وعبادة الأوثان، وكل ما يتفرّع من ذلك.

أجب المشركين يا مَن تحمل رسالتنا و﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، نهاني الله أن أحذو حذوكم، وأعبد الأصنام ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ واستجابة لأمر ربي فإني ﴿لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ لأنني إن اتّبعت ﴿أَهْوَاءَكُمْ﴾ أكون ﴿قَدْ ضَلَلْتُ﴾ انحرفت ﴿إِذًا﴾ عن الصراط المستقيم الذي أمرني به، وبذلك سأصبح ضالاً مثلكم، ولا أكون ﴿مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ، فقد أرسلني الله إليكم حتى أنقذكم من مغبّة اتّباع الأهواء، وأبيّن لك الصراط المستقيم.

واعلم أن هذا يكون شأن أي مسلم وهو يرى شخصاً يتّبع الأهواء، فأولاً عليه أن يشكر الله الذي فضّل عليه، ولم يجعله متّبعاً للأهواء. ثانياً أن يسعى بالكلمة الطيبة، والموقف الحَسَن أن يترك أثراً على متّبع الأهواء، فلعلّه يتسبب بذلك في هدايته، ولو بشكل متدرّج، لا أن يترك الصراط المستقيم، ويُصبح متّبعاً للأهواء مثله. ودوماً فإن المرأة هي شريكة للرجل في عملية الإصلاح، خاصة في أوساط النساء، فالمرأة الضعيفة الإيمان، والضعيفة الشخصية، عندما ترى نساءً يتّبعن أهواءهن، قد تنجرّ إلى ذلك، وتتأثر بهن، وشيئاً فشيئاً تخرج عن الصراط المستقيم، لتمسي على الصراط الملتوي، وقد تنتبه في لحظة ما وتتراجع وتتوب، وقد تستكمل عمرها في نهج الفساد. في حين أن المرأة القوية الإيمان، والقوية الشخصية، عندما ترى نساءً يتّبعن أهواءهن، تزداد ثباتاً في إيمانها، هذا الثبات الذي من شأنه أن يترك أثراً عليهن، فيتأثّرن بها وهنّ يرين صلاحها، فيتحوّلن من الصراط الملتوي إلى

الصراط المستقيم، وتكون تلك المرأة المستقيمة قد تسبّبَت في هذا التحوّل الكبير في حياتهن. فالمرأة الثابتة في إيمانها، تلبث على ما هي عليه مِن مَبادئ وصلاح، حتى عندما ترى امرأة متّبعة الأهواء، لكن المرأة المهزوزة في إيمانها، تغدو كما لو أنها في حَرَج ممّا هي عليه مِن سلوك قويم إزاء امرأة متّبعة الأهواء، حتى تراها تُستَدرَج شيئاً فشيئاً إلى ظلمات الفَسَاد، فهي إمّا أن تَستَدرِج، أو تُستَدرَج في مواجهة كهذه، كما هو شأن الرجل.

[٥٧]

﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾

فالنبي صلى الله عليه وسلم، ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ بصيرة ومعرفة ﴿مِّن﴾ ربه، فقد بيّن له الأهواء مِن الحق. والمشركون يُكَذِبون آيات الله التي تدعوهم إلى الحق، ويشترطون على النبي صلى الله عليه وسلم، أن يستعجل لهم في بعض الأمور وفقما تملي عليهم أهواؤهم، فـ ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا بأن لا صلاحيات لدي فيما تطلبونه مني ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، الذي يأتي منه ﴿ٱلْحَقَّ﴾، مُفَصّل الآيات ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ بين الضلال والهدى.

[٥٨]

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾

بعد أن يقول لهم: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾، وإثباتاً لهم على ذلك يقول: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾، ﴿لَّوْ﴾ كان بحكمي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ واستعجلتكم ﴿بِهِۦ﴾ كما تطلبون مني: ﴿لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ﴾ لأُغلِق المجالُ أمام توبة تائب، وفي ذلك هلاككم.

وقد مضى معنا في الآية ٨ عندما قال مشركو مكّة: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ

أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾. فالله - جل جلاله - لا يستجيب لمُعاجَلَتِهم رأفة بهم، ولعلّ مَن يقول الآن بالاستعجال، عندما يهديه الله، يحمده على عدم الاستجابة، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ أكثر مِمّا يعلموا عن أنفسهم.

[٥٩]

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾

ما تزال السورة تُعرّفنا على الله أكثر، والبيان هو عام للناس كافة بما فيهم النبي صلى الله عليه وسلم، الذي يتعرّف على الله أكثر مع تلقي الآيات، وهذا شأن الناس الذين يتلقون القرآن من المتلقّي الأول، فالقرآن دليلهم إلى معرفة الله، وهو كِتاب معرفة الله بامتياز.

في هذه الآية تتعرّف على جانب آخر من قدرة الله الذي ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾.

﴿مَفَاتِحُ﴾ كلمة غاية في القوة، والبلاغة، والدقة، فلم يقل مفاتيح بل ﴿مَفَاتِحُ﴾، وقد تكون هذه الـ ﴿مَفَاتِحُ﴾ بالنسبة للناس جمعاً لمفتاح، أي مفاتيح، لأنهم يحتاجون إلى المفاتيح لرؤية ومعرفة ما يغيب عنهم. ولكنها بالنسبة لله - تقدّست أسماؤه - هي جَمعٌ لِمَفتَح، وهذا مختلف عن المفتاح، كون كل شيء هو مُفتَحٌ أمام الله، ولا يملك أن يَخفى عنه، والله مُفاتِحٌ لـ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾، بمعنى لا شيء يملك أن يغيب عنه لحظة واحدة، فـ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ هو غيب بالنسبة للمخاليق، وهو المجهول الغائب عن البصر والبصيرة، وما هو غائبٌ عنك، هو مجهولٌ بالنسبة إليك، وفقط عندما تملك سبيلاً إلى هذا الغائب، عند ذاك يفقد صفة الغَيب بالنسبة إليك، ويلبث غَيباً لِمَن لا يملك سبيلاً إليه.

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلْخَيْرِ مَغَالِيقَ لِلشَّرِّ، وَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَفَاتِيحَ لِلشَّرِّ مَغَالِيقَ لِلْخَيْرِ، فَطُوبَى لِمَنْ

جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ"(١).

هنا يُخبِرك الله سبحانه وتعالى، وبشكل مطلق أن لا أحد يعلم ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ غيره، وهذا يشمل جميع ما خَلَقَ الله عزو وجل، فعِلمُ الغَيب مُقتصرٌ عليه وحده، أي لا الأنبياء، ولا الملائكة، ولا أحد يعلم بالذي سيحدث بعد قليل، سوى الله الذي ﴿عِندَهُۥ﴾ فقط ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ فهذا الموجود في علم الغيب، مخفي عن المخاليق، ولا أحد يملك مفتاحاً كي يفتحه ويطّلع عليه، كما أن لا أحد دون الله مُفاتِحٌ لهذا ﴿ٱلْغَيْبِ﴾.

في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله تعالى يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾) [النمل: ٦٥].

ثم جاء علمه بتفاصيل دقيقة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾ كل ما يحتويه ﴿ٱلْبَرِّ﴾ من كائنات مرئية، وغير مرئية، يعلم الله عز وجل، أحوالها لحظة بلحظة. ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ لايخفى عنه كذلك كل ما يحتويه ﴿الْبَحْرِ﴾. ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾، أي لا تملك ﴿وَرَقَةٍ﴾ أن تسقط من نبتتها دون إذن الله، وبذلك فهو - جلّت قدرته - يعلم بسقوطها، كما أنه عالم ببقائها. وكلمة السقوط تشمل ما تمرّ به من تقلّبات في الهواء وهي تسقط. ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ الـ ﴿حَبَّةٍ﴾ و﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، فانظر إلى بلاغة المعنى، الـ ﴿حَبَّةٍ﴾ صغيرة، والجسم الصغير لا يظهر في الظلام، فالله يعلم بما يجري مع هذه الـ ﴿حَبَّةٍ﴾، وهي ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي تحت الأرض ﴿وَلَا رَطْبٍ﴾ كل ما يكون رطباً، ﴿وَلَا يَابِسٍ﴾ كل ما لا يكون رطباً، والـ ﴿رَطْبٍ﴾ هو الليّن، الذي يستمدّ لينه ممّا يحتويه من رطوبة، والـ ﴿يَابِسٍ﴾ هو القاسي الذي يستمدّ قسوته ممّا يحتويه من يباس ﴿إِلَّا﴾ لا يملك ﴿إِلَّا﴾ أن يكون

(١) رواه ابن ماجه في السنن.

﴿فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ بائناً لله الذي لايخفى عنه شيء، ولعل الـ ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾ هو اللوح المحفوظ، والله أعلم.

[٦٠]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٦٠﴾

فمادام كل ما تم ذكره في الآية السابقة، مِن تفاصيل دقيقة، لايخفى مِنه شيءٌ عن الله، فاعلموا أنه حتى النوم الذي تنامونه، هو مِن الله الذي يجعلكم تنامون، ثم يجعلكم تستيقظون، ﴿وَيَعۡلَمُ﴾ ما تفعلون مِن أعمال عندما تكونون مستَيقظين، وعندما تُبعَثون ستجدون أعمالكم.

[٦١]

﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾

إن الله ﴿فَوۡقَ﴾ كل ما خَلَقَ مِن ﴿عِبَادِهِۦۖ﴾، ويجعل الملائكة يحفظون كل ما تقومون به من أعمال، وإذا جاء أجل أحد، فإن الملائكة يقومون بتنفيذ أمر الله.

[٦٢]

﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾

قد يظن البعض أن كل هذه الأعداد الهائلة من البشر، تستغرق أوقاتاً طويلة، حتى يتلقون حسابهم. وهنا يبيّن الله عز وجل، بأن ذلك لن يطول، بل يأتي بسرعة مهما بلغ الناس مِن أعداد. وفي الحديث الشريف أن محاسبة الخَلق جميعاً يكون في نحو نصف نهار من أيام الدنيا.

فعندما يـ ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذي يتولّى حكمهم بـ ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ يرون بأنه ﴿أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾. وهذا نظير الإمهال في الدنيا، فهو - جلّت قدرته - يمهل الناس ولا يسرع في حسابهم حتى لو طلبوا هم ذلك، فلعلّ الوقت يجعلهم يتوبون كما تقدّم

معنا في تحليل الآيتين ٥٧، ٥٨ لكن عند الردّ لملاقاة الحِساب يكون الله ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

الباب التاسع عشر: النجاة

[٦٣]

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾

إذا دهَمَكَ خَطَرٌ، أو حلّ بِكَ كَربٌ، مَن الذي ينجيك؟ هكذا بغتةً رأيتك في خطرٍ عظيم، ولا أحد بمقدوره أن يُنقذك أو يُقدّم لك عَوناً، إلى مَن تلجأ مُتوَسِلاً الإنقاذ، أو حتى ألمّ بك كربٌ عظيم ولا أحد يمكن له أن يُخَفِفَ عنك، فَمَن الذي يملك أن يُفرّج عنك كربتك؟ فثلاث مرات متتاليات يأمر الله رسوله أن يقول لك: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ أجل، فإن الله قادر أن ينتشلك حتى ﴿مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ﴾ عندما تتوه فيها، وتنقطع عنك السُبل، وتلفاكَ في وحشةِ عتمةِ ليلٍ في بَيداء خالية تنهال على أسماعك أصوات حيوانات مفترسة، أو رأيتَكَ في ظلمة بحر، سواء سَقَطَت بك طائرة، أو غَرِقَت بك مركبة، أوتردّيتَ مِن جسر، أو قادتك عاصفةٌ إلى ظلمة ﴿الْبَحْرِ﴾، أو ما شابه، مَن الذي تُناجي كي ينقذك؟ فاعلم أن ما لايقدر عليه مخلوق قط، يقدر عليه الله، مهما بلغ بك الخطر، فإن الله تعالى ذكره، قادرٌ أن ينجيك، سواء أكان هذا الخطر ماديّاً، أو معنويّاً، فمهما بلغتَ مِن حِدّةِ ألم نفسي، يستطيع الله أن ينجيك منه في لحظات، حتى لو اجتمع عليك أطباء النفس في العالم كله، وفقدوا الأمل بك.

على هذا النحو يُريكَ الله – عز وجل – بأنه يعلم كل شيء عنك، وأن الحقيقة الوحيدة التي عليك أن تؤمن بها، أن لا أحد لك غيره. وكلمة ﴿ظُلُمَاتِ﴾ تبيّن مرحلة الخطر القصوى التي ترتفع فيها درجة حالة الخوف إلى أقصاها، فقد يكون المرء

أقل رعباً وذعراً إذا وجد نفسه بغتة في صحراء في وضح النهار، لكن عندما تحلّ عتمة الليل الحالك، تتقدّم به درجة الخوف لأنه لايرى ما الذي يحدث بالقرب منه، وما الذي يدنو إليه، فتزداد عليه وتيرة الخوف.

كذلك عندما يكون في مركبة، وتتعرّض المركبة لخطر، وشيئاً فشيئاً يبدأ الليل يخيّم على البحر، فإن ساعات الليل تكون أكثر رعباً من ساعات النهار خلال عملية الصراع مع ذاك الخطر، فقال جلّ شأنه لك: ﴿مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ وقد ذكر لك مكانين لاخطر يمكن له أن يتجاوزهما، ففي الأول، تعرّض للحيوانات البرّية المفترسة، وفي الثاني، تعرّض للغرق، وكذلك للحيوانات البحرية المفترسة، وهذا ليس محض افتراض غير قابل للتحقق، بل وقع لكثير من الناس، وذهبوا ضحيته، وكذلك نجا منه كثير من الناس، عندما شاء الله لهم النجاة، وهم أنفسهم يُدركون، كما يُدرك الناس أنهم نجوا بأعجوبة، أي لقد تدخّلت العِناية الإلهية في نجاتهم.

﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ تسألونه النجاة ﴿تَضَرُّعًا﴾ توسلاً في العَلَن ﴿وَخُفْيَةً﴾ في أنفسكم، أي تناجونه سرّاً وتقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الكارثة التي دَهَمَتنا ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ له ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ فضله ومنّته علينا.

[٦٤]

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾

إن الله هو المنجي الذي ﴿يُنَجِّيكُم﴾ ينقذكم ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ ﴿وَ﴾ - كذلك - ﴿مِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ يقع عليكم. جاء ﴿كُلِّ﴾ مفتوحاً وشاملاً، أي ﴿كُلِّ﴾ ما يمكن له أن يُسَبّب لكم كرباً، والكرب هنا نظير ما يقع للإنسان من ألم بَدَني ﴿مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي كل ما يمكن له أن يُسَبّب الأذى البَدَني للإنسان سواء في اليابسة، أو في الماء.

فالكرب هنا، ألمٌ نفسي، وهذا يشمل الاهتزازات النفسية الحادّة مثل: الاكتئاب، الأفكار السوداوية، الإرهاصات، القلق، وكذلك ما يمكن أن يُسَبّبه لك شخصٌ يتسلّط عليك، فيستفزّك، أو يُهدّدك، أو يفتري عليك بالكَذِب، فيمسي هذا الشرير مصدراً لقلقٍ نفسيٍ بالنسبة إليك، فإذن الله تعالى هو القادر على نجاتكم ﴿مِن كُلِّ﴾ دون استثناء ﴿كَرْبٍ﴾ يصيبكم.

فكما أن الله ينجي البَدَن مِن وقوع الأذى عليه، ويجعله في مَوضعٍ آمن، كذلك ينجي النفس من الاضطرابات، فيتمتّع المرء بحالةٍ مُستَكينةٍ مِن صفاء الذهن، والراحة النفسية، إلى جانب الشعور بالأمان، والراحة البَدَنية، وذلك مِن نَعَمٍ الله الكُبرى على الإنسان. تختتم الآية بقوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾، بعد كل هذا الذي يتبيّن لكم، وبعد استجابة الله لتوسّلكم إليه عندما كنتم ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وتقولون: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾. الآن قد استجاب الله لتوسّلكم وتضرّعكم إليه، ونجّاكم ممّا ألمّ بكم سواء على الأرض اليابسة، أو في البحر، أو ما حلّ عليكم من ﴿كَرْبٍ﴾، وبعد أن وصلتم الأمان، عدتم إلى شرككم بالله.

وهذا الكلام موجّه إلى أهل العِناد والاستكبار، وقد بيّن الله أنه رغم علمه بهم، استجاب لهم حتى يضعهم، ويضع الناس كافة أمام عِنادهم واستكبارهم، ثم لعلّهم - في هذه المرحلة أيضاً - ينتبهون إلى ما هم عليه من اعوجاج، فيكون ذلك بمثابة حافز إضافي لهم للهداية، وذلك من رأفة الله بعباده، فيدَع فرصة التوبة مفتوحة أمامهم، ويبيّن لهم أن لاموضع للقنوط من رحمته مهما كان الإنسان متمادياً في الذنوب.

فهذه من خصائص العلاقة بين الله وعباده، وهو - جَلّ شأنه - ييسّر عليهم جميعاً سبيل الهداية، ويستجيب لهم رغم أنه يعلم بأنهم يكذبون، ثم يستجيب، ويستجيب، وهذا بمثابة الغربلة لأهل الكفر والعصيان، حتى لا يلبث سوى الذين بلغوا درجات العِناد القصوى، وقد غرقوا في براثن الفساد، ولا يفعلون شيئاً سوى

إلحاق الأذى بأنفسهم، وبالناس، حيث اتخذوا من الطغيان منهجاً لحياتهم، ولا ينفكّون عنه رغم كل الفرص الذهبية التي يتيحها الله لهم، وبأشكال وألوان مختلفة.

[٦٥]

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾

إن كل هذه الفرص التي يتيحها الله لكم، تأتي من الله القوي الذي يمكن له ألّا يمنحكم هذه الفرص، ﴿هُوَ﴾ الذي يملك مقدرة ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من السماء من رعود، وبروق، وفيضانات، وما يشاء، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ من براكين، وزلازل، وما يشاء.

﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ﴾، يسلّط ﴿بَعْضَكُم﴾ على ﴿بَعْضٍ ۗ﴾ ويفرّق بينكم، فـ ﴿هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ هذا، و﴿ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ﴾ ذاك.

﴿ٱنظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نبيّن ﴿ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ الأدلة ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ لعلّ ذلك يجعلهم ﴿يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ يتعلّمون عن تجربة.

[٦٦]

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾

المشركون من قومك يا محمد، يُكذّبون ما تبيّن لهم من آياتنا ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ الذي يبقى ساطعاً وجارياً، شاؤوا أم أبوا.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾، لم يرسلني الله كي أكون حفيظاً عليكم، بل لأبلغكم آياته.

[٦٧]

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾

لا يبقى الكلام محض كلام، وكل ﴿نَبَإٍ﴾ تبيّنه آيات الله لكم، يتحوّل إلى واقع

﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ترون ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ هذه الآيات.

الباب العشرون: الذكرى والإعراض

[٦٨]

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾

الخوض بمعنى الحديث الذي يشوبه استهزاء، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا محمد الخائضين ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يتمادون استهزاءً بالخوض ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾. وكلمة ﴿فَأَعْرِضْ﴾، بَيّن لهم بأنّك مُعَرِضٌ لِما ﴿يَخُوضُونَ﴾ فيه، ثم انصرف عن مُجالَسَتِهم ﴿حَتَّىٰ﴾ يتركوا ذلك، و﴿يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ﴾ آخر ﴿غَيْرِ﴾ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾.

ولذلك يُريد ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أن يستغلّ هذا الوتر، فيُنبّه الله رسوله: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ نَهيَنا لك عن مُجالسَتِهم. هنا تُدرِك بأن الله تعالى ذكره، قد ترك رسوله على طبيعته الإنسانية، فيجوع، ويبرد، ويتزوّج، ويمشي في الأسواق، ويعمل، ولعلّ الشيطان يُنَسّيه.

وهنا يبيّن الله لرسوله وللناس كافة بأن ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ لعلّه يُنسّي الرسول، وهذا يكون بالنسبة لكافة الناس الذين يتّبعون الرسول صلى الله عليه وسلم. لكن، ولكونه نسيان، بمعنى يكون قد وقع سَهواً مِن ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، وليس عَمداً مِن النفس، فيتذكّر الإنسان بعد ذلك، وعندها لا يُكرّر ما قام به، فيقول الله عزّ شأنه لرسوله: ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، ﴿فَلَا﴾ تكرّر القعود بعد أن تذكر أمرنا - الذي أنساكه ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ - ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

[٦٩]

﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾

واخبر المسلمين يا رسولنا بأن ﴿مَا﴾ عليهم مِن حِساب الخائضين ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ ﴿مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾.

هنا يأذن الله تعالى أن ينصحَ المسلمُ، الكافرَ، فلعلّه لا يعلم، أو لعلّ أحداً قد أعطى له مفهوماً خاطئاً عن جوهر الإسلام، ولعلّ جماعة تخوض في آيات الله، ومعهم أشخاص يعتقدون بصواب ما يخوضون فيه. هنا يُجيز الله - جَلّ شأنه - للمسلم أن يقول الحقيقة، ويُبلّغ آيات الله لهؤلاء، ثم يبيّن لهم بأنه مُعتَرِض على ما يخوضون فيه، ولا يُجالسهم حتى لايستأنفوا الخوض في آيات الله استهزاءً، ف ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ بهذه الـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

يبيّن لك الله تعالى بأن حقك هو الـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ فحسب أمام شخص، أو أشخاص يستهزؤون بآيات الله، ولا يجوز لك أن تتجاوز هذا الحدّ الذي حدّده الله لك، وأخبرك بأن ﴿مَا﴾ عليك وأنت المتّقي ﴿مِنْ حِسَابِ﴾ المستهزئين ﴿مِّن شَيْءٍ﴾، ﴿وَلَٰكِن﴾ اذكر لهم القرآن ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾. وإن لم يتّقوا ما عليك ﴿مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، فذلك شأن الله مع عباده، يعاقب مَن يشاء، ويغفر لِمَن يشاء، يضل مَن يشاء، ويهدي مَن يشاء.

وردت التقوى في الآية مَرّتَين، مَرّة: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي أصبحوا في حكم المتّقين، وقد شَهِدَ الله تعالى لهم بهذه التقوى. والثانية: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٦٩﴾ وهم في حكم غير المتّقين، وقد شَهِدَ الله تعالى عليهم بأنهم ليسوا متّقين. ولعلّ ﴿ذِكْرَىٰ﴾ المتقين لهم تجعلهم ﴿يَتَّقُونَ﴾. فمهمّة المتّقي أن يُذكّر غير المتّقي بآيات الله لعلّه يتّقي، ويبيّن له بأنه مُعتَرِضٌ على استهزائه بآيات الله، ثم ينصرف عنه، ولا يُجالِسه عَقِبَ الانتهاء من الـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾. فهذا هو الإرشاد الحكيم الذي بيّنه

الله تعالى لِمَن شَهِد لهم بالمتّقين، إزاء مَن شَهِد لهم بغير المتّقين، والأمل في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ قائم كي يتّقوا بالـ ﴿ذِكْرَىٰ﴾.

[٧٠]

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

هنا مزيد من التوضيح في العلاقة بين ﴿وَذَرِ﴾ وبين ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، فكيف يـ ﴿ذَرِ﴾ يعرض، وبذات الوقت يـ ﴿ذَكِّرْ بِهِ﴾ بالقرآن؟

وفي التحليل: يا محمّد، أعرض عن ﴿ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا﴾، فهؤلاء ﴿اتَّخَذُواْ﴾ بدلاً عن دين الله الذي هو الإسلام، ديناً هو لَعِبٌ ولهوٌ، واستناداً إلى ذلك، يستهزؤون بآيات الله ﴿وَ﴾ قد ﴿غَرَّتْهُمُ﴾ جعَلَتهم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ينغرّون بها، ويتّبعون أهواءهم في ذلك. وهذا شقٌّ من توجيه الله لرسوله، لأنّه يعني عدم تبليغ الرسالة لهم، وقد أمره الله بالبلاغ العام دون استثناء، حيث أرسَلَه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. فـ ﴿ذَرِ﴾ تحرم أولئك من البلاغ، وتُخرِجهم مِن العالمين، وبذلك لايستحقون العِقاب كون الرسول مُرسلٌ ﴿رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ وقد أخرجهم الله من العالمين، فهم ليسوا مَعنيين بالرسالة نظراً لهذا الخروج حتى لو كانوا قد ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. ولعلّ لِسان حالهم يقول: ربنا لم يصلنا البلاغ، وقد أمرتَ الرسول أن يـ ﴿ذَرِ﴾ - نا - فكيف نهتدي دون أن تبلغنا الآيات.

هنا، يبيّن لهم النبي صلى الله عليه وسلم الآيات، ويُحذّرهم من مغبّة الاستهزاء

بها، ويدعوهم إلى دين الله، مكتفياً بذلك، وتركهم بعد الـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾. فيكون قد أتاهم لأمر مُحدّد، وفور انتهاء المُراد من الحضور يدعهم وشأنهم.

تستأنف الآية الكريمة: ﴿أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ﴾، كل ﴿نَفۡسُۢ﴾ مرتهنة ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ حيث ﴿لَيۡسَ لَهَا﴾ لتلك النفس ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ﴾ فلا أحد سوى الله قادر أن يتولّى أمرهم، ولا أحد سواه يشفع لهم، ﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ﴾ ﴿وَإِن﴾ تفدي ﴿كُلَّ﴾ فدية ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾ لا يمكن لأي فدية أن تُصبح معادلاً للعِقاب، والكلام هنا في الدنيا، أي يرتكب شخصٌ ما المعاصي، ثم يُنفق مالاً حتى يُصبح مُعادلاً لتلك المعاصي كي لا يُحاسِبه الله تعالى عليها. فترى أناساً يستمرّون في الآثام، وبذات الوقت يُنفقون أموالاً طائلة على الفقراء والمحتاجين، بهدف أن يكون ذلك الإنفاق مُعادلاً لارتكاب الآثام، ويغدون في منأى عن الحِساب.

يبيّن الله بأنهم لو أنفقوا ﴿كُلَّ﴾ ما لديهم ﴿لَّا يُؤۡخَذۡ﴾ منهم شيء، لأن نيّة الإنفاق باطلة ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١] وعلى نقيض ذلك، فإن الذين يتوبون، وينفقون أموالهم في سبيل الله، يجدون عنده الثواب. فالفرق هنا بين النيّة الحَسَنة، والنيّة السَيّئة، لأن النيّة الحَسَنة تؤدّي بصاحبها إلى الصلاح، والنيّة السيئة تؤدّي بصاحبها إلى الفساد.

فاعلموا يا مَن تكفرون بالله، وتستهزؤون بآياته، وتتّخذون من اللعب واللهو ديناً لكم، وقد جريتم خلف مغريات الحياة الدنيا، أن لا يمكن لأحد أن يتدخّل في مسألة عِقابكم، ولن يتولّى عِقابكم سوى الله وحده، ولا أحد يجوز له أن يشفع لكم سواه، ولا يقبل الله منكم فدية نظير العذاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾، كما لو أنك تقول: تَوَقَّفَ الشخصُ بِما ارتكَبَ مِن جِناية، أي هو موقوفٌ على خلفيّة جِناية ارتكَبها، ويكون له حكمه.

أمّا هنا، فهؤلاء الذين يقفون بين يدَي الله عز وجل، على خلفية ما تبيّن من أفعالهم، فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾ عقابهم أن ﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾.

﴿لَهُمۡ﴾ يتناولون ﴿شَرَابٞ﴾ سائلاً ﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ به سخونة شديدة، ﴿وَ﴾ إضافة إلى ذلك ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ موجع.

لماذا يلقون كل هذا؟ يلقونه ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾، ﴿كَانُواْ﴾ والقرآن ليس موجهاً إلى الـ ﴿كَانُواْ﴾، بل إلى الذين لم يتحوّلوا بعد إلى ﴿كَانُواْ﴾.

على ذلك، فيمكنك استنتاج أن كل هذه الألوان مِن العقاب، لم تقع بعد، لأن الذي يتوجّه إليه هذا الكلام هو حي، والقرآن موجّه إلى الأحياء، وبذلك فالكلام هو بمثابة تحذير من مغبّة ما سيؤولون إليه، ليس لأنهم سخروا من آيات الله، بل إذا استمرّوا في السخرية منها ولم يتوبوا، أي يقول لهم القرآن الكريم: يمكنكم تفادي ذلك.

فإن رأيتَ شخصاً يمضي في طريق وعر نحو الهلاك، فتنصحه كي يتجنّب استئناف المسير تفادياً للهلاك المُحَقَق الذي لا بدّ أن ينتهي إليه، فلعلّه لا يعلم، فينتبه، أو لعلّه يعلم، فيتراجَع، فهو إذن قادر على التراجع إلى صراط مستقيم، وقادر على الاستئناف، ولكنك تكتفي بالتنبيه دون أن تفرض عليه شيئاً بالقوة. فإن رأيتَ به عناداً شديداً واستهزاءً بنصحك، تركته حيث هو، وإن رأيته استجاب، استَحسَنتَ تحوّله. ولله المثل الأعلى. فهنا بيان وتنبيه حتى لا يتحوّل هؤلاء الذين هم هنا، إلى ﴿كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾، بل يتحوّل المسار بهم، ويظفروا بالنعيم ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يؤمنون، ويصلحون ويحسنون. فكل ألوان العذاب التي يبيّنها القرآن، هي لأناس يمكن لهم أن يتفادوها، وليس لأناس لا يمكن لهم تفاديها، وإلّا فالقراءة لم تعد مُجدية.

تُعلّمكَ الآية بأن القرآن الكريم مفتوح لهداية كل إنسان كائناً مَن كان، وفاعلاً ما فعل، ولا يوجد إنسان مُستثنى من التعرّض لهذه الهداية، لأن القرآن لم يُنزَل لأناس دون أناس، بل للناس كافة.

[٧١]

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾

﴿أَ﴾ تريدون منّا: ﴿نَدْعُو﴾ نعبد أوثاناً ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ونحن نعلم بأن ذلك ﴿لَا يَنفَعُنَا﴾ بشيء إن استجبنا ﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ بشيء إن لم نستجب. ﴿وَ﴾ - إذا استجبنا لكم وعبدنا الأوثان - ﴿نُرَدُّ﴾ بذلك ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ نرجع إلى حيث ما كنّا ضالّين ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ إلى الإسلام، فتكون حالُنا ﴿كَـ﴾ حال ﴿الَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ جَعَلَته مستهوياً، يتّبع الهوى دون الهُدى. فالشيء الذي يستوهيك، يجعلك مائلاً إليه، أي تُصبح ﴿كَٱلَّذِى﴾ يستهوي ما تمليه عليه ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾.

الحيرة، هي حالة من التردّد واللااستقرار، والمَثَل الذي يضربه الله عزّ شأنه، بـ ﴿كَـ﴾ - أن - ﴿الَّذِي﴾ يستَجيب للعودة إلى ما كان عليه ﴿بَعْدَ إِذْ﴾ هداه ﴿ٱللَّهُ﴾، يكون مثل شخص ﴿ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾. وقع في حيرة من أمره، وشَتات ذهني، لأنه قد رأى الهداية ثم ارتدّ، فيكون بين بين دون استقرار، وذلك مِن مفرزات الحيرة التي يكتوي بها المرتدّ، و﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ للتخلّص مِن حيرته قائلين له: ﴿ٱئْتِنَا ۗ﴾، دعك ممّا أنت فيه مِن شَتاتِ الحيرةِ، وتعال إلينا حيث سَكينة ﴿ٱلْهُدَى﴾. ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ﴾، وما دون الله هو الهوى، ﴿وَ﴾ قد ﴿أُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. جاءت كلمة ﴿لِنُسْلِمَ﴾ مقابل كلمة ﴿حَيْرَانَ﴾، فعندما يُسلِم الإنسان ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾، يكون بذلك قد تخلّص مِن اضطرابات الحِيرة.

[٧٢]

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾

إقامة ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إلى جانب أن تتقوا الله ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ هو ربكم، و﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ يوم القيامة، حيث يتولّى حسابكم.

[٧٣]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى﴾ لا إله إلّا هو ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

مِن هنا تَستَمدّ كل قوتك، وتتجاوز أي شعور بالحيرة، أو القَلَق، وتمتلئ بِطاقاتِ الحيويّةِ، والإشراق الروحي، وهذا يُحفّزك كي تحب الناس، تنتج لهم، تمنحهم مجهود طاقاتك تعبيراً عن شكرك لله الذي أنقذك من ظلمة الضلال إلى نور الإسلام، وكان يمكن لك أن تلبث ضالاً. فإذاً أنتَ تمتلئ ثقة لأنك أسلمتَ أمرك لله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، ولا يملك شيء قط من عدم الاستجابة لأمره عندما يقول له ﴿كُن﴾ ﴿فَ﴾ لامناص له سوى أن يستجيب و﴿يَكُونُ﴾، ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ ما يأتي من الله فهو عَينُ الحق، ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ حيث يتولّى الحِساب ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ الذي يعلم ما يغيب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾، كما يعلم ما يشاهدونه، ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ المحكم والمتقن ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ بكل شيء.

الباب الواحد والعشرون: قدوة الهُدى

[٧٤]

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾

في هذا المِحوَر مِن السورة الكريمة، يُعرّف الله تعالى رسوله على شخصية

إبراهيم عليه السلام، ويُطلعه على التفاصيل التي كان يعيشها يوماً بيوم، وموقفه من أبيه، ومن قومه.

كيف بدأ ينشأ، ويكبر، وتنمو مُدركاتُه، يُعرّفه على المراحل التي أخذ وعيُه فيها يتشكّل، وهنا يغدو النبي صلى الله عليه وسلم مطّلِعاً على جوهر خصوصية العِلاقة التي كانت بين إبراهيم عليه السلام، وبين الله عز وجل.

يبدأ المِحوَر من موقفه من أبيه أولاً، فأول حالة استنكار تبدأ من البيت، وفي مواجهة سيّد البيت وكبيره، فيقول له أول ما يقول: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ يا أبي ﴿أَصْنَامًا﴾ باهِتةً لا تملك أن تُقدّم أو تؤخّر ﴿ءَالِهَةً﴾ دون الله. ثم يبيّن له موقفه، ويواجهه بالحقيقة التي يؤمن بها: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾. ﴿إِنِّيٓ﴾ وأنا ابنك ﴿أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ﴾ الذين تتّبعهم في اتخاذ الأصنام ﴿ءَالِهَةً﴾ دون الله، ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ باطل ﴿مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ جَلي. وهذا بيان الاستنكار، وبذات الوقت بيان عدم الاعتراف بما هم عليه.

[٧٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿وَ﴾ اعلم يا رسولنا، أننا أرينا خليلنا إبراهيم ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وهذا إخبار من الله تبارك وتعالى بأنه أطلع إبراهيم عليه السلام على ﴿مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وهذه الرؤية تجعله أكثر ثقة، وأكثر ثباتاً في موقفه في مواجهة الأب والقوم معاً ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بالحق الذي اتّبعه في مواجهة الباطل.

[٧٦]

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾

حينما خيّم على إبراهيم ظلام ﴿ٱلَّيْلُ﴾، وقع نظره على كوكب، ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ لعلّه اعتقد أن الله تعالى تبدّا له من خلال هذا الكوكب ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ وقد تبيّن له ما

تبيّن جراء فلول الكوكب، ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾. وهذا بمثابة الإسقاط للمشركين بأن هذه الأوثان التي تعبدونها، سوف تفل عنكم، وعبادتكم لها هباء في هباء.

[٧٧]

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾

ثم إن نظره عندما وقع على ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾ وقد سطع، حينذاك ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ تجلّى لي ﴿رَبِّيۖ﴾ من خلال سطوع القمر، ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ كما ﴿أَفَلَ﴾ الكوكب من قبل ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ من اتّباع الظن ﴿لَأَكُونَنَّ﴾ لأصبحن ضالاً وواحداً ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧﴾.

وهذا بمثابة إسقاط آخر أمام المشركين، فهم يتّبعون الظنون في عبادة الأوثان، ويعتقدون بأنها ستنفعهم.

[٧٨]

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾

ثم إن الشمس حينما بزغت ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ من الكوكب، ومن القمر الذي رأيتُ سابقاً ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ توارت عن نظره ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨﴾.

وهذا بيان من الله تعالى بأن المشركين كانوا إلى جانب الأصنام يعبدون بعض الكواكب، مثل النجوم، والقمر، والشمس. فهنا استنكار واستبراء لِما هم عليه من شرك، والمعنى أن الذي تتّبعونه، لو كان حقاً لاتّبعته معكم إلى حيث ما تدعوني، وتبيّن لي بأنه باطل، فتعالوا إلى ما أدعوكم إليه، ليتبيّن لكم بأنه حق.

[٧٩]

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

أدرتُ ظهري لكل أشكال الشرك، ويمّمتُ جهة مسيري ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ﴾ خالصاً، ولستُ ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ الذين ضلّوا عن سبيل الله، لأنهم لم يوجّهوا وجوهَهم ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، بل وجّهوها لِمَن لا يملك نفعاً ولا ضراً، والذي شق بين ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو الجدير بالعبادة.

[٨٠]

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

الذي يحاج، هو الذي يتقدّم بحججه للآخر، والمحاجةُ تكونُ بين فريقين يؤمنان بعقيدَتَين مُختَلِفتَين، فهنا قوم إبراهيم عليه السلام، يُقدّمون له حججهم حتى يثنوه عن وحدانية الله، ويُصبح في عقيدَته على مِلّتِهم، ولعلّ هذه الحجج هي إتباعٌ لِما رأوا أنفسهم عليه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وكذلك قولهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص: ٥]، وما إلى ذلك من معتقدات راسخة فيهم ويأبون أن يتزحزحوا عنها.

عند ذاك ﴿قَالَ﴾ مجيباً إياهم: ﴿أَتُحَاجُّونِّي﴾ ﴿أ﴾ تُقدّمون لي الحجج كي تُبرّروا ما أنتم عليه مِن شِرك ﴿فِي اللَّهِ﴾ الذي ﴿هَدَانِ ۚ﴾ أخرجني ممّا أنتم فيه من ضلال إلى الهدى.

ويَظهر من الآيةُ أنّهم لجأوا إلى تهديده بعِقابٍ مِن آلهتهم إن لم يستجب، كقول قوم هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ﴾ [هود: ٥٤] لكنه يلبث على موقفه مُجيباً إياهم بذات الثقة: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ مهما

هددتموني بعِقاب آلهتكم، فإن ذلك لا يُسبب لي خوفاً منها، وأن قوة إيماني بوحدانية ﴿رَبِّي﴾ هي الغالبة ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾ فحتى لو أصابني أذى، فلن يكون ذلك خارجاً عن مشيئة ﴿رَبِّي﴾ الذي تكون له حكمة في ذلك.

يُروى أن إبراهيم عليه السلام عندما أصبح شاباً، غدا أبوه ﴿ءَازَرَ﴾ الذي كان يصنع الأصنام، يعطيه هذه الأصنام كي يبيعها، فيحملها عليه السلام وينادي بها: (مَن يشتري ما يضره ولا ينفعه). فلا يشتري أحد، عندها يذهب إلى النهر ويضرب رؤوس بعضها ببعض وهو يقول: (اشربي). وقد تسرّب ذلك إلى القوم، فهدّدوه بأنه إن عاب على هذه الأصنام، فإنها تمسه بسوء، أو خبل، أو جنون.

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ﴾. إن ﴿رَبِّي﴾ الذي أؤمن به يعلم بكل ما يمكن له أن يصيبني، وما مِن ﴿شَيْءٍ﴾ إلّا ويخضع لعلمه ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾، ﴿أَفَلَا﴾ تُدركون بأن آلهتكم لا تملك أي مقدرة على إلحاق الأذى بي. وقد وردت ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ بخِطابٍ إلى الذاكرة، أي إلى العقل، وفي ذلك دعوتهم إلى إعمال العقل لاستخلاص هذه الحقيقة والإيمان بها.

[٨١]

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾

بعد أن تبيَّن لي الحق، بأي عقلٍ، وأية ذاكرةٍ أخاف مِن أصنامكم التي تتخذونها ﴿ءَالِهَةً﴾، وأنا أعلم بأنها لا تملك من أمرها شيئاً، والأجدر بكم أن تخافوا أنتم وقد ﴿أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾.

السلطان، مِن السلطة، أي لم يملّكها الله تعالى ذكره أي سلطة، وبالتالي فإن تحججكم بها هو باطل: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ذلك أن لا أساس من الصحة لِما تدعونني إليه، واستناداً إلى ما أقول، وما تقولون: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾، فريق الموحّدين، أم فريق المشركين.

﴿بِالْأَمْنِ﴾ نظير الخوف، والأمنُ هو أمنٌ مِن الخوف الذي يُهدّدونه به، فهل يتوجّب الخوفُ لي أم لكم، وهل أنا أكون في مأمنٍ من الخوف أم أنتم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾، تميّزون بين الحق الذي أدعوكم إليه، والضلال الذي تدعونني إليه.

فاعلم أن هذه الآيات تُعيدكَ إلى الماضي كي تزيدك ثباتاً في الواقع، ذلك أن الله - جَلّ شأنه - لا يروي هذه الوقائع الماضية لرسوله كي يُبعده عن واقعه، بل ليزيده رسوخاً في صميم الواقع على خلفية ذاك الماضي بسلبياته وإيجابياته. فأنتَ المقصود من هذا التنزيل الحكيم، كونه لم يُنزل لشخص رسول الله عليه الصلاة والسلام، بل لك من خلاله، وبعد أن أدّى ما أمره الله تعالى به، وبلّغ الرسالة، فقد لبثتْ هذه الرسالة لك، وفي عهدتك، كي تنتفع بها، لأنها بالأصل أُنزلت لرفع الضر عنك، ولتقديم النفع لك. فأنت تحتاج إلى الماضي، كي تفقه الواقع، وترنو إلى المستقبل، كما أن حامل هذه الرسالة إليك احتاج إلى الماضي كي يفقه الواقع، ويرنو إلى المستقبل.

[٨٢]

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢)﴾

هنا بَيانٌ بَين الأمن، والإيمان: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي أصبحوا في مَأمَنٍ عن عواقِب الشرك سواء في الدنيا، أو الآخرة. فاعلم أن شعور الإنسان بمساحة الأمن، يكون موازياً لدرجات إيمانه، وكلّما رسخ الإنسان في الإيمان، أحسّ بأمنٍ أكثر، فقد ترى مؤمناً مضطرباً، يفزع في الليل، أو يستبدّ به الأرق، أو يرى الكوابيس في نومه، وذلك مردّه إلى ما يُسبّب من أذى للناس، فهو يلقى ما يُسبّبه لغيره. فإن كان راسخاً في الإيمان، أدرك هذا التنبيه، وسارع إلى إصلاح ما بينه وما بين الناس، ورفع أذاه عنهم، ونظير ذلك يُرفع عنه أذاهم، فهؤلاء قد يكونون ضِعافاً لا يجسرون على ردّ أذاه، أو قد لا يعلمون به لأنه يُلحِق بهم الأذى بالسر، وما إلى ذلك.

فإن لم يكن راسخاً في إيمانه، تراه يلجأ إلى الأطباء النفسيين، وإلى الأدوية التي تجعله يهدأ بعد الفزع، ويعود إلى نومه، لكن ذلك يكون حلاً مؤقتاً، فيستمر ذلك

معه، ومع إطالة أمد العِلاج، يحتاج إلى الزيادة حتى يتحوّل ذلك إلى أمراض عضوية بسبب كثرة استخدام الأدوية ولفترات طويلة، وهذا بذاته يعكس ردود أفعال على سلوكه وسويته، لأن الجسد يعتاد هذه المهدئات ويدمنها، والجملة العصبية التي تُهدأ بقوة المُهدّئات الصناعية، تَردُّ على صاحبها بمفرزات ربما تكون أكثر سوءاً، ذلك أنه لا يُعالج أمراً طارئاً لفترة محدّدة، بل يتسبب في جلب هذه الأمراض لنفسه، ويواجه العواقب بالمهدئات.

لكن إذا نظرنا إلى حياة هؤلاء، سيجلو لنا بأن هذه المهدئات لا تضع لهم حلولاً، بل تُفاقم عليهم مفرزاتها، ولعلّنا إذا نظرنا إلى أكثر دول العالم احتواءً بالملحدين، وهي السويد التي يُطلق عليها (جنة الملحدين) لأنها تحتوي أعلى نسبة في دول الأرض من أعداد الملاحدة، سنرى نظير ذلك أنها تحتوي على أعلى نسبة من المرضى النفسيين الذين يتلقون علاجات نفسية، ويعيشون على المهدئات، وكذلك أعلى نسبة من الانتحار قياساً بجميع دول الأرض.

تبيّن لك الآية بأن كل معضلة يمكن علاجها بشكل سليم عندما تكون على قاعدة إيمانية سليمة، فالذي يُسبّب الاضطرابات لغيره، لا يمكن له أن يهنأ بالأمن، مهما بدتْ عليه مظاهر الأمن، فذاك قالب لا يمت إلى القلب بصلة، وإن كان في قصرٍ مسوّرٍ يحميه ألفُ حارس. في حين أن الذي يميط الأذى عن طرقات الناس، ويقدّم لهم خدماته بقدر ما يستطيع، ويكون مؤمناً، يستغرق في لفائف نوم هانئ عميق مهما كان سربُه متواضعاً.

﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ الظلم المعني في الآية كما يبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشرك. عن عبد الله بن مسعود: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شَقَّ ذلكَ علَى أصْحابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقالوا: أيُّنا لا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "ليسَ هو كما تَظُنُّونَ، إنَّما هو كما قالَ لُقْمانُ لابْنِهِ: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾[1]" [القمان: ١٣].

---

(١) صحيح مسلم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ اقتران الأمن بالهداية.

[٨٣]

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾

﴿وَتِلۡكَ﴾ الأدلّة والبراهين الواردة في الآيات الماضية من: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ﴾ إلى: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾. فذاك المبتدأ هو ﴿حُجَّتُنَآ﴾ آياتنا، في محل خبر ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ﴾ أرشدنا بها ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ في محل صفة لذاك الخبر. هنا أصبح إبراهيم ذاته حجّة الله ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ بما حمله إليهم من براهين وأدلّة، فبعد أن تلقى من الله الحجة ونادى بها، تحوّل هو بما يحمل إلى حجة الله ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾.

ثم أضاف الله جلّ شأنه رافعاً مرتبة إبراهيم بنون العظمة: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ﴾ مراتب ﴿مَّن نَّشَآءُۗ﴾.

ثم تنتهي الآية بخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد من خلال ما تبيّن ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾﴾ بِمَن يهدي، ومَن يضل.

[٨٤]

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَ﴾ بعد أن تقدّم في السن، وأصبحت زوجته سارة في سن اليأس ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ ابنه، ﴿وَيَعۡقُوبَۚ﴾ حفيده من ﴿إِسۡحَٰقَ﴾. وكانت البشارة قد أتتهما من الملائكة، عندما ذهبوا إلى قوم لوط، حينها: ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٢، ٧٣]. ليس هذا فحسب، بل كانت البشرى

بنبوة هذا الولد أيضاً: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]. وليس هذا فحسب، بل البشارة برؤيتهما لحفيد من هذا الولد: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

هنا، قبل أن يولد الابن في ظرف غريب استثنائي كهذا، تكون البشارة بابن لهذا المولود أيضاً، وإخبار بأن عيونهما ستقرّ برؤية الحفيد، كما تقرّ برؤية الولد.

﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾ الهداية في هذا المقام بمعنى النبوّة: ﴿وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٩]. ثم بمزيد من اطلاع الله رسوله الخاتم على مسيرة النبوّة، يُخبره: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ ولادة إبراهيم، وهدايتنا له. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾، أي من ذرية نوح:

﴿دَاوُۥدَ﴾ بن أيشا.

﴿وَسُلَيْمَٰنَ﴾ ابنه.

﴿وَأَيُّوبَ﴾ بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

﴿وَمُوسَىٰ﴾ بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب.

﴿وَهَٰرُونَ﴾ أخو موسى الذي يكبره بسنة.

اختُتِمَت الآية بـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾، والمعنى: لقد جزينا المحسنين في الماضي، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما أجزيناهم، سوف ﴿نَجْزِى﴾ الذين يُحسِنون من بعدهم.

فالكلام موجّه مِن الماضي إلى الحاضر الذي تلقّاه فيه الرسول، ويلبث مفتوحاً لحاضر كل زمان ومكان، فالله يعد بأنه يـ ﴿جْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾، ولا يستوي المحسن مع المسيء بأي حال من الأحوال، إلّا أن يقلع المسيءُ عن إساءته،

ويُصبح محسِناً، وعن النبي صلى الله عليه وسلم "التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"(١).

[٨٥]

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿وَزَكَرِيَّا﴾ بن أذن ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ ابنه ﴿وَعِيسَىٰ﴾ ابن مريم بنت عمران، وهنا يتبيّن بأن الذرية لا تقتصر على أبناء الأبناء فقط، بل تشمل أبناء البنات أيضاً، كون نسبته هنا من خلال أمه فحسب ﴿وَإِلْيَاسَ﴾ بن ياسين، من ولد هارون، أخي موسى.

﴿كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ والصلاح أن يُصلِح المرء نفسه أولاً، ثم يسعى إلى إصلاح الآخرين، فكل واحد مِن هؤلاء كان صالحاً في نفسه، وسعى إلى إصلاح الناس.

[٨٦]

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَإِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم.

﴿وَالْيَسَعَ﴾ بن أخطوب.

﴿وَيُونُسَ﴾ بن متى.

﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران بن تارخ، ابن أخي إبراهيم.

﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي جعلهم الله تعالى أفضل من ﴿الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾، لكن ذلك ليس شاملاً الماضي الذي سبقهم، والمستقبل الذي يكون بعدهم، بل التفضيل هو على عالمي زمانهم، فكانوا أفضل عالمي زمانهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

(١) رواه ابن ماجه والطبراني.

ذكر الله ثمانية عشر نبياً، ابتداءً من إبراهيم، وانتهاءً بـ لوط. وقد وضعهم الله عز وجل في مجموعات في هذه الآيات، فترى التقارب بين أنبياء كل مجموعة، ثم إن الله جَلّ شأنه يُكرم أنبياء كل مجموعة بتكريم خاص بهم، فالبدء مع إبراهيم الذي قال فيه: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، ثم ابنه اسحاق، وحفيده يعقوب: ﴿كُلًّا هَدَيْنَا﴾، ثم قال: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾، فقد هداهما الله كما هدى نوحاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ - هما -، فقد شكّل ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ لوحده مجموعة، ومرتبة أنه حجّة الله على قومه. والمجموعة الثانية: ﴿إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ﴿وَنُوحًا﴾. ومرتبتهم الهداية.

ثم المجموعة الثالثة، ذرية نوح، وهم: ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ومرتبتهم أنهم من ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

ثم المجموعة الرابعة: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾، ومرتبتهم أنهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم المجموعة الخامسة: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾، ومرتبتهم أنهم فُضِلوا ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ في زمانهم.

[٨٧]

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

هذه الآية تلحيقية، أي ألحقت مجموعة أخرى إلى المجموعات المذكورة في الآيات الأربع السابقة، والمُلحَقون هم ﴿مِنْ﴾ مجموع وليس المجموع كله. ﴿وَ﴾ ليس كل آباء وذريات وإخوان هؤلاء الأنبياء، بل ﴿وَمِنْ﴾ تبعيضاً، أي: ﴿وَمِنْ﴾ بعض ﴿ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ﴾ كون المِن الآخر ليس تقياً، ولذلك جاءت كلمة ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ انتقيناهم، انتقينا صالحهم من طالحهم، وأنقذناهم من الضلال ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ ولبث المِن الآخر مِن آباء وذريات وإخوان هؤلاء الأنبياء الثمانية عشر على ﴿صِرَٰطٍ﴾ غير ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

فأفراد هذه المجموعة مرتبتهم أنهم على ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾، واعلم أن هذه المزايا ليست مقتصرة على أفراد كل مجموعة، بل كل هذه المزايا تكون من صفات المؤمنين، وخاصة الأنبياء والرسل منهم، ولكن الله تعالى شاء أن يُكرم أفراد كل مجموعة بميزة يُعرَفوا بها.

[٨٨]

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تم ذكره نتيجة ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ الذي ﴿يَهۡدِي بِهِۦ﴾ بهداه ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، وهنا بيان من الله - عز وجل - بأن هدايته تستوعب الناس جميعاً على مختلف مشاربهم ومآربهم، ذلك أن الناس جميعاً هم ﴿مِنۡ عِبَادِهِۦۚ﴾، وهذا لا يلغي دور العباد، فعليهم أن يؤمنوا، ويصلحوا، ويحسنوا حتى يكونوا أهلاً للهداية، ولذلك بيّن الله تعالى بأن الذين هداهم كانوا صالحين ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ حتى لو كانوا أنبياء ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿وَلَوۡ﴾ - على سبيل الافتراض - ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ بالله، عندها ﴿لَحَبِطَ﴾ لبطل والتغى ﴿عَنۡهُم﴾ ما كانوا عليه من صلاح، أي أصبح هناك فصل بينهم وبين ﴿مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨﴾ من صلاحٍ قبل الشرك، كما لو أنهم لم يعملوا صالحاً، ذلك أن الشرك يُحبط أي عمل صالح سبقه.

﴿مَّا كَانُواْ﴾ أي قد تم فصلهم بالكامل، فالآن اختلف الأمر ع ﴿مَّا كَانُواْ﴾ عليه مِن صلاح، والآن ﴿أَشۡرَكُواْ﴾، فالحكم على الآن، وليس على الـ كان، وإذا قلبتَ الأمر ستكون ذات النتيجة، فإن تاب المشرك، وآمن بوحدانية الله، سيكون الحكم على ما هو فيه من الحاضر، وليس على ما كان عليه في الماضي، فكل شرك الماضي، أحبطه إيمان الحاضر.

فإن كان ماضيكَ حَسَناً، وأنتَ الآن غدوتَ سَيئاً، فالحكم عليك بأنك سَيّء، وإن كان ماضيكَ سَيّئاً، وغدوتَ الآن حَسَناً، فالحكم عليك أنك حَسَن، وهذه المعادلة يتساوى فيها الناس جميعاً.

[٨٩]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مثل: صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داوود، وإنجيل عيسى. وكل واحد منهم يدعو إلى التشريع الذي تلقاه من الله تعالى.

﴿وَٱلۡحُكۡمَ﴾، يَتَحَوّل هذا التشريع إلى حُكم، وبذلك يتحاكم الناس إلى هؤلاء الأنبياء ليحكموا بينهم بالحق، فما أتى به الأنبياء، يكون الأصل في الحُكم بالنسبة للحُكّام والقُضاة، كما أن بعض المذكورين كانوا - إلى جانب النبوة - حُكّاماً وملوكاً. لكن على كل حال، وبالصفة العامة، فالناس جميعاً، يتحاكمون إليهم بكونهم يمثّلون كلمة الله.

﴿وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾، أي يُنَبّؤوا الناس، فالأنبياء تكون لديهم الأنباء التي تلقوها من الله، فيُنَبّؤوا بها الناس.

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾ [الأعراف: ١٧٥].

﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ [يونس: ٧١].

﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ [الكهف: ١٣].

﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ في حال يجحد ﴿بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وليس ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾، فقد تحوّل الماضي إلى الحاضر، والكلام هنا للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذه إشارة بأن المعني بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ هم أهل مكة في حاضرهم، واستناداً إلى ذلك فإن ﴿بِهَا﴾ تعني آيات القرآن التي أنزلها الله على قلب رسوله في ديار ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، فنحن في مرحلة تنزيل قسم من آيات القرآن الكريم، وعندما ينتهي التنزيل فيما بعد في المدينة، يُصبح قرآناً كاملاً.

﴿فَإِن﴾ يجحد ﴿بِهَا﴾ قومك ﴿فَقَدْ﴾ في هذه الحال - لأن شرط تحقيق ﴿فَقَدْ﴾ اقترن بتنفيذ ﴿فَإِن﴾ -: ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾، لا يعتقد ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أن كفرهم بهذه الآيات يعني انتهاء كل شيء، وأننا سوف نسحب الرسالة والرسول معاً، بل إن ذلك سيبقى، وسيستمر ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ بآيات هذا القرآن ككل، لأن المكان والزمان سيتغيران مع تنفيذ الكفار لمضمون ﴿فَإِن﴾ التحذيرية، ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

فلا تظنوا يا أهل مكة بأن نكرانكم لآيات الله، سوف يُطفئ هذه الآيات، بل إن الله فضّل عليكم بأن أنزل في دياركم، وعلى قلب رجل منكم وفيكم آيات رسالته الخاتمة إلى العالمين، كما أنه فضّل عليكم بأن جعل خاتم أنبيائه ورسله مِن صلبكم. وقد تحققت عبارة ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ عندما ترك الرسول عليه الصلاة والسلام مكّة، ولقي ترحيباً كبيراً من الأنصار، بذلك حُرِم أهلُ مكّة من استئناف التنزيل الحكيم في ديارهم، لينتقل إلى المدينة، ويتشكّل ممّا أُنزل من آياته المتبقية كِتاب القرآن المتكامل، حيث إقامة رسول الله الجديدة، في ديار أخرى، وفي ظهراني قوم ﴿لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾. فحرمهم الله من تتمّة التنزيل، ومن إقامة رسوله في ظهرانيهم، دون أن يمس المكان الطاهر شيئاً، فقد لبثتْ مكّة في منزلتها لدى عموم المسلمين، وكان العِقاب لأهلها الذين أصرّوا على الشرك.

وعبارة ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾، أي أعطيناهم وكالة كي يستأنفوا نشر القرآن بعد الرسول، ويحملوا لواء الإسلام، والوكالة تلبث جارية، ولا تنتهي بموت الأنصار، أو تبقى مقتصرة في المدينة، فقد لبث توكيل الله تعالى سارياً حيث انتشر الإسلام، وتَبَيَّن كيف أن:

﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، أخذت تستقطب قوميات بأكملها من أرجاء المعمورة قاطبة لتعتنق الإسلام وترفع راية: لا إله إلّا الله محمد رسول الله. وهي تقدّم علماءها، ومفكريها، وقادتها، وأموالها، وسائر إمكاناتها لخدمة الإسلام، شكراً لله على نِعمة الهداية.

وإذا نظرنا إلى نتائج ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾، سيتبيّن لنا أن الدول الإسلامية غير العربية، هي أكثر عدداً من الدول الإسلامية العربية، وأن أعداد المسلمين من غير العرب، تفوق أعدادهم من العرب، كما أنه لا توجد بلاد في الأرض تخلو من المسلمين، وهؤلاء جميعاً من مختلف البقاع التي يتواجدون فيها، يولّون وجوههم إلى الكعبة في مكّة للصلاة، كما أنهم يقطعون مسافات طويلة للحج إلى بيت الله.

من جانب آخر يمكنك أن تستنتج درساً من هذه الآية الكريمة، وهو التأنّي، في اتخاذ القرارات بالنسبة لبعض الوقائع التي قد تواجهك، فالله تعالى بعزّته وجلاله، ترك وقتاً حتى تستقرّ الأمور في مكة، حيث خرج رسوله منها، وانتقل تنزيل الوحي إلى المدينة، وكان يمكن أن يتمم الله الوحي في مكة، كما كان يمكن أن يُبقي رسوله فيها، لكن مع الزمن تبيّنت حكمة الله في ذلك، حيث ذهب مشركو مكة إلى حيث ما شاء الله، وبقيت مكة موحّدة بأهلها، مستقطبة ومستقبلة ضيوف الرحمن إليها. فاعلم بأن هذه المساحة الزمنية قد رسّخت هذا الاستقرار. فالإنسان يميل إلى العُجالة بطبعه، لكن القرآن يُربّيكَ على مفاصل التأنّي، ويعلّمك كيف تواجه ردّات الفعل، بمساحة الاستيعاب التي يتيحها لك.

[٩٠]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾

بعد أن تبيّن كل ذلك، يُعيد الله رسوله إلى الماضي للاستئناف، وللمَقصَد من هذه الرواية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأنبياء الثمانية عشر، ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ﴾ فقد هداهم الله، وأصبحوا موضع ثقة، لذلك ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ استفد من الميراث الذي تركوه.

وقد اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، ما أرشده الله إليه، فاجتمعت فيه الخِصال الحميدة التي كانت في الأنبياء من قبله، وقد أهّله ذلك كي يسمو ويرتقي في مقامات الفضيلة، وهذه ميزة يتميّز بها النبي عن غيره من أنبياء الله. من هنا، فإن قراءة القرآن تُغني عن أي قراءة لأي رسالة سابقة، ذلك أن النفع، كل النفع قد أصبح في القرآن الذي استخلص ما سبقه من الكتب.

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾

أخبرهم بأنك لا تطلب منهم نفعاً، بل تحمل إليهم النفع، فكل ما تملكون لا يتساوى مع ما أحمله إليكم من النفع ﴿إِنۡ﴾ هذا القرآن فيه يقظة واستنارة ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ ٩٠﴾ كافة دون استثناء.

الباب الثاني والعشرون: شكر الله وتعظيمه

[٩١]

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾

التقدير هنا، بمعنى تقديم الشكر للمُعطي تقديراً على عطائه، فأنت عندما تشكره، تُظهر له بأنّك مقدّر عطاياه لك، وكون الله تعالى هو المعطي هنا، فيُضاف

التعظيم إلى الشكر.

لماذا يُضاف التعظيم إلى عطاء الله للإنسان، ولا يُضاف إلى عطاء الإنسان للإنسان، ويُكتَفى بالشكر؟

الجواب: لأن عطاء الإنسان للإنسان بالغاً ما بلغ، لا يتساوى مع عطاء الله، ثم إن كل ما يمكن للإنسان أن يعطيه للإنسان، فأصله ممّا أنعم به الله تعالى عليه، فهو يُكتَفى بالشكر على عطائه، فيمكن له ألّا يعطي، لكنه يستحق الشكر لأنه أعطى، لكن هذا العطاء هو جزء ممّا أعطاه الله، ولذلك فإن التعظيم يقتصر على الله وحده الذي يَعطي، ولا يُعطى. ثم إن تعظيمك للإنسان يحمل شكلاً من أشكال الشرك، فتعتقد مع هذا التعظيم للشخص بأن ما حلّت عليك من نعمة، إنما جاءت منه، ويمكنه أن يقطعها عنك.

فاعلم بأن الله العظيم قادر أن يُقلّب الموازين، فيجعل هذا الشخص بحاجةٍ إليك، ويجعلك تجزل له العطاء، فتتلقى منه الشكر، بعد أن كنت تقدم إليه الشكر.

أمّا نقيض التقدير، فهو الجحود، تُخبرك الآية بأن هؤلاء: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ على ما أنعم عليهم من عطاء ﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾. أي كان عليهم أن يشكروه ويُعظّموه ﴿حَقَّ﴾ شكره وتعظيمه. وهنا يتبيّن لك أن شكر الله وتعظيمه على عطائه ﴿حَقَّ﴾ له عليك، ثم إنك تتعرّف على عظمة الله، فتعظّمه من خلال تقديرك لِما أنعم به عليك. ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ على النِعَم التي أنعم بها عليهم، وهذا الكلام موجّه إلى بعض اليهود الذين جادلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن، ﴿إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾. وهذا نكران كبير لفضل الله عليهم، لأنه يعني أن الله تعالى قد خلق الناس، ثم تخلّى عنهم دون أن يرشدهم إلى الحق، ومَن الذي يمكن له أن يرشد الإنسان إلى الحق إذا تخلّى عنه الله.

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ﴾، فهذا نفي قاطع لكل ما أنزل الله، وهو كلام فيه ازدواجية، واليهود لا يؤمنون بمعتقد كهذا، لأن الإيمان ولو بكلمة واحدة من

التوراة، يجعل قائل هذا الكلام مُزدَوَجاً، فَمَن الذي قال هذا القول، ولماذا تم وصفه بصفة الجمع: ﴿إِذْ قَالُواْ﴾؟

ما يمكنك أن تستنتجه من هذه الآية، هو الحذر وضبط النفس حتى من قول كلمة طائشة، فتكون ضابطاً لأفعالك. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ"(١). فأن توظّف قوتك في ضبط النفس، لا أن تقول كل ما يأتي إلى لسانك، الذي يكون قد خرج عن سيطرتك، لأن خروجه يعني ضعفك، كما أن ضبطه يعني قوتك.

فاعلم أن الإنسان دون سواه من مخلوقات الأرض، يتمتع بلسان بليغ، يمكن أن يرفعه إلى درجات متقدمة في صفوف البشر، ويمكن أن ينحدر به إلى درجات سفلى من درجات الخزي.

والإنسان هو لسانه، واللسان يمثل شخصية حامله، لكن ثمة إنسان يقود لسانه، وثمة آخر ينقاد خلف زلات لسانه.

يُعلّمك القرآن الكريم سبل التعامل مع لسانك، ويبيّن لك حجم مسؤوليتك:

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [آل عمران: ٧٨].

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦].

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النحل: ٦٢].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١١].

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ [الممتحنة: ٢].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ"(١).

وعن معاذ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: "أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ وقَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ! فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ"(٢).

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ"(٣).

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقَفِيِّ، قَالَ: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ حَدِّثْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ، قَالَ: "قُلْ رَبِّيَ اللهُ ثُمَّ اسْتَقِمْ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ فَأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، ثُمَّ قَالَ: "هَذَا"(٤).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أَنَّ رَجُلًا شَتَمَ أَبَا بَكْرٍ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْجَبُ وَيَتَبَسَّمُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ رَدَّ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَامَ، فَلَحِقَهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ كَانَ يَشْتُمُنِي وَأَنْتَ جَالِسٌ، فَلَمَّا رَدَدْتُ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، غَضِبْتَ وَقُمْتَ، قَالَ: "إِنَّهُ كَانَ مَعَكَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ بَعْضَ قَوْلِهِ، وَقَعَ الشَّيْطَانُ، فَلَمْ أَكُنْ لِأَقْعُدَ مَعَ الشَّيْطَانِ" ثُمَّ قَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ ثَلَاثٌ كُلُّهُنَّ حَقٌّ: مَا مِنْ عَبْدٍ ظُلِمَ بِمَظْلَمَةٍ فَيُغْضِي عَنْهَا لِلهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا أَعَزَّ اللهُ بِهَا نَصْرَهُ، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ عَطِيَّةٍ، يُرِيدُ بِهَا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه البخاري في صحيحه.

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه.

صِلَةً، إِلَّا زَادَهُ اللهُ بِهَا كَثْرَةً، وَمَا فَتَحَ رَجُلٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ، يُرِيدُ بِهَا كَثْرَةً، إِلَّا زَادَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا قِلَّةً"(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللهِ صلى الله عليه وسلم "إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ فَتَقُولُ اتَّقِ اللهَ فِينَا فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا وَإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا"(٢). عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"(٣).

عَن ابنِ عُمَر رَضي الله عنْهُمَا قَالَ: قَالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُكْثِرُوا الكَلَامَ بغَيْرِ ذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّ كَثْرَة الكَلامِ بِغَيْرِ ذِكْرِ الله تَعالَى قَسْوةٌ لِلْقَلْبِ، وإِنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسي"(٤). عن فَضَالَةَ بْن عُبَيْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: "أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ"(٥).

وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ")(٦).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ"(٧).

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه أحمد.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) رواه أحمد.

(٦) رواه الترمذي.

(٧) رواه البخاري ومسلم.

والغيبة تقع عن طريق اللسان، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحجرات: ١٢].

وفي ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لصحابته رضوان الله عليهم: "أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ" قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ" قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ قَالَ: "إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ"(١). والغيبة عذابها شديد، وعقابها أليم يوم القيامة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ"(٢).

ذكر الإمام مالك في (الموطأ) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه، فقال عمر: (مَه! غفر الله لك، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: إن هذا أوردني الموارد).

وقال عبد الله بن أبي زكريا: (عَالَجْتُ الصَّمْتَ عِشْرِينَ سَنَةً فَلَمْ أَقْدِرْ مِنْهُ عَلَى مَا أُرِيدُ)، وَكَانَ لا يَدَعُ يَغْتَابُ فِي مَجْلِسِهِ أَحَدٌ، يَقُولُ: (إِنْ ذَكَرْتُمُ اللهَ أَعَنَّاكُمْ، وَإِنْ ذَكَرْتُمُ النَّاسَ تَرَكْنَاكُمْ).

وأخرج وكيع في الزهد، وأبو نعيم في الحلية، من طريق جرير بن حازم، قال: (ذكر ابن سيرين رجلا، فقال: ذلك الرجل الأسود، ثم قال: أستغفر الله، إني أراني قد اغتبته).

وكان عبد الله بن وهب يقول: (نذرت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أصوم يوماً، فأجهدني، فكنت أغتاب وأصوم، أغتاب وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

قال النووي في الأذكار: (بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال:

هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية آلاف عيب، فوجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان).

وقيل للربيع: (ألا تذم الناس؟ قال: والله إني ما أنا عن نفسي براضٍ، فأذم الناس؟! إن الناس خافوا الله على ذنوب الناس، وأمنوه على ذنوبهم).

وقال بكر بن المنير: (سمعت أبا عبد الله البخاري يقول: أرجو أن ألقى الله، ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً).

إن الله تعالى يأمر رسوله: ﴿قُلْ﴾ لهم إذا كان ذلك صواباً، فـ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾. أورد الحق سبحانه وتعالى: ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ جواباً على الإنكار، فقد أنعم الله على الناس بأن ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾، لكن الذي حدث أنكم ﴿تَجْعَلُونَهُۥ﴾ تكتبونه في ﴿قَرَاطِيسَ﴾ دفاتر ﴿تُبْدُونَهَا﴾ تُظهرون في هذه الكِتابات المُقَرطَسة مِن قِبَلِكم ما يتوافق مع أهوائكم، ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ تغفلون ما هو أكثر مّما تبدون من الحق الوارد في التوراة.

﴿وَعُلِّمْتُم﴾ رغم ذلك فقد بلغكم العِلم الحق من خلال القرآن ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فما تختلفون فيه هو نتيجة تحريفكم للتوراة، أو الكتمان، أي بعضكم يكتمه عن بعض، فينتج بذلك التباس في فهم التوراة من خلال هذا الخلل الذي دسّوه فيه. فالإبداء هو لبعضهم البعض، والكتمان هو عن بعضهم البعض، فبات البعض يعلم الحقيقة وهو مُخفيها، والبعض لا يعلمها لأنها أُخفيَت عنه. فكيف الخروج مِن هذه المعضلة؟

يُرشدهم الله عز وجل إلى القرآن، ويأمر رسوله أن يُفصح عن هذه الحقيقة على الملأ حتى يعلمها الجميع، ﴿وَعُلِّمْتُم﴾ كافة الآن ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كافة مِن قبل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦].

ولأن مهمّة النبي تقتصر على الإعلام، فبعد أن عُلِموا بالحق: ﴿ذَرْهُمْ﴾ الذر هنا بمعنى الاكتفاء بالإعلام، وعدم تجاوز ذلك، كما أنه لا يعني المقاطعة، فيبقى التواصل للتذكير: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾، ولذلك جاءت عِبارة خِتام الآية متصلة: ﴿ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

أي إذا استمرّوا في الجحود بعد أن عُلِموا، لا تتجاوز ذلك، اتركهم ﴿فِى خَوْضِهِمْ﴾ باطلهم ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ دون مقاطعة، فيمكن أن يعود إليهم بين حين وآخر، ويُجدّد تذكيره لهم، لأن الإنسان قابل للتغيير، فما لم يتحقق في هذه الموعظة، قد يتحقق في موعظة أخرى. وهذا المنهج في الدعوة يلبث مشكاة أمام سائر الدعاة دون تجاوزه، وكذلك هو الأصل بالنسبة للفتيا، فلا ينبغي للمفتين تجاوزه كونه منهج الله، وهو الأكثر جدوى، وينجم عن تجاوزه ما يُلحق الأذى بالمسلمين، فهم يستمدّون قوتهم من الاحتكام إليه، ويحل عليهم الوهن من تجاوزه.

الباب الثالث والعشرون: التبريك والتصديق

[٩٢]

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿وَ﴾ - اعلموا أن - ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿كِتَٰبٌ﴾ من عند الله ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ وحياً على قلب محمّد ﴿مُبَارَكٌ﴾، باركه الله، فباتَ يَحمِلُ خيراً كثيراً ﴿مُّصَدِّقُ﴾ موثّق ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يتضمّنه مِمّا جاء في الكتب السماوية قبله، ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ - يا محمّد ما تتلقّاه مِن الوحي -: ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾، أهل مكّة ﴿وَ﴾ كذلك ﴿مَنْ حَوْلَهَا﴾.

الحَول هنا هو كل موضع جغرافي يمكن للنبي أن يصله مِن أجل إبلاغهم هذا القرآن: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم مع الزمن ينتقل الحَولُ إلى حولٍ للحَول، وهكذا فيبقى الحَولُ مُتّسِعاً كل بقاع الأرض، حيث يتولّى أهلُ القرآن نشره في أصقاع الأرض بعد النبي صلى الله عليه وسلم، لأن هذا القرآن يحمل بركة الله إلى عِباده كافة حتى يصيبهم منه خيرٌ كثير، وحتى يُزال اللبس الذي وقع في الكتب السماوية التي سبقته، فهو خيرٌ بـ ﴿مُبَارَكٌ﴾، وبيان بـ ﴿مُّصَدِّقُ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ أنهم يُبعثون ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ كذلك ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بهذا القرآن، ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

الباب الرابع والعشرون: آفة التكهّن

[٩٣]

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾

ليس هناك مَن هو أكثر ظلماً مِن الذي ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. الافتراء هو أن تنسب قولاً إلى شخص دون أن يقوله، ولا يكون ذلك جهلاً منك، بل تتعمّده فتقوّل الشخص ما لم يقل، وأنت عالمٌ بأنه لم يقله، فذلك افتراء عليه، حينها تكون ظالِماً لأنّك افتريت على شخص. ولكن الذي: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: يكون ﴿أَظْلَمُ﴾ بمعنى أكثر ظلماً، أي يبلغ أقصى درجات الظلم، ولا ظالِم يتجاوزه، فهو ﴿أَظْلَمُ﴾ من جميع الظالِمين ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي لا يوجد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

فاعلم أن ذلك يكون بصورة عامّة، ولا يقتصر على قولٍ تحريفي قاله قائلٌ، ثم دَسّه في التوراة، أو الإنجيل، أوبعض الادّعاءات التي يَدّعي البعض بأن الله قائلها، بل إنّه يشمل كل مَن يضل الناس بضلالات، ويَدّعي أنها من القرآن.

﴿أَوْ قَالَ﴾ للناس: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ كي يتّبعوه إلى الباطل ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ مِمّا يدّعي.

عن قتادة: (نزلت في مسيلمة الكذاب الحنفي، وكان يسجع ويتكهن، فادعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه، وكان قد أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما: "أتشهدان أن مسيلمة نبي"؟ قالا نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما").

ويُروى أن مسيلمة الكذاب كان يقول: (محمد رسول قريش، وأنا رسول بني حنيفة).

ثم تستأنف الآية: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي يدّعي بأنه قادر أن يأتي بمثل القرآن:

روى حفص بن عمر عن الحكم بن أبان عن عكرمة: (أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه عارض القرآن فقال: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، فالخابزات خبزاً، فاللاقمات لقماً). ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾.

جاءت كلمة ﴿غَمَرَٰتِ﴾ إشارة إلى الشدّة، أي يغمرهم الموت، بمعنى يكونون مثل الغرقى الذين غُمروا بالماء، فحتى عند ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ يعاني ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بشدّة قبل أن تخرج أرواحهم من أجسادهم.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، البسط بمعنى المدّ، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مادّوا ﴿أَيْدِيهِمْ﴾، بمعنى لن تستطيعوا أن تنقذوا ﴿أَنفُسَكُمُ﴾ من ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الذي أُعدّ لكم جزاءً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾، تتعالون عن الإيمان بها.

[٩٤]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

عدتم إلينا أيها المستكبرون ﴿فُرَادَىٰ﴾ واحداً واحداً كما خرجتم من عندنا عندما ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ واحداً واحداً، فلا أحد معكم، أنتم وأعمالكم، وكل ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ إياه ﴿تَرَكْتُمْ﴾ - وه - ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾، فلا مال، ولا جاه، ولا ولد، ولا مؤازِر، فكل ﴿مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ أمره، أصبح ممّا كان ﴿وَ﴾ - الآن -: ﴿مَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ﴾، غاب عنكم ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، وقلتم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. الآن تحقّق ما أُنذِرتُم به، وما كنتم عليه ﴿تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ الوصل، فليس بوسع أحد أن يتدخّل في الحِساب العادل الذي يتولّاه الله وحده. ﴿تَّقَطَّعَ﴾ كلمة فيها تفتيت، فليس قُطِعَ، لأن القَطع يمكن له أن يتوصّل، ولكن التقطّع، بمعنى التمزّق، لا يجوز معه الوصل، كونه تمزّق، ولم يعد قابِلاً للتوصيل، فقد تفتّتَ الوصل الذي كان يربطكم ببعض، وتحوّل إلى نِتَف، ولم يعد قابِلاً للالتحام ببعضه.

﴿ضَلَّ﴾ توارى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾، الزعم هنا بمعنى الادّعاء الباطل، أي تنادي بشيء وتتمسّك به، وتدّعي بأنّك على صواب، والحقيقة أنّك تكون على باطل، وعندما تُنَبَّه، تستهزئ بالتنبيه، وتصرّ على ما أنت فيه مُعتَمِداً على التكهّن.

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾، أي: تكهّنتم، ﴿وَ﴾ الآن توارى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ﴾ تتكهّنون. والزعم هنا متّصلٌ بالآية ٢٢ ﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، فكل ما تدّعونه، وتتكهّنون به، إنما هو وهم كبير، والآية تنبّهكم كي تستيقظوا من ظلمة هذا الوهم إلى نور الحقيقة. وهذا التنبيه مِن نِعم الله الكبرى على الإنسان،

وهو مِن الدلائل الكبرى على رحمة الله بالإنسان، وأن القرآن كله خيرٌ في خير، ونعمةٌ في نعمة، وما دون القرآن، إنّما هو ادّعاءٌ في ادّعاء، وتكهّنٌ في تكهّن، وسرابٌ في سراب، وبالتالي لا يخرج عن كونه مجرّد زعم.

[٩٥]

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾

الفلق، هو الشطر، أي يشطر الحبّة القاسية تحت التراب، فتنبتُ فيها نبتتان، واحدة تزيح عنها التراب لتخرج، والثانية تحفر في التراب لتكون جذراً لهذه النبتة الصاعدة.

أمّا ﴿النَّوَى﴾ فهو كل زرع لا يكون أصله حبّاً، مثل: شجرة الخوخ، أو المشمش، أو التمر، وهو مختلف عن حبة القمح، أو الشعير، أو العدس، ﴿وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ - جمع نواة - هو أكثر قساوة من ﴿ٱلْحَبِّ﴾. فـ ﴿النَّوَى﴾ هو اللّب الكامن في حبة الفاكهة، وحتى تصل إليه، فتحتاج إلى استخراج اللب من حبة الفاكه، ثم استخراج ﴿النَّوَى﴾ من اللّب. ولا يكون الأمر سهلاً، فحتى بأسنانك قد لا تستطيع أن تكسر اللب لتُخرج منه ﴿النَّوَى﴾، بل تحتاج إلى جسم صلب كي تكسر به اللب. فاعلم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ﴾ يفلق الحبّة إلى فلقتين تحت الأرض ﴿وَ﴾ يفلق ﴿النَّوَى﴾ إلى فلقتين تحت الأرض.

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾، يجوز أن يكون ﴿ٱلْحَىَّ﴾ هو النبات، كونه يحتاج إلى عناصر الحياة مثل الماء، والهواء، وما شابه، وهذا النبات الحي قد أخرجه الله من بذرة قاسية ميتة، فبعد أن تُصبح هذه البذرة في التراب، وتُروى بالماء، ﴿يُخْرِجُ﴾ الله نباتاً حياً من تلك البذرة الميتة.

﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾، ثم إن الله عزّ شأنه، ﴿مُخْرِجُ﴾ ﴿ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ مِن النبات الحي، والأمر مشابه لإخراج الدجاجة من البيضة، وإخراج البيضة من

الدجاجة. في الأولى قال: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾، أي يجعل حياةً مِن لا حياة، وفي الثانية: ﴿وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾، أي يستخرج ميتاً من حي، وهذا المُخرَج، يُنتَفَع به ميتاً، فالخبز يُصنع من قمح يابس، إضافة إلى كونه أصلٌ لكل نبات حي قادم.

﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

إن القادر على كل هذا هو ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿فَأَنَّى﴾ كيف ﴿تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾. والإفك هو أمرٌ مرتهنٌ بادّعاء باطل، وبترابط هذه الآية مع الآية الأولى في السورة، يمكنك أن تعلم بأن هذه السورة المباركة، هي سورة الأدلّة الدامغة على وحدانية الله، وهي تبيّن ألوان نِعَم الله على الإنسان.

[٩٦]

﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

كذلك فإن الله عز وجل ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، أي يفلق الضوء عن الظلام، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، إشارة بأن الأصل هو الظلام، وهذا متّصل بالآية الأولى ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، فمن الظلمة، يفلق ﴿الْإِصْبَاحِ﴾، والفلق مِن أسماء الفجر، والله يفلقه عن الظلام، ليحل الضوء على الأرض، وهذا ممّا لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى، كما الأمر بالنسبة لفلق ﴿الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾.

إن الله هنا ينبهك إلى عظمة قدرته، وإلى فضله الكبير عليك، فلو توقف عن فلق ﴿الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾، لأصبح الناس في بؤس شديد، ولو توقف عن فلق ﴿الْإِصْبَاحِ﴾، للبث الناس في ظلام، وهذا يعني أن أية مصابيح اصطناعية لا يمكن لها أن تزيح شيئاً من العتمة، لأنها تكون عاجزة عن اختراق هذه العتمة التي تكون غير قابلة للاختراق، فهي عتمة دائمة لا يفلقها إصباحُ الله ساعة الفجر، كما لا يُصدر القمر نوراً، عندئذ لا يجسر أي مصباح بشري أن يُبدّد ولو جزءاً يسيراً منها، وهذا من شأنه أن يُبعد احتمال وجود أي مصباح، لأن الإنسان ليس بوسعه أن يقوم بالصناعة، وهو

في عتمة أزلية، ثم إن فكرة وجود المصابيح، هي فكرة مُستَنبَطة من أشعة الشمس، ونور القمر ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٦].

﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾، حينما يخيّم الظلام، تخفّ الحركة، ويعمّ الهدوء في محراب سكون الليل حتى يخلد الناس إلى الراحة، ويسكنون إلى بعضهم بعضاً. فتكون قد انطوت صفحة جديدة من ضجيج النهار، عندما خرج كلٌ إلى موضع عمله، وتفرّقت العائلة عن بعضها البعض، ولذلك جاءت كلمة السكن، لتُعبّر عن عودة الأفراد إلى عوائلهم بعد أن خرجوا في مبتدأ ضجيج النهار الذي هو نقيض سكون الليل، فالآن انتهى ضجيج النهار، وقام كلٌ بعمله الذي خرج من أجله، وعاد أفراد العائلات يسكنون إلى بعضهم البعض في مساكنهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [يونس: ٦٧]. السكن يزيد التآلف بين أفراد العائلة، كونه لا يقتصر على النوم، بل يجلسون معاً، يتناولون العشاء، يتسامرون، يروون لبعضهم البعض ما حدث معهم في ساعات النهار. إذن هي فترة الاستئناس والاسترخاء والمسامرة، وتناول ما طاب من طعام، وما لذ من شراب، والاستمتاع بالمشاعر العائلية المشتركة بين أفراد العائلة حتى يتكلل ذلك بمتعة الإيواء إلى الفراش.

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾، الحُسبان من الحِساب، فمن خلال القمر تُعرف المواقيت، كذلك فإن الشمس تُعلن ولادة يوم، وانتهاء آخر، فمن خلالها يُعرف عدد الأيام، ومن خلال ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ معاً يتم التعرّف على الوقت بالساعة، والتعرّف على اليوم، والأسبوع، والشهر، والسنة.

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾، ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور إنما هو مقدّر بقدر، ومحسوب بحساب من الله ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾. جاء اسم الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارة بأن الذين يشركون، لا ينالون من عزّة الله، بل يذلّون أنفسهم، ومهما ادّعى الإنسان العزّة، فإنّه يذل لعزّة الله الذي ذل لعزّته كل عزيز.

ثم ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ الذي لا يفوت علمه شيء.

الباب الخامس والعشرون: الاهتداء والاستيعاب

[٩٧]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

اعلموا بأن الله: ﴿هُوَ﴾ وحده ﴿ٱلَّذِى﴾ مَنّ عليكم إذ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ﴾ المتلألئة في السماء

﴿لِتَهْتَدُواْ﴾ لتسترشدوا ﴿بِهَا﴾ إذا ضللتم السبيل، سواء أكنتم تمضون في ﴿ٱلْبَرِّ﴾ أو تمضون في ﴿الْبَحْرِ﴾، وحلّت عليكم ﴿ظُلُمَٰتِ﴾. الظلمات هنا إشارة إلى التيه، فـ ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ تمنع العتمة أن تُخيّم على كل شيء، وعندما تخيّم عتمةٌ على الإنسان، يبحث عن أي بصيص ضوء كي يهتدي به، وهذا البصيص يمنع عنه - على الأقل - الشعور بالتيه، فالأعمى هو الذي لا يرى البتة، وهو منسجم على أنّه لا يرى، لكن الذي يرى، وبغتة، ضلّ الطريق، ثم وقع عليه ظلام حالِك، فهو يُدرِك بأنّه ليس أعمى، ولكن حلكة الظلام تمنعه من رؤية شيء، وهُنا يبدأ الفَزَع، فيبحث عن أي شيء يمكن له أن يضيء مهما كان صغيراً، لأنّ هذا الضوء الصغير من شأنه أن يُخفّف عنه حالة الفزع.

هنا جعل الله ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ المتلألئة في السماء ترفع الفزع عن التائهين ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾، فمهما كانت الظلمة حالكة عليكم أينما تواجَدتم في مساحة ﴿ٱلۡبَرِّ﴾، أو مساحة ﴿الْبَحْرِ﴾، ومهما انقطَعَتْ عنكم وسائلُ الاسترشاد، فإن الله لم يتركَكم لوحشة التيه، بل ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا﴾ مِن تيهكم إلى الموضع الذي تبتغون.

﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، فهذه دلالات بيّنها الله تعالى ﴿لِقَوۡمٍ﴾ لأناس يتدارسونها، ويتذاكرونها، وينتفعون بما ﴿يَعۡلَمُونَ ٩٧﴾ منها.

الباب السادس والعشرون: المُستَقَر والمُستَودَع

[٩٨]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾

﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم﴾، جعل لكم حضوراً مِن لا حضور، والنشوء بمعنى الإيجاد، أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِيٓ﴾ أوجَدَكم من لا وجود، فلولا أن أوجدكم الله، ما كان لكم أي وجود، وما كان بوسع أحد أن يوجدكم. فهذا بيان يضعه الله تعالى بين أيادي الذين يشركون به، أو ينفون وجوده، فمادمتَ موجوداً، لا بدّ مِن واجد أو جدك، فاعلم أن وجود الخالق دليل على وجود المخلوق.

وجود المخلوق دليل على وجود الخالق.

إن الله لا ينكر وجود الإنسان ولذلك ليس للإنسان أن ينكر وجود الله، عندما يؤمن الإنسان بوجود الله، يؤمن بوجود الإنسان.

درجة النكران بوجود الله عند الإنسان هي درجة النكران بوجود الإنسان عند الإنسان، درجة الإيمان بوجود الله عند الإنسان هي درجة الإيمان بوجود الإنسان عند الإنسان.

يكون المخلوق موجوداً بقدر وجود الخالق ويكون الخالق موجوداً بقدر وجود المخلوق، مَنْ لا يؤمن بوجود خالق يضيق عليه أن يؤمن بوجود مخلوق.

إيمان الإنسان بوجوده هو إيمان بوجود الله، إيمان الإنسان بوجود الله هو إيمان بوجوده.

الذي لا خالق له، لا صانع له، لا مبدع له: لا وجود له، لا دليل يثبته، إنه دائم الريب في وجوده، يعيش حالات متأزمة في تقلّبات الفصام.

وجود الشيء هو دليل على وجود مبدع له.

وجود بِناء هو دليل على وجود بَنّاء.

وجود كِتاب هو دليل على وجود كاتب.

وجود مولود هو دليل على وجود أب.

إن أعظم ضمانة لمستقبل الإنسان هو وجود خالقٍ عادلٍ له.

الخالق دوماً هو مستقبل المخلوق.

المخلوق دوماً يؤدي إلى خالق.

لا وجود لمخلوق دون خالق.

إن أظلم مستقبل للإنسان أن يكون مستقبله الإنسان، والأظلم أن يكون الإنسان بلا مستقبل.

الضياع كل الضياع أن يضيع المبدَع عن مبدعه.

الإيمان قوة، اللاإيمان وهن.

الإيمان جمال، اللاإيمان قبح.

الإيمان شروق، اللاإيمان كسوف.

الإيمان حياة، اللاإيمان موت.

الإيمان نجاة، اللاإيمان هلاك.

الإيمان استقرار، اللاإيمان شتات.

الإيمان معرفة، اللاإيمان جهل.

الإيمان مودة، اللاإيمان غل.

الخطوط الأولى نحو معرفة المخلوق تبدأ من معرفة الخالق، تكون في عجز عن معرفة نفسك قدر ما أنت في عجز عن معرفة خالقك، كلما ازددت إيماناً بالخالق ازددت إيماناً بنفسك، ما لا تعلمه من أحد عن نفسك تعلمه من خالقك.

ما لا يقوله لك أحد عن نفسك، يقوله لك خالقك.

وجود الخالق هو وجود للمخلوق.

قوة الخالق هي قوة للمخلوق.

جمال الخالق هو جمال للمخلوق.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم﴾ جميعاً ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ آدم عليه السلام، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ لعلّه المَني الذي يستقر في ظهر الرجل، ابتداءً من آدم عليه السلام، ﴿وَمُسْتَوْدَعٌ﴾. يجوز أن يكون رحم المرأة الذي يستودع فيه الرجل مَنيّه، فهو: ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ لأنّه يُستودَع، فالـ ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ هو المكان الذي يحتفظ بِما استودِعَ فيه، فَمَني الرجل عندما يتلاقح مع مَني المرأة في رحمها، يلبث مستودَعاً فيه، حتى يتشكّل بذلك كائن بشري جديد، ليفتح عينَيه لأول مرة على الوجود، ويستأنف مسيرة نشوء آبائه وأجداده.

وكلمة ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾ هي للرحم الذي يحتفظ بمني الرجل، ويكون صالحاً لعملية تشكّل الجَنين، لكن إذا لم يحتفظ هذا الرحم بالمني ويطرحه خارجاً، أي لا يكون صالحاً لعملية اللقاح، سواء لوجود عطب في الرحم، أو لبلوغ المرأة سن اليأس، فهو رحم غير ﴿مُسْتَوْدَعٌ﴾. وهذا يأتي بالمقابل على الرجل أيضاً، فليس كل ظهرٍ يكون مُستَقَراً للمني الذي يصلح أن يتلاقح مع مني المرأة، فقد يكون المني هو عبارة عن سائل منوي به نسبة ضئيلة من الحيوانات المنوية، بحيث لا يغتني بالخواص الكافية التي تجعله مؤهّلاً للتلاقح.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾. الكلمة الأخيرة من الآية السابقة كانت ﴿يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ لأن الأمر كان يخص الاهتداء تجنّباً من التيه ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾،

وهنا فالكلمة الأخيرة ﴿يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾، في ذات الجملة الختامية المكرّرة، باختلاف الكلمتَين الأخيرتَين. فاعلم أن الخلاف بين العلم والفقه في الآيتين المتتاليتَين، هو أن العلم يعني الاهتداء من خلال الأشياء الظاهرة، والفقه هو الاستيعاب من خلال الأشياء الباطنة. والعلم يتكامل بالفقه، كما أن الفقه يتكامل بالعلم، فتعلّمك الآيتان أن تُدرك من خلال التعلّم المَظهري، وتفطن من خلال التفقّه الجَوهَري، أي تتعلّم ممّا ترى، وتتفقّه ممّا لا ترى. فعندما تتوه في مكان، وتسأل شخصاً كي يرشدك، عليك ألّا تمضي معه دون أن تُدرك قيمة الاستدلال، وأن تدع الشخص يقودك وكأن الأمر لا يعنيك، بل عليك أن تتعلّم من هذا الاستدلال، وتشكر الشخص الذي أدلّك إلى الصواب، فإذن عليك أن تؤمن بأن شخصاً قد أوصلك إلى المكان المُراد، وأن الله هو الذي خلق هذا الشخص، وعلّمه سبيل الاستدلال حتى أدلّك. فلولا أن جعل الله ﴿ٱلنُّجُومَ﴾، ما كان لها أي وجود، وبالتالي للبثتَ تائهاً ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾، فإذن لولا خَلَقَ الله أصلكم آدم عليه السلام، ما كان لكم أي نشوء أو استكثار.

الباب السابع والعشرون: المُشتَبَه والغير مُتشابِه

[٩٩]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾

فإن كنتم ترون الأرزاق وافرة بينكم بوفرة الماء، فاعلموا بأن هذا الماء أنزله الله مطراً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وأن ﴿نَبَاتَ كُلِّ﴾ صنف، ما كان ليخرج دون أن يُخرجه الله حتى لو جاءه الماء، فالله هو الذي أخرج ﴿بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتَ﴾ أصل ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ينبت ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾ بعد ذلك ﴿مِنۡهُ﴾ من الأصل ﴿خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا

﴿مُّتَرَاكِبًا﴾. فكما أن الله ﴿أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، أخرج أصل كل نباتٍ، ومن هذا النبات الأصل أخرج ﴿خَضِرًا﴾ ما هو رطب أخضر، ويُخرج من هذا الخضر ﴿حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ مثل حبّات السنبلة المتراكبة على بعضها البعض.

﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾.

صورة متلألئة بديعة الجمالية: ﴿وَمِنَ﴾ شجر ﴿ٱلنَّخْلِ﴾ التمر ﴿مِن طَلْعِهَا﴾، الطلعُ مِن الطلوعِ ﴿قِنْوَانٌ﴾ جمع قِنْوٍ، وهو عنقود النخلة ﴿دَانِيَةٌ﴾. الدنو هو القرب، وتدنو من الشيء، أي تقترب منه، فثمار النخلة قريبة من مُتناول اليد، كما أنها متقاربة إلى بعضها البعض، بحيث يمكن للمرء أحياناً أن يقطفها حتى وهو جالس. وتتميّز النخلة بصِغَرِ حَجمها واكتنازها بالثَمَر، ويُعَدّ ثمرها من المصادر الغذائية الهامة التي تمدّ الجسد بالطاقة، كونها غنية بنسبة جيدة من السكر الطبيعي، وهي مُتاحة لفقراء الناس وأغنيائهم، كونها مُتعدّدة الأصناف والجودة، فمِن أصنافها ما هو باهض الثمن، وما هو متوسط، وما هو منخفض، إضافة إلى هذا كله فالنخلة تتمتّع بلمسات جمالية، وبطلعة بهية ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: ١٠]، ولذلك تُزرَع على امتداد بعض الطرقات في بعض المدن والمناطق، حتى تضفي لمسات جمالية إلى المظهر العام للمكان.

﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾.

﴿وَ﴾ - كذلك تخرج منه - ﴿جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾، ثلاثة أنواع من ثمار الشجر ﴿مُشْتَبِهًا﴾، ثمار هذه الأنواع تشبه بعضها البعض إلى درجة قد يشتبه الأمر على المرء إن لم يتفحّصها جيداً، أو يتذوّقها. فحبّة العِنَب الصغيرة تكون متشابهة مع حبّة الزيتون، وحبّة الرمان الكبيرة تتشابه مع حبّتَي العِنَب والزيتون إلى درجة قد يلتبس فيها الأمر على المرء. واعلم أن الاشتباه هنا، غير الشَبَه، فالمرء يُصبح في حالة اشتباه من كثر الشبه الظاهري، أمّا الباطني فهو ﴿غَيْرَ

﴿مُتَشَابِهٍ﴾، فلو كنتَ في ظلمة، ومددتَ يدكَ إلى طَبَقٍ يحتوي على الأصناف الثلاثة، فمن خلال الطعم، وكذلك من حيث الخواص والمزايا يكون تمييزها.

ويمكن أن يكون ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ في ذات الصنف من الثمر، فتأتي ببعض الرمان، تكسر واحدة، فتكون حلوة، وتكسر أخرى، فتكون حامضة، وتكسر أخرى، فتكون متوسطة، وواحدة تكون حَبَّاتها حمراء، والأخرى بيضاء، والأخرى متوسطة.

والأمر يكون أيضاً للعنب، فقد يكون حلواً، وقد يكون حامضاً، وقد يكون متوسطاً، وكذلك الأمر بالنسبة للزيتون.

ثم إنك لو أتيتَ إلى خواص كل حبة، فقد تطفحُ حبةُ الرمان بما تحتويه من ماء حتى يسيل وأنت تأكلها، وقد تكون رمّانة جافة قليلة الماء، كذلك الأمر بالنسبة لحبة العنب، ويمكن أن تكون حبّة الزيتون مكتنزة بالزيت، ويمكن أن تحتوي على نسبة ضئيلة منه.

وفي كل ذلك يكون الاشتباه، وهذا الاشتباه هو الذي يجعل الناس في حالة اشتباه من بيان ما تحتويه حبات الثمار الثلاث المذكورة في الآية الكريمة، فهي غير متشابهة الطعم كأصناف، وغير متشابهة الطعم حتى بالنسبة للصنف الواحد، ذلك أن الله تعالى قد جعل بها اشتباهاً، وهذا الاشتباه يُغنيها ويبيّن آيات الله فيها كما سيأتي في مختتم الآية.

﴿انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾، تأمّلوا الثمر في مراحل نضجه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ﴾ الإبداع الإلهي ﴿لَأٓيَٰتٍ﴾ دلائل مادّية في قلب الطبيعة المرئية والملموسة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٩٩﴾، سواء أكانت لديهم رغبة ونيّة في الإيمان مع شيء من التردّد، فإن مضمون ﴿ذَٰلِكُمْ﴾، يُزيح التردّد عن كاهلهم فيؤمنوا، أو كانوا مؤمنين، فيزدادون في درجات الرسوخ في الإيمان.

الباب الثامن والعشرون: الخَرق

[١٠٠]

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾

جعل المشركون ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ من ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ الذين ﴿خَلَقَهُمۡ﴾ الله ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ﴾ نسبوا لله ﴿بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ﴾ افتراءً، مثل قول اليهود: عُزير ابن الله، وقول النصارى: المسيح ابن الله، وقول مشركي العرب: الملائكة بنات الله. فالمرء يخرق عندما يقول أشياءً لا تمت بصلة إلى الحقيقة ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ دون تحقّق. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾، تنزيه الله من المنسوب إليه، ﴿وَتَعَٰلَىٰ﴾ عظمة ﴿عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ بهذا الافتراء.

[١٠١]

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾

تستأنف السورةُ المباركة تقديم كنوز المعاني الثمينة على أطباقٍ ذَهَبيّةٍ من جمالية وبلاغة وفصاحة اللغة: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فإن الله الذي تعبده، وأنتَ قويٌ به، وأنتَ تعقد كل آمالك عليه، هو: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، وليس بوسع أحد أن يُغلق معنى ﴿ بَدِيعُ﴾ على تعريف واحد، فليس البديع هو مَن أبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فحسب، بل هو جميل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فعندما يكون معك، يكون كلُ شيءٍ طَوع أمرك، وعندما يكون عليك، ستكون ذاك الشقي الذي خَسِرَ كل شيء، الخسارة التي لا يمكن تعويضها بأي حالٍ مِن الأحوال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ ﴾. إن أي تصوّرٍ، أو تخيّلٍ، أو اعتقاد بوجود شريك له، فإن ذلك يعني أنه غير متفرّد بأنه وحده ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فلا ﴿وَلَدٞ﴾ لديه، لأن

الذي يكون له ﴿وَلَدٌ﴾، يكون هذا الولد مولوداً له، ولا بدّ لهذا المولود من والدة تكون قد ولدته. وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى، يتحوّل - وفق هذا الاعتقاد الشركي - إلى والدٍ للمولود، وإلى زوجٍ لوالِدَته، وهذا ينالُ مِن تفرّده بالألوهية. ولذلك كان مُفتَتَح الآية، بيان الله تعالى ذكره، للناس بأنه وحده: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾، أي أنه وحده قد أبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وهو - عزّ اسمه - وحده جميل ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وبالتالي هو المتفرّد الذي تكون له العِبادة، وكونَه المتفرّد القادر على كل ما لا يقدر عليه أحدٌ سواه، فأمام هذه الحقيقة البيانية التي يبيّنها الله تعالى ويُخبر بها الناس، يسقط أي اعتقاد بوجود شريك له وفق أي مقياس من المقاييس. فالحسم في هذه المسألة، أن الله يخلقُ العِباد، ولا ينجبُ الأبناء، فهو - تجلّت قدرته - قد خلق آدم عليه السلام، واعتباراً مِن آدم بدأ الناسُ يتكاثرون من خلال الولادة فحسب، كما تقدم معنا في الآية ٩٨، ولا يوجد بشرٌ دون آدم قد خُلِقَ دون ولادة، وحتى في الحالة الشديدة الاستثنائية، والوحيدة التي حدثت في تاريخ نشوء الإنسان مع عيسى عليه السلام، فكانت ثمة والدة ولدته، وهي المرة الوحيد التي حدثت فيها ولادة إنسان دون والد، فالله هو خالق النفس الواحدة التي هي أصل النشوء البشري، وكل ما جاء نتيجة هذا الأصل، لا يمكن له إلّا أن يكون مَخلوقاً، وما دامت مريم عليها السلام هي ابنة عمران، فلا بدّ لابنها أن يكون حفيداً لعمران، من نسل آدم عليه السلام.

لذلك فإن أي اعتقاد بأن عيسى هو ابن الله، لا يخلو من الازدواجية، فكيف يكون الله أباً له، وعمران جداً له، أي يكون عمران جداً لابن الله. فتأمّل قول الله لأصحاب هذا الاعتقاد: ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ زوجة، والله - جَلّ شأنه - يصف الزوجة بالصاحبة كما في قوله: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ ﴾ [عبس: ٣٦]. فكيف يستوي أن يكون الله سبحانه وتعالى، زوجاً للأم، وأباً للابن، وبذات الوقت رباً لهما. ولذلك تضع الآية أصحاب هذا الاعتقاد الضال في صلب هذه الحقيقة، وتدعوهم إلى التفكّر فيها، أي: فكّروا ﴿أَنَّىٰ﴾ كيف ﴿يَكُونُ﴾ لله ﴿وَلَدٞ وَلَمۡ

﴿تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ﴾. عندها ستعلمون أن الذي لا صاحبة ﴿لَهُۥ﴾، لا ﴿يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾.

على ما تبيّن، فإن كل إنسان، اعتباراً من آدم، لا يمكن له أن يخرج عن عبودية الله الذي ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، ولا شيء على الاطلاق - بموجب شمولية قوله تعالى ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ - إلّا ويكون مِن خَلق الله، وعلى هذا، فإن الله وحده ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٠١﴾، لا شيء بوسعه أن يخرج عن محيط علمه.

[١٠٢]

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ١٠٢﴾

هذا هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ﴾ الذي هو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾، فارتقوا إلى هذا الإيمان الذي تستمدّون منه قوتكم، وتوازنكم، ونقاء الإنسان في داخلكم. فالرب لا يعلوه أحد، والأب هو دون الرب وهو عبدٌ للرب، وما يقدر عليه الرب، لا يقدر عليه الأب. والإنسان يكون قوياً، وجميلاً، ومتوازناً بربّه، أكثر ممّا يكون بأبيه.

فالإنسان هو خلقٌ أبدعه الله، والإبداع أعلى من الإنجاب، وعاطفة الأبوة مهما عَلَتْ فإنها لن تبلغ مبلغ الإبداع. ولذلك فإن الإنسان هو أقرب إلى الله من أبيه وأمه، ومَنْ يحبه، وكذلك فإن الإبداع هو أسمى من الإنجاب وأقوى من أي علاقة ما بين البشر والبشر، فلا يكون من حق الإنسان أن يفتخر بأنه ابن فلان، بقدر ما يكون من حقه أن يفتخر ويسمو لأنه إبداع الله، وكل إنسان هو إبداع الله، وعلى هذا الشكل العادل فإن الناس جميعاً يشتركون في هذه الميزة الإلهية.

والإنسان بعد ذلك يكون حراً في أن يسمو بنفسه فيكون مقرّباً من مبدِعه، فقد ورد أن عرش الرحمن اهتز لموت سعد بن معاذ، وكذلك هو حر في أن يذل نفسه فيبتعد عن مبدِعه إلى أن يجرّد نفسه من كل خُلقٍ طيب.

المنجِب يفرح عندما يرى أعمال ولده الصالحة، فكيف بالله المبدِع وهو يرى أعمال مبدَعه الصالحة، والله يبيّن للإنسان سبل الخير ليعمل صالحاً ويرشده إلى

سواء السبيل، وهو الذي خلق الناس جميعاً، وهم الذين يقتربون من الله أو يبتعدون عنه. عَنْ أَبِي نَضْرَةَ: (حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ" قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[1].

لقد شاء الله أن يخلق الإنسان ويملّكه الأرض وما عليها، والخلق أعلى درجات الرحمة من أي علاقة أخرى، وأمام هذه العلاقة السامية الكبرى مع الله، يمكن للإنسان أن يراجع وقائع أعماله في مناسبات شتى ويرتقي بها ليقدّم لله أنه على قدر مسؤولية الحياة الكبرى التي شاء الله أن ينعم بها عليه، ومسؤولية الأخوة الإنسانية التي أنعم بها عليه ليكون أخاً للأنبياء والرسل والصالحين، وليكون عنصراً في سلسلة الأخوة الإنسانية، ويشكل تاريخاً كاملاً وسجلاً إنسانياً خاصاً به.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إن الله ﴿هُوَ﴾ وحده المتفرّد بقدرته، ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾، كل ما دون الله هو مخلوقٌ له، فاعبدوا الخالق، ولا تعبدوا المخلوق، ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾، الحافظ لكل شيء، فليكن اتكالكم على الله، لا على غيره.

الباب التاسع والعشرون: المُدرِك اللامُدرَك

[١٠٣]

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾

إن الله الذي هو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ لا تستطيع الأبصار أن تراه إلّا إذا شاء هو أن يتراءى لها، ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾ شاءت ذلك أم

(١) رواه أحمد.

أبت. والله تعالى يأذن للمؤمنين أن يروه يوم القيامة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣)﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ"(١). ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ بعباده ﴿الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾ بما يسرّون وما يعلنون.

[١٠٤]

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (١٠٤)﴾

ما تم ذكره وبيانه وتفصيله، فيه: ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ، وهو نورٌ في القلب يستبصر به الإنسان بقلبه، وهو ليس كنور البصر الذي يبصر به بعينَيه، فالبَصيرة تفعيلٌ للمشاعر والمدركات، فما بيّنه لكم القرآن، فيه: ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

فتعلم هنا بأن آيات الله فيها ﴿بَصَائِرُ﴾ القلوب، وهذه الـ ﴿بَصَائِرُ﴾، تُحرّك المشاعر والمدركات حتى تتفاعل وتستجيب لها: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ استجاب وتفاعل، ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ لأنه ينفع نفسه، ﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾، لم يتفاعل مع هذه الـ ﴿بَصَائِرُ﴾، ولم تتحرّك مشاعره إزاءها، ﴿فَ﴾ - يكون بذلك قد جنى - ﴿عَلَيْهَا﴾.

﴿وَ﴾ قل لهم يا محمّد: ﴿مَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾. إن الله هو الحفيظ الذي يحفظ الأعمال، ويفعل ما يشاء، إنما أنا أبلغكم الرسالة.

[١٠٥]

﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١٠٥)﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وفقما نشاء ﴿نُصَرِّفُ﴾ نبيّن ﴿الْآيَاتِ﴾، الأدلّة الملموسة،

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

والمحسوسة ﴿وَلِيَقُولُواْ﴾، وليدّعي المشركون بأنها ﴿دَرَسْتَ﴾، أي تدارسها الرسول، ونقلها ممّا كان الناس يتداولونه في الماضي. ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ﴾ نظهره ونعلّمه ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١٠٥﴾ قيمة هذه ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾، فيتخذوا منها العبرة، ويزدادوا بها إيماناً وعِلماً، وبالمقابل لتبقى مدروسة بالنسبة للّذين لا يعلمون قيمة هذه ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾، ولا يتخذوا منها العبرة، فيلبثون في جهلهم الأعمى.

الباب الثلاثون: حدود البلاغ

[١٠٦]

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٠٦﴾

لا شأن لك باللذين يقولون بأن هذه ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾، ﴿دَرَسْتَ﴾، فمهمّتك أن تـ ﴿تَّبِعْ﴾ تستأنف نشر ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، الواحد الأحد الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وأن تـ ﴿عْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. تتجنّب التأثّر بما يقوله المشركون، وتكتفي بإبلاغهم ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

[١٠٧]

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ١٠٧﴾

اعلم يا رسولنا بأن هؤلاء لا يشركون رغماً عن مشيئة الله، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ألّا يشركوا لما كان بوسعهم يشركوا و﴿مَآ أَشْرَكُواْ﴾ لحظة واحدة ولو في أنفسهم، وما كان ليخطر لهم أن يشركوا.

﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ﴾، ﴿وَمَا﴾ أرسلناك ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ لأعمالهم وأقوالهم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ١٠٧﴾، فلستَ وكيلهم عند الله، لا تمثّلهم، ولا تتحمّل مسؤولية شركهم، لأن مسؤوليتك تقتصر على البلاغ.

[١٠٨]

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾

نهى الله تعالى أن يسبّ المسلمون، أوثان المشركين ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لأن ذلك من شأنه أن يجعلهم يردّوا السَبَّ بالسَبِّ كَرَدِ فعل ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا﴾ بغير علم وهم يعتقدون بأنهم يردّون بالمثل استناداً إلى جهلهم.

تضعنا الآية في قلب الحدث، حيث إن المشركين يَدَّعون بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، أخذ هذه الآيات تدارساً عن كلام الناس، ولَعلّ ذلك يجعل المسلمين يَردّوا على هذا الادّعاء بتوجيه السِباب إلى أوثانهم.

وقد بيّن الله في الآية ١٠٥ إذ قال جلّ شأنه: ﴿وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ﴾، فإن قولهم هو محض افتراء، ثم إنهم يبدون واهنين أمام قوة الحقيقة الساطعة في القرآن، ومَن لم يتعظ فإن الله لم يجعل رسوله ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ﴾، كما أنه ليس ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

تعلّمك الآية كذلك ألّا توجه الإهانة إلى معتقدات الناس في مشاربهم ومآربهم، وكما أنك اهتديت ﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥]، ولم تهتد بقوة السيف، فعليك أن تمنح هذا الحق للناس جميعاً، لأن السيف ليس بوسعه أن يبث الإيمان في القلب، بل بوسعه أن يبث الرعب والخوف، فيعلن المرء إيمانه خوفاً من السيف، وتفادياً لأذى السيف، وليس إيماناً بالله، بل لعلّه يزداد عِناداً في كفره، لأن الله سلّط حامل السيف هذا عليه كي يُخرجه من معتقده بالقوة.

فليس من قِيَم الدعوة الإسلامية الراقية أن تُجيز لنفسك، وتقود الناس رغماً عنهم إلى المسجد، وأنت تحمل السيف على رقابهم، وأنت تقول: صلّوا وإلّا قتلتكم. ومَن يرفض تقدم على قتله.

فإن ابتغيتَ الإسلام، فعليك أن تأتسي برسول الإسلام الذي لم يجعله الله ﴿حَفِيظًاۖ﴾ على ناكري الإسلام، ولم يجعله ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

وفي استئناف الآية ضمن هذا المسار الدَعَوي القِيَمي، الأخلاقي، الإنساني: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا﴾، ونستطيع ألّا نُزَيّن، فنحنُ الذين ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾، فهو الذي يعاقب ويثيب، ولستم أنتم. ﴿وَ﴾ على ما تبيّن: ﴿لَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾، أي لا توجهوا إليهم حتى كلمة بذيئة، ولتكن دعوتكم إليهم بالكَلِم الطَيّب.

[١٠٩]

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾

فاعلم أنه لا يُقسِم بالله إلّا المؤمِن به، فالمُشرك هو مؤمِن بالله، والدليل أنّه يُشرِك به، وإلّا لنفى وجود الله، وبالتالي ما كان في مُعتَقَدِهِ سوى الأوثان، لكن الشرك يكمن في اعتقاده بأن هذه الأوثان من شأنها أن تُقرّبه: ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، أي تكون شفيعة له عند الله الذي يؤمن به، وقد تقدّم في الآية ٩٤: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

فقد أقسم مشركو مكّة للنبي صلى الله عليه وسلم، ﴿بِاللَّهِ﴾ الذي يؤمنون به شِركاً ﴿جَهْدَ﴾ الجهد من المشقّة، و: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي أشدّ ﴿أَيْمَانِهِمْ﴾، ﴿لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾، إذا استجاب لمطلبهم ﴿لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾، أي يؤمنون بوحدانية الله الذي لا شريك له، لا أن يؤمنوا بأنها من عند الله، ويلبثوا في شركهم.

أخرج ابن جرير، عن محمد بن كعب القرظي، قال: (كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قريشاً فقالوا: يا محمد تخبرنا أن موسى كان معه عصى يضرب بها البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى، وأن ثمود لهم ناقة، فأتنا من الآيات حتى نصدّقك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أي شيء تحبون أن آتيكم به"؟ قالوا: تجعل لنا الصفا ذهباً، قال: "فإن فعلت تصدقوني"؟ قالوا: نعم، والله لئن فعلت لنتبعنك أجمعون، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو، فجاءه جبريل فقال له: إن شئت أصبح ذهباً، فإن لم يصدقوا عند ذلك لنعذبنهم، وإن شئت فاتركهم حتى

يتوب تائبهم، فقال: "بل يتوب تائبهم"، فأنزل الله: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَجْهَلُونَ ١١١﴾).

يوجّه ربُ العزّة رسوله كي يرد عليهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، بمعنى ليس لكم أن تشترطوا شروطاً على الله حتى تؤمنوا ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾، لعلّ الكلام هنا موجه للنبي وللمسلمين معاً، لأن بعض الروايات تذكر أن بعض المسلمين أيضاً أرادوا من النبي أن يسأل الله الاستجابة لمطالب هؤلاء. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ يا مَن تريدون الاستجابة لهذه الشروط، أن هذه الآيات ﴿إِذَا﴾ أنزلها الله، استجابة لمطلبهم، وسؤالكم بالاستجابة: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾ بها. فقسمهم ﴿جَهْدَ﴾ الأيمان ليس موضع ثقة بأنهم سيؤمنون حقاً، وعند ذاك سيحل عِقابُ الله عليهم جراء نقض ما ﴿أَقْسَمُواْ﴾. ولأن الله تعالى يعلم بأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٩﴾، فإنه لا يستجيب رحمة بهم، وإمهالاً لهم حتى تبقى الفُرَص سانحة أمام مَن يؤمن منهم مع الزمن.

[١١٠]

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠﴾

أمّا الذين يصرّون على الاستكبار، وإملاء الشروط، ويلبثون في عنادهم، فإن الله تعالى يحرمهم من الانتفاع بالحق الذي جاء في القرآن، فيجازيهم على عدم إيمانهم بأن لا يهديهم ويدعهم في متاهة ضلالهم يتشتتون.

[١١١]

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ١١١﴾

لا يظنن هؤلاء، ولا يظن أحدٌ غيرهم أن عدم إيمانهم بك أيها الرسول، هو خارج عن مشيئة الله، بل لو شاء الله، لآمنوا، ولما اشترطوا شروطاً. ﴿وَ﴾ اعلموا جميعاً بأننا لو استجبنا لهؤلاء ما يشترطون و﴿نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ فيخبروهم بأنك حقاً رسول الله، وأحيينا لهم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حتى يكلمونهم كما يطلبون.

وهنا يزيد الله إلى ما لعلّه لم يخطر لهم أن يطلبوه، ذلك بأنه لو جمع ﴿عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾ - جمع قبيل - أي صفاً صفاً. وإن كانت الاستجابة لِما يشترطون قد تجعلهم يطلبون المزيد، فإن الله يُغلق لهم هذا الباب، فيقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾، وذلك من شأنه أن يجعلهم يؤمنوا حقاً، لأنه لم يعد هناك شيء كي يتذرّعوا به.

هنا يبيّن الله بأنهم عند ذاك إذا أرادوا أن يؤمنوا حقاً، فإن ذلك لن يكون لهم ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ كي يؤمنوا، وسيلبثون على ما هم عليه ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

فحتى عند ذاك لن يكون بوسعهم أن يؤمنوا ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١)﴾ هذه الحقيقة، ويلبثون في عنادهم وعصيانهم، وقليلٌ منهم يعلمونها، ويمكن لهم أن يؤمنوا بها مع مرور الوقت.

نستخلص من هذه الآية الكريمة أن الإيمان منّة من الله على الإنسان، ولذلك عليه أن يسأل الله الإيمان، ويفعل العمل الصالح، ويطيع الله حتى يستقرّ الإيمان في قلبه بمشيئة الله، لا أن يشترط شروطاً، ويدّعي ادّعاءات. فالله قادرٌ أن يُقنعه بمسببات الإيمان، ولكنه عند اللحظة التي يريد أن يؤمن بها، لن يشاء الله له ذلك، فيلبث محروماً من الإيمان رغم أنه ممتلئ بالثبوتيات، ويكون في حالة احتقان دون أن يمنّ الله عليه بنعمة الإيمان، ويُفرّج عن احتقانه.

المَقصَد الآخر من هذه الآية الكريمة، هو أن يتخلّى الإنسانُ عن عِناده واستكباره في حضرة آيات الله، سواء أكانت في القرآن، أو في الطبيعة.

الباب الواحد والثلاثون: شيطان وشياطين

[١١٢]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾

﴿وَ﴾ إضافة إلى كل ما ذُكر بـ ﴿وَ﴾ في الآيات الست المتتالية التي استهلّت

بـ ﴿وَ﴾، وهذا المُضاف هو مُضاف إلى كل ما تم ذكره بـ ﴿وَ﴾ حتى هذه الآية من السورة، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ إضافة إلى ذلك المذكور ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾. العدو هو الذي يعادي، أي خرجت عنه أقوال وأفعال العداء تجاه الذي يعاديه.

﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى شئنا، فنحن نستأنف بيان التعرّف على مشيئة الله، فكل ما سبق، لم يكن له ليحدث لولا مشيئة الله، والمشيئة لا تعني الأمر بفعل ذلك، بل الموافقة عليه، لأن الفعل لا يقع دون أن يأذن الله له أن يقع، والسماح له كي يتفاعل، فعندما يرتكب الإنسان إثماً، لا يدفعه الله إلى هذا الإثم، بل ينهاه عنه، لكن مع إصراره وعِناده، فإن الله يأذن لفِعل الإثم أن يقع من هذا الإنسان الذي أصرّ أن يأثم. وهنا تكمن مسؤولية الإنسان تجاه ارتكاب هذه الآثام، وكذلك من لب هذه المسؤولية، يثيبه الله إذا امتثل لأمر النهي، لأنّه يكون ممتلكاً حرية اللانهي، بل بيّن له السَبيلَين، وعاقِبة السَبيلَين، فاختار سبيل الصلاح على سبيل الفساد. فقد شاء الله تعالى أن يجعل ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ من أنبيائه ﴿عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، والأنبياء يتصدّون لهؤلاء الأعداء بكل وسائل المواجهة، لأن هؤلاء الأعداء يُصبحون قَزمين أمام قوة الإيمان، كما أنهم يُصبحون أقوياء إزاء ضعف الإيمان. ولكن لماذا ذكر الله الأنبياء دون غيرهم؟

الجواب: أن عداء ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، لا يكون لأشخاص الأنبياء، بل لِما يحمله هؤلاء الأنبياء مِن آيات الله إلى الناس، وهذه الآيات تبقى سارية بعد الأنبياء، حيث يحملها أتباع الأنبياء، وبذلك فإن عداء ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾، ينتقل إلى حاملي هذه الآيات بعد الأنبياء، لأنّهم يرمون إلى خفض صوت الحق، وإعلاء صوت الباطل، خفض صوت الخير، وإعلاء صوت الشر، ولم يخف الشيطان احتقانه وعداءه للإنسان، فبعد أن تلقى اللعنة: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠]، ولكن الله هو القوة

العظمى، ولا قوة يمكن لها أن تملي عليه شروطاً: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤١، ٤٢]. فنحن الذين ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾، ونمتلك ألّا نجعل ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾.

ولكن مَن هم ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾؟

اعلم أولاً أن كلمة الشيطان، أُطلِقَت على إبليس الذي: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، وأنه قبل ذلك لم يكن شيطاناً، بل كان أحد الملائكة، والملاك لا يكون شيطاناً. ولكن الفسوق عن أمر الله يجعل حتى مِن الملاك شيطاناً، فإن الكلمة تُطلَق على الفعل، ولا تقتصرُ على شخص الفاعل بحدّ ذاته، أي يمكن لأي مخلوقٍ أن يُصبح بفعله شيطاناً، إذا اتُبَعَ نهج الشيطان، ولذلك جاء الجمعُ بـ ﴿شَيَٰطِينَ﴾، رغم أن إبليس هو واحد، وبالتالي لا يجوز جمع الاسم إلى أبالسة، لنفي وجود الجَمع.

لكن صفة الشيطان التي أُطلِقَت لأول مرة على إبليس، وهو المُمتاز بها، الرجيم بها، يُمكِن أن تُطلَق على كل مَن ينتهج مَنهَج إبليس، فيُصبِح مثله شيطاناً، لكن لا يكون رجيماً، وبذلك يمكنه العودة إلى الصراط المستقيم، والتوبة إلى الله، فلا أحد لا يكون قابِلاً للتوبة، بالِغاً ما بَلَغت ذنوبه، لأنّه مهما تَشَيطَن، فإنه لا يكون رجيماً، فالرجيم مقتصرٌ على فعل الشيطان وذاته معاً.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر: ٣٤]، أي أُخرِج من الجنة رجيماً.

أمّا الجمع، فيكون لجماعة فسقت عن أمر الله، واتّبَعَت إبليساً في فسوقه، وكما أن الفعل الشيطاني هو الذي يجعل من الفاعل شيطاناً حتى لو كان ملاكاً، فهو ذاته يجعل أيضاً من الفاعل الإنسي شيطاناً، وكذلك يجعل من الفاعل الجني.

فأصبحنا أمام مجموع ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ﴾، وهؤلاء جميعاً ينتمون في منهجهم إلى الشيطان الأول الذي هو إبليس، وهم جنوده الذين يتّبعون ما يمليه

عليهم، ويعيثون فساداً في الأرض، ولعلّهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إبليس، فهو لا يملك سوى الوسوسة، أي يقتصر شرّه على بث الوسوسة في النفوس، ولكن شيطان ﴿ٱلْإِنسِ﴾ يمتلك قوة التأثير بشكل مباشر، لأنه يمشي في الناس، ويجالسهم في مجالسهم، ويتحدّث معهم، فهو صوت إبليس إليهم، أي أنه حضور إبليس اللا مباشَر فيهم متوافقاً مع وسوسته المباشَرة إليهم.

وكان مالك بن دينار يقول: (إن شياطين الإنس أشد عليّ من شياطين الجن، وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب عني شيطان الجن، وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عياناً).

ذلك أن ما يمكن للإنسان أن يلحقه من ضرر بالإنسان قد يفوق ما يلحقه به إبليس ذاته فالإنسان الشيطاني يستدرج الناس إلى بؤَر الفساد ويسعى إلى توسيع رقعة الفساد في البلاد والعباد، ولذلك يكون التحذير أكثر ما يكون، من رفقة السوء، ليس بالنسبة للصغار، أو الشبان فقط، بل حتى للكِبار، فـ ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ يمتلكون مَلِكات التأثير على الناس، ولذلك تراهم ينجحون في استدراج بعض الشبّان، ويقنعونهم حتى بقتل أنفسهم، وقتل الناس، فيفخّخون أنفسهم ليحرقوا بيوت الله، ومَن يُصلّون فيها، بل ويختارون شهر رمضان، وأيام الجُمَع، لأن أعداد المُصلّين من الرجال والنساء والأطفال، تكون أكثر.

وأي شيطان يمكن له أن يزرع هذه النزعة العدوانية في قلبِ هذا الشاب المُقبِل على الحياة للتو، ويُقنِعه بارتكاب هذه الجريمة سوى شيطان إنسي، يقعد إليه ولا ينهض حتى يجعله يوافق على هذه العملية، بل ويتحمّس لها. عندها يتم وضعه في حالة انتظار حتى يأتيه الدَور، ضمن فَوجٍ مِن الشُبّان ينتظر كلٌ دَوره فيه، حين تصدر الأوامر، ويتم تحديد الموضع المُناسِب له، ولعلّ إبليس ذاته يعجز أن يُزيّن له بأن ما يفعله هو في سبيل إرضاء الله.

وقد وصف الله عز وجل ما يجري بين هؤلاء بقوله: ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾. والوحيُ هو وحيٌ واحد، يتلقاه الأنبياء والرسل مِن الله تبارك

وتعالى، ولكن جاء ذكر الوحي هنا كدلالة بأن هؤلاء الشياطين يوهمون ﴿بَعۡضُهُمۡ﴾ الـ ﴿بَعۡضٍ﴾، كما يوهمون الذين يستدرجونهم بأنّهم على صواب، وأن ما يفعلون، إنما هو بوحي حسّي من الله، فيدّعي أحدهم بأنه يُحسّ بأن الله يوحي إليه ذلك، فيزخرف ما يقول ﴿غُرُورٗاۚ﴾، وقد امتلأ بمشاعر الغرور، فهو شخصٌ يُوحى إليه حِسّياً.

ولذلك يتوارى عن الأنظار، ولا يتحدّث مع الناس، وإن تحدّث كان ذلك بشكل مُختَصَر، لأنه لا يعلم في أي لحظة يأتيه الوحي الحسّي، فلا بدّ له أن يكون في عزلة مختلياً بنفسه، فهو شخصٌ قد خصّه الله بإصدار أوامر القتل.

إنهم يستدرجون الناس إلى منحدرات هذه الأجواء السوداوية الموبوءة، ويجرّدونهم من كل المشاعر الإنسانية، ويستبدلونها بمشاعر عدوانية. ولعلّ البعض يذكر آية قرآنية، يكون قد اجتزأها مِن سِياق موضوعها، ومن سياق ما ورد قبلها، وما ورد بعدها، ويقول بأنه يستَنِد إلى هذه الآية، وهو يقرأها بشكلها الظاهري المُجتَزَأ، وهو ذاته لا يقبل أن تُجتَزَأ جملة من كلامه، ضمن سياق الموضوع الذي يتحدّث فيه، ويُنسَب إليه أمرٌ استناداً إلى هذه الجملة، فلا بدّ من ذكر ما ورد قبل هذه الجملة، وما ورد بعدها.

فاعلم أن القرآن كله متصلٌ ببعضه البعض، ومُتكاملٌ مع بعضه البعض، وأن الأحكام تُستَخرَج بما يتوافق مع عموم القرآن، ولا يتعارض مع شيء منه، وكل ما لا يتوافق مع عموم القرآن، أو يتعارَض مع شيء منه، فهو مُجتَزَأ ظاهري، غير متكامل، وهو ممّا يُزخرفه الشيطان في قلوب جنوده، فيزخرفونه فيما بينهم.

إن جنود الشيطان، يُروّجون لكل ما هو شيطاني، وكل ما مِن شأنه أن يُلحِق الأذى بهم أولاً، ثم باللذين يتمكّنون منهم، بل إن أُناساً في بعض الديار الإسلامية جعلوا من أنفسهم (عبدة الشيطان) وأشهروا في العَلَن بأنهم جماعة (عبدة الشيطان).

ولعلّ أصدق ما في هؤلاء هو أنهم يرسمون في مخيّلاتهم صورة للشيطان، ثم يُحاولون أن يكونوا مثل هذه الصورة، فيتمثّلون بها في أشكالهم، حتى ترى أن

أحدهم بات يفتقد نور الإنسان في مظهره، فيحلق شعره ولحاه بطريقة يرى بأنها شيطانية، ويرتدي ثياباً يرى بأنها تُخرجه من هيأة الإنسان الطبيعي. وهؤلاء يجتمعون في طقوس يرون بأنها أقرب ما تكون للشيطان، فلا مُحرّمات، ولا تابوات في معتقدهم، فكل شيء في عرفهم مُباح، في حالةِ اتباعٍ امتيازيٍ للأهواء.

فإذا نظرتَ إلى خلفيات هؤلاء، سيجلو لك بأنهم ينتمون إلى شريحتَين مُتناقِضَتَين في المجتمع، فهم إمّا مِن عائلات فاحِشة الغِنى المستشري، أو مِن عائلات فاحِشة الفقر المدقع، ولكن المنهج الشيطاني هو الذي جمع بعضهم ببعض، هذا المنهج الذي نتج من صلب عاملٍ مشتركٍ كذلك، هو أنهم لم يتلقوا عناية تربوية وجيهة، كذلك فإن سبب هذا الإهمال هو سبب مشترك بين هاتين الشريحتين وهو الهمّ. فأما الأغنياء، فقد شغلهم همّ الغنى عن أبنائهم، وأما الفقراء فقد شغلهم همّ الفقر عن أبنائهم.

إذن نحن مع نمطٍ منحرفٍ من مفهوم الحياة بالنسبة لمُعيلَي هاتين الشريحتَين، ممّا أدى إلى أبناء مُنحرفين، فالغني إن أدرك أن غناه الحقيقي يكمن في حسن تربيته لأبنائه، لما سمح لهمّ الغنى أن يجعله مقصّراً تجاه تربية أبنائه، كذلك فالفقير إن أدرك أن غناه يكمن في حسن تربيته لأبنائه، لما سمح لهمّ الفقر أن يجعله مقصّراً تجاه تربية أبنائه.

عند ذاك يكتشف الآباء تلك الحقيقة المرّة، بأنه لا يوجد أب سعيد، وهو يرى ابنه منحرفاً عن القيم الإنسانية، وكل أب لا بدّ أن يكون سعيداً وهو يرى ابنه متمثّلاً للقيم الإنسانية. فالبطولة الحقيقية تكون للأبوَين اللذَين لم يتركا لشيء قط أن يجعلهما يتخلّيا عن مسؤوليتهما الأبوية التربوية تجاه أبنائهما، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون الأبَوان سَعيدَين، أو ناجِحِين في حالة مربكة من التفكّك العائلي، ولكنهما سيكونان سَعيدَين وناجِحَين، وهما ينجحان في تكوين عائلة متماسكة.

فاعلم أن الشيطان الأصل يقف بالمرصاد كي يرى أي منفذ أو باب ليُسرّب إليك وباء الوسوسة وأن جنوده من ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ يقفون بالمرصاد كي يروا أي منفذ أو باب للدخول إلى عائلتك، وإلحاق التفكّك بها.

فالشيطان الأصل عندما يعجز عن الإيقاع بشخص من خلال الوسوسة، فإنه يلجأ إلى جنوده من ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾ للاستعانة بهم. فهو يُزيّن لامرأة ضعيفة الإيمان كي ترتدي ثياباً مغرية، وتبدي نظرات وحركات مغرية حتى تستدرج رجلاً، فهي مرتَدية، بَيدَ أن هذه الثياب شبيهة بالعري، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم"كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ"(١). فهي تتعمَّد أن ترتدي ما يُلفت النظر أول ما يقع عليه، مثل ارتداء قماش ملاصق بالساقَين، أو الصدر، ويكون بلون البشرة، وهي إن لم تستدرج رجلاً بالكلام، إلّا أنها تستدرجه بنظراتها وحركاتها. وهنا تكون مهمة الشيطان بأن يوسوس لذاك الشخص، حتى تتحرّك فيه بعض الغرائز، وقد يكون هذا الشخص عازباً، وقد يكون متاهلاً، قد يكون شاباً، وقد يكون شيخاً.

لكن الذي من شأنه أن يفصل في الأمر ويحسمه في أوج تلك الوساوس الحسّية، والمغريات البَصَرية، هو الإيمان القوي الذي يجعل من المؤمن يخجل من الله في تلك اللحظات، فيغض بصره، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وخجله من الله يكون الرادع الأقوى له في حسم هذا الأمر.

فهو لا يرضى لنفسه أن يكون فاحشاً وهو في قوة علاقته الإيمانية بالله، لأن ذلك من شأنه أن يزحزح هذه العلاقة التي بينه وبين الله.

وعند ذاك يدرك الشيطان بأنه أمام إنسان صالح، لا سلطان لوسوسته عليه، وتدرك المرأة بأنها أمام إنسان صالح، لا سلطان لمغريات جسدها عليه، فيتركه الشيطان، وتتركه المرأة إلى حيث شخص ضعيف الإيمان يمكن له أن يتّبع الهوى. فالشيطان يجعل من المرأة وسيلة إلى الرجل، وكذلك لإيقاع المرأة، لأن المرأة تكون قادرة على استدراج المرأة خاصة في مجتمعات محافظة لا تسمح بالاختلاط، فلن يبقى أمام الشيطان أن يوقع النساء إلّا بالنساء، فيدسّ طالحاتهن بين

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: قال رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا". رواه مسلم في صحيحه.

صالحاتهن، وكم من امرأة صالحة، استدرجتها امرأة فاسدة إلى بؤرة الانحراف، وكم من طالبة صالحة في دراستها، استدرجتها طالبة فاسدة إلى بؤرة الانحراف. و(الصاحب ساحِب) كما يقول المثل، وعليه فإن الصاحبة ساحِبة أيضاً، ولذلك عندما يرى الناس تصرّفاً سلوكياً مُريباً على أحد الجوار، فإنهم يتحاشونه، ولا يدخلون بيته، ولا يأذنون له كي يدخل بيوتهم.

وفي بعض الأحياء الشعبية المحافظة، إذا جاءهم جار جديد يشتبهون بأخلاقه، فإنهم يسعون إلى إخراجه من الحي، لأن ذلك البيت يكون مصدراً للفساد في حيّهم، والصالح الذي يريد أن يشتري بيتاً، فإنه أول ما يسأل، عن الجوار، لأن جار السوء، قد يكون أكثر أذى من رفقة السوء، فرفيق السوء يمكنك أن تقاطعه فلا تراه ثانية، ولكن جار السوء يبقى بالقرب منك وأمام عينيك مهما تجنّبتَ أذاه، فترى البعض يهجر حيّه الذي سكنه تجنّباً لأذى جار سوء.

تبيّن لك الآية بأن هؤلاء جميعاً لا يجسرون على فعل ما يفعلون دون أن يشاء الله ذلك، وهذا من شأنه أن يفصح بأن الله قادر على كف أذاهم عنك. فيمكنك أن تجد ﴿شَيَـٰطِينَ ٱلۡإِنسِ﴾، في الطريق، في السوق، في العمل، في المسجد، وهم يترصدّونك، يترصدون أولادك، يترصدون امرأتك. فهنا يزداد المؤمن حصانة، ومناعة، ويقظة، فيحمي نفسه، ويحمي عائلته، يقوم بتربية أولاده بشكل سليم، يعظ امرأته، حتى لا يُغَرَّر بهم بـ ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾، فتكون قد حصّنتهم، وأنبهتهم، وأرشدتهم، وهذا عمل صالح تقوم به.

فإذن هذا يجنّبك الخمول واللامبالاة، ثم يجعلك تزداد نضجاً على نضج، وتمتلئ بالحياة والحكمة، فتكون متمكّناً من مفاتيح نفسك، وقادراً على ضبط نفسك من الانفعال، أو ردّات الفعل المتسرّعة. هذه الانفعالات التي قد تتسبب لك ببعض الأمراض التي تنشأ عن توتر عصبي، أو اضطراب نفسي.

﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ﴾، أي ما أقدموا على هذا الفعل الشيطاني: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾، دعهم فيما هم عليه، لأن الذي يريد أن يكون شيطاناً، فليكن له

ذلك، فحتى إبليس الذي كان ملاكاً، عندما ابتغى أن يكون شيطاناً، كان له ذلك. وكلمة ﴿فَذَرْهُمْ﴾، تُطمئنك بأنهم لا يستطيعون أن ينالوا منك ما دمتَ تتحصّن بقوة الإيمان. فإذن هؤلاء سَيُمنَون بالهزيمة أمام ما تتمتّع به من إشراقة قوة الإيمان، سواء أكانوا في العمل، أو المسجد، أو الجوار، أو يتزيّون بزي الأصدقاء، أو يكيدون لك في الدوائر ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة: ٩٨]، فاعلم أن سوءهم سوف يدور عليهم. لكن عليك ألّا تستسهل الأمر وأنت تـ ﴿ذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، فتكون يقظاً وحذراً، وتحصّن عائلتك، وترشدها الإرشاد السليم الذي بَيَّنَته لك القراءة السليمة للقرآن. لأن القراءة غير الناضجة من شأنها أن تشوّش عليك آفاق القراءة المزدهرة السليمة، فتكون قراءتك ضبابية مغلقة، أي قراءة مَظهرية، للقراءة فحسب، لا قراءة جَوهرية للتعقل والتعلم.

﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾، هذا الكلام موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي دع الذين جعلناهم لك أعداء من ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ﴾ يتخبطون فيما هم فيه من سوء أفعالهم التي هي افتراءات.

فلا يخيفَنّك يا رسولنا ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾. ولا يخيفَنّكم يا أمة الإسلام ﴿ذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾، ذروهم فإنهم في أفضل الأحوال ﴿يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾، ونور الحقيقة يلبث ساطعاً على ظلمة الافتراء.

[١١٣]

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾

عندما ترى شخصاً يميل بسَمَعِه إلى صوتٍ يترامى إليه، فإنه يكون في حالة إصغاء، والوصف هنا للأفئدة، أي ولتميل إلى ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾، وهي هنا كل ما يتفاعل ويستجيب للقول المُزَخرَف، ومن ذلك: السمع، والقلب، والمشاعر، والدماغ، والبصر، والبصيرة. فهذه الأفئدة تميل وتستجيب لِما يُزَخرف من القول، وهي ليست ﴿أَفْـِٔدَةُ﴾ المؤمنين ﴿بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾، بل هي ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾، لأن الذي يؤمن ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾، لا يُستَدرَج بقول مُزَخرَف إلى أفعال مشينة، مهما زيّنها له الشيطان، ولكن الذي يؤمن بالدنيا فحسب، يُستَدرَج خلف ملذاته وأهوائه، فلا يعنيه من الحياة، سوى مظاهرها، لأنه غير مؤمن ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾ التي تعقب الحياة، فهو يبيح لنفسه كل ما يتمكّن منه دون التوقف أمام الحلال والحرام. واعلم أن المؤمن أيضاً يمكن له أن يُستَدرَج في لحظة غفلة، لكنه سرعان ما يتوب، بمعنى أن أفئدته لا تصغى، بل تكره أن تصغى إلى زخرف قولهم، فتراه يبتعد عنهم ما أمكنه، وهو الذي وقع تحت تأثير ﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾، لكنه آب إلى الصراط المستقيم، ولم يصبح جنداً من جنود الشيطان. إذا خلا قلب الإنسان من الإيمان، خلا من كل خصلة طيبة، وانطفأ فيه نور النزوع إلى كل أمر معروف، فكان الحب هو الواجهة الإنسانية الكبرى، والعنوان الأول للإنسان. لا يدخل الإيمان قلبا لا يسكنه حب الله، وحب رسول الله، وحب الناس أجمعين في مشاعر إنسانية أخوية عامة تقرّب الإنسان من بعضه ضمن حميمية عائلية البشرية المشتركة التي تنظر إلى رب رحيم واحد. يبقى المؤمن الحق يضيء حباً وتسامحاً وتضحيةً حتى ليغدو شجرة حب تمشي على الأرض، فكان شرح النبي حاسماً، وبذلك، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ"(١). ثم يصف حال المؤمن في عناية ذو الجلال والإكرام، أبي يحيى صهيب بن سنان قال: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلَّا للْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ"(٢) عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"(٣).

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم.

﴿وَلِتَصۡغَىٰٓ إِلَيۡهِ أَفۡـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فشخص كهذا يكون قد بلغ أقصى مراحل الفساد، فتراه يميل إلى كل ألون الأذى سواء بنفسه، أو بالآخرين. وهذا النمط من الحياة تعيشه الحيوانات في الغابات، فكل حيوان يفترس الأضعف الذي يتمكّن منه. من أعظم فضائل الله على الإنسان بأن أنعم عليه بالدِين، هذا الدِين الذي يبيّن له بأنه ليس حيواناً ينتمي إلى قطيع في غابة، بل هو كائن اجتماعي ينتمي إلى البشر في مجتمع.

﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ﴾، ليرضوا العمل بـ ﴿زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ لأنفسهم، ﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ﴾، الاقتراف هنا هو الاكتساب السلبي نظير الاكتساب الإيجابي في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾ [الشورى: ٢٣].

﴿وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾ ما استطاعوا أن يقترفوا من الذنوب ما داموا قد ارتضوا هذا السبيل لأنفسهم.

ونهاية هذه الآية، تعزيز لنهاية الآية السابقة: ﴿فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١١٢﴾ حتى يقترفوا ﴿مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾. أي يُظهروا ما أرادوا من فساد، نظير الذين يُظهرون كل ما أرادوا من صلاح.

واعلم أن الله تعالى قد ترك أصل هؤلاء الشياطين ليفعل كل ما باستطاعته أن يفعل، أي يُظهر كل ما يكنّه من غل، فهذا هو الشيطان بكل ما كان يخفيه من حقد أعمى، هذه هي حقيقته التي أراها الله عز وجل لخلقه، ولذلك لم يكن أهلاً كي يبقى ملاكاً، بل ليكون شيطاناً رجيماً، فهذا هو الشيطان، وهذا هو تاريخه المشين.

على هذا النحو يعلّمك الله أن تترك هذا الشيطان الإنسي الذي يتعرّض لك، حتى يُظهر كل ما لديه من غل وفساد، أي يكشف معدنه بنفسه، وأنت تنظر إليه، وبذات الوقت تكون على حذر منه، ولا تجعله يقربك بأذاه، فتتفرّج عليه، وتتخذ من نهايته المشينة عبرة. فهؤلاء يهينون كل خصلة طيبة من خِصال الإنسان في أنفسهم، يهينون حتى أجسادهم عندما يضعونها في أوكار الرذيلة. ﴿وَلِيَرۡضَوۡهُ وَلِيَقۡتَرِفُواْ مَا هُم مُّقۡتَرِفُونَ ١١٣﴾، فهم أهل لهذا الانحطاط الذي رضوه لأنفسهم.

الباب الثاني والثلاثون: الحَكَمُ الحَق

[١١٤]

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

﴿ أَفَغَيْرَ ﴾، كلمة مكتنزة بتقديرات عديدة، والحرف الأول ﴿أَ﴾ استفهام وإنكار.

﴿أَ﴾ تريدون مني أن أصدّقكم، ﴿فَ﴾ - بعطف على هذا التقدير -: ﴿غَيْرَ﴾ دون ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى﴾، يحكم بين ما أدعوكم إليه من توحيد الله، وبين ما تشركون به.

﴿وَهُوَ﴾ الله الذي أدعوكم إلى توحيده ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ حَكَماً بيني وبينكم، يغني عن أي حَكَمٍ دونه.

﴿مُفَصَّلًا﴾ فيه الحكم، فلماذا نتجنّب المُفَصَّل إلى ما هو دونه. فبعد أن يُرشده الله إلى ذلك، يُخاطبه، ويجوز أن يكون الخطاب للناس أيضاً، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فهؤلاء الذين تقول لهم ما نمليه عليك: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، أي يثقون بحكمه، لكنهم يأبون الاعتراف بِما: ﴿يَعْلَمُونَ﴾، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾، الشاكّين بهذه الحقيقة. فمهما قالوا، لا يتسرّب إليك شك، لأنهم هم أنفسهم يعلمون بأنهم يخفون عنك الحقيقة حتى يرموا الشك إلى قلبك.

فهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ الحقيقة لأن الله ﴿أَنزَلَ﴾ إليهم ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، وهو ليس بلسان محمّد صلى الله عليه وسلم، فما يقوله هؤلاء له، هو مُتَرجَمٌ إلى العربية لنبي أمّي، ويطلبون حَكَماً يحكم بينهم، وذلك حتى يُقنَع النبي بما يدّعون.

فهنا بِيَد النبي الدليل الأكثر قوة الذي يواجِهَهم به، وهو القرآن المُنزَل عليه، والذي يَخبَره حرفاً حرفاً. فالآية توجّهه إلى ما يقول لهم، ثم تتجه إليه فتخاطب شخصه الكريم، وتحذّره من مجرّد الشك بما يدّعي هؤلاء.

[١١٥]

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

تمام وكمال القرآن كَمنا في ما يحتويه من الصدق والعدل، ولا أحد بمقدوره أن يُبدّل، أو يُحرّف شيئاً من القرآن، لأن لا كتاب سيأتي لتصحيحه. أمّا التحريف الذي وقع في التوراة والإنجيل، فهذا كتاب تصحيحي لهما، فهو بالتالي تمام وكمال صحيح كلام الله. ولا يشاء الله لأحد أن يُبدّل أو يُحرّف هذا الصحيح المتكامل ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ﴾، ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل ما يُقال عن كلمته الخاتمة هذه، ﴿الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ بكل مَن يسعى إلى تبديل أو تحريف القرآن، فلا يأذن له بذلك، فيبقى القرآن سليماً كما أنزله الله. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، فتلك عناية الله الخاصة برسالته الخاتمة.

[١١٦]

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

لعل الأرض هنا، أرض مكّة، و﴿أَكْثَرَ﴾ هم كفّار مكّة الذين كانوا أكثرية سكّانها، ﴿وَإِن تُطِعْ﴾ أيها الرسول ﴿أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ كفار مكّة الذين تعيش معهم على أرضها ﴿يُضِلُّوكَ﴾، يُحَرّفوك ﴿عَن﴾ سواء ﴿سَبِيلِ﴾ طريق ﴿اللَّهِ ۚ﴾. فهؤلاء: ﴿يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ حيث يظنون أنهم على صواب في معتقداتهم بعبادة الأوثان، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام، وما إلى هنالك من أشكال الضلال الذي يَتّبعونه. ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾، الذي يخرص، هو الذي ينسب شيئاً إلى الله كَذِباً، وذلك أقبح أشكال الكَذِب.

فنحن ما نزال ضمن المسار الرئيسي لِمِحوَر السورة، وهذه الآية هي استئناف للفكرة المتفرّعة عن المحور، وهي عدم أهلية هؤلاء كي تتخذ منهم حَكَماً. وقد تجلّت هذه الحقيقة في ديار المسلمين خاصة خلال ربع قرن مضى، فتبيّن أن مجرّد

الاستعانة بدخول غير المسلمين إلى ديار المسلمين كي يرفعوا ظلماً، ويحققوا حقاً، هي فكرة غيرة صائبة، وبالتالي تُفاقِم الظلمَ بدل أن تزيحه، والحل أن يتخذ المسلمون من ظهرانيهم حَكَماً يحكم بصدق وعدل القرآن الكريم، فيتفقوا جميعاً على هذا الحَكَم، لا أن يتم تعيين هذا الحَكَم مِن قَبل غير المسلمين، ولِحَكَمٍ غير مسلم، لا يجيد حتى قراءة القرآن، ولا يخبر شيئاً عن بُنية المجتمع الإسلامي، فهو الذي يتخذ القرارات، ويقترح المقترحات بشأن المسلمين. لذلك يدفع المسلمون ثمن تلك الخطيئة الكبرى التي اقترفوها. وفقط عندما يتحاكم المسلمون في خلافاتهم إلى بعضهم البعض، يكون الحل ممكناً، و: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١].

[١١٧]

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾

الأعلم، هو الأكثر علماً من جميع مَن يعلم، والأعلم هو ذروة العلم، وهو الاحاطة الكاملة بكل شيء، سواء أكان ظاهراً، أو خافياً. فلا شيء البتة يكون خارج إحاطة علمه، فكل ما يعلمه الخلق جميعاً، يعلمه الله، ويعلم ما لا يعلمون. فأصل العلم عند الله، وعلى هذا فإن الإنسان ليس بوسعه أن يحقق منجزاً علمياً إلّا بمشيئة الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا مُحَمّد ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ بالضالين ﴿عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ مهما تظاهروا بأنهم على حق، ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١١٧﴾ الذين يتّبعون الحق.

الباب الثالث والثلاثون: اسم الله

[١١٨]

﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾

عندما يُذكى على الحيوان الذي يريد المرء أن يذبحه، أي يقول: بسم الله. فذلك يجعله حلالاً، كون قد ﴿ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، وذلك من الإيمان بآيات الله، وهذا يعني

عدم أكل ما لم يُذكر ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ والأكل يكون للمذكاة.

[١١٩]

﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾

كلوا ما ﴿ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾، فهو حلال، ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ﴾ بيّن الله ﴿لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ ما لا يجوز أكله. ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ ما وجدتم أنفسكم مضطرّين إلى تناوله من غير المُجاز، في أمرٍ طارئ وإنقاذاً مِن الهلاك. ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم﴾، كثير مِن الناس يتّبعون أهواءهم في التحليل والتحريم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ﴾ عن جهالةٍ. فالله هو الذي يُحلّ، وهو الذي يُحرّم، وحلال الله فيه نفعٌ للإنسان، وحرامُه فيه ضرٌ له. أمّا الذين يتّبعون أهواءهم، فلايعلمون النفع مِن الضر.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾، الذين يتجاوزن شرع الله.

[١٢٠]

﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾

اتركوا ارتكاب ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ سواء عَلَناً، أوسرّاً، والفرق بين المُرتكِبَين، أنّ الأول يُعلن ارتكاب ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾، الذي يعلمه الله، فيعلمه الناس، والثاني يواري ارتكاب ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ الذي يعلمه الله، فلا يعلمه الناس، لكن فِعل ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ هو واحدٌ بالنِسبة إلى الاثنَين: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. فالأولَويّة للخشية من الله، لا مِن الناس، و﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾ هو جِناية يرتكبها الإنسان بحق نفسه، وبحق الآخرين، وهو كل عملٍ سيّءٍ يمكن للمرء أن يأتيه مُتجاوزاً نَهي الله. ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ امتنعوا عَن ارتكابه جهراً، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿بَاطِنَهُ﴾ خِفيةً.

لماذا؟ الجواب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

كما أن المرء يكسب بالمشروع له فيزداد رصيده، كذلك يكسب بغير المشروع فيزداد رصيده.

فرجلٌ خَرَجَ إلى عَمَلِه، وآخرُ خَرَجَ إلى مائِدَةِ قمار، وفي المساء عاد الاثنان وقد كَسَبا، فأمّا كَسب الأول فهو مشروع لأنه نَتَجَ عن عمل مشروع، وأمّا كَسبُ الثاني فهو غير مشروع لأنه نَتَجَ عن عمل غير مشروع.

وأمّا كيف أن الله يُشرّع للناس ما ينتفعون به، وبذات الوقت يرفع عنهم الضر، فالأول أخذ مالاً وقدّم نفعاً لشخصٍ نظير هذا الأخذ، أي انتفع الاثنان معاً.

أمّا الثاني فكما لو أنه اغتصب مال الآخر، فقد أخذه منه دون أن يعطيه شيئاً، فانتفع هو، وأذى الآخر.

فشرع الله ينتفع به الاثنان، ونهيه يُجنّب نفع أحدهما على حِساب أذى الآخر.

ولذلك لم يقتصر هذا على القمار فحسب، بل يشمل كل ربحٍ يُلحقُ الأذى بالناس عن قصد، أي تعلم بأن عملك هذا لا ينتفع به الناس، بل يصيبهم بالأذى، ورغم ذلك تستمرّ به لأنه يدر عليك نفعاً مادياً، وهذا هو الجَشَع.

ولا يقتصر على فئة من الناس، بل يشمل سائر الفئات، فترى طبيباً، حتى لا يستخدم بعض المستلزمات الجديدة، مثل الحقن، أو بعض المواد المُعقّمة الأصلية، وما شابه، خاصة بعض أطباء الأسنان، والجراحة، يستخدمها لأكثر من شخص، وحتى التعقيم قد لا يكون فعّالاً، أو ضعيف الفعّالية، أو انتهت صلاحيته، بِما يكون منخفض الثمن، فينتج عن ذلك أن شخصاً كان يعاني من ألم بسبب سن، فيقلع له الطبيب هذا السن، ويتوقف الألم، لكن بذات الوقت يكون قد قضى على حياته بأكملها بسبب فيروس أصابه جراء جشع الطبيب الذي استخدم ذات الحقنة، أو الأداة في علاج شخص كان به ذات الداء، ولعلّ المريض كان يعلم، أولا يعلم، فانتقل إلى هذا الشخص، وإلى كثيرين مع التكرار، فترى أن حصيلة كسب هذا الطبيب، أنّه كسب أموالاً طائلة خلال مهنته، وكذلك كسب دماء مئات الناس، لأنه هو الذي قتلهم عن عَمد حتى يوفّر المال، وهم قد دفعوا له أجر كل شيء جديد، ولكنه هو الذي لم يستخدم الجديد الذي قبض ثمنه منهم.

وإذا نظرت، سترى أن المصائب تقع على هذه الفئة من الأطباء، واحدة تلو أخرى، وهذا تحذير من الله لهم، كي يرتدعوا، ولكنهم يستمرون في ذلك حتى ينتهون نهاية مخزية، ذلك أن تلك الأيدي التي أكرمهم الله بها لعلاج الناس، باتوا يستخدمونها لإلحاق أفدح الضرر بالناس: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾. وجاءت كلمة الاقتراف لتشير إلى تجاوزهم حدود الله، وكل متجاوز لحدود الله إنّما هو مُقترفٌ أثيم، وكل مقترف لا بد أن يلقى الجزاء، فهذه الآية الكريمة بمثابة التحذير حتى تقي نفسك جزاء هذا الاقتراف.

[١٢١]

﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ١٢١﴾

لعلّ المعنى في مبتدأ الآية: النيّة. فلعلّ شخصاً نسي أن ينوي على الصيام، وهو عاقد النيّة على الصوم مسبقاً، فيكون قد نَسي، لأنّه ليس في نيّته ألّا يصوم، بل في نيّته أن يصوم. كذلك إذا ذبح المرء ذبيحةً، ونَسي أن يُذكّيها سَهواً، وهو مؤمِنٌ بأن هذه الذبيحة لا بدّ أن تُذكّى باسم الله، لكن الذي حصل أنه في تلك اللحظات العاجلة، فاته سهواً أن يذكر اسم الله عليها. وبعد أن أتم، تذكّر بغتة، وعبّر عن ندمه في ذلك النسيان، فنرى ألّا يرمي المذبوح الذي ﴿لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ سهواً، بل يأكله، والله أعلم. وحتى في حالة الصيد فإن اسم الله يحل ما يُصطاد. وفي الحديث: "ذَا أَرْسَلْتَ كَلْبَكَ الْمُعَلَّمَ وَذَكَرْتَ اسْمَ اللهِ فَكُلْ مَا أَمْسَكَ عَلَيْكَ"(١).

الأمر الآخر، فيمكن الاستنتاج من ظاهر الآية أن ذلك يكون للميتة، وكذلك عندما يتعمّد المرء عدم ذكر ﴿ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ لأنه كافر. لذلك فقد أجاز الله تعالى تناول طعام أهل الكتاب، لكن الكافر الذي لا يؤمن بالله، ويتعمّد عدم ذكر اسم الله على الذبيحة، فإن ذبيحته لا تحل، ذلك أن الذي ذبحها إنما هو كافر لا يؤمن بالذي

---

(١) رواه الترمذي.

أحل ذبح هذه الذبيحة. بل نرى أنه حتى لو نزل هذا الكافر عليك ضيفاً، فإن القِيَم الإسلامية تدعوك إلى القيام بواجب ضيافته سواء أكنتَ على معرفة شخصية به، أو لم تكن.

ثم بيّن عز شأنه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ المذبوح الذي - ﴿لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ - ﴿لَفِسْقٌ﴾ كون الذابح غير مؤهَّل شرعاً للذبح.

﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾. يبث إبليس الوساوس إلى الذين يوالونه كي يجعلوا منها مادّة للجَدَل بينكم وبينهم، ومن ذلك قول بعض المشركين للمسلمين: (ما يقتله الصقر والكلب تأكلونه، وما يقتله الله فلا تأكلونه).

يقول الله جل شأنه في ختام الآية: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾. فإذا استطاعوا أن يؤثّروا عليكم بِما وسوَس إليهم إبليس واستجبتم لهم، فذلك يعني أنّكم أصبحتم مشركين مثلهم.

[١٢٢]

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

الكافر هو كائن ميت القلب والحواس، وهو كائن سوداوي مظلم يعيش ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، وإشراقةُ الحياة تكمن في الإيمان الذي يُنير ويحيي كل شيء فيه، ويُخرجه من قِعر ظلمات الغي والجهل والعصيان، إلى نور الحياة، ومن سوداويته إلى الإشراق الروحي. قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾. فقد غدا كائناً مُستَنيراً بنور الإيمان وصلاح العمل، يستأنس إليه المجتمع.

﴿أَوَمَن﴾ فهل يكون هذا مثل الذي يلبث ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾. على هذا النحو: ﴿زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾. فيلبثون بمقتضى زينة الشيطان هذه لهم، في ظلمات الحياة، وظلمات أنفسهم دون أن يخرجوا منها.

أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن زيد بن أسلم، في الآية قال: (نزلت في عمر بن الخطاب، وأبي جهل بن هشام، كانا ميتين في ضلالتهما، فأحيا الله عمر بالإسلام وأعزّه، وأقرّ أبا جهل في ضلالته وموته، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا فقال: "اللهم أعزّ الإسلام بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب".

الباب الرابع والثلاثون: مَكرُ الأكابر

[١٢٣]

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

كما ﴿جَعَلْنَا فِي﴾ مكّة ﴿أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ﴾، ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ - بكاف التشبيه -: ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ﴾.

الجعل في هذا المقام بمثابة المشيئة، كما في قوله في الآية ١١٢: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾.

فهنا، تركنا ﴿أَكَٰبِرَ﴾ رؤوس مجرمي ﴿كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، وجاءت ﴿كُلِّ﴾ شاملة، أي ﴿كُلِّ﴾ موضع سكّاني يعيش فيه الناس. و﴿أَكَٰبِرَ﴾ هنا تتفاوَت مِن مَوضع إلى آخر، فيمكن لـ ﴿أَكَٰبِرَ﴾ - جمع أكبر - المجرمين أن يتحكّموا بِزمام بلادٍ بأكمَلِها، فيكون مكرهم على سائر البلاد. وقد يتحكّموا بِزمامِ مدينة، أو منطقة، فالمكر يطال حدود إمكانات رؤوس المجرمين. وليس بالضرورة أن يعلم الناس جميعاً بـ ﴿أَكَٰبِرَ﴾ المجرمين الذين يعيشون فيهم، فقد يموّهون أنفسهم، ويمكرون في السر، وقد يُظهرون أنفسهم، فيمكرون في العلن.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾، عندما يمارس الإنسان سلوك المكر، فإنه يُصبح ماكِراً، وسلوك الإنسان يعكس على نفسه أولاً، فالماكر يعجز أن يعيش سَكينة الإنسان المستقيم، لا يعاني اضطرابات الإنسان الماكر. يبيّن الله تعالى بأنهم يستمرّون في المكر دون أن يشعروا بأنّ مكرهم إنّما يقع عليهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

[١٢٤]

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

وهذا من مفرزات وباء الاستكبار، فيعتقد المُستَكبِر أنه قادر على إملاء الشروط حتى يتنازل عن استكباره ويؤمن، غير مُدرك بأن الله رحمه بهذا الإيمان حتى يُخرجه من الضلال إلى الهدى، مَنّ عليه بأن بيَّن له الرشد من الغي: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾ [المدثر: ٥٢].

ذهب بهم الاستعلاء عن الحق حدوداً صَوّرَت لهم فيها مُخَيّلا تُهم المريضة أن الله تعالى لا يعلم ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وأنهم يعلمون ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، وهذا هو فحوى كلامهم وموقفهم.

﴿وَإِذَا﴾ جاءت كفّار مكّة ﴿ءَايَةٌ﴾ من عند الله، فبدل أن يشكروا الله ويؤمنوا: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ﴾ من عند الله ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِىَ﴾ محمد، ومِن قبله ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾.

فقال الله بشكل حاسم: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾. أي ﴿أَعْلَمُ﴾ من كل عليم، فله العلم كله، وهو ﴿أَعْلَمُ﴾ الأعلمين، وعلمه حق لا يبلغه حق ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ثم قال عز من قائل: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ﴾. هذا الشطر مِن الآية الكريمة، يُظهر حجم استصغار هؤلاء أمام عظمة البارئ المصوّر.

وعلينا أن نتأمّل في دلالات هذا الشطر المفتوح: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ﴾. وقول الله حقٌّ، فلا مناص من إنزال الصَغار بهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾.

و﴿صَغَارٌ﴾ هنا، هي نقيض ﴿أَكَٰبِرَ﴾ في الآية السابقة، وقد تكرّر وصف الله تعالى لهم بالإجرام في الآيتَين المُتتاليتَين، فهناك: ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾، وهنا: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾.

فإذا تأمّلتَ الذين استعلوا واستكبروا مِمَّن عرفتهم، أو سَمعتَ عنهم، سيجلو لك أنّه قد أصابهم ﴿صَغَارٌ﴾.

بمعنى أصابهم ما يجعلهم يستصغروا ويذلّوا، فالذي كان في عزّه، ينفش نفسه، ويتبختر في مشيه، ويتعالى، انتهى إلى الخنوع، والذل، والهوان. فهذا الذي انتهى هذه النهاية المُخزية، كان ذات يوم عزيز قومه، لكنّه لم يُقدّر تكريم الله له، بل استكبر على الذين جعله الله تعالى عزيزهم، ونظير ذلك فقد أخذ منه هذا العز، وجعله ذليلهم.

ويمكنك أن تقيس ذلك على كل مقاييس ودرجات العز، سواء أكان الشخص زعيماً، أو كان والياً، أو مدير مؤسسة، أو يدير مكتباً لشؤون الناس في دائرة، وما شابه. فالذي يتواضع لله، ثم للناس، يخشى الله، وييسّر أمور الناس، لا يوجد فيه موضع كِبر حتى يصيبه ﴿صَغَارٌ﴾. ولكن الذي لا يتواضع لله، ثم لا يتواضع للناس، ولا يخشى الله، ثم يعسّر أمور الناس، فينتهي نهاية ذليلة. فكم من زعيمٍ كان متربعاً على عرش بلادٍ بأكملها، انتهى إلى السجن أو التنكيل، أو الحدّ أمام أنظار العالم. فقد تبيّن أنه كان ﴿أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا﴾ فتحقق وعد الله به: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ﴾.

فعندما يحيج الله شخصاً إليك، ويُقدّرك على الاستجابة لحاجته، فاعلم بأن ذلك تكريم مِن الله لك، فعليك أن تُقدّر هذا التكريم حتى يديمه عليك، وإن شاء زادك، ورفع منزلتك لأنّك أهل لذلك، لكن إذا بطرتَ بالنعمة، ف ﴿صَغَارٌ﴾.

واعلم أن للصَغارِ أشكاله ومستوياته وتفرّعاته، فقد يصيب المستكبر ﴿صَغَارٌ﴾ ولا يعلم به أحد سوى ضمن نطاق محدود، فهذا وعد الله الذي لا مهرب لأي مُستَكبرٍ منه. إضافة إلى ذلك: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾. فبعد أن يخرجوا من الحياة مخرج سوء وذل، يلقون عذاب الآخرة الشديد، والشديد مِن الشدّة، ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي بقدر ما كانوا عليه من مكر. وإذا تأمّلتَ الشطر الأخير من الآية: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ سيجلو لك أن مكرهم كان شديداً، فيلقوا ذات الشدة في العذاب ﴿بِمَا﴾ وفقما ﴿كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

الباب الخامس والثلاثون: الشرح والضيق

[١٢٥]

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

فالهداية مِن الله، والإسلام مِنّة الله على الإنسان، والله هو الذي يمنّ، وليس للإنسان أن يضع شروطاً كي يؤمن، بل عليه أن يُحسن النيّة، ويسأل الله الهداية، وإذا منّ الله تعالى عليه بنعمة الهداية، وهي من أكبر وأعظم نِعَم الله على الإنسان، فعليه أن يقدّم شكره لله، ويسأله أن يثبّته على الدِين، فيطيع الله، ويعمل صالِحاً لأن الله تعالى يمكن أن يحرمه هذه النعمة إن لم يُقدّرها، ويكون أهلاً لها، فتراه ينحرف عن الصراط المستقيم، فيمسي في الظاهر مسلماً، وفي الباطن كافراً، أو لعلّه يتمادى فيشهر كفره أيضاً، كأن ينكر وجود الله، وينكر فرائض الإسلام، أو يستهزئ بالشرع. فذلك لم يُقدّر نعمة الإسلام، فحرمه الله من النور، وتركه في حلكة الظلمات: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾. يُحبّب إليه الإسلام، فترى شخصاً

كافراً، بغتة يُشهر إسلامه، ويقيم شعائر الإسلام، فيتحوّل من إنسان كافر إلى إنسان مؤمن، من إنسان مظلم إلى إنسان مُستَنير.

فاعلم أن هذا الإنسان قد مَنّ عليه الله وشرح ﴿صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، نظير ذاك المسلم الذي استهزأ بالإسلام، فحرمه الله النِعمة التي كان بها، وجعل ﴿صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾. فقد لحق بركب الضالّين حتى هلك، كما أن ذاك الذي كان ضالاً، لحق بركب المؤمنين حتى نجا.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، وهذا يعني أنه قد يكون مسلِماً، ولكن قلبه غير منشرح للإسلام، فهو مسلم بحكم أنه ولد في عائلة مسلمة لأبَوَين مُسلِمَين، ولكنه عنيد، مستكبر، فهو مسلم لكنه غير مُنشَرح الصدر ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾. أي هو مُسلِمٌ في الظاهر، لكنه في الباطن نقيض ذلك، ولعلّه يُعلن هذا النقيض، ولعلّه يكتمه. فهذا قد جعل الله تعالى ﴿صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا لِلْإِسْلَٰمِ﴾، وذلك جزاءً لعِناده واستكباره. أُضيفَ الحرجُ إلى الضيقِ، الحَرَجُ هو عِبارة عن وخزات نفسية يوخَز بها المُحرَج، فيحتقن وجهه، وتتقطّع أنفاسه، وتمسي جملته العصبية في توتر واضطراب، تحت سطوة الشعور بالاستصغار والذل. فالحَرَج هو أعلى درجات الضيق والخَجَل، حيث يكون المرء موضع استهزاء أمام نفسه، وأمام الناس، كَمَن اقترف فعلاً شائناً وكُشِفَ أمره. فقد يكون المرء ضائق الصدر لأمرٍ ما، لكنه يكون بمعنويات عالية دون حَرَج، لكنه عندما يكون ﴿حَرَجًا﴾، فذلك يعني أن معنوياته كلها انهارت، وباتَ ذَليلاً خانِعاً لا يريد أن يراه أحد، ولا أن يرى أحداً، فأصبحنا بذلك أمام ألَمَين، أحدهما بَدَني، والآخر نَفسي، فأمّا الأول، فضيق الصدر الذي يجعله يتألّم وهو يتنفّس بالكاد من كثر الضيق الذي كتم على صدره، وأمّا الثاني، فهو ألم الحرج الذي يجعله مُتَخَبّطاً فاقداً لتوازنه، وقد استبدّت به مشاعر الخنوع والاستصغار التي استسلم لبراثنها يائساً مُنهَزماً أمام نفسه وأمام الآخرين. وهذا مِن شأنه أن يُضاعف عليه حِدّة الوجع النفسي، فقال جل شأنه: ﴿كَأَنَّمَا﴾ - يُتَخَيّل له

أنه - ﴿يَصَّعَّدُ﴾ يرتفع عن الأرض رويداً رويداً، وليس إلى السماء، بل ﴿فِي السَّمَآءِ﴾. لأن بدء الحرَج جعله يفقد توازنه فلا يشعر بثباته على الأرض، وفي هذه المرحلة يشعر بأنه ﴿كَأَنَّمَا﴾ كما لو أنه ﴿يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ﴾ فيكون قد فقد توازنه وانضباطه النفسي.

تعلّمك الآية بأن الكافر هو إنسان غير مستقر، يعيش حالة من الكوابيس، والهَذَيان، والفَزَع، ويعاني منغّصات الألم العضوي، إلى جانب منغّصات الألم النفسي. يعيش في دوّامة حرج، وهو كائن لا يتذوّق لذة انشراح الصدر، وصفاء الذهن، وسَكينة النفس. لذلك تراه يتظاهر بهذه المزايا، أو يتصنّعها لنفسه، خاصة إذا كان ميسور الحال، أو يتمتّع بنفوذ، فيُظهر أشكال التَرَف والبذخ، ولكنه في أعماقه يُدرك أنه يتهرب ممّا يعانيه بدنياً، ونفسياً. فمهما ضحك، فإنه لا يستمتع بضحكة حقيقية، ومهما ارتدى من ثياب أنيقة، فإن قلبه يلبث منطفئاً، مهما أتى بأصناف الطعام والشراب إلى مائدته، فإنه لا يستلذ بحقيقة نكهة الطعام والشراب. فقبل كل شيء على الإنسان أن يكون طبيعياً حتى يتلقى الأشياء على طبيعتها، وأن يقوم بأفعال طبيعية، حتى يتلقى نتائج طبيعية، ويستمتع بها بشكل طبيعي. يبيّن الله تعالى أن لا طبيعية هذا الشخص نتجت عن سلوكه اللاطبيعي مع نفسه ممّا أدّى إلى تلك المفرزات عليه بدنياً ونفسياً، ذلك أن الله تعالى قد جعل ﴿الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾. وهذا قد رفض الإيمان، وبذلك فقد استحق ﴿الرِّجْسَ﴾ والإنسان الذي يصيبه ﴿الرِّجْسَ﴾، يُحرَم مِن مزايا كثيرة يتمتّع بها الإنسان المؤمن الذي لا يقربه هذا ﴿الرِّجْسَ﴾.

فكل شيء يحافظ على خواصه من طعام، أو شراب، أو ثياب، أو ما شابه، لكن هذه النِعَم لا تمنح نكهتها الحقيقية إلّا لِمَن يبرأ مِن ﴿الرِّجْسَ﴾.

فالمؤمن يضحك ضحكاً حقيقياً طلقاً، يشعر بحالةٍ مِن التجدّد وهو يرتدي ثياباً جديدة، يستلذ بما يأكل وما يشرب، ذلك أن صدره مُنشرح بنور الإيمان، وهذا يجعل من حواسه درّاكة ومتفاعلة.

ثمة قصيدة للمتنبي يقول فيها:

ومَن يك ذا فم مر مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

فالعيب ليس في الماء، بل في المريض، والمريض في الآية مُصاب بداء العَظَمة، وعقدة الخواجة. لكن إذا تأمّلت في هذا العِقاب الدنيَوي، سترى فيه عظمة الله، ففي الوجه الآخر، يكون ذلك بمثابة العِلاج لِداء الكِبر الذي يُعانيه، فكل هذه الأشكال تكون بمثابة التنبيه حتى يستيقظ على الحقيقة، فما الذي يجعله يضع نفسه في كل هذه المآزق، والمؤاخذات، ويتلقى ما يتلقى نتيجة عِناده. فانظر إلى المفردات: ﴿صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾، ﴿حَرَجًا﴾، ﴿كَأَنَّمَا﴾، ﴿يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿ٱلرِّجْسَ﴾. فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ أصابهم ﴿صَغَارٌ﴾ كما في الآية السابقة، لأنّهم اعتقدوا أن بوسعهم أن يملوا شروطاً على الله نظير أن يؤمِنوا، كما في الآية التي تقدّمتها.

واعلم أن إرادة الله في هذه الآية، كالمشيئة، فهي لا تلغي إرادة الإنسان، فالأصل هي إرادة الإنسان في الإيمان، أو عدم الإيمان، لأن الله تعالى ذكره، لو فرض على فلان أن يؤمن رغماً عنه، وعلى فلان ألا يؤمن رغماً عنه، فما كان الإنسان بحاجة إلى الأنبياء والرسل، لأنّهم لم يكونوا ليغيّروا في الأمر شيئاً، فالإنسان يتمتع بحرية المُعتَقَد، بل حتى إبليس عندما أراد أن يعصى، كانت له تلك الإرادة، ولو لم يرد ذلك، نرى أن الله تعالى ما كان ليفرض عليه العصيان، أو يُعاقِبه بشيء فرضه هو عليه رغماً عنه. بل تحاور الله تبارك وتعالى معه حتى يطيع، ولكنه هو الذي أبى واستنكر وفق تمتعه بحرية الإرادة، كما الأمر بالنسبة لغيره من الملائكة الذين تحاوروا مع الله بهذا الشأن، لكنهم انتهوا إلى الطاعة. لكن إرادة الله تكون مفروضة بالنسبة لاستجابة العاصي للعِقاب، فلم يكن بوسع الشيطان بعد أن عصى أن يتمتع بحرية الخروج أو اللاخروج من الجنة، أو رفض لعنة الله. فالعِقاب يتلقاه العاصي رغماً عنه، شاء ذلك أم أبى.

فالإسلام كله خير، والله يدعو الناس جميعاً إلى الإسلام، ويحذّرهم من الضلال، ويرسل إليهم الرسل، والكتب السماوية. فالذي يريد، فإن الله يريد له أن يريد، ومَن لم يرد، كذلك فإن الله يريد له ألّا يريد.

وإرادة الله بالإسلام، ترجح على إرادته بالكفر، لأنه يدعو إلى الإسلام، ويعد المؤمنين بالثواب في الدنيا والآخرة، نظير أنه يحذّرهم مِن الكفر، ويعد الكافرين بالعِقاب في الدنيا والآخرة. فالمؤمن هو إنسان مستكين مُنشرح الصدر، كائِناً ما كان وضعه المعاشي في الدنيا، لأنه يمضي بنور الله وهدايته، والكافر هو إنسان مشتت ضيّق الصدر، كائناً ما كان وضعه المعاشي في الدنيا، لأنه يمضي في ظلمة الشيطان وضلاله. ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ﴾ هم بمحض إرادتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾، والله يدعوهم إلى الإيمان، لكنهم يأبون الإيمان، فـ ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ عليهم.

[١٢٦]

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾

﴿صِرَٰطُ﴾ الله مستقيمٌ، لا عِوَج فيه، والإنسان يستقيم، ويستقيم وضعه عندما يكون على صراط مستقيم، والإسلام هو: ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾، و﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ التي تدعو الناس إلى الإسلام، مُفصّلة جليّة ﴿لِقَوْمٍ﴾ لأناسٍ ﴿يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ يقرأون هذه ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾، ويتأثرون بها ويستجيبون لها.

[١٢٧]

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

لأولئك القوم الذين ﴿يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾، ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ من أسماء الله الحسنى، أي دار الله، فيجعل الله تعالى داره لهم. فالله هو مالك الملك، وفي الدنيا يعطي ما يشاء لِمَن يشاء مِن ملكه، وكذلك في الآخرة، فإنه يعطي ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾. و﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ مِن السِلم، أي يكونوا في سلامٍ يسلموا مِن كل آفة، أوداء، أو اضطراب، في ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ التي أعدّها الله ﴿۞ لَهُمْ﴾، ليكونوا عنده سالمين، ليس

بوسع أي أذى أن يقربهم، وقد سُميت الجنة بـ ﴿دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لأنها تحقق ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ الكامل غير المنقوص قيد شعرة، لِمَن يدخلها.

﴿وَهُوَ﴾ الله الذي أعدّ ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾، ﴿وَلِيُّهُم﴾، وذلك ثواباً منه ﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٢٧﴾ في الدنيا من أعمال صالحة.

[١٢٨]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ١٢٨﴾

﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة يبعثهم الله تعالى ﴿جَمِيعًا﴾ إلى الحِساب: ﴿يَٰمَعْشَرَ﴾ شياطين ﴿ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ أضللتم كثيراً ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾. ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ المُضَلّون ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الذين استجابوا لشياطين ﴿ٱلْجِنِّ﴾: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾. أي نال كلُ واحد منا حاجته من الآخر، فعندما يستجيب الإنسان لشيطان ﴿ٱلْجِنِّ﴾، يشعر بأنه نجح في استدراجه وإغوائه، فذلك تحقيق متعة للجن. أمّا استمتاع الإنسان، فيكون عندما يتّبع ما يزيّنه له شيطان الجن من ارتكاب المعاصي، وكذلك عندما يستعين بهم في تلقي الأراجيف، والكهانة، والسحر.

ثم يقولون: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾. أصبحنا أمام الحقيقة التي وعدتنا بها، وخالفناك، واتّبعنا المعاصي. ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ مستقرّكم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، الاستثناء هنا يُبقي المشيئة، لأن مشيئة الله تبقى مفتوحة في جميع الأحوال، وهو جلّت قدرته، وتعاظم شأنه، يشاء ما يشاء في الوقت الذي يشاء. فـ ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، أي ﴿إِلَّا﴾ إذا ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لهم ﴿مَا شَآءَ﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ بفعل ما يشاء، ﴿عَلِيمٌ ١٢٨﴾، بِمَن يستحق الاستثناء، فيستثنيه الله في الوقت الذي يشاء.

[١٢٩]

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾

تبيّن الآية هنا أن الظالمين يستمرّون من خلال بعضهم البعض، فكما أن العادلين يتواصلون ويتعاضدون مع بعضهم البعض، فينتفعون من خلال هذه العلاقة، فكذلك يلحق الظالمون الخسارة ببعضهم البعض نتيجة العلاقة بينهم. فالعادل يجد العادل الذي يتواصل معه، والظالم يجد الظالم الذي يتواصل معه. الأمر الآخر أن الذي يظلم، يولّي الله عليه مَن يظلمه من الناس، فيلقى هذا الظالم ما كان يسببه للناس من ظلم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ وفق هذه المعادلة ﴿نُوَلِّي﴾ نمكّن ﴿بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على بعض، فيظلم بعضهم ﴿بَعْضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٢٩﴾ أي ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ يظلمون الأبرياء.

[١٣٠]

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠﴾

خطاب الله إلى الثقلَين: ﴿أَلَمْ﴾ يرسل الله رسله ﴿مِّنكُمْ﴾ أي من مجموعكم، لأن الرسل هم من ﴿الإِنسِ﴾. وهذا شبيه بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ٢٢﴾ [الرحمن: ٢٢]. فليس منهما معاً، بل من أحدهما المالح، دون الحلو. فالجن يعلمون الآيات التي يأتي بها الرسل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ

ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢].

وحمَلُ رسالة الله يقتصر على الإنسان فقط وفق إخبار الله تعالى خاتم أنبيائه ورسله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ يُبيّنون لكم الحق من الباطل من خلالها. و﴿يَقُصُّونَ﴾ أي تحتوي هذه الآيات التي ﴿يَقُصُّونَ﴾ - ها - ﴿عَلَيْكُمْ﴾، على وقائع وقعت مع الناس، وفيها العِبَر. فَمِن القرآن ما هو مباشر، مثل قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء: ٢٣]. ومنه ما هو غير مباشر، مثل قوله: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

وليست الغاية من القص، لمجرّد القص، بل للإنذار من العصيان ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ ﴾ يحذّرونكم من عاقبة العصيان ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾، وأنتم تلتقون بعضكم البعض.

﴿قَالُواْ﴾ أجابوا: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾، اعترفنا بذنوبنا، وشهد كل منا على نفسه وعلى الآخر.

﴿وَغَرَّتْهُمُ﴾ انغـرّوا بمبـاهج ومغريـات ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وتجـاوزوا حـدود الله ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ اعترفوا ﴿أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

[١٣١]

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾

لا يعاقب الله أحداً قبل أن يصله الحق، ثم يعصى، فهو تعالى شأنه، لا يعاقب الناس ﴿بِظُلْمٍ﴾ قبل أن يبيّن لهم الحق، وينهاهم عن الباطل. فعندما يتجاوزن، يُصبحون بذلك أهلاً للعقاب ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وكلمة ﴿غَٰفِلُونَ ١٣١﴾، أي لا يُغافَلون بوقوع الهلاك عليهم دون أن يعلموا السبب، ودون أن يتلقوا الإنذار، ودون أن يبيّن الله لهم الحق. فدون بيان الله عز وجل، لا يعلم الإنسان الصواب من الخطأ، أو الحق من الباطل. ولذلك فإن الدِين، هو رحمة كبرى من الله للإنسان، لأنه يُمَنهج للإنسان حياته، فيجعله منضبطاً.

[١٣٢]

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٣٢﴾

درجات الجنة تكون ﴿مِّمَّا﴾ قَدّمتم من عمل صالح في الدنيا، ولا يغفل الله عن أي عمل يبدر منكم مهما كان كبيراً أو صغيراً.

الباب السادس والثلاثون: غِنى الله

[١٣٣]

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ١٣٣﴾

إن الله - جَلّ شأنه - كامل وتمام الغنى، وكل غنى ما دونه، فهو منه، ومهما أغنى، فإن غناه لا ينقص، وكما أنه يغني، فإنه يمكن أن يستغني، لأنه مهما استغنى، فإن هذا الاستغناء لا ينال شيئاً من غناه، ودوماً فإن الله لديه المزيد. فالغني هو الذي يُغني، والله غني لأنه يُغني. وحتى بالنسبة للإنسان، فالغني لا يكون غنياً بما لديه، بل بما يُغني، أي بما ينتفع الناس من غناه. وإن لم يعط للناس ممّا أغناه به الله تعالى، لا يكون غنياً، لأن لا نفع في غناه. فالله ﴿ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾، و﴿ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ أعلا درجات الجود والكرم، والله رحيم بالإنسان، فيجود ويكرم عليه رحمة به، لأنه لولا الرحمة، لا يستحق العطاء، بسبب ما يرتكب من ذنوب، ولكنه يستحقها بمقتضى رحمة الله. فكم من نعمة بك، تدرك أنك ما كنت لتنالها لولا رحمة الله، وكم من مأزق وضعتَ نفسك فيه، ولكن الله أخرجك منه برحمته، ولولا ذلك لكان قد أصابك ما أصابك نتيجة ظلمك لنفسك. كم

من معصية ارتكبتها، ولكن الله سترك، حتى تتوب وتصلح من شأنك رأفة ورحمة منه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر: ١٥ - ١٧]، فمهما كنتَ غنياً لا تستغني عن الافتقار إلى غناه.

﴿**إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾**﴾، وهو قادرٌ أن يقطع تكاثركم، ولا يترك منكم أحداً على وجه الأرض ﴿**وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ**﴾. أي تصبحون شيئاً من الماضي السحيق، وتخلّفون الأرض لِمَن يستبدلهم الله بكم: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨].

﴿**إِن يَشَأْ**﴾، قـادر أن ﴿**يُذْهِبْكُمْ**﴾، ويخلـق ﴿**مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ**﴾، وتكون لهم ذرية، ويتكاثروا في الأرض كما تكاثرتم.

[١٣٤]

﴿**إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾**﴾

﴿**إِنَّ**﴾ كل ما يَتَبَيَّن لكم في القرآن ﴿**لَءَاتٍ**﴾ لمحقق لا محالة ﴿**وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾**﴾ بقادرين على تجاوز مضمون ﴿**لَءَاتٍ**﴾.

[١٣٥]

﴿**قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾**﴾

ليشتغل كل إنسان ﴿**عَلَىٰ**﴾ مكانته في الآخرة من خلال عمله في الدنيا، ﴿**إِنِّى**﴾ رسول الله إليكم ﴿**عَامِلٌ**﴾ على مكانتي في الآخرة من خلال عملي في الدنيا، ﴿**فَسَوْفَ**﴾ بتأكيد من الله ﴿**تَعْلَمُونَ**﴾ تعرفون وترون ﴿**مَن**﴾ مِن الناس

﴿تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾، أي دار الله، تواصلاً مع ما جاء في الآية ١٢٧ ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾.

﴿فَسَوْفَ﴾ التأكيدية الإلهية، موجهة إلى الناس جميعاً: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ جميعكم ﴿مَن﴾ مِنكم يفوز يوم الحساب بـ ﴿ٱلدَّارِۚ﴾ يوم الفوز العظيم، ويوم الخسارة العظيمة. فاعلموا واعتبروا قبل أن تروا ذاك اليوم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾، فلا تكونوا من الظالمين الذين لا يفلحون، وكونوا من المؤمنين الذين يفلحون.

الباب السابع والثلاثون: حلال الله وحرامه

[١٣٦]

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٣٦﴾

فهذه هي عقيدة الشرك تدخل ضمن نسيج سيرورة وقائع الحياة اليومية بالنسبة للمشرك، فتمضي حياته برمّتها وفق منهج شركي. فالمشرك لا يكتفي بقول، أو بمعتقد أنه مشرك، بل يُفعّل قوله ومعتقده إلى عمل. كما الأمر بالنسبة للمؤمن الذي لا يُشرك بالله شيئاً، فهو يمارس فِعلَ ما يقوله، وما يؤمن به. فهؤلاء كما أنهم يؤمنون بالله إيماناً شركياً، فكذلك يجعلون قسماً من أموالهم، يُنفقونه إنفاقاً شركياً.

تبيّن الآية الكريمة هذه التفاصيل التي يَتّبعها مشركو مكّة: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ خَصَّصوا ﴿لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾، وكلمة ﴿ذَرَأَ﴾ تبيّن مدى الازدواجية التي يَتّبعونها. و﴿ذَرَأَ﴾ بمعنى: خَلَقَ، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾

أي بِمُقتضى مُعتَقَدِهم الشِركي. ﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ﴾، فما يُنفَق على الضيوف

والمساكين، يكون ﴿بِزَعۡمِهِمۡ﴾ من نصيب الله. ونصيب الشركاء، يُخَصَّص لمصاريف سدنة الأوثان، وللذين يقومون بخدمتها. لكن حتى في ذلك، فإنهم كانوا يرجّحون ما يجعلوه للأوثان على ما يجعلوه لله تعاظَمَ شأنه، ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ﴾.

وممّا يُقال: (أنهم إذا ذبحوا ما جعلوه لله، ذكروا عليه اسم أصنامهم، وإذا ذبحوا ما لأصنامهم، لم يذكروا عليه اسم الله). وأخرج ابن أبي شيبة، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن مجاهد قال: (جعلوا لله مما ذرأ من الحرث جزءاً، ولشركائهم جزءاً، فما ذهب به الريح مما سموا لله إلى جزء أوثانهم تركوه وقالوا الله عن هذا غني، وما ذهب به الريح من جزء أوثانهم إلى جزء الله أخذوه. والأنعام التي سموا لله: البحيرة والسائبة).

تأتي خاتمة الآية بقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾، وهذا متّصلٌ بقوله جلّ وعلا في مبتدأ الآية: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾. فالذي خلق هو وحده الذي يستحق أن يُنفَق في سبيله، ف ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾، تبيّن حجم السفه الذي كانوا فيه. فالله هو الذي خلق ﴿ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ جميعاً، وهو الذي رَزَقَكم، وقادرٌ ألّا يرزقكم.

وعندها لا تستطيع آلهتكم أن تُقَدّم لكم شيئاً، فحتى ما تنفقونه على آلهتكم، فهو ﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾ الله، و﴿مِمَّا﴾ رزقكم، فبئس الحكم الذي ﴿يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾.

[١٣٧]

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ١٣٧﴾

﴿وَ﴾ - بعطف على ما جاء في الآية السابقة - ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَ﴾ الشيطان ﴿لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ﴾. أي يجعلهم يقتنعون بفكرة

القتل، فيقدموا على ذلك برغبة، والقتل يشمل الذكور والإناث، فكانوا يئدون البنات رفضاً لهن، ويذبحون بعض الأبناء خشية الإملاق، أوقرباناً للآلهة. وكان عبد المطلب، جد النبي صلى الله عليه وسلم قد نذر أنه سينحر أحد أولاده أمام الكعبة لله إذا ولد له عشرة أولاد من الذكور. فوهبه الله بـ: العباس، وحمزة، وعبد الله، وأبي طالب (عبد مناف)، والزبير، والحارث، وحجلا، والمقوِّم، وضرار، وأبي لهب (عبد العُزّى). وكذلك ست بنات: صفية، وأم حَكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأُروى، وبَرَّة. وهو في ذروة الفرح بهذه الذرية يتراود إليه نذره السابق، فيجمع هؤلاء ويخبرهم بأمر نذره الذي نذر فيبدون استعدادهم لِما يراه. يقول لهم: ليأخذ كلّ رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني.

يفعل الأبناء ذلك، فيدخل على (هُبَل) في جوف الكعبة ليرى على مَنْ من أولاده سيقع النذر ويقول له: اضربْ على بني هؤلاء بقداحهم هذه. ثم يخبره بالنذر، فيتقدم الأخوة كل واحد يقدّم القِدح الذي فيه اسمه، بينما يبتهل الأب ألّا يقع النذر على أقرب وأحب أولاده إليه عبد الله. فتناول القادح القِداح وضرب، فخرج على عبد الله.

لم يبق أمام الأب إلّا أن يرضى بهذا فتناول السكين وراح به إلى إساف ونائلة ليذبحه. فلما بلغ الخبر قريشاً أتته قائلة: ماذا تريد يا عبد المطلب؟

أجابهم: أذبحه.

تقول قريش: والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذِرْ فيه، لئن فعلتَ هذا لا يزال الرجلُ يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا. وكان الخوف أن يغدو ذبح الذكور عادة كما الحال في وأد الإناث لدى طائفة من الناس. فأجمعوا أن يفدوه بأموالهم، ثم انتهى الأمر إلى قول قريش: انطلق به إلى الحجاز، فإن به عَرّافةٌ لها تابع، فسلها، ثم إنت على رأس أمرك، إن أمرتك بذبحه ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فَرَج قبلته.

اقتنع الأب بهذا الاقتراح الأخير لعلّه يجد مخرجاً من هذه الشدّة التي وضع نفسه بها، فأتى إلى العرّافة وأخبرها بأمره ولكنها قالت له: ارجعوا عنّي اليوم حتى

يأتيني تابعي فأسأله. فعادوا إليها حيث رأت، وعبد المطلب يسأل مخرجاً مهما كلّفه ذلك من ثمن. عندها قالت العرافة: قد جاءني الخبر، كم الدية فيكم؟

قالوا: عشرٌ من الإبل.

قالت: فارجعوا إلى بلادكم، ثم قرّبوا صاحبكم وقربوا عشراً من الإبل، ثم اضربوا عليها وعليه بالقِدَاحِ، فإن خرجتْ على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، وإن خرجتْ على الإبل فانحروها عنه، فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم.

لقد كان في الأمر بعض الفرج، أو بعض التأجيل في ذبح هذا الفتى الذي لا ذنب له سوى أنه يطيع والده، ولكن لبث الأب قَلِقاً لأن القِدح إذا تكرر على الفتى فهذا يعني إضافة المزيد من الإبل في كل مرة، وإن لم يقف هذا التكرار عن حدّه، يتوقف الأب فيؤثر ذبح الولد.

لم يتردد هذا الأب لدى عودته من اللجوء إلى هُبَل وهو يدعو الله نجاة ابنه، وثم وضع عبد الله وعشراً من الإبل، وضربوا فخرج القِدْحُ على عبد الله، فزادوا عشراً إلى العشر السابقة، وعبد المطلب يدعو الله النجاة، ثم ضربوا فعاد القدح إلى عبد الله، فزادوا عشراً إلى العشرين، وعبد المطلب يدعو الله أن يخرج القدح على الإبل، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله، ولم يترددوا من إضافة عشر إلى الثلاثين، وعبد المطلب يسأل الله، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله.

أضافوا عشراً إلى الأربعين، وعبد المطلب يدعو الله نجاة فلذة كبده، فضربوا القِدح وخرج على عبد الله، وزادوا عشراً على الخمسين، وضربوا فخرج القدح على عبد الله، ثم زادوا عشراً على الستين، وعبد المطلب لديه أمل في فرج الله، ثم ضربوا فخرج القدح على ابنه، وزادوا عشراً على السبعين، ثم ضربوا فعاد القدح إلى عبد الله، فزادوا عشراً على الثمانين، وعبد المطلب ما يزال يتمسك ببعض أمل، فعادوا وضربوا القدح فوقع على عبد الله، فزادوا عشراً من الإبل على التسعين وعبد المطلب منهمك في دعائه، وضربوا فبقيت الإبل المائة بعيدة عن القدح الذي عاد إلى عبد الله.

هنا فقد الجميع الأمل وحتى قريش ذاتها التي كانت تمانع قالت لأبيه: قد انتهى رضى ربك يا عبد المطلب. لكن الأبوة أبقت شيئاً من بقايا أمل في قلبه فطلب فرصة أخيرة قبل أن يذبح ابنه وهي أن يجرّبوا ثلاث مرات إضافية أخيرة. فكان له ذلك، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل، وعاد القدح إلى عبد الله، أعادوا الثانية، فعادت إلى عبد الله، لبثت الضربة الأخيرة، فقاموا وضربوها فخرج القدح على الإبل.

كان هذا بمثابة عرس لقريش كلها، واحتفالاً بذلك نُحرتْ الإبل لكل مَنْ يريد لحماً.

يمسك الأب بيد ابنه ويمضيان، فتراه امرأة من بني أسد، (رقية) أخت ورقة بن نوفل.

قالت له: أين تذهب يا عبد الله؟

أجاب: مع أبي.

قالت: لك مثل الإبل التي نُحِرَتْ عنك وَقَع عليَّ الآن.

أجاب: أنا مع أبي ولا أستطيع خلافه ولا فراقه.

وعند ذاك ذهب به الأب إلى وهب بن عبد مناف سيّد بني زهره نسباً وشرفاً فزوّجه ابنته آمنة، فدخل عليها عبد الله.

ولم يكن هذا الرجل الذي نجا من الذبح يحمل في ظهره سوى مَنْ سوف تحمل به هذه المرأة، وعندما ينتقل إلى حمل آمنة يعود عبد الله هذه المرة بدونه إلى (رقية) قائلاً لها: ما لك لا تعرضين عليّ اليوم ما كنتِ عرضتِ عليّ بالأمس؟

فتقول له: فارقك النور الذي كان بالأمس فليس لي بك اليوم حاجة.

ثم إنه لعل عبدالله كان يعمل في طين فمر على امرأة له دون آمنة ولما دعته، أبى واتجه إلى آمنة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ذلك عاد إلى امرأته الأولى قائلاً: هل لكِ؟

قالت: لا، مررتَ بي وبين عينيك غرة بيضاء، فدعوتك فأبيت عليّ ودخلتَ على آمنة فَذَهبتْ بها.

تقول: فدعوته رجاء أن تكون بي - غُرّة مثل غُرّة الفَرس - فأبى علي ودخل على آمنة فأصابها فحملتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعندما حملت آمنة، خرج منها نورٌ رأتْ به قصور بُصرى من أرض الشام. لقد كان العالم كله في انتظار ما ستقدّمه آمنة بنت وهب يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، عام الفيل، ولسوف يغيب عبد الله بعد أن يضع هذا النبي في بطن آمنة وأنه لن يحظى برؤيته، ولكن آمنة سوف تبعث إلى جدّه: قد وُلد لك غلام، فأته فانظر إليه. فيحضر الجد وينظر إلى الحفيد اليتيم ويدخل به الكعبة شكراً لله، ثم يبحث عمن ترضعه.

وكما حُظيتْ امرأة بحمله، ستحظى امرأة بإرضاعه لتجعل من أبنائها: عبد الله ابن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذاقة بنت الحارث التي تُعرف بـ: الشيماء، أخوة لآخر أنبياء الله. وهي ذاتها ستروي فيما بعد: في سنة شهباء لم تبقِ لنا شيئاً، خرجتُ على أتان لي قمراء معنا شارف لنا، والله ما تَبض بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكنّا نرجو الغيث والفرج، فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد أَدَمْتُ بالرَّكب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منّا امرأة إلّا وقد عُرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذ قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي فكنا نقول: يتيم وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك. فما بقيتْ امرأة قدمتْ معي إلّا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلتُ لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم، فلآخذنّه.

قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبتُ إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روى ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا

تلك، فإذا إنها لحافل، فحلَب منها ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا ريّاً وشبعاً فبتنا بخير ليلة.

قال صاحبي: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة.

قلت: والله إني لأرجو ذلك.

ثم خرجنا وركبتُ أتاني وحملته عليها معي، فو الله لقطعت بالرَّكب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إنّ صواحبي ليقلن لي: يا بنة أبي ذؤيب، ويحكِ اربعي علينا، أليستْ هذه التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي هي. فيقلن: والله إن لها لشأناً.

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانتْ غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لُبَّناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة من لبن، وتروح غنمي شِباعاً لُبّناً. فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير حتى مضتْ سنتاه وَفَصَلْتُهُ، وكان يشبّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً. فقدمنا به على أمه ونحن أحرصُ شيء على مُكثه فينا، لما كنا نرى من بركته، فكلّمنا أمه وقلتُ لها: لو تركتِ بُنَيّ عندي حتى يغلُظَ، فإني أخشى عليه وباءَ مكة. فلم نزل بها حتى ردّتْه معنا. فرجعنا به، فو الله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه يَشْتَدُّ، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيضاء فأضجعاه، فشقّا بطنه، فهما يسوطانه. فخرجتُ أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه. فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: ما لك يا بني؟

قال: "جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو".

قال أبوه: يا حليمة، لقد خشيتُ أن يكون هذا الغلام قد أُصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به. فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت: ما أقدمكِ به يا ظِئر وقد كنتِ حريصة عليه، وعلى مكثه عندك. فلم تدعني حتى أخبرتها. قالت: إن لبنيَّ لشأناً، رأيتُ حين حملتُ به أنه خرج مني نور أضاء لي قصور بُصرى من أرض الشام.

تستأنف الآية الكريمة: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ من الحق إلى الضلال ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾، أي ليبثّوا إليهم الشكوك، ويجعلوهم في حالة التباس في ﴿دِينَهُمْ﴾. وكلمة ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ تعني الردّة، أي ما كان المرء عليه من الحق، ثم ارتدّ إلى الضلال. فهؤلاء كانوا على دين اسماعيل عليه السلام، فردّوا عن ﴿دِينَهُمْ﴾ بإغواء الشيطان. فإضافة إلى ما ذُكِر في الآية السابقة، وهو امتداد لِما سبق ذكره من مفرزات الارتداد عن الحق، أصبحوا الآن يستبيحون ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ﴾، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾. أي لَما جعلهم يستجيبوا للبس الشيطان. ولكن ضعف الإيمان لديهم، جعلهم يرضخوا لِما أملاه عليهم الشيطان، وغرّر بهم، ولبس ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾. فكل إمكانات الشيطان تنشل وتتعطل أمام قوة إيمان المؤمن، نظراً لأنها ستصبح مشلولة ومعطلة إذا أمر الله بذلك.

وهو بالأصل لم يكن له ليفعل شيئاً لولا أن طلب من الله أن يمهله، فشاء له الله ذلك، وقد بيّن الله تعالى أن حدود نفوذه تقتصر على ضعفاء الإيمان، ولا سلطان له على المؤمنين المخلصين. والأمر الآخر، فحتى ضعفاء الإيمان الذين استجابوا له، تبقى أبواب التوبة مفتوحة أمامهم، ويبقى القرآن رشيداً لهم إلى الحق. فمهما أسرفوا على أنفسهم، يأمرهم الله بألّا يقنطوا من رحمته مهما بلغ بهم الإسراف، ومهما تقدّمت بهم الأعمار. ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾، فمنهم مَن يجنح إلى الحق بعد ضلاله، فيهديه الله، ومنهم مَن يلبث في عناده، فيتركه الله في الضلال.

[١٣٨]

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

ما نزال نتعرّف على تفاصيل حياة المشركين اليومية ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾، الحجر مِن الحجرة، فأنت تضع أشياءك في حجرتك، أي تحجر عليها.

لماذا حجروا على ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾ أي بعض الأنعام والحرث؟ كي: ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾، يقتصر إطعامها على مَن يشاؤون، أي تكون حلالاً على البعض، وحراماً على البعض. فقال الله: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾. هذا محض زعم منهم، وليس مِن الله، ولا يحق لهم أن يحلّوا، أو يحرّموا، والله تعالى هو الذي يبيّن للناس الحلال من الحرام، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرّمه الله. فهؤلاء زعموا أن هذه الـ ﴿حِجْرٌ﴾ لا ينتفع بها سوى خَدَمة الأوثان من الرجال دون النساء، وكانوا يقولون: (إن شئنا جعلنا للبنات فيه نصيباً، وإن شئنا لم نجعل).

﴿وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ يُحَرّمون الركوب، أو حَملَ أي شيء عليها، ويدّعون بأنهم يحمون ﴿ظُهُورُهَا﴾ ويسمّونها (الحامي). وبذلك يُحرم الناس مِمّا أباحه الله ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

﴿وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ في الذبح ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾، وقد أجازوا لأنفسهم الاعتداء على حدود الله ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ سيلقون عقاب الله ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

[١٣٩]

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾

﴿وَ﴾ إضافة إلى ذلك: ﴿قَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ الأَنْعَامِ﴾ - البحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام - مِن الأجنّة التي تكون حية، فهي ﴿خَالِصَةٌ﴾ وجاءت بكلمة مركّزة في التخليص، أي قاموا باستخلاصها، وتخصيصها، وتحليلها فقط: ﴿لِّذُكُورِنَا﴾. ثم أكّدوا على التركيز بأن أضافوا: ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾، نسائنا. ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾، أمّا إذا كانت الأجنّة ﴿مَّيْتَةً﴾، فيأكلونها

رجالاً ونساءً. ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾، سيعاقبهم الله على تشريعهم ذلك لأنفسهم، ﴿إِنَّهُۥ﴾ الله ﴿حَكِيمٌ﴾، في تشريع الحلال والحرام ﴿عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾، بمصالح عباده.

[١٤٠]

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

مُني أولئك بالخسارة الجسيمة جراء الاعتداء على ﴿أَوْلَٰدَهُمْ﴾ بالقتل ﴿سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، وجاءت ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ توضيحاً للسفه. فالسَفيه هو الذي يقدم على عملٍ عن جهالةٍ، ودون أن يتحقق إن كان على صواب أم خطأ، فلمجرّد أنه رأى القوم يفعلون ذلك، اتّبعهم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

ولذلك فَمِن أولى شروط الإسلام: الإيمان. ولا يكون الإيمان إلّا عن علم، أي أن تبلغ قناعة بأن الإيمان حق، فتؤمن عن قناعة، وهذا يكون في القلب، فيصدقه اللسان. أمّا إذا كان على اللسان دون أن يكون في القلب، فهي محض كلمات تصدر عن قلب غير مؤمن.

فالإيمان ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، هو كالكفر ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وعلى هذا، فإن أطفال المؤمنين وأطفال الكفار هم سواء في البراءة، ولكنهم عندما يبلغون الرشد، يتحمّلون مسؤولية العقيدة.

فإذن هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ كانوا راشدين، وكان يمكن لهم أن يعلموا الحق، ولكنهم اختاروا سبيل اللاعلم ﴿سَفَهًۢا﴾، ثم تمادوا ﴿وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ فهؤلاء ﴿قَدْ ضَلُّوا۟﴾ عن الحق ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إليه.

[١٤١]

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١ ﴾

إن الله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ خلق ﴿جَنَّٰتٖ﴾ بساتين ﴿مَّعۡرُوشَٰتٖ﴾ ممدودات مثل البطيخ. ﴿وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ﴾ مرفوعات كالأشجار ﴿وَٱلنَّخۡلَ﴾ التمر ﴿وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي في كل زرع منافعه وخواصه ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا﴾ في ورقه ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ في مذاقه ومنافعه. ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ تمتّعوا بأكله عندما يستوي للأكل، ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾، زكّوا هذه النِعَم بإخراج الزكاة للفقراء والمساكين، فعندما تأكلوا تذكّروا أن هناك مَن لا يملك أن يأكل، فلا تنسوا إخوانكم، وأعطوهم ممّا أعطاكم الله ﴿يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾. لا تتأخروا، فعندما يعطيكم الله، أعطوا المحتاجين، فكما أن الله أعطاكم، أعطوا حق الله لعباده المحتاجين عندما تحصدون هذه النِعَم، ولا تنسوا بأنكم محتاجون إلى الله فأعطاكم، وأن الفقراء ليسوا محتاجين إليكم، بل أيضاً إلى الله، ولكنه فضّل عليكم بأن وضع رزقهم في أياديكم، وكان يمكن أن يضع رزقكم في أياديهم، فلا تظنوا بأنكم تتمنّنون عليهم بأموالكم، بل هذا حقهم جعله الله أمانة لديكم، ولا تتأخروا بإيصال هذه الأمانة، فقد حان وقتها، وهكذا تكون الفرحة عامة بين الأغنياء والفقراء. أمّا إذا تأخر إخراج الزكاة، فتكون عيون الفقراء مرتقبة، ويلبثون في انتظار، فلعلّ البعض يكون قد ألَمّ به داء، وهو عاجز عن العمل، أو لعلّه يحتاج إلى شراء مستلزمات ضرورية لمعيشته، وهو يعلم أن الوقت قد حان، ولكنك تتقصّد التأخّر. فتفرح أنت وعيالك، وتدعه في انتظار هو وعياله، وقد يؤدّي هذا التأخّر إلى نقص في هذه النِعَم، أو يؤدّي إلى نفاذها جميعاً نتيجة وقوع أمر طارئ. وبذلك يبقى حق الله لديك، وما ذنب الفقير صاحب هذا الاستحقاق، وقد حصل ذلك جراء تماطلك. فكلمة ﴿حَقَّهُۥ﴾ تنبيهية

وتحذيرية في آن معاً، فهذا الحق قد وضعه الله في هذا الرزق، وهو ليس لك. ولذلك ترى أن بعض الفقراء والمساكين، يذهبون بأنفسهم إلى الحقول عند الحصاد حتى يأخذوا حقوقهم، فالكلمة تنبهك وتحذّرك بالّا تتعامل معهم باستياء، أو تتمنّن عليهم. فهؤلاء جاؤوا حتى تعطيهم رزقهم الذي جعله الله تعالى وديعة لديك، فإعطاءك لهم باستياء، هو إعطاء لله باستياء، وإعطاءك لهم بطيب، هو إعطاء لله بطيب. فشخص قدّم لك نفعاً من خلال عمل، فإنك تعطيه حقه، أمّا هذا فهو حق الله الذي أنعم عليك بكل ما أنت به من خير. ونرى أن يذهب المُنعَم عليه بنفسه إلى وكلاء الله هؤلاء، ويقدّم لهم حق الله عند استلامه المحصول، لأنه يزكّي ماله في وقته دون أن يترك هذا المال في حوزته دون زكاة.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾، فلعلّ الخير يكون كثيراً فيميل الإنسان إلى الإسراف ظناً منه أن ذلك لا يؤثر على الرزق الذي أصابه، خاصة في الأيام الأولى من استلامه لهذا الخير. فيأمر الله أن يتجنّب الإنسان الإسراف، ويتمتع بهذا المال وفق حاجته، وألا يبذر ما رزقه الله من خير ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾، فإن خرجتَ عن الامتثال لهذا الأمر، خرجتَ عن حب الله لك، وإن أردتَ أن يحبك الله، فلا تكن من ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

[١٤٢]

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿حَمُولَةً﴾، أي مهيأة للحمل، ومستعدّة أن تحمل على ظهرها سواء لمسافات قصيرة أو طويلة، في طرق سالكة، أو وعرة. فقد أعدّها الله كي تكون ﴿حَمُولَةً﴾، وبذات الوقت صالحة للأكل، والانتفاع بما تنتج. وذلك من مزايا الإبل، فما يركبه المرء من الخيل والبغال والحمير، غير قادرة على تأدية ما تؤدّيه الإبل، كما أنها لا تدر من النفع ما تدره الإبل، فهي لاتؤكَل، كما لا يؤكَل ما تنتج؛ وهي غير قادرة إلى

حمل ما تحمله الإبل، ولا تتمتّع بما تتمتّع به الإبل من مقاومة على العطش، أو سلك طرق وعرة طويلة. فقد خصّها الله تعالى بأن جعلها ﴿حَمُولَةً﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿فَرْشاً﴾، ما يُفتَرَش على الأرض، وهذا يقيكم البرد، فيصنع الإنسان من صوف الأنعام فراشاً دافئاً خاصة الغنم منها. ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إضافة إلى كل هذه المنافع، تمَتّعوا بأكل لحمها، فقد أحلّه الله لكم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟﴾ لا تسلكوا ﴿خُطُوَٰتِ﴾ طريق الضلال الذي يخطّه لكم ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فهو يحرمكم ممّا رزقكم به الله، كما ورد في الآيات ١٣٧ - ١٣٩.

﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ يحمل الشيطان ﴿لَكُمْ﴾ عداءً مبيناً. وقد أفصح عن هذا العداء، واستكبر على الإنسان، وقال بأنه سيفعل كل ما باستطاعته كي يضله، فلا تمضوا خلف ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وهو الذي قال لله عن آدم: ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

[١٤٣]

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾، وليس ثمانية أصول، فهي أربعة أصول، وكل واحد هو زوج للآخر، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: ٤٥].

﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾، جمع ضائن، وتؤنّث ضائنة، وجمعها ضوائن، أي من الغنم خروف ونعجة.

﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾، يتميّز ﴿ٱلْمَعْزِ﴾ بالشَعر، كما يتميّز ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ بالصوف، فهنا تيس وعنز.

﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ الخروف والتيس ﴿حَرَّمَ﴾ الله كما تزعمون ﴿أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز. رَدّاً عليهم في الآية ١٣٨: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾.

﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾، ما حملت الأنثيان، رَدّا عليهم في الآية ١٣٩: ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾. فالمُحَرّم من هذه الأجنّة هل هو الذكر أم الأنثى. ﴿نَبِّـُٔونِى﴾ أخبروني ﴿بِعِلْمٍ﴾ يقين موثوق مُستَنَد إلى كتاب سماوي، أو قول لنبي ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ في التحريم الذي ادّعيتموه.

[١٤٤]

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنثى. ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. وهذا معطوف على ﴿ٱلضَّأْنِ﴾ و﴿ٱلْمَعْزِ﴾ في الآية السابقة، لنُصبح بذلك أمام ثمانية أزواج. فلا جواب لديهم، عندها ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾، فلم يبق سوى أنكم شهدتم هذا التحريم الذي تدّعون أنه من الله، أو قد ﴿وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾ بشكل خاص كي تقولوه للناس. فلا هذا، ولا ذاك، وعليه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾. وفي ذلك تحذير شديد من عاقبة هذا الزعم، أي يزعم الإنسان أمراً، فيقول بأنه من الله ﴿لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾،

ويجوز أن يشمل ذلك كل ما ينسبه المرء إلى الله، فيقول بأن الله يأمر بهذا، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٤﴾، فيلبثون يتخبّطون في شتات ضلالهم.

[١٤٥]

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٤٥﴾

أوضح لهم يا رسولنا و﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾، فأنا رسول الله، وقد تلقّيتُ منه الوحي: ﴿لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ كما تزعمون ﴿عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ﴾ باستثناء ﴿أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ فقد أُوحي إلي بأنه ﴿رِجۡسٌ﴾ وأُوحي إلي أن ما ﴿أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ فهو فسق، لكن في حال الضرورة يُباح هذا المُحرّم لِمَن ﴿ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ﴾ ربّي ﴿غَفُورٞ﴾ لمُضطَر ﴿غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، ﴿رَّحِيمٞ ١٤٥﴾ بالناس رحمة بهم مِن الهلاك.

[١٤٦]

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾

الآن يبيّن الله تعالى الذين خَصّهم بتحريم الحلال، فيقول جلّ شأنه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ﴾، كذلك: ﴿وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ﴾ دون اللحم، وليست الشحوم بشكل عام، بل شحوم الجوف، وهي الثروب، وشحم الكليَتَين، وفي ذلك قال تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا﴾ باستثناء ﴿مَا حَمَلَتۡ

﴿ظُهُورُهُمَا﴾ فهو حلال ﴿أَوِ ٱلۡحَوَايَآ﴾. لعلّها شحوم المصارين، تكون على شكل حبيبات، فهي مستثناة من التحريم.

﴿أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ﴾، كذلك الشحوم التي اختلطت ﴿بِعَظۡمٖۚ﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾، فذلك الحلال على الناس جميعاً، والحرام على اليهود، هو جزاء الله ﴿بِبَغۡيِهِمۡۖ﴾، ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ١٦٠﴾ [النساء: ١٦٠].

فأولئك كما جاء في خاتمة الآية ١٤٣، غير صادقين بادّعاء التحريم، وبعد البيان، يختتم الله تعالى قوله في هذه الآية: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾، هذا هو الصدق في التحليل والتحريم.

[١٤٧]

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾

﴿فَ﴾ رغم كل هذا البيان الذي يبيّنه الله من الحق ﴿إِن كَذَّبُوكَ﴾ ولبثوا مصرّين على ما هم عليه من افتراء على الله، لا تصدّهم، بل قل لهم كلاماً طيباً ﴿فَقُل﴾ لهم يا محمد: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾. رحمة الله تتسع ذنوبكم لتغفرها بالِغة ما بَلَغَت، حتى لو كانت كزبد البحر، ولا ذنب تضيق به رحمة الله الواسعة، ما دام المذنب يتوب إلى ربه، ويندم على ما قدر بَدَرَ منه، ويبقى باب التوبة مفتوحاً أمامكم وأمام ذرياتكم.

فلم يقل هنا، ربك، بل ﴿رَّبُّكُمۡ﴾، لأن الخطاب موجّه إليهم، فكما أن الله هو ربك، فهو ربهم، ورب العالمين جميعاً. ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾ وما عليكم سوى أن تتوقفوا عن اتباع ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، وتأتوا إلى صراط الله المستقيم. فمهما ارتكبتم من ذنوب، لا يُخرجكم ذلك من كونكم عباد الله، وأن باب التوبة مفتوح أمامكم. ولكن إذا أصررتم على عنادكم وفسادكم البلاد والعباد، فاعلموا أن

بـأس الله ﴿لَا يُـرَدُّ﴾ ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾. وجـاءت ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، ذلك أن المجرم يَتعَمّد الجريمة، ويُخَطِّط لها حتى يُنَفِّذها، فعند ذاك اعلموا أن بأس الله يصيب ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾، فذلك إمهال لكم من ﴿رَّبُّكُمْ﴾ حتى تتوبوا، وليس إهمالاً منه.

[١٤٨]

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾

عندما يَتبَيّن لهم الحق يا محمد، سيتهرّبون منه ويتذرّعون قائلين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ نحن ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ من قبلنا ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ مِمّا ﴿حَرَّمْنَا﴾.

يخبر الله رسوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كما يكذبون عليك الآن ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ﴾. عندما تذوق شيئاً، فإن حواسك كلها تتفاعل معه، فجاءت ﴿ذَاقُواْ﴾. أي بلغ العذاب كل ذرة فيهم، وهذا تحقيق لقوله في الآية السابقة: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾. لكن يبقى منهج الكلمة الطيبة مستمراً حتى وقد بلغوا هذه المرحلة المتقدمة من العصيان والإنكار، وذلك تفادياً من أن يلحقوا بأولئك الذين ﴿ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ﴾. فيوجّه الله رسوله بأن يقول لهم: ﴿هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ﴾، ﴿هَلْ﴾ توجد وثيقة بحوزتكم تُظهروها، حتى نتطّلع عليها؟ ولأنّهم يصرّون على ما هم عليه من ضلال دون مُستَنَدٍ يَستندون إليه، ﴿قُلْ﴾ لهم يا مُحمّد: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ دون أن تَتحَقَقوا، ﴿وَ﴾ بذلك ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾، تنسبون إلى الله ظنونكم كَذِباً.

[١٤٩]

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

فما تدّعونه ليس حُجّة لكم، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ﴾ وقد بيّن لكم الحق وأرشدكم إليه، وترك باب التوبة مفتوحاً، لكنكم لبثتم في اتّباع الأوهام. والجملة الثانية من هذه الآية القصيرة المؤلَّفة من جملتَين، هي مزيدٌ مِن دعوتهم إلى التوبة: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾. هنا لفتُ الانتباه مُجَدّداً كي يتّبعوا الحق، فلعل الله يشاء ويهديهم، ثم إن ما هم عليه من ضلال ليس خارجاً عن مشيئة الله. فكما أنهم أرادوا الضلال، فشاء الله لهم ذلك، فإن ندموا وتابوا، لعل الله يشاء لهم الهداية بعد ضلالهم.

[١٥٠]

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾

ما تزال المُناظَرة قائمة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المُفتَرين على الله كَذِباً، والله سبحانه وتعالى يوجّه رسوله مِن مِحوَر إلى آخر، وهو يُحاورهم، وقد بدأت المُناظَرة في مبتدأ الآية ١٣٨، عندما: ﴿قَالُواْ هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نّشَاء﴾. فالآن ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسولنا: ﴿هَلُمَّ﴾ هاتوا ﴿شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ الذي نسبتم تحريمه إلى الله افتراءً. فإن أحضروا أشخاصاً، و﴿شَهِدُوا۟﴾ لهم، ﴿فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾. لا تُصَدّق، ولا تؤيّد شهادتهم، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ويريدون من خلال إحضار هؤلاء الشهداء الذين يشهدون بالباطل أن ﴿تَتَّبِعْ﴾ أهواءهم. وهنا تنبيه للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن هؤلاء هم أنفسهم ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ التي أوحينا بها إليك. إذن، لا تتبع فئتَين، الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾. والثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾.

إضافة إلى ذلك: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ١٥٠﴾. يجعلون غير الله عدلاً به، والله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لا شريك له، لا يُعادله شيء.

[١٥١]

﴿۞ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾

﴿۞ قُلۡ﴾ لهم يا محمّد ﴿تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ﴾ أقرأ لكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾، فقد أوحى إلي: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾. وقد بيّنت السورة بعض أشكال الشرك مثلما جاء في الآية ٧٤ ﴿۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً﴾. كذلك عبدة الكواكب في الآية٧٦ عندما قال إبراهيم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾. كذلك الآية ١٠٠ في قول الله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ﴾، وفي ذات الآية: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾.

والآن: ﴿أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾. فلا شيء البتة يمكن له أن يكون عدلاً مع الله، لأن كل شيء إنما هو خالقه، وقد جاء الشرك أولاً لأنه أكبر الكبائر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: ١١٦].

بعد النهي عن الشرك الذي جاء في المرتبة الأولى، أوصى الله تبارك وتعالى: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾. وصية الله عز وجل، الأبناء بأن يُحسنوا إلى والديهم: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾، وليس بالأبوين. فالكلمة تُذكّرك بالولادة، فأنت ولدهما، ووليدهما، وقد ولدتَ منهما نتيجة تلاقح مَني هذا الرجل، بِمَني هذه المرأة.

فأنتَ نتيجة تلاقح مَنيهما، ولذلك هو والدك، لأنك لم تكن لتلد لولاه، ثم هي والدتك، لأنك لم تكن لتلد لولا أنها ولدتك.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾، بمعنى أن هذه العملية المجرّدة لوحدها قد جعلتهما والِدَين لك، أي بمجرّد أنك ولدت، وحتى لو انقطعت العلاقة بينك وبينهما منذ اليوم الأول، وتولّى غيرهما تربيتك، فذلك لا يُسقط أنك ولدهما، وعندما تكبر قد تقول للرجل الذي ربّاك: أبي، وتقول للمرأة التي ربّتك: أمي. ولكن لا تقول له: والدي، ولا تقول لها: والِدَتي. لأنهما ربياك فقط، ولم يولداك. ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾، ومعنى الإحسان، أن يكسبان منك الحَسَنات، أي تفعل ما باستطاعتك حتى تُحسن إليهما، وتوصل إليهما الحَسَنات، عرفاناً منك بفضلهما عليك، سواء في الولادة والتربية معاً، أو في الولادة دون التربية، لأن المولود قد لا يرى والِدَيه، أو لا يرى أحدهما. ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم ير والده، لكنه: محمّد عبد الله، كما أن ابنته فاطمة، هي: فاطمة محمّد عبد الله.

فعليك أن تكون مؤدّباً مع والِدَيك في الظروف جميعاً، ألّا ترفع صوتك عليهما مهما رأيتَ منهما.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾، لا يكفي ألّا تكون سيئاً بهما، بل عليك أن تكون حَسَناً بهما، حتى لو كانت ثمة مؤاخذات عليهما.

﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ﴾. وإذا كانت هناك: ﴿وَبِ﴾ للتوصية الإلهية للأبناء بالآباء، فهنا: ﴿وَلَا﴾، للنهي الإلهي للآباء بحق الأبناء، فلا ترتكبوا هذه الجناية بحق ﴿أَوۡلَٰدَكُم﴾ تحت ذريعة الفقر، أو ضيق المعيشة. ﴿نَّحۡنُ﴾ - بنون العظمة المكرّرة في الكلمتين المتتاليتَين -: ﴿نَرۡزُقُكُمۡ﴾ نمدّكم بالأرزاق ﴿وَإِيَّاهُمۡۖ﴾، ونمدّهم أيضاً.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ جمع فاحشة، وهي كل ما يجعل من مرتكبها فاحشاً، ومن ذلك الزنى، فالزاني هو فاحشٌ بزناه، والزانية هي فاحشةٌ بزناها.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ﴾ أي دعوكم بعيدين عن ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ﴾. فَمِنَ ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ ما تكون ظاهرية، فيمارسها المرء في العَلَن، ومِنها ما تكون مُبَطّنة

في السر، فذاك موضع لارتكاب ﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، ورغم ذلك يذهب بعض الناس إليه جهاراً نهاراً، وتلك فاحشة يرتكبها رجل وامرأة بسرّية تامة، وأخذ حيطة من أي شبهة.

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ جملة، سواء ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾ إلى العلَن، ﴿وَمَا بَطَنَۖ﴾، كان في خفاء.

﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾. باستثناء إقامة حدود الله، وهذا يكون من شأن القضاء الذي يبث هذه الأحكام بعد الثبات والتحقق، وذلك إقامة لحدود الله في الجُناة من الناس.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ المُبَيَّن، المُفَصَّل ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ الله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾، في رشاد أمركم، فتفعلون ما يُعقَل، لا ما لا يُعقَل.

[١٥٢]

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ١٥٢﴾

ينهاكم الله أن تمدّوا أياديكم إلى ﴿مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ لأخذه ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أي تمدّ يدك لتُحسن إلى هذا المال، لا أن تأخذه وتنتفع باستثماره، ثم تعيده كما أخذته إلى ﴿ٱلۡيَتِيمِ﴾، فتمدّ يدك إلى هذا المال كي تستثمره لليتيم في تجارة مشروعة، إذا رأيتَ أن بقاء هذا المال جامداً، يُنقص من قيمته الشرائية، فتضعه في عقار مثلاً، فيدر ذلك دخلاً شهرياً، يكون لليتيم، ثم قد يرتفع سعر العقار فيما بعد، فذلك فيه نفعٌ لليتيم، ففي هذه الحالة المستثناة، يجوز أن تمدّ يدك إلى هذا المال، وتتصرّف به من باب المنفعة، ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾. من الشدّة، أي يشتدّ عودُه، ويغدو قادراً على التصرّف بماله. ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدًا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦]، حينها تعطيه حقوقه، وتُصبح بريء الذمة تجاه ماله أمام الله.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

الوفاء، هو عطاء تمام الحق إلى المُستَحَق، فالذي يوفي، هو الذي يعطي كامل الحق لصاحبه. يأمر الله تعالى القائمين على شؤون ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أن يكونوا مقسطين في كيلهم وميزانهم، فيعطوا للناس حقوقهم. ذلك أن القائم على هذا الشأن يمكن له يتلاعب في الوحدات الميزانية، وفي وقتنا، مع ظهور أشكال جديدة بـ ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ الكترونياً، أو كهربائياً، فيمكن التلاعب في ذلك، كما يمكن أن يحدث عطلٌ، في هذه الوسائل، فعلى القائم على شأنها، أن يتوقف عن استخدامها لدى اكتشاف ذلك، حتى يُصلحها. ونرى أن يتحقق القائم على هذا الشأن بين حين وآخر من صحة هذه الوسائل، وذلك أن يزن وزناً، ثم يختبره في أكثر من ميزان، حتى يتحقق من سلامة ميزانه. فتلك هي أمانات الناس، وأنتَ أمينٌ على هذا الميزان الذي تزن به حاجاتهم، وتعطي لكل ذي حق حقه. ويجوز أن يكون القسط هنا بمعنى التساوي، أي عليك أن تُساوي الناس بنفسك في هذا الميزان، فكما لو أنك تبيع من بضاعة شخص ما إلى نفسك، فلا تبخس الناس حقوقهم في ذلك، كما أنك لا تريد أن يُبخَس حَقُك.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. ومعنى ذلك - والله أعلم -: لا نُحَمّل نفساً ﴿إِلَّا﴾ ما بـ ﴿وُسْعَهَا﴾، فكل ما يأمر به الله تعالى، يستطيع الإنسان أن يعمل به، دون أن يهلك نفسه بذلك، وكل ما ينهى عنه، يستطيع أن ينتهي منه دون أن يهلك نفسه بذلك. فالتكاليف على قدر استطاعة النفس، واعلم أن الاستطاعة ليست ثابتة، فما تستطيعه اليوم، قد لا تستطيعه غداً، ولذلك تكون السعة أيضاً مُتَحَوّلة وغير ثابتة، فسعة الأمس بالنسبة لصحتك، اختلفت عن سعة اليوم بسبب ما طرأ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾. لا تميّزوا بين شخص وآخر في النطق بالحق، وساووا في قولكم بين الناس جميعاً، حتى ﴿لَوْ كَانَ﴾ الذي عليه الحق ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾. كونوا أوفياء لمُعاهدة الإيمان التي عاهدتموها مع الله عندما انتسبتم إلى الإسلام، وسألتم الله أن يقبل إسلامكم. فلتلك المُعاهدة بنودها، عليكم أن تكونوا أوفياء بها، وألّا تخلّوا بتلك البنود، فبموجبها سألتم الله قبول إسلامكم، وبموجبها قَبِلَ الله إسلامكم، ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ﴾ لا تخلّوا. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ما تقدّم ذكره: ﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾. فالتزموا وصية الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، تتعظون.

[١٥٣]

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿وَأَنَّ هَٰذَا﴾ الذي أبيّنه لكم إنّما هو ﴿صِرَاطِي﴾ طريق الإسلام ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، لا عوج فيه، ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾، تستقيموا باتباعه. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ الطرق المعوَجّة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾، تشتتكم عن بعضكم البعض، وتجعلكم في اعوجاج ﴿عَن﴾ سبيل الله المستقيم. عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَيُّكُمْ يُبَايِعُنِي عَلَى هَؤُلاءِ الآيَاتِ الثَّلاثِ؟ ثُمَّ تَلا: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ إلى ثلاثِ آياتٍ ثُمَّ قَالَ: وَمَنْ وَفَّى بِهِنَّ آجَرَهُ اللهُ، وَمَنِ انْتَقَصَ مِنْهُنَّ شَيْئًا فَأَدْرَكَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا، كَانَتْ عُقُوبَةً، وَمَنْ أَخَّرَهُ إِلَى الآخِرَةِ، كَانَ أَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ أَخَذَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ"[١].

﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ عواقب اتباع ﴿خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾.

---

(١) أخرجه الحاكم.

وقد جاءت وصية الله في الآيتين المتتاليتين، في الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾، تتعظون بهذا البيان. وفي الثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ عواقب السبل المعوَجّة. ولا يوصيك إلا مَن يريد بك خيراً، وعندما يوصيك الله باتخاذ الطريق المستقيم، فإنه بذات الوقت يوصيك بعدم اتخاذ الطرق المعوَجّة. وقوله تبارك وتعالى في الآيتين المتتاليتين: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾، أي وصاكم باتباع الاستقامة، وبعدم اتباع الاعوجاج.

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللهُ فَهُوَ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ". فَبَايَعْنَاهُ عَلَى ذَلِكَ)[1].

الباب الثامن والثلاثون: الترتيب الإلهي

[١٥٤]

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿ثُمَّ﴾، أي بمقتضى تريب الله: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أنزلنا على ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿تَمَامًا﴾. فَمِن نِعَم الله وفق الترتيب أنه أنزل التوراة على ﴿مُوسَى﴾، وفيها تمام الخير ﴿عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾، تلقي الخير فيها في ذاك الزمان، أي الذي كان على التوراة، في ذاك الوقت، ولعلّ التمام هنا، يفيد بالتوراة غير المُحَرّفة. فالتحريف ينال

(١) صحيح البخاري.

من التمام، فالذي يأخذ بِما تم تحريفه، لا يكون قد ﴿أَحْسَنَ﴾ العمل بما أنزل الله ﴿تَفْصِيلًا ⁽١٢⁾﴾ بياناً ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يختلفون فيه بعد التحريف.

﴿وَهُدًى﴾ يهدي إلى الحق ﴿وَرَحْمَةً﴾ من الله ﴿لَّعَلَّهُم﴾ أهل التوراة ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ⁽١٥٤⁾﴾، فيعملون بمقتضى هذا الإيمان.

[١٥٥]

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⁽١٥٥⁾﴾

مبتدأ، وخبر، ﴿وَهَٰذَا﴾ اسم الإشارة، وخبره: ﴿كِتَٰبٌ﴾، القرآن ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، صفة للقرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾، وصف الصفة بصفة أخرى. ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾، اتبعوا القرآن المُبارَك ﴿وَٱتَّقُوا۟﴾، تَزَوّدوا منه بالتقوى، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ⁽١٥٥⁾﴾، وأنتم تتبعوه، وتتقوا.

[١٥٦]

﴿أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ⁽١٥٦⁾﴾

وهذا انقطاع للعذر بالنسبة للذي يقول: ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، التوراة والإنجيل ﴿عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ﴾، اليهود والنصارى ﴿مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ﴾، بما جاء في التوراة والإنجيل ﴿لَغَٰفِلِينَ ⁽١٥٦⁾﴾، كونهما لو يكونا بلساننا.

وهذا يفيد بأن كل رسول جاء إلى قومه بلسانهم، وكل واحد منهم كان يكمل مَن يأتي بعده، وهذا ترتيب حكيم. ثم شاء الله جلّت قدرته أن يرسل مَن لا رسول بعده، فيختتم به رسله، ويكون حاملاً آخر رسالاته. وشاء وقدّر أن تكون هذه اللغة هي العربية، وأن تكون هذه الرسالة هي خلاصة رسائل الله تعالى إلى الناس على امتداد التاريخ الإنساني برمته؛ وبذلك فيكون القرآن الكريم لعموم الناس بمختلف لغاتهم، كونه تميّز بالخاتمية، وما أُنزِل قبله، كان يتكامل بعضه ببعض، حتى تم التكامل في القرآن، فأصبح المرجعية الإلهية الأحدث، والأكمل، والأتم للعالمين.

[١٥٧]

﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَاۗ سَنَجۡزِي ٱلَّذِينَ يَصۡدِفُونَ عَنۡ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصۡدِفُونَ ١٥٧﴾

فإن لم ينزل الله تعالى القرآن، لعلّكم قلتم: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، فهؤلاء قد خاطبهم الله وشرّع لهم في كتاب، ونحن لا نفقه شيئاً من ذاك الكتاب، فلو كان ذلك لنا: ﴿لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾، وتمسّكنا بِما آتانا الله من الحق أكثر ﴿مِنۡهُمۡۚ﴾.

الآن: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞۚ﴾. الـ ﴿بَيِّنَةٞ﴾ هي التي تبيّن ما لم يكن مُبَيَّناً، فيكون المرء بها على بيّنةٍ من أمره.

﴿وَهُدٗى﴾ أن هذه البيّنة تهدي إلى سواء السبيل، فَمَن أراد الهدى، فليتّبع ما جاء في القرآن الذي فيه بيّنة الله في الحلال والحرام، والأوامر، والنواهي.

ثم قال جل شأنه: ﴿وَرَحۡمَةٞۚ﴾. وهي رحمة الله التي وسعت كل شيء، ففي القرآن تتعرّفون على رحمة الله، هذه الرحمة التي بها تُغفَر لكم ذنوبكم.

فإذن، ما جاء في القرآن، يعلمه أهل الكتاب، لأنّه امتداد للتوراة والإنجيل، وكثير مِمّا ورد في القرآن الكريم، ورد فيهما. فما يتعرّف عليه المسلمون الآن، يعرفه أهل الكتاب من قبلهم، ولكن الإشكال الذي وقع، هو الصدق التام الذي جاء به القرآن، هذا الصدق الذي أظهر تحريفهم للتوراة والإنجيل، فكان عليهم أن يؤمنوا بهذا الصدق.

والبعض يستجيب لهذه الحقيقة، وينكر التحريف، ويعتنق الإسلام، من جملة الذين يُصرّون على التحريف.

وفي الوجه الآخر فإن المسلمين أصبحوا على اطلاع على ما جاء في التوراة والإنجيل من خلال القرآن الذي أصبح بمثابة الترجمة العربية لهم. فهذه مِن النِعَم

الكبرى على أمة العرب، فقد أخرجهم التنزيل المبارك من الظلمات إلى النور، من التهميش إلى الحضور.

وكان من أعظم نِعَم الله على الإنسانية جمعاء بأن جعله للعالم كله، وبذلك فقد انهالت عليه الأقوام من مشارق الأرض ومغاربها لتتدارسه وتؤمن به.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾. فبعد الذي بيّنه القرآن، ليس هناك من هو أكثر ظلماً، مِن الذي يُكذّب هذا البيان الإلهي وينصرف عنه.

﴿سَنَجْزِي﴾ سنعاقب ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ ينصرفون ﴿عَنْ﴾ اتباع ﴿آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ يجحدون.

[١٥٨]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

﴿هَلْ﴾ ينتظر ﴿الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ﴾ آيات الله ﴿أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ رسلاً من الله إليهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ﴾ أمر ﴿رَبُّكَ﴾ بإهلاكهم. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدلائل التي تشير إلى قرب قدوم الساعة.

عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ الْغِفَارِيِّ، قَالَ: (اطَّلَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ، فَقَالَ: "مَا تَذَاكَرُونَ"؟ قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ. قَالَ: "إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْنَ قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ" فَذَكَرَ "الدُّخَانَ، وَالدَّجَّالَ، وَالدَّابَّةَ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَأَجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَثَلَاثَةَ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ، تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ"[١].

---

(١) صحيح مسلم.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ عندها ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾. وهنا يجب أن يتفعّل الإيمان بالعمل الصالح، أي يعمل الإنسان صالح العمل حتى يكسب في إيمانه الخير. ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد: ﴿ٱنتَظِرُوٓا﴾ وعد الله ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

[١٥٩]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

لم يأخذوا الدين بأكمله، بل أخذوا منه أشياء، وانصرفوا عن أشياء، ﴿وَكَانُوا﴾ بهذا التفريق في الدين ﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً، كل فرقة تأخذ بِما فَرّقته، هؤلاء يا محمّد: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾. بمعنى لست مسؤولاً ﴿فِي شَيْءٍ﴾ عمّا يفعلون، فمهمّتك إبلاغ الحق. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذي يتولى الحساب، ﴿ثُمَّ﴾ هو الذي ﴿يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

[١٦٠]

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

الذي يفعل الحسنة، يجازيه الله تعالى بـ ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ من الحسنات، ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ ونظير ذلك إذا ارتكب سيئة، ﴿فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾. أي يلقى جزاء السيئة التي ارتكبها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾. فرحمة الله زادت أجر الحسنة، وعدله لم يزد جزاء السيئة، وليس من أحد يُظلَم عند الله.

[١٦١]

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم بأن هدايتي ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هي من ﴿رَبِّيٓ﴾، وأن ما أنا عليه

من دين قيّم، هو اتّباع لـ ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾ الذي كان من الموحّدين، ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾.

[١٦٢]

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾

النسك، هي التي تجعل من الإنسان ناسكاً، أي يفعل ما يقرّبه إلى الله، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى﴾، كل ذلك ﴿لِلَّهِ﴾ وحده الذي هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾. العبارة الأخيرة من الآية: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾. هي بمثابة الدعوة للإنسان كي يأتسي برسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه هي الحقيقة التي تُحسّن للإنسان آفاق حياته. فالإنسان قد خلقه الله، وهو يكون بين يدَي الله، ويستكين عندما يتّبع شرع الله، وهو ذاهبٌ إلى الله. وهنا كلامٌ دقيقٌ جداً، ورغم أن الخِطاب هو للنبي صلى الله عليه وسلم، لبيان معتقده أمام الناس بشكلٍ جليٍ، فلم يكن التوجيه الإلهي بـ (ربي)، بل ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾. إذن الرب الذي أؤمن به، هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾. وأنا واحدٌ من ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾، وقد أرسلني إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾.

[١٦٣]

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾

إن الله الذي أؤمن به هو إله واحد ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ﴾، وأتّبع ما أمرني به، ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ١٦٣﴾، من أمتي.

[١٦٤]

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ١٦٤﴾

فكيف بعد ذلك تطلبون مني أن أشرك بربي، و﴿أَبْغِى﴾ غيره ﴿رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍۚ﴾، ومِن ضمنها الأشياء التي تعبدونها، وتعدلون بها الله الذي خلقها. ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ

نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ﴾، فلا أحد يُحاسَب بذنب أحد، و﴿كُلُّ نَفۡسٍ﴾ تُحاسب بما ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾.

الوزر هنا هو الذنب، وقد تقدّم في الآية ٣١: ﴿وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾. أي لا أحد يحمل وزر أحد. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤﴾. إن الله الذي إليه تُرجَعون، هو الذي يخبركم بالذي ﴿فِيهِ﴾ اختلفتم.

[١٦٥]

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾

﴿جَعَلَكُمۡ﴾ الله تخلفون بعضكم بعضاً في ﴿ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ في الخَلق، والقوة، والعلم، والجاه، والمال. وليس ذلك لأنه غير قادر أن يجعلكم جميعاً في مرتبة واحدة، بل: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ﴾ ليختبركم ﴿فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ من تلك الدرجات المتفاوتة. فمن خلال هذا الاختبار تبلغون الدرجات المتقدّمة عند الله، فلعلّ غنياً بالغ الغنى، لا يكون في درجة متقدّمة يبلغها فقير بالغ الفقر عند الله، ولعلّ خادماً يكون مقرّباً من الله أكثر من ولي الأمر. فتنفرز درجات القرب إلى الله، من اختبار درجات الدنيا. فرفع البعض فوق البعض في درجات الدنيا ليس مقياساً لدرجات القرب من الله، أو البعد عنه، كون الغاية هي الاختبار، وبعد ذلك تنفرز الدرجات الحقيقية للناس جميعاً عند الله، وفق نتائج هذا الاختبار.

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾، أي يشعر المُعاقَب بسرعة وقوع ﴿ٱلۡعِقَابِ﴾ عليه. ولم تنته الآية والسورة معاً عند ذلك، فكيف يعمل الضال بهذا التحذير، وقد اقترف ما اقترف من الذنوب: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ﴾، يغفر عمّا قد سلف من الذنوب جملة واحدة، كما لو أنها لم تكن ذلك أن الله ﴿رَّحِيمُۢ ١٦٥﴾ بالعباد.

رحلة اطلاعية غنية يقوم بها قارئ هذه السورة، فهو مع كل آية يستكشف ويطّلع

على نماذج مِمّا أنعم الله تعالى به عليه. فهي بذلك سورة تُعرّفك بالله أكثر من خلال أشكال وألوان النِعَم التي خلقها، وهذه إتاحةٌ أمام المخيّلة كي تتأمّل التفاصيل الدقيقة في خَلق هذه النِعَم حتى تصل الإنسان ناضجة مكتملة. والأمر الذي لا يقل أهمية عن ذلك هو مدى قابلية الإنسان للاستمتاع بهذه النِعَم.

فتبيّن السورة عبر آياتها كيف أن الإنسان المؤمن يستمتع بدرجات أعلى من غير المؤمن بنكهة وقيمة هذه النِعَم، فيجعله ذلك أكثر اكتشافاً لعظمة الله، وأكثر إيماناً به.

في حين أن غير المؤمن لا يبلغ هذه الدرجات المتقدّمة في القابلية لاكتشاف ذلك، والاستمتاع بهذه النِعَم. وبالتالي تبقى حياته باردة من كل شيء، مقارنة بالدفء الذي يعيشه المؤمن في مقوّمات حياته.

فهذه السورة هي سورة العلاقة بين الإنسان وبين المقوّمات التي تقوم عليها حياته، فتبيّن كيف أن هذا الإنسان يكون في حالة من الاعتدال، والاستقرار، نظير اللامؤمن الذي يفتقد هذه المزية الأساسية، فتكون حياته عبارة عن صراعات مُزدَوَجة على كافة الصعد. فهو كائن مفتقد للطمأنينة، هذه الطمأنينة التي لا تدخل قلباً قبل أن يدخله الإيمان.

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا
فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾
فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا
مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ
إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ
مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ
يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ
أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن
تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا
نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ
وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ
أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ
أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ

يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا
لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ
أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ
وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ
ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ
عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ
لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا
لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا
يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾
فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا
يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ
كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ
حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ
لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ
بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ
حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ
غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ
أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ
ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ

وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا
إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ
جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ
يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ
الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً
إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ
اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا
أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا
لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ
مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي
وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ
لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ
ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمۡ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡۚ
وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ
لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ
أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ
مُؤۡمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ
جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي
ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي
ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ
مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ
يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ
قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ

أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا
إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ
عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن
قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾
ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ
أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ
ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن
يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ
وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا
وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ
فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ
مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ

عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ
إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ
فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا
إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ
وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ
وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾
فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ
سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ
ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ
وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ
ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ
مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ
قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ
مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ
رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾
وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ
ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا
مُّجۡرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ
عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ
عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي

بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ
فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ
عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا
هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ
وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ
لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي
وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ
إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ
جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾
وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ
يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ
وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ
ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ
مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ
وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا
وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا
خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ
ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ
رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ
سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ
أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا
لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ
إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾
۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ
وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ
وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى
رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ
أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ
مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ
وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ
وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا
كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى
ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ
نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ
قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ

وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً
خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ
وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ
وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم
مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا
تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا
ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾
وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ
أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ
مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ
نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ
بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ
تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾
سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن
يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا
يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا
بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ
مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ
وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ

ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ
لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ
فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ
شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١ وَلَا
يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ
أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ
فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ
لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥ إِنَّ
وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ
نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا
يُبۡصِرُونَ ١٩٨ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ
فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا
هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا
ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣
وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا
وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا
يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَۤ۩ ٢٠٦

استهلال

الأعرافُ مِن المَعرفة، وهي جمع عُرف، أي هي أساسيّات وثبوتيّات ومقوّمات، والناس يتواصلون فيما بينهم على ثوابت يَتعارَفون عليها، والمجتمعات البشرية لها أعرافها العامة التي تشمل الناس جميعاً دون استثناء، ومِن ثنايا ذلك تتفرّع أعرافٌ خاصة لكل مُجتَمَعٍ من المجتمعات البشرية، فكل مجتمع يمتاز بأعرافه الخاصة به، وقد تختلف أو تتناقَض مع أعراف مجتَمَع آخر، بل إن لكل بيت أعرافه، ولكل شخص أعرافه.

ولا يكفي أن تعرف هذه الأعراف، بل عليك أن تلتزم بها وتراعيها في علاقاتك سواء مع المجتمعات، أو العوائل، أو الأفراد، وإلّا فإنك تلقى الرفض، وتلبث منعزلاً منبوذاً، لأن الذي لا يراعي، ولا يحترم أعراف الآخرين، فإنهم لا يقبلونه في مجتمعاتهم، أو في بيوتهم، بل إنك عندما تدخل دولة، ولا تأخذ أعرافها بعين الاعتبار، فإنها تطردك من أراضيها.

وأي بيت تدخله دون أن تراعي أعرافه، فلا يكون مرغوباً بك فيه حتى لو كان بيت قريب لك، وأي شخص لا تحترم أعرافه، فإنه يتحاشاك، بل إن الإنسان يلقى الانتقاد حتى من أهل بيته إذا رأوه يتجاوز أعراف المجتمع، فيمكن للزوجة أن توجّه انتقادات لزوجها، إذا رأته مستهتراً بالأعراف، ويمكن للزوج أن ينتقد زوجته إذا رآها مستهترة بالأعراف، ويمكن للأبوَين أن ينبها أولادهما إذا رأوهم ينحرفون عن قاعدة الأعراف الاجتماعية حتى لو كانوا متزوجين ويقيمون في بيوت خاصة بهم.

فالأعراف هي منظومة إنسانية واجتماعية تضبط وتنظّم للإنسان وللمجتمع سلوكياته، بمعنى أنها حدود اجتماعية وإنسانية لا ينبغي للإنسان تجاوزها. وإذا انتهك كل شخص أعراف الآخر، عمّت الفوضى العارمة، وما عاد أحدٌ يقيم لأحد عُرفاً، فكل شيء سيكون مُباحاً، وسيخرج الإنسان من منظومة المجتمع الإنساني، إلى منظومة القَطيع الحيواني، كما الحال بالنسبة لبعض النماذج الشاذة من الناس،

وهؤلاء يفشلون في الحفاظ على كل النِعَم التي أنعَم بها الله تعالى على الإنسان، وخص بها الإنسان، فيكون هذا الشخص المنحرف قد حُرِم من تكوين عائلة، حُرِم من عَقد صداقات حقيقية حميمة، حُرِم من صِلة الرَحم، حُرم من الثقة، حُرِم من العلاقات الاجتماعية الطيبة، حتى أنه لم ينجح في العناية بصحته، ولم يستقرّ في فكره، فيعاني آلاماً بدنية إلى جانب الآلام والوخزات النفسية، فهو شخص مُنَكّس الرأس والنفس معاً في المجتمع، وكل ما فيه أذى في أذى سواء لنفسه، أو لأقربائه، أو لجواره، أو لسائر الناس.

فهذا شخص هو عدو نفسه بالدرجة الأولى، فقد أخسرها كل شيء، ولم يُربحها شيئاً، قدّم لها الأذى في كل شيء، ولم ينفعها في شيء، فقد شوّه سمعته، ونال من قِيَمه الإنسانية، وأساء إلى جسده، وإن كان متزوجاً، يكون قد أساء إلى نقاء العلاقة الزوجية بين الزوج وزوجته، ويكون قد أساء تربية أولاده، وبطبيعة الحال إن لم تكن الزوجة ناضجة، فإنه يتَسبّب في فشلها.

واعلم هنا أن الإنسان يمكن له أن ينحرف عن الطريق في أي مرحلة من العمر، كما أنه يمكن أن يعود إلى الصواب في أي مرحلة من العمر، فلا مقاييس للثوابت هنا، فقد يمضي شخص ما سنوات طويلة في الانحراف، لكن الله يهديه، فتراه يصلح من شأنه، وينقلب من إنسان سلبي إلى آخر إيجابي، ونظير ذلك، يمكن لإنسان ما أن يفسد وينحرف بعد سنوات من الصلاح، فيرتكب موبقات ما ارتكبها سابقاً قط، فيتفاجأ الناس بتصرفاته الغريبة التي ما ألفوه عليها قط، فيتحوّل هذا الإنسان بين ليلة وضحاها من إنسان إيجابي إلى إنسان سلبي.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى مثل هذه النماذج عندما بيَّن بأن الإنسان يمكن له أن يعمل بعمل أهل الجنة، لكنه في النهاية ينقلب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، ويمكن له يعمل بعمل أهل النار، لكنه في النهاية ينقلب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها. عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ

النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا"(١).

هنا عليك ألّا تحكم على الإنسان إلّا في اليوم الذي هو فيه، دون أن تحكم عليه بالصلاح الدائم، أو الفساد الدائم، فكل شيء يُحتَمَل أن ينقلب إلى ضده في وقت ما، فشخص يكون قد أمضى عمره في الصلاح حتى أصبح شيخاً طاعناً في السن، وعند ذاك يزني لأول مرة في حياته، أو يسرق، أو يكذب، أو يثير الفتن في الناس وما شابه، وقد تحدّث النبي صلى الله عليه وسلم عن (الشيخ الزاني)، وليس بالضرورة أن يكون هذا الشيخ زانياً منذ شبابه، بل لعلّه يقدم على الزنا بعد أن يُصبح شيخاً.

الأمر الدقيق الذي عليك أن تستخلصه هنا هو ألّا تغتر بنفسك إذا رأيتك مستقيماً، وأن تكون دائم الحذر من الانزلاق وتكون على يقين بأنك قابل للانزلاق في أي لحظة متَوَقّعة أو غير متوَقّعة مهما ارتفعت بك درجات الاستقامة.

والأمر الموازي لذلك هو ألّا تحكم على نفسك بأنك ستبقى فاسداً، إذا رأيتك في فساد، وأن تكون دائم التوقع بالصلاح في أي لحظة متوَقّعة أو غير متَوقّعة مهما هَوَت بك درجات الفساد.

وكما أنك في الأولى، يمكن لخطيئة أن تستدرجك إلى عالم من الفساد، فإنك في الثانية، يمكن لعمل صالح واحد أن يستدرجك إلى عالم من الصلاح.

وفي الأولى كن حذراً من الغفلة، ولا تكن واثقاً من نفسك كل الثقة، وفي الثانية أقدم على أي موقف إصلاح مهما كنتَ غائراً في يَم الفساد، فلعل ذلك بداية متدرجة للنجاة، فلا تفقد الأمل من نفسك كل الفَقد، وبالله التوفيق.

فهذا تمهيد أردنا أن نمَهّد به للدخول إلى عالم هذه السورة المباركة، وأخذ العظة من كل آية من آياتها، و(الأعراف) في هذه السورة، هي سور ضخم يضعه الله تعالى ليكون فاصلاً بين الجنة والنار، وهو يكون مانعاً أمام خروج أهل النار للدخول إلى الجنة.

---

(١) صحيح مسلم.

إذن هو سور طويل على امتداد الجنة والنار، ومرتفع بحيث لا يستطيع أحد تسلّقه، كما أن به من السُمك بما لا يجسر أحد على ثقبه. وعلى هذا السور رجال كما تبيِّن السورة، فلا هم في الجنّة، ولا هم في النار، وبذات الوقت يتمكّنون من رؤية أهل الجنة وما هم فيه من نَعيم، ورؤية أهل النار وما هم عليه من عذاب، فإن نظروا في هذه الجهة، رأوا هؤلاء، وإن نظروا في تلك الجهة، رأوا أولئك دون أن يتحدّد مصيرهم بعد إن كانوا سينقلبون إلى هذه الجهة، أو تلك.

ولكن لماذا تم وضعهم في هذا الموضع؟ فهم فئة خاصة من الناس جميعاً على مختلف العصور والأحقاب البشرية، لكن أعمالهم المتشابهة جعلتهم في هذا الموضع المضطرب، كما أن الأعمال المتشابهة جمعت أهل الجنة فيها، والأعمال المتشابهة جمعت أهل النار فيها: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٌ﴾ الآية ٤٦، بين هؤلاء، وبين هؤلاء، ولا هم من هؤلاء، ولا هم من هؤلاء.

وإضافة إلى ذلك فإنهم يتمكّنون من التعرّف على بعض الوجوه التي هم على معرفة سابقة بها سواء في الجنة، أو في النار رغم ذاك الارتفاع، وتلك المسافات الفاصلة.

وفي زماننا أصبح ذلك أكثر قرباً لأن الإنسان بات بإمكانه أن يرى الوجوه رغم المسافة البعيدة، فالمنظار يقرّب الأجسام، كما أن أجهزة التصوير المباشرة تفعل ذلك، فإذن هم: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ واستناداً إلى ذلك يلقون عليهم السلام، كونهم يسمعونهم أيضاً: ﴿وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾، وأما عندما ينظرون إلى أهل النار، يسألون الله ألّا يجعلهم معهم: ﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾.

من هذا المنطلق فإن سورة (الأعراف) تتناول جوهر النفس البشرية، وتحلّل حيثيّات هذه النفس، فيمكن من خلال ذلك أن يتعرّف الإنسان على نفسه بما لم يكن يعرف من قبل، فهي إذن سورة تحليلية تُعنى بالتفاصيل أكثر مِمّا تُعنى بالعموميات، وهذا ما يميّزها عن سورة الأنعام التي سبقتها، حيث قدّمت تعريفات

أوليّة في السياق العام دون أن تتوّقف أمام التفاصيل، وكأنها بذلك مهّدت إلى هذه التفاصيل في السورة التي تليها في ترتيب المصحف، فهي سورة مكّية، وهناك آراء استثنَت القليل من آياتها، فجعلتها مدنية.

واعلم أن الفرق بين المكّي والمدني هو أن المكّي ما أنزل قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، والمدني، هو ما أنزل بعد هجرته صلى الله عليه وسلم، والفرق مقترن بتسلسل الزمن وتدرّج نزول الآيات، وليس بالموضع الذي يكون النبي صلى الله عليه وسلم متواجداً فيه عند النزول، كما الأمر بالنسبة لعودته إلى مكة عام الفتح ونزول قوله تعالى عليه: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]، وهو في جوف الكعبة كما يُروى، والرسول آخذ بعضدتي باب الكعبة، وكان ذلك عندما أخذ علي رضي الله عنه مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة الحجبي، سادنها قسراً عندما قدم النبي صلى الله عليه وسلم ومنعه وقال: لو علمتُ أنه رسول الله لم أمنعه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بردها إليه تنفيذاً لأمر الله في الآية، فقال له: (هاك خالدة تالدة).

فعجب من ذلك فقرأ له علي الآية فأسلم، والآية تُعدّ مدنية رغم نزولها في مكة، بل في الكعبة، ولكن نزولها بعد الهجرة حافظ على مدنيتها، كون مَكّي القرآن المجيد يختلف عن مَدَنيّه من حيث المضامين، فلكل مرحلة مضامينها التي تتوافق مع التدرّج في نشر الرسالة.

فالمكّي، هو التأسيس، أي مخاطبة الجانب العَقيدي في الناس، وحثّهم على الإقلاع عن الأوثان، والشرك، والإيمان بوحدانية وربوبية وألوهية الله، وتصديق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، وبيان ألوان نِعَم الله وأفضاله على الإنسان، والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة، والصراع بين الحق والباطل، وما يمكن له أن يتفرّع عن هذه الأساسيات، وقد وقفنا على جوانب من ذلك في سورة الأنعام.

أما المدني، فهو مرحلة جديدة من مراحل نشر الدعوة، وهو في عمومه، يقل عن المكّي عدداً، كون أكثر القرآن نزل قبل الهجرة، فهنا نحن أمام مرحلة تفعيل الإيمان

إلى عمل وجهاد، فسوره تحتوي على التشريع الإلهي الجديد، وعلى الأحكام وما إلى ذلك من تحويل الإيمان في القلب إلى عمل وممارسة وسلوك ونظام، وقد وقفنا على جوانب من ذلك في سور: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة. فهي السورة السابعة في ترتيب المصحف، بعد سورة (الأنعام)، والتاسعة والثلاثون في ترتيب النزول، بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجن)، كما عند جابر بن زيد عن ابن عباس. الجزء (٩)، الحزب (١٦، ١٧، ١٨)، الربع (١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦).

إذن، نحن أمام سورة تفصيلية تفرز الناس إلى ثلاثة أصناف: المؤمنون، الكافرون، المتذبذبون. والصنف الثالث وإن كان يشبه في بعض تصرّفاته (المنافقين)، إلّا أنه ليس من المنافقين في شيء، بل هو من المؤمنين، ولكن إيمانه يشوبه تردّد أمام بعض حدود الله، فيرتكب المعاصي وهو مؤمن، وبذات الوقت، يؤدّي ما عليه من فرائض فرضها الله عليه، ويلبث متأرجحاً في هذه الحالة المزدَوجة بين الطاعة والمعصية، ونظراً لأنه مؤمن، يخلو إيمانه من الشرك، يقدّم أعمالاً صالحة في مجتمعة منطلقاً من أرضية إيمانه بالله، وبالثواب والعقاب، فنرى بأنه يقع في المعاصي على أمل أن الله سبحانه وتعالى يغفر له، وليس لكونه لا يؤمن بالثواب والعقاب، فكما أنه يؤمن بثواب الطاعة، يؤمن بعقاب المعصية، لكنه يرتكبها ويسأل الله المغفرة.

فالسورة الكريمة في جانب من جوانب مقامها المبارَك تضعك أمام هذا النموذج من الناس، وتتناول صلب هذه العقيدة المزدَوَجة التي لا ثبات فيها على حسم الأمر، واتباع شرع الله. ولذلك يُفاجَأ هؤلاء أنفسهم كما يُفاجَأ الناسُ جَميعاً، سواء الذين ثقلت موازينهم إلى الجنة فدخلوها، أو الذين ثقلت موازينهم إلى النار فدخلوها، عندما تتساوى موازين هؤلاء، ولا ترجح كفة على أخرى، ولا يدخلون الجنة لأن كفة الحَسنَات لا ترجح بهم، ولا يدخلون الجحيم لأن كفة السَيّئات لا ترجح بهم، والله قد حرّم الظلم على نفسه، فلا يدخلون الجحيم ظلماً لأن سيئاتهم لا تؤهّلهم إليها، كما لا يدخلون الجنة، لأن حسناتهم لا تخوّلهم دخولها، فقد تساوت الكفتان.

على هذا المفصَل البالغ الحساسية تعمل هذه السورة، ومن أجل ذلك تروي العديد من الوقائع والأمثلة التي تتناول صلب هذه العقيدة المتأرجحة التي يتوازى فيها عمل الخير مع عمل الشر بالنسبة لميزان معتنقيها.

فالسورة المكّية الطويلة، تعمل على ثبات العقيدة، لأنها تُخاطب أناساً لا عهد لهم بالإسلام، ولذلك فهي تعرّفهم بالإسلام، وتحبّبه إليهم، وتبيّن لهم المنافع التي يمكن لهم أن ينتفعوا بها في الإسلام سواء في الدنيا، أو الآخرة.

ومع إيمان البعض، ورفض البعض، تنفرز هذه الفئة الثالثة التي تقتنع بفكرة الإيمان، وتؤمن بوحدانية وربوبية وألوهية الله عز وجل، وتصدّق الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الله تعالى قد أنزل عليه القرآن، فتؤدّي ما يترتب على ذلك من فرائض كما أمر الله تعالى، لكنها إلى جانب ذلك، لا تقلع عن المعاصي، وهذه الفئة لا تقتصر على المسلمين فحسب، بل تشمل الناس جميعاً عبر التاريخ البشري، فكل زمن له ما له من هؤلاء، والذين هم على الأعراف، ينتمون إلى مختلف العصور البشرية، فقد جمعتهم عقيدة الازدواج في هذا الموضع المزدَوَج.

ولذلك تفصح لك السورة عن نشوء فكرة المعصية، وتبدأ بإبليس الذي هو أول العاصين من خَلق الله، فلا نعلم أن أحداً قد عصى الله جل شأنه قبل إبليس.

وهذه إشارة أولى لك بأن تاريخاً حافلاً من الإيمان والطاعة والمقربة من الله، يمكن له أن يتحوّل في غمضة عَين إلى كفر، ومعصية، وفساد.

فإبليس حاد عن الطاعة، وعصى أمر الله رغم كل ما كان عليه من طاعة، وحتى عقب المعصية، فإنه لا يتلفظ عن الله بألفاظ فاحشة، رغم أن بعض الناس يتلفظ بها، ومرد ذلك أن إبليس يخبر الله، ويؤمن به، ويعرفه أكثر.

فيستأذنه كي ينظره: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾، ثم إنه حتى في اتخاذه قرار الانتقام من آدم وذريته، يقول: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.

فهو على يقين بأنه لا يستطيع أن يحيد شخصاً واحداً عن الصراط المستقيم دون أن يأذن له الله بذلك، ودون مشيئة الله، لأنه يعلم أن كل شيء إنما هو بقبضة الله العلي القدير.

فالتنبيه الأولي لك في ذلك هو أن التكبّر هو أقوى علامات فساد الإيمان، والإيمان الفاسد يودي بصاحبه إلى التهلكة، وبموازاة ذلك، فإن التواضع يصلح الإيمان، وكلما تواضع المرء، صلح إيمانه، ورفع الله له ذكره: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، وإن كان الخطاب موجهاً إلى شخص النبي عليه الصلاة والسلام، إلّا أن للمسلم أيضاً ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١] فيجعله الله تعالى طيّب الذكر، ويجعل ذكره في مقام رفيع، فالمسلم إن ﴿كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١﴾ يكون له ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

بعد معصية إبليس، تأتي معصية الإنسان، وهي تتمخّض عن معصية إبليس، لكنها تختلف في فعلها وبنيتها عن معصيته، والإنسان يتراجع عن المعصية، ويتوب إلى الله، في حين إن الشيطان مستأنف للمعصية، وموسّع ما استطاع من رقعتها، ومفسد ما استطاع من الناس. فلم يدع الإنسان وشأنه، بل لحقه ليوسوس له حتى نال منه مراده، وأودى به إلى معصية الله. ولكن الله - جَلّ شأنه - لم يترك الإنسان، بل ناداه، وذكّره: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٢٢﴾. فيستجيبان لله ويندمان على خطيئتهما بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾.

وهذا درس نتعلمه في حياتنا مع مختلف الناس، فعندما ترى شخصاً يقدم على خطيئة بحقك، عليك ألّا تأخذ منه الموقف الحاسم بشكل مباشر وعلى الفور، بل تتحقق من الأمر، وتنظر في الدوافع والمسبّبات التي أدّت به إلى ذلك، وتصبر عليه، وتلتمس له عذراً وتذكّره، فلعلّه أخطأ في غفلة، ولعلّ شخصاً ما أغواه، وقد ندم أشد الندم بعد ذلك، ولعلّ الله تعالى يريد أن يكرمك بموقف عفو. وهذا مثل الرجل الصالح الذي تزوّج بامرأة وتفاجا بأنها حامل، فكان ردّ فعله الأولي، الغضب، واتخاذ قرار الانفصال عنها، والانتقام منها. لكنه كظم غيظه، وأمهل نفسه حتى يهدأ. وبعد التأنّي في التفكير، اقتنع بفكرة الانفصال، واهتدى إلى طريقتين، الأولى أن ينفصل عنها بانتقام، والثانية أن ينفصل عنها بموعظة، فآثر الثانية على الأولى،

وما دام قد اقتنع بفكرة الانفصال، فبات ينظر إليها بأنها ضيفة تمضي بعض الشهور ريثما تضع حملها، ثم تخرج مع وليدها، وبناءً على ذلك، بات يحسن إليها، ويكرمها، ويرى بأن الله تعالى وضعه في امتحان معها، وعليه أن ينجح في الامتحان ليظفر عند الله بمقام رفيع. فمن هذه القاعدة الإيمانية استكمل علاقته الطيبة معها دون أن يجرحها حتى بكلمة، أو بنظرة، بل لبث على علاقته الزوجية معها، ومع الشهور اكتشف بأنّه تدرّب على الصبر، حتى أنه تعافى من بعض السلوكيات التي كان يمارسها بشكل سريع، ودخل الصبر إلى منهاج حياته برمّتها، فأصبح يشعر بأن صدره منشرح، ولم يعد يعاني كما كان من الاضطرابات جراء تسرّعه في بعض المواقف، بل غدا يمهل نفسه حتى يقدم على عمل ما، أو حتى يعلن عن موقف ما، أو يقول رأياً في شأن من الشؤون.

عندما حان وقت الولادة، ووضعت زوجته حملها، رأته عند صلاة الفجر يحمل المولود ويخرج، فلم تنبس ببنت شفة. خرج الرجل خلسة وهو على حذر وحيطة حتى لا يراه أحد، واتّجه إلى المسجد، انتظر حتى استوى المصلّون في أماكنهم، وباشروا في الصلاة، عندئذ دخل ووضع المولود عند باب المسجد، ثم تقدّم يصلّي. وعندما انتهت الصلاة، تفاجأ المصلّون بالمولود، وبعد قليل تقدّمَت به خطاه وسط جموع الناس، مال إلى المولود، وحمله قائلاً بأنّه سيتكفّله، ثم أعاده إلى أمه التي كانت في انتظار كما لو أنها على جمر، وشرح لها ما فعله في المسجد، ثم انتظر أربعين يوماً حتى انتهت من النفاس، فطلّقها، وطلب منها أن تحمل ابنها وتعود إلى أهلها.

إذن، لقد أخطا آدم - عليه السلام - ولكن مغفرة الله أتاحت له كي يصلح من شأن نفسه، وينجب أبناءً صالحين ارتفعوا في مقاماتهم عند الله، بل حتى بعض العصاة من أبنائه، أنجبوا أبناءً صالحين، ومِن الأنبياء، ومِن أهل الصلاح مَن ولدوا لآباء مشركين. وفي ذلك عبرة للمقارنة بين الشيطان الذي استكبر، وبين آدم الذي استغفر، فالاستكبار يُخرج عن الرحمة، والاستغفار يُوجب الرحمة.

ما يمكنك الإفادة منه في هذا المقام، هو الإمهال، فحتى الذي تراه سيئاً، أو لعلّه سيّء بالفعل، قد يبدر منه عمل خير، ولو لم يمهل الله عباقرة الفكر الإنساني من

الكفّار، لَما قدّموا للبشرية كل هذه المنافع، فالتسرّع يَكمن في أنّك تتخذ موقفاً صلباً من شخص لمجرّد خطيئة ارتكبها بحقك، والإمهال خير وسيلة إلى الصلاح سواء مع زوجك، أو ولدك، أو أخيك، أو جارك، أو صديقك، أو زميلك في العمل، فلعلّ في هؤلاء من الخير ما هو أكبر من موقف سلبي رأيته منهم.

* * *

إن أصحاب الأعراف هم أناسٌ آمنوا بصدقٍ، دون أن يُنافِقوا، أو يُشركوا بالله، ويؤدّون فرائض الإيمان، لكن من الطرف الآخر، فإنّهم يرتكبون المعاصي والأوزار، حتى أنّهم يُصبحون مَوضع شَك بالنسبة لبعض المسلمين، بل إن البعض من أهل الفتيا الذي لم تنفتح ذهنيته على سِعة الدِين، ولم يستطع أن يقرأ القرآن قراءات استنارية، فيجتزئ الآيات ويُخرجها من سياقها التشريعي العام، ويجتزئ الأحاديث النبوية من السياق التشريعي العام لها، يقبل على تكفير هذه النماذج من الناس، ويفتي بحقهم ما يمكن أن يلحق بهم الأذى استناداً إلى وقفة الغلو الضيّقة التي حصروا أنفسهم فيها من سِعَة ورحابة الدِين.

وكلمة (الأعراف) لا ذِكر لها في سائر القرآن المجيد سوى في هذه السورة، ولكن المعنى يرد بلفظ مرادف للكلمة وهو (سور) في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣].

فالسورة الكريمة تضع هؤلاء في الوسط، ولعلّ في ذلك إشارة بليغة بأن يكون موقفك من هذه الفئة من الناس، موقفاً وسطياً، فتثني على عمل صالح يقوم به هذا الشخص وتباركه له، وتدين وتستنكر عملاً طالحاً يبدر منه، دون أن تتخذ من عموم الشخص موقفاً سلبياً. فعندما تراه في عمل صالح، تثني على عمله الصالح، ويكون لك أن تثني على شخصه أيضاً بشكل متصل، وعندما تراه في معصية، تستنكر فعل المعصية فيه بشكل منفصل، دون أن يكون لك أن تنال من شخصه.

وإذا نظرتَ إلى إيقاع حياة هؤلاء بتدبّر في السورة، سيجلو لك بأنهم يعيشون حالة قلق وعدم استقرار، ولذلك مفرزاته، مثل وخزات الاضطراب التي يعانونها،

وأشكال القلق النفسي التي يعيشونها، وعلقم الازدواج الذي يتجرّعونه. فهم في حالة قلق نتيجة الشَتات الذهني، وعدم حسم موقفهم من المعاصي رغم أنّهم تطهّروا بطهارة الدِين، وتخلّصوا من رجس الكفر. فعليك أن تفرز هذه الفئة في صنف خاص بها، لأن ليس كل مَن يخطئ، يَنتمي إلى هذا الصنف، فالمؤمن يُخطئ ويرتكب الذنوب، لكن ذلك لا يكون بسَويّة ما يعمل من صلاح، فقد تبدر منه خطيئة ما في موقف ما، غير أن موازين الطاعة راجحة على موازين العصيان. ذلك أن الله تعالى (غفور) قولاً وفعلاً، قولاً بأنه أخبر الناس بأنه غفور، وفعلاً أن الناس ينالون بركات مغفرته. ومن بركات مغفرة الله، كما في الأثر، أن التائب من الذنب يكون كَمَن لا ذنب له، والسَيّئة تمحها الحَسَنة؛ لذلك فإن زِنة تلك الذنوب المنخَفضة، قياساً مع زِنة الطاعات المرتفعة، تُذهِب عن الإنسان تلك الذنوب كما لو أنها لم تُرتكَب بموجب مغفرة الله. يقول الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَـٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: ١٠٤].

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"(١).

والمغفرة لا تقتصر على المؤمنين فحسب، بل هي لعموم الناس دون استثناء، فتشمل الكُفّار والمُشركين حتى وهم في ذروة كفرهم وشركهم، فيمنّ الله تعالى عليهم بأن يجعلهم في حالات صفاء نفسي في أوقات ما، ويجعلهم يمرّون بمواقف مختلفة تؤدّي بهم إلى الهداية، فترى نماذج عديدة من الكفار والمشركين، تُقلع عن ماضيها المقيت، وتقبل على صفحة إيمانية جديدة مشرقة في حياتها، ومن جهة أخرى، هناك مَن لا يتعظون ولا يستجيبون لمواقف الإيمان التي يمنّ الله تعالى بها عليهم، ولا تحرّك في دواخلهم ساكناً، وما ذلك إلّا لتضخم درجات العِناد والاستكبار لديهم.

إذن، يضعك الله تعالى الآن أمام هذه الفئة المزدوجة في هذه السورة الكريمة ليريك بأنها في الآخرة ترى ما كانت عليه في الدنيا، أي في حالة قلق واضطراب،

---

(١) رواه الترمذي.

فلم تسلم كل التسليم ليقودها إسلامها إلى الجنة، ولم تذنب كل الذنوب لتقودها ذنوبها إلى الجحيم؛ فهي عندما كانت تؤدّي طاعة، كانت بموازاة ذلك ترتكب معصية، وعندما ترتكب معصية، بموازاة ذلك تؤدّي طاعة، وفق التساوي الذي لا ترجح معه كفّة على أخرى. وإذا كانت السورة الكريمة تقدّم لك هذا التساوي في الحسنات والسيئات، فتبيّن لك بأن لا شيء في الكون إلّا وقد خلقه الله بشكل منضبط، وذلك حتى تضبط حياتك من خلال هذا الانضباط، ولا تكون مستهتراً بما قد يؤدّي إلى خلل في توازن شخصيتك، فتعيش حالة اضطراب في حياتك، ولا تنعم بنسائم الاستقرار النفسي، والصفاء الذهني. فقد وردت كلمة (الدنيا) في السورة أربع مرات، وبموازاة ذلك وردت كلمة (الآخرة) أربع مرات، كما أن عبارة (أصحاب الجنة) وردت أربع مرات، وعبارة (أصحاب النار) وردت أربع مرات، وكلمة (رجال) جاءت ثلاث مرات، إلى جانب كلمة (نساء) التي جاءت ثلاث مرات، وكلمة (المؤمنون، المؤمنين) جاءت ست مرات، وكلمة (الكافرون، الكافرين) جاءت ست مرات، كما وردت (الحياة الدنيا) ثلاث مرات، و(يوم القيامة) ثلاث مرات، إلى ذلك وردت (حسنة، حسنات) أربع مرات، و(سيئة، سيئات) أربع مرات.

بعد معصية إبليس، تطلعك السورة على خطيئة الإنسان الأولى، فيأتي الخطاب إليك في نداءات إلهية أربعة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾، ﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾، ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾.

ويُتاح لك في هذه السورة أن تتعرّف على قصص بعض الأنبياء بالتفصيل، مثل: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وموسى، عليهم السلام. كذلك تُطلعك السورة على موقف الذين يحسمون أمرهم دون تردد، أو خوف، أو ازدواجية، من خلال وقائع قصة موسى، وفرعون، والسحرة، ونظير ذلك تتعرّف على تردّد بني إسرائيل في اتباع نبيهم موسى عليه السلام، كما تُطلعك السورة على أهل السبت،

وكيف أنهم أرادوا التحايل على الله من قاعدة التأرجح في موقف الإيمان، وأن الله مسخهم قردة. عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ"(١)، وروي عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَنْ أَخَذَ السَّبْعَ الطِّوَالَ فَهُوَ حَبْرٌ"(٢). وعن عائشة رضي الله عنها: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَأَ فِي صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بِسُورَةِ الْأَعْرَافِ فَرَّقَهَا فِي رَكْعَتَيْنِ)(٣). وعَن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، أَنَّ مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ أَخْبَرَهُ، أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ: (مَا لِي أَرَاكَ تَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِقِصَارِ السُّوَرِ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ فِيهَا بِأَطْوَلِ الطُّولَيَيْنِ. قُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ مَا أَطْوَلُ الطُّولَيَيْنِ؟ قَالَ: الْأَعْرَافُ)(٤).

تضيء لك سورة الأعراف - التي هي من السبع الطوال - الجوانب الخفية من مكنونات النفس البشرية، وتُظهر لك تفاصيل هذه النزعات، وهي تتمَحوَر حول ثلاثية: الإيمان، والكفر، والازدواج، حتى ترى الخير في قمّته، والشر في ذروته، والتأرجح في متاهات شتاته. وبعد كل تلك المسيرة، تنتهي بك السورة الكريمة بآية السجدة وهي أول سجدة في القرآن وفق ترتيب المصحف، ولعلّ فيها إشارة بليغة بأن الخير كل الخير يكمن في الإيمان بالله، وتفعيل هذا الإيمان إلى عمل.

---

(١) رواه أحمد.

(٢) أخرجه أحمد والحاكم.

(٣) رواه النسائي.

(٤) رواه النسائي.

الباب الأول: كلماتٌ في حروف

[١]

﴿المص ١﴾

حروف متقطّعة تُفتتح بها السورة، وبحسب ترتيب السورة، فهذه هي السورة الثالثة التي تُفتَتَح بآية من خلال حروف متقطّعة، بعد سورتَي البقرة، وآل عمران، حيث بدأتا بـ: الم. الآن تم إضافة حرف (الصاد) إلى الحروف الثلاثة، وقد رأينا في السورتين السابقتين أهمية الوقوف أمام هذه الحروف. ونرى أن نستأنف، ولا نمرّ على آية متكاملة من كتاب الله، كما لو أنها لم تكن، وإن كانت هذه الآية مبهمة، فذلك لا يعني إغفالها، ونعتقد أن كل ما ورد في القرآن هو للفهم والتدبّر، فما جاء به جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم، هو للناس جميعاً، وعلينا أن نعي تماماً بأنها ليست كلمة ناقصة الحروف، سَمِعَ النبي حروفاً منها، دون أن يسمع تتمة الحروف، بل إن هذا كل ما نزل به جبريل عليه السلام، على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فإذن هي ليست كلمة ناقصة الحروف، ونعتقد أنها لم تنزل ككلمة متصلة: ﴿المص ١﴾، بل حرفاً حرفاً: (ألف، لام، ميم، صاد)، ولكن تم كتابتها ككلمة متصلة الحروف تجنّباً للتداخل الذي قد يحدث في اللغة العربية، وخاصة مع القرآن الكريم، مثل الاكتفاء بحروف من الكلمة كي تدل عليها، كما الأمر بالنسبة لـ ﴿يس ١﴾ فاختُصرت خمسة حروف في حرفين، فتُكتَب بحرفين، وتُلفَظ (ياسين) بخمسة أحرف، كذلك بالنسبة لـ ﴿طه ١﴾ وما شابه، ولو كُتبت الحروف المتقطّعة حروفاً متقطّعة لعلّ ذلك فتح باباً بأن كل حرف هو آية مستقلة، ذلك أن ﴿يس ١﴾ آية مستقلة، و﴿طه ١﴾ آية مستقلة، فكُتبَت هذه الحروف المتقطّعة التي ترد كآيات في بدايات السور كلمة متصلة، وتُقرأ على شكل حروف متقطّعة، فهي إذن، كلمات مختزلة في حروف.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ القمر ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠، فهذه الآيات يتضمّنها القرآن، ويُعبَد بقراءتها، فهي من القرآن الكريم رغم ما يكتنفها من إبهام.

والصاد إشارة إلى الفصل، وعلى هذا يمكن الفهم بأنّ الله - جلّت قدرته - هو وحده القادر على وضع هذا الحدّ الفاصل ما بين الجنّة والنار، ثم إنه وحده الذي يُفصّل في أمر هؤلاء الذين يكونون ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾.

الأمر الآخر، أن هذه السورة هي سورة تفصيلية، وهي تقع بعد سورة (الأنعام) التي ذَكَرَت بعض الأنبياء، لكن بشكل إخباري، في حين أن (الأعراف) تذكر هؤلاء الأنبياء بشكل تفصيلي، وكذلك الأمر بالنسبة لكيفية ولادة الخطيئة الأولى، والعلاقة بين الإنسان والشيطان، وما إلى ذلك من مَحاور السورة الكريمة.

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول في ﴿الٓمٓصٓ ١﴾: (أنا الله أعلم وأفصّل)، ويقول السدي: هو بعض اسمه تعالى المصوّر، وقال أبو العالية: الألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه المجيد، والصاد مفتاح اسمه صادق وصبور. وقيل: هي حروف اسمه الأعظم.

رُوِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمَّا أَعْرَضُوا عَنْ سَمَاع الْقُرْآن بِمَكَّة وَقَالُوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٢٦]، نَزَلَتْ لِيَسْتَغْرِبُوهَا فَيَفْتَحُونَ لَهَا أَسْمَاعهمْ فَيَسْمَعُونَ الْقُرْآن بَعْدهَا فَتَجِب عَلَيْهِمْ الْحُجَّة.

وقال الزجاج: (أَذْهَب إِلَى أَنَّ كُلّ حَرْف مِنْهَا يُؤَدِّي عَنْ مَعْنًى، وَقَدْ تَكَلَّمَتْ الْعَرَب بِالْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَة نَظْمًا لَهَا وَوَضْعًا بَدَل الْكَلِمَات الَّتِي الْحُرُوف مِنْهَا، كَقَوْلِهِ: فَقُلْت لَهَا قِفِي فَقَالَتْ قَاف أَرَادَ: قَالَتْ وَقَفْت).

وعلى كل حال، فإننا نفتتح هذه السورة الكريمة بهذه الحروف، أي هي مفتَتَح ومفتاح الدخول إلى رحابة عالم هذه السورة المباركة. فَعَقِبَ ذكر ﴿الٓمٓ﴾ كمفتَتَحين، ومفتاحَين لسورتَين طويلتَين مَدنيتَين، وفق ترتيب المصحف العثماني،

يأتي حرف الصاد، لنبدأ معه انطلاقة جديدة مع سورة مكّية مِن الطوال، للتعرّف على ما ينفعنا وفق شرح وتفصيل، كما أننا نتعرّف هنا لأول مرة على فئة جديدة من الناس، وهي التي لا تميل إلى الطاعة كل المَيل، ولا إلى المعصية كل الميل، بل تجمع ما بينَ الطاعة والمعصية، وما مصير هذه الفئة؟ لأنها لا تمكث ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ بشكل دائم، بل تكون هناك بشكل مؤقّت بانتظار حكم الله، لأن الناس في النهاية، إما في الجنة، أو في النار.

الباب الثاني: سعةُ الصدر

[٢]

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

بعد الحروف المتقطّعة في الآية الأولى، جاء الخبر في مبتدأ الآية الثانية: ﴿كِتَٰبٌ﴾، ويمكن أن نفهم ذلك على النحو التالي: يا محمد، إن هذا الكِتاب، بكل ما فيه من حروف، حرفاً حرفاً، قد ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

فنحن أمام وصف الله سبحانه وتعالى لكامل القرآن؛ أي أنه بكامله وتمامه دون نقص شيء منه، يقدّم هداية للناس، ويحتوي على المقاصد الشرعية بشكل مُحكم مفصَّل. و: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم، وثناء من الله تعالى عليه. فقد اختارك الله من سائر عباده ليُنزل ﴿إِلَيْكَ﴾ هذا الكتاب، وكان يمكن أن يختار غيرك ويصطفيه، فعليك أن تفرح وتستبشر بأن الله اختارك واصطفاك للتبشير بهذا الكتاب ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾، بل ليكن ﴿فِى صَدْرِكَ﴾ انشراح ﴿مِّنْهُ﴾، ليكن صدرك منشرحاً ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

﴿عَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الحجر: ٩٧].

رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً"(١).

والثلغ: الشَّدخ، وقيل ضرب الرطب باليابس حتى ينشدخ.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ وحرف الهاء في ﴿مِّنْهُ﴾ يتّسع ليحتمل أكثر من وجه للتحليل، فيجوز لهذه الهاء أن تكون للقرآن، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ من القرآن يا محمد وأنت تلقى التكذيب، فهو هنا يشعر بحرج من القرآن العظيم عندما يُكَذَّب به، ويجوز لها أن تكون للإنذار ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي لا تشعر بالحرج وأنت تنذر به، وأنذر به بصدر منشرح رغم كل ما يُقال، ويمكن أن تكون للتكذيب، أي لا تكن حرجاً مِمّا تلقاه من التكذيب. ليتسع صدرك يا محمد واستأنف التبليغ مهما قال المكذّبون عنك.

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، ويُحتَمَل أن تكون هذه الهاء لهذه المقاصد معاً.

﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ متصل بـ ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، بمعنى: أنزلنا إليك هذا الكتاب ﴿لِـ﴾ - بلام التعليل - ﴿تُنذِرَ بِهِ﴾ دون بيان المفعول به، ولكنك ترى المفعول به في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ٩٧]. وهم كفار مكة، واعتباراً من مركز انطلاق الدعوة، فإنها تنتشر لتشمل العالم في كل زمان ومكان، أي تنذرهم من الغفلة، ومِن مغبّة الاستمرار في العصيان، والإنذار في اللغة العربية هو الإعلام المقترن بتهديد، فكل إنذار إنما هو إعلام، وليس كل إعلام إنذاراً.

ويتولى أتباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل مكان وزمان الإنذار ﴿وَ﴾ إلى جانب ذلك يبيّنوا بأنه ﴿ذِكْرَىٰ﴾ هداية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ كي يستمدّوا منه العظة والاستقامة والصلاح.

---

(١) أخرجه مسلم.

﴿ذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

لكن لا يعني هذا أن المؤمنين لا ينتفعون من الإنذار، وأن الكفّار لا ينتفعون من الذكرى، فعندما يرى شخص مستقيم شخصاً قد ارتكب جناية، ولقي العقاب في تلك الجناية، فإنه يزداد تمسّكاً باستقامته، ولذلك من المفيد أن يكون مطّلعاً على الأحكام التي تترتّب على مرتكبي الجُنَح والجنايات، بل أي مخالفات وتجاوزات قانونية مهما كانت كبيرة، أو صغيرة.

من هنا، فإن الإنذار يكون عاماً بالنسبة للناس جميعاً، كما أنه يكون خاصاً بالكافرين، والأمر ذاته يكون بالنسبة للذكرى.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾﴾ [المدثر: ١، ٢].

كذلك فإن الكافر يمكن له أن ينتفع من الذكرى، فهو عندما يرى المؤمن مستقيماً، وعفيفاً، ونزيهاً، وطيباً، وأن الله ينجيه من العذاب، ويدخله الجنة، فقد يترك ذلك أثراً عليه، فيؤمن ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنعام: ٦٩]، ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨]، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

فالإنذار موجّه إلى الكفار، ورغم ذلك ينتفع به المؤمنون، والذكرى موجّهة إلى المؤمنين، ويمكن أن ينتفع بها الكافرون.

نرى هنا مدى حرص النبي عليه الصلاة والسلام على إقناع الكفّار بالقرآن كي يؤمنوا ﴿بِهِۦ﴾، حتى إنه يشعر بضيق صدر عندما لا يصدّقونه. فكما لو أنّه يُخاطب

نفسه: هل التقصير منك يا محمد، فلماذا لم تستطع أن تقنع الكفّار بآيات ربّك، وهاهم يكذّبونك ويستهزؤون بك. وهي مشاعر طبيعية تنتاب الإنسان الجاد المستقيم الذي يشعر بعمق المسؤولية تجاه مهمّة يُكلّف بها. فإذا كان ذلك للإنسان العادي تجاه شخص اصطفاه وكلّفه بالمهمّة، فما الذي يكون لنبي اصطفاه الله تعالى للنبوّة وكلّفه بمهمّة حمل رسالته إلى الثقلَين؟

هنا يفرّج الله تعالى عنه هذا الضيق، فليس التقصير منك يا محمّد، وليس عليك سوى البلاغ، أمّا الهداية فمن الله، فما دمتَ توصل الآيات كما هي، فتكون قد أدّيتَ ما كلّفك الله به، واصطفاك مِن أجله؛ وما تَبقّى فذلك شأن الله مع عباده.

يتبيّن لك من هذه الآية الكريمة بأن القرآن هو كتاب إنذار، وكتاب ذكرى، وأن الله يوجّه رسوله إلى عدم المبالاة بما يطلقه المغرضون من أقاويل وأكاذيب، وألّا يضيق صدره بِما يبدر منهم من طَعنٍ وإعراض، ويُطلق على الشجر الملتف الذي يتضايق: الحَرِجَة.

فأن تحرج شخصاً، أي تضيّق عليه سواء في حديثه، أو في الموضع الذي يكون فيه، فعندما تضيّق عليه في موضعه، فإنك تحرجه بَدَنياً، وعندما تضيّق عليه في حديثه، فإنّك تحرجه نَفسياً. والإحراج هنا نفسي بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والمُراد به هو النَيل من معنوياته عليه الصلاة والسلام، فالله عز وجل يبيّن له هذه الحقيقة ويرفع له معنوياته ويرشده إلى عدم أخذ ما يقول المكذّبون بعين الاعتبار، وأن يستأنف نشر الدعوة بعزمٍ، ومعنوياتٍ عاليةٍ، وصدرٍ منشرحٍ، فالنتائج تتحقّق، وسوف يجيء نصر الله والفتح، وترى الناس يدخلون دين الله أفواجاً. هذا هو الدرس البليغ الذي يمكن لك أن تستنتجه من هذه الآية الكريمة، ومن هذه العلاقة التي هي بين الله ورسوله، واعلم أن الله يخصّك بأشياء خصّ بها رسوله، فأنت يمكن أن تواجه مواقف مشابهة، فهل يثنيك المغرضون عن استئناف ما أنت به من استقامة، وحق، وصلاح، وهل ستدع أقاويلهم وشائعاتهم تنال منك، وتجعلك تيأس، أم تستمر دون أن تأبه بهم، وتحقق النجاح تلو الآخر، والانتصار تلو الآخر؟ فاعلم بأن الله يرشدك إلى عدم المبالاة بالمغرضين، وأن التكذيب

دَيدَنهم بالنسبة لِمن يصطفيهم الله ويهديهم إلى نوره، فما يهم أن تستمر في عفافك، وطيبك، ونفعك لنفسك، ولأهلك، وللناس، وأن تحافظ على روح العلاقة السَويَة بينك وبين الله، وألّا تسمح لأحد أن يفسد سويّة علاقتك بالله.

أن تكون متصالحاً مع نفسك، تعمل بثقة وعزم ومعنويات مرفوعة وصدر منشرح، فأهل البغضاء يوجّهون حقدهم إلى المعنويات، ويبتغون إصابتك في الصميم، لأن الإنسان إن ارتفعت معنوياته، ارتفع فيه كل شيء، وإن هبطت معنوياته، هبط فيه كل شيء، وعليك أن تدقق في هذه النقطة التي تركّز عليها الآية.

وكلمة ﴿ذِكْرَى﴾ جاءت نظير كلمة ﴿حَرَجٌ﴾، فهذا الكتاب هو ﴿ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، أي هو سِعة، وفَرَج، وانشراح ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ فأنت تحمل الفَرَج للذين يؤمنون بك، وبما تحمل إليهم من الله، وهو يغيظ المتكبّرين الذين لا يؤمنون بك، ولا بما تحمل إليهم من الله، فيعبّرون عن غيظهم واستكبارهم من خلال الطعن والإعراض، فهو ليس ﴿ذِكْرَى﴾ لهم ما داموا مصرّين على تعاليهم، بل هو يقرع في أسماعهم جرس الإنذار، وينبههم كي يستيقظوا من غفلتهم، فيتحوّل آنذاك هذا الكتاب بالنسبة إليهم أيضاً إلى: انشراح، وسِعة، وفرج، ويتبرّكوا ببركاته. لأن البركات التي هي في الكتاب من شأنها أن تمحق أي غلٍ من نفس الإنسان ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥﴾ [الأنعام: ١٥٥].

إن الله سبحانه وتعالى، يعلّم رسوله الصبر، والتحمّل، وسِعة الأفق، وكظم الغيظ، فهو يعدّه لينضج في الحياة، كما يعدّك لتنضج في الحياة، لأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل شيئاً مجدياً قبل أن ينضج ويمتلئ بالحياة والتجارب وتقلّبات الأحوال، فهذه من معالم التربية الإلهية التي يخص الله تعالى بها رسوله ومصطفاه، كما يخص بها مَن يشاء من أهل الإيمان والصلاح والاستقامة من عباده في كل زمان ومكان. فالإنذار في محوَر الآية هو بمثابة التوجيه إلى الصواب، كما أن الـ ﴿ذِكْرَى﴾ هي لتعزيز حالة الإيمان لدى المؤمنين والاستنارة من نور هذا الإيمان، أي الاستمتاع بثمار الإيمان من خلال تفعيله إلى عمل.

الآن تعرّفنا ما أمكن على كلمات الآية، ومن المفيد أن نعيد قراءتها: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

فأنتَ يا رسولنا قد أحدثتَ انشقاقاً في بنية الواقع الاجتماعي في قلب المجتمع الذي تعيش فيه، وهذا كتاب يسمعه الناس لأول مرة، وهو يحدث انقلابا على معتقدات هذا المجتمع، فمن عبادة الأوثان إلى وحدانية الله، ومن الفوارق الاجتماعية واللونية والعرقية إلى المساواة بين الناس جميعاً، ومن العبودية إلى التحرّر، ومن الظلم إلى العدل، ومن الزنا إلى العفاف، ومن الوأد إلى تكريم المرأة. فقيادة كل هذا الانقلاب لا يكون سهلاً، وعليك أن تأخذ بالاعتبار بأنك سوف تواجه كل أشكال وألوان ردود الفعل التي سوف تنجم عن أهل العناد، فيوجّهون إليك كل ما يأتي إلى ألسنتهم، ويسعون إلى إلحاق الأذى بك وثنيك عن الحق الذي تدعو إليه، بكل الوسائل التي يتمكّنون منها، بل لا يتردّدون عمن فعل ذلك بكل الذين يخرجون من ملّة الكفر، ويؤمنون بك ويؤازرونك حتى يتراجعوا.

﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ﴾ يا محمّد من كل ما تلقاه وتسمعه، لأن كل ذلك أمرٌ متوقعٌ منهم، فخذ ذلك بالحسبان وأنت تستأنف بلاغ الدعوة. وهذا بطبيعة الحال يكون لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم، من بعده، فعليهم أن يأتسوا بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويأخذوا كل أشكال المواجهة وردود الفعل بالحسبان، وذلك من خلال المكائد، أوالتضييق في المعيشة، والاتهامات، وقد تعرّض صلى الله عليه وسلّم، لفج في رأسه، وأخذت الدماء تنز منه، دون أن يتركوا وسيلة إلّا ولجأوا إليها حتى إنهم أرادوا أن ينالوا من سمعته، ولكن الله برّأ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من إفكهم. فكل شيء مُتَوَقع على الذين يستأنفون مسيرة الحق، وعليهم ألّا يُفجعوا، أو يُصدَموا بأي ردود أفعال يمكن أن يلقوها من أتباع الكفار والمنافقين ودعاة الفجور، ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٧].

الباب الثالث: اتّباع الهدى

[٣]

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾

قل للناس جميعاً يا محمّد: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾، دعوا ما أنتم عليه من ضلال، واتّبعوا الحق. في الآية السابقة قال: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ بالمفرد. والآن: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ بصيغة الجمع. فهذا الكتاب قد ﴿أُنزِلَ﴾ إليهم يا محمد من خلالك، وأنتَ رسولٌ ما بين مُرسل الرسالة، والمُرسَل إليهم. ولذلك جاء الخطاب هنا إلى المُرسَل إليهم كونهم الهدف من الرسالة: ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أيها الناس ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ من خلال الرسول، حامل رسالته إليكم، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ - فعل وفاعل مجزوم بـ ﴿لَا﴾ - الناهية، فتكون الكلمة معطوفة على الكلمة الأولى ﴿ٱتَّبِعُواْ﴾، ثم إن الجملة تتبع ذلك فتنعطف على الجملة الأولى، فتكون مع آية تتألّف من ثلاث جمل، الأولى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾. الثانية: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾. الثالثة: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

فالله يأمركم أن تـ ﴿تَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وينهاكم أن ﴿تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾. والـ ﴿أَوۡلِيَآءَۗ﴾ هنا، هم كل مَن تَتّبعهم من دون الله، أي تجعل من نفسك تَبَعاً لهم، ولا تقتصر هذه التَبَعية على أمرٍ ما، بل تشمل كل مقوّمات الحياة، فتبعيّتك الأولى والأخيرة هي لربك الذي خلقك، وخلق أي شخص يمكن لك أن تَتّبعه، فكل ما يمكن أن ينفعك به هذا الشخص، فإن خزائنه بيد الله.

عن ابن عباس قال: (كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَقَالَ: "يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ

بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"(١).

فالولي هو الذي توليه أمرك وتضع اتكالك عليه، فتجعله أفضل منك، وتعتقد أن نفعك بيده، وأن ضرّك بيده، فهذا الشخص سوف يستصغرك، والله لا يريد لك هذا، فلعل درجتك أرفع منه عند الله، ولعلّه شخص خبيث لا يعلم به غير الله، ولعلّك شخص طيب لا يعلم بك غير الله، فإن الله يرفع لك شأنك وينهاك أن تذل نفسك له، فإن أراد فتح عليك النعيم بلا حساب، وله حكمة في كل ما تلقاه، فاتبع حكمته، وارض بما قسّم لك، واعمل لتطوّر نفسك وتتقدّم في حياتك مستعيناً بالله، ومتّبعاً ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ إليك ﴿مِّن﴾ ربك، دون أن تتّبع ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ مهما تبدّا لك بأنهم يقدرون على نفعك، أو ضرّك.

فاعلم بأن الآية هنا تنزع عنك نقطة الضعف تجاه أي مغريات، فلا شيء يستحق أن تبدو ضعيفاً أمامه، فقد خلقك الله قوياً، والذي يضعف أمام شيء، يضعف أمام أشياء، وكل شيء يستجرّ شيئاً، فمنزلتك عند الله هي أثقل من أي ثقل يمكن لك أن تضعف أمامه، لأن الثمن سيكون باهظاً وأنت تُظهر لله بأنك لستَ أهلاً لتلك المنزلة التي جعلك فيها، وجعل الملائكة يسجدون لك، وما في الأرض يكون في خدمتك، وأرسل لك الأنبياء والرسل، وخاطبك على ألسنتهم، فلا تدع الآية قبل أن تتفقه فيها كلمة كلمة، حرفاً حرفاً، معنى معنى، فهذا هو القرآن، فتجعله يقرأك وتُصبح مرآة له، كما تقرأه، ويُصبح مرآة لك، فقراءتك للقرآن تمتاز بخصوصية، على قدر ما يمتاز القرآن بخصوصية عن أي كتاب غيره، فما لك فيه ليس لك في سواه في أي كتاب غيره، وما يقدّمه لك من نفع، لا يقدّمه لك أي كتاب سواه، فاقرأ القرآن بخشوع كما لو أنك تقف أمام الله، لأنك بقراءتك للقرآن تكون في حضرة الله، فتهتز، وتبكي، وتخشع، وتتلقى معاني القرآن، ترتقي بقراءته، وتضعف كل الضعف أمام جلال ربك، فهو وحده الذي يستحق أن تضعف له، لأنه القوي الذي لا يقربه

(١) رواه الترمذي.

ضعف، فضعفك أمامه، عز لك، كما أن ضعفك أمام غيره ذل لك، لأنّك تكون قد ضعفت أمام ضعيف، ضعفت أمام مَن لا يملك ألّا يخضع لضعف، بل قد يضعف لشيء، لا تضعف أنت له، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَصْبَحَ مَحْزُونًا عَلَى الدُّنْيَا أَصْبَحَ سَاخِطًا عَلَى رَبِّهِ، وَمَنْ أَصْبَحَ يَشْكُو مُصِيبَتَهُ فَإِنَّمَا يَشْكُو رَبَّهُ، وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَنِيٍّ فَتَضَعْضَعَ لَهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ، وَمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَدَخَلَ النَّارَ فَهُوَ مِمَّنِ اتَّخَذَ آيَاتِ اللهِ هُزُواً"(١).

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، لأن اتباعكم ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾، إنما هو تقليل من شأنكم الذي جعلكم الله فيه، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ [الشورى: ٩]، فلم يخلق الله أحداً ليكون تبعاً لأحد، فاتباع مَن هم دون الله، هو في الوقت عينه خروج عن اتّباع الله، حتى لو كان المرء مؤمناً، لأن إيمانه يكون قد تعرّض للفساد في اللحظة التي أشرك فيها، ولم يأتمر بأمر الله، بل أشرك واتّبع ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾. مهما كانت أشكال هؤلاء الأولياء من: الرهبان، أو الأحبار، أو الكهّان، أو المشايخ، أو الزعماء، أو الوجهاء، أو الأصنام، أو الكواكب، وما إلى ذلك ممّا يوليه المرء أمرهم دون الله تعالى. فالله يريدك أن تكون عالي الهمّة، شامخاً، مرفوع الرأس، لا أن تكون متضعضعاً، خنوعاً، ذليلاً. فالسؤال كما يقول لقمان الحكيم: (يُذهب ماء الحياء من الوجه).

الجملة الثالثة التي تُختَتَم بها الآية: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾. القليل هو النقص غير المكتمل، ولا يكتمل القليل إلّا بالكثير. فيجوز أن يكون ذلك بالنسبة للذين يمزجون ما بين اتباع الله، واتباع الأولياء، فترى شخصاً يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويؤدّي ما عليه من طاعات لله تعالى، لكنه إلى جانب ذلك يتّبع شخصاً يقوده إلى المعاصي، فيكون بذلك قد اتخذه ولياً حاد به عن ولاية الله، وقد ترى مفتياً يُصبح تَبَعاً للحاكم، فيفتي بِما يمليه عليه الحاكم، فيكون بذلك قد اتخذ من الحاكم ولياً من دون الله. فهذا المفتي يذكر الله ويؤمن به، ويؤدّي الفرائض، لكن إيمانه قد شابه شرك عندما رجّح ما أملاه عليه الحاكم على ما أنزل إليه من الله، فهو

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان.

شخص ضعيف الإيمان متأرجح، فأمسى ذكره لله ﴿قَلِيلًا﴾، فقد أخرج الله من قلبه، ووضع بدلاً عنه الحاكم. فحضور الله تعالى في قلب المؤمن ثابت لا تزحزحه أي مغريات، ولا أي وَجَل، فهو لا يضعف أمام مال، أو جاه، أو مركز، أو امرأة، لأن قوة إيمانه بالله تجعله يتغلّب على أي ضعف، فيستغني عن أي شيء يمكن أن ينال من حضور الله في قلبه.

وجاءت ﴿مَّا﴾ للتأكيد على القلّة، ويجوز أن يتفرّع الزمن أيضاً من القلّة، فيذكروا الله في زمن قصير، فترى شخصاً يذكر الله ويعبده في وقت، ثم تراه في وقت آخر يتراجع إلى المعاصي، فنحن ما نزال ضمن مسار اللاثبات، والتأرجح، والازدواج بالنسبة لفئات من الناس، وعدم الاستقرار في العبادة، وهي فئات تشمل مختلف أعمار الناس، ولذلك يُستَحسَن أن يعالج المرء هذه الازدواجية في نفسه مبكّراً، ويمكن للأبوَين أيضاً أن يأخذا هذه المسألة بجدّية بالنسبة لأبنائهما خاصة في المراحل المبكّرة من اكتشاف الحياة، وتكوين الشخصية، فهي مسألة شديدة الأهمية من شأنها أن تنعكس على شتى القرارات التي يُصبح المرء متأرجحاً فيها، وهي إشارة أولى من إشارات الفشل الذريع في الحياة، والمهنة، والعلاقة مع الآخرين، حيث يُصبح كل شيء بالنسبة إليه متأرجحاً، فيتحوّل إلى شخص غير موثوق به، سواء في مهنته، أو في علاقاته العائلية، أو علاقاته الاجتماعية بشكل عام، فهو شخص يُتوَقع منه كل نقيض، فإن كان طبيباً، سيكون طبيباً فاشلاً، وإن كان مِهَنياً، سيكون مِهَنياً فاشلاً، وإن كان مفتياً، سيكون مفتياً فاشلاً، وإن كان مديراً، سيكون مديراً فاشلاً، وإن كان غنياً، سيكون غنياً فاشلاً، كما أنه سيكون فاشلاً في صداقاته، وفي علاقته بزوجته، وأولاده، وأقربائه، استناداً إلى قاعدة التأرجح التي يكون فيها، ويأتي ذلك إلى ميولاته، وانتماءاته، وقوة الإرادة، وثبات الشخصية.

ومن الطبيعي أن ينعكس هذا كله على معتقده الديني، ولذلك يمكن للأبوَين معالجة الأبناء في وقت مبكّر، كما يمكن للإنسان أن يسعى إلى المعالجة في أي مرحلة عمرية يكون فيها. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾، وهذا القليل الإيجابي لا يكون كافياً قياساً بـ (كثيراً) السلبي الذي لا ﴿تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾.

الباب الرابع: عندما يجيء بأس الله

[٤]

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾

الآية تُعالج ما قبلها، وهي استئناف في عمق المعنى لِما قبلها، ففي الآية السابقة، كان بيان الحالة، والآن تأتي مرحلة التهديد، والتهديد هنا هو تذكير الناس بِما حدث للذين مِن قبلهم نتيجة غضب الله تعالى عليهم، وهذا بمثابة التحذير التصعيدي لهم لعلّهم يأخذون العبرة مِمّا أصاب أهل القرى الذين جاءهم بأس الله نتيجة ذنوبهم.

وقد جاء العِقاب في وقتين أكثر ما يكون الناس فيهما بحاجة إلى الراحة: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾، أي عند استغراقهم في نوم عميق ليلاً، ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾ وقد استرخوا لينعموا براحة القيلولة نهاراً، وهي عادة تكون بعد الغداء، كما أن النوم العميق ﴿بَيَاتًا﴾ الذي يمتدّ حتى الصباح، يكون بعد العشاء.

فالقيلولة تكون من النوم الخفيف في منتصف النهار، وهي نقيض البيات الذي يكون من النوم العميق في منتصف الليل، أي يسترخي قليلاً في النهار كي ينهض ويستأنف نشاطه بعد قليل، ووقت القيلولة قصير، قد ينام فيه المرء، وقد لا ينام، لأن الغاية منه ليس النوم، بل الاستمتاع بلذّة التمدّد عندما يكون فيها البدن مسترخياً بعد بذل الجهد، وبعد الاستراحة لتناول طعام الغداء، فيشعر بأن بدنه بات ثقيلاً، وأنه يريد أن يغفو، فهي إذن لحظات استرخائية خاصة ينعم بها المرء.

والإنسان في هذين الوقتين يكون أكثر ما يحتاج إلى الراحة والسكينة كونه يستمدّ منهما نشاط البدن، وصفاء الذهن، ولعلّه يتكاسل ويتثاقل في القيام من الفراش لإغلاق الباب أو ما شابه، ويطلب من أهل البيت ألّا يصدروا أصواتاً تزعجه في نومه، بل حتى يجعل من هاتفه صامتاً، وإن سأل عنه أحد، يقولون بأنه نائم كي لا يزعجوه في نومه. وإن كان الأمر طارئاً جداً، يتم إيقاظه بلطف، وبنبرة خافتة،

ولمسات خفيفة، لأن النائم عندما يجفل من النوم، يُصبح كل شيء فيه مستنفراً، فتتسارع دقات قلبه، ويحتقن وجهه، ويتحشرج صوته، وما إلى ذلك بما هو نقيض ما كان عليه من سَكينة وهدوء قبل لحظات.

فيحتاج إلى وقت حتى يهدأ روعه، وقد يُفسَد عليه نومه فلا يعود قادراً على استئناف النوم إن كان في نَومِ بَيات. ففي ذروة هذا الهدوء وهذه السكينة، يُباغتهم الله تعالى بالعقاب ﴿فَجَآءَهَا﴾ - جاء أهلها -:

﴿بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ في تلك الأوقات التي استرخوا فيها في لفائف الراحة. فهذه إشارة بليغة بأن هؤلاء كم تسبّبوا في إزعاج الناس في أوقات راحتهم، كم ألحقوا بهم البأس ﴿بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾. فالآن ذوقوا وبال ما كنتم تقترفون، ولتعلموا بأن الله حق، وفي ذلك تنبيه لك بألّا تزعج أحداً في وقت نومه، أو قيلولته، وألّا تطرق الأبواب على الناس في هذين الوقتين، قيلولة الظهيرة، والوقت المتأخر من الليل، وعليك ألّا تزعجهم بالهواتف، واعلم بأنك كما تزعج، تُزعَج، وكما تُراعي، تُراعى. بل حتى الزوج عندما يرى امرأته نائمة، أو غافية، يمكن له أن يحضر بعض متطلباته مراعياً أخذها قسطاً من الراحة، فلعلّ الله الذي يرى ذلك، يقابله بالمثل، ويرأف به. فكم مِن مواقف حافظتَ فيها على راحة الناس، وكم من مواقف تردّدتَ فيها عن إزعاج الناس، وكم من مواقف آثرتَ ألّا تزعج الناس فيها رغم أنك صاحب حق، ولكن لتسجّل موقفاً مُراعياً عند الله، علّه يُقابلك بالمثل، أو يزيد رغم أنه صاحب حق كي يباغتك، أو يحرجك؛ لتعلم بأنك لستَ أكرم منه، ومهما قدّمتَ من مواقف طيبة، فإنك ترى منه ما هو أطيب، الأطيب الذي لا قدرة لك على فعله.

ونظير ذلك، فإنك مهما قدّمتَ من مواقف جائرة، فإنك تراها كما هي دون أن يزيد الله عليها شيئاً، لأنه وإن كان في الأولى يكرمك بالمزيد، فإنه في الثانية لا يظلمك بالمزيد، بل يعفو عن كثير مِمّا كسبت يداك: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا﴾، أي ﴿فَجَآءَهَا﴾ بعد أن تلقّت الهلاك: ﴿وَكَم﴾ للتكثير ﴿مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾. الهلاك هنا من أشكال وألوان الذل والخنوع، فهذا الذي كان عزيزاً ومَنيعاً، ومتمكّناً في هذه القرية أو تلك، قد وهن وذل، فيمضي ردحاً في تذوّق علقم الهزيمة والاستضعاف والإذلال على أيدي الناس في الدنيا، ثم يلقى عذاب الله في الآخرة.

فالإنسان عندما يهلك، يغدو في أقصى درجات الإرهاق ويضعف، فيُصبح مَقدوراً عليه، ومُتمكّناً منه، فحتى الضعفاء من الناس يتمكّنون منه، فيكون موضع شماتة الجميع، وقد وقع في أسر بني جلدته الذين طغى عليهم.

والمعنى يشمل الأفراد والجماعات معاً ﴿وَكَم﴾ كثير ﴿مِّن﴾ أهالي ﴿قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا﴾ أهلكناهم، أي: ﴿وَكَم﴾ أهلكنا سكّان ﴿قَرۡيَةٍ﴾، ﴿فَ﴾ - بعد أن شفى الناس غليلهم من هؤلاء الذين طغوا في الأرض ﴿جَاءهَا﴾ - وقع عليهم ﴿بَأۡسُنَا﴾ عذابنا.

والكلمة هنا قريبة من المفاجأة، أي فوجِئَت ببأسنا الذي تستحقه نتيجة العصيان ﴿بَيَٰتًا﴾ كما وقع لقوم لوط، ﴿أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾ كما وقع لقوم شعيب.

من جهة أخرى، فيمكنك أن تستنتج من ذلك بأن أسباب الأمن والرفاهية ورَغَد العَيش، لا يمكنها أن تقي أحداً من غضب الله، وقد رأيتَ بأن أشدّ الطغاة الذين مكّنهم الله تعالى في الأرض والمُلك، وهيأ لهم أسباب الأمن، والحماية، والاستقرار، والرفاهية، قد لقوا البأس وهم في دُورِهم، وفي ذروة قوتهم ونفوذهم، فأوقعهم الله تعالى وجعلهم في وهن وذل وخنوع، فلا تكن مغترّاً بما أعطاك الله من مال، أو جاه، أو صحة، أو ولد، أو نفوذ، ولتكن لك عبرة في أهل القرى الذين دهمهم بأس الله ﴿بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾.

﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ

وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحج: ٤٥].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾﴾ [الحاقة: ٥ - ١٠].

[٥]

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

في المحاكم العادلة، لا يكون الحكم على المتجاوز على القانون إلّا إذا اعترف بالتجاوز المنسوب إليه، وأكّده على نفسه، وهنا أنتَ أمام المتجاوز على حدود الله، وأمام العقاب الذي يستحقه بنظير هذا التجاوز.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ إقرارهم ﴿إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ عقاب التجاوز على حدودنا ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ اعترفوا وأقرّوا: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ ظلمنا أنفسنا، وانتهكنا حدود ربّنا.

وعندما يعترف المرء بأنه ظَلَمَ، فهو اعتراف بأنه كان على خطأ. فهو يواجَه بالقرائن والثبوتيّات، فيعترف بها، وهذا بذاته إقرار منه بأن العِقاب حق، ذلك أنه كان يعلم بأنّه يُخالف الشرع، ويعلم العقاب الذي يترتب على هذه المخالفة، فيكون قد ظلم نفسه مرتين، مرة في ارتكاب الوزر، ومرة في الخضوع للعقاب. ﴿فَمَا﴾ مبتدأ الآية بحرف العطف، ثم بـ ﴿مَا﴾ النافية ﴿كَانَ﴾ فعل ناقص ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ ومضاف إليه.

وكلمة ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ تحمل إشارة إلى الرجاء، بمعنى سؤالهم العفو من الله: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٥﴾ ونسألك أن تعفو عنّا، فهي إقرار، وبذات الوقت رجاء.

ما يمكنك استنتاجه من هذه الآية الكريمة، هو أنك كما تتحاشى أن تضع نفسك أمام الحاكم في موقف كهذا، فعليك أن تتحاشى أن تضع نفسك في موقف كهذا أمام أحكم الحاكمين.

الباب الخامس: حضور الله

[٦]

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾

يوم القيامة عندما يُحشر الناسُ جميعاً على أرض بيضاء نقية ليس فيها معلم لأحد، وليس فيها موضع يعلو عن موضع، و﴿يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ حفاة عراة ﴿كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ٤]، لا أحد يتميّز عن أحد، ولا أحد يعرف مصير أحد، بانتظار الحساب.

عندئذ: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ﴾. الفاء هنا تنسيقية، واللام قَسَم توكيدي من الله جلّ شأنه، بمعنى: ﴿فَ﴾ بعزّتي وجلالي ﴿لَنَسْأَلَنَّ﴾ أي: لنحققَنّ مع ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ ﴾، ولنحققَنّ مع ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾.

فالاعتراف بالذنب وحده ليس كافياً، لتحقيق العقوبة، فقد لا يكون المذنب على علم بالحدود التي انتهكها، ويكون قد فعل ذلك جهلاً منه.

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ﴾ - قبل إنزال العقاب - ﴿ٱلَّذِينَ﴾ استحقوا هذا العقاب: هل ﴿أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ بيان الحدود التي انتهكوها، وبيان عقاب المتجاوزين على تلك الحدود ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، الذين أرسلناهم إليكم؟ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: ٩٢].

قال عمر بن الخطاب لابن عباس: (مع أنني على ما قلت عني لو أن لي ملء الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع).

﴿وَ﴾ إلى جانب ذلك: ﴿لَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم رسالاتنا إلى أممهم.

قَال ابن مردَوَيْهِ: (حَدَّثَنَا مُحَمَّد بْن أَحْمَد بْن إِبْرَاهِيم حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيم بْن مُحَمَّد بْن الْحَسَن حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيد الْكِنْدِيّ حَدَّثَنَا الْمُحَارِبِيّ عَنْ لَيْث عَنْ نَافِع عَنْ اِبْن عُمَر قَالَ: قَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "كُلّكُمْ رَاعٍ وَكُلّكُمْ مَسْئُول عَنْ رَعِيَّته فَالْإِمَام يُسْأَل عَنْ رَعِيَّته وَالرَّجُل يُسْأَل عَنْ أَهْله وَالْمَرْأَة تُسْأَل عَنْ بَيْت زَوْجهَا وَالْعَبْد يُسْأَل عَنْ مَال سَيِّده").

[٧]

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾، جاءت بتشديد النون، لتأكيد الفعل، كما الأمر بالنسبة لـ ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾، فسؤال الله – تعالى شأنه – ليس للعلم، بل حتى يعترفوا بألسنتهم ما ارتكبوه من انتهاكات، ذلك أن الله سميع بصير، وقد سمع كل شيء، وأبصر كل شيء.

وهو علم بالجزئيات، كما أنه علم بالكليات، وعلمه يشمل ظاهر الأمور وباطنها.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ تأكيد لهذا العلم، أي: نحن ﴿كُنَّا﴾ على علم ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عن كل ما فعلتموه من كبيرة، أو صغيرة.

وقد عطفت الواو هنا الجملة على: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾. قال ابن عباس: (﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾، يُوضَع الْكِتَاب يَوْم الْقِيَامَة فَيَتَكَلَّم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ يَعْنِي أَنَّهُ تَعَالَى يُخْبِر عِبَاده يَوْم الْقِيَامَة بِمَا قَالُوا وَبِمَا

عَمِلُوا مِنْ قَلِيل وَكَثِير وَجَلِيل وَحَقِير لِأَنَّهُ تَعَالَى الشَّهِيد عَلَى كُلّ شَيْء لَا يَغِيب عَنْهُ شَيْء وَلَا يَغْفُل عَنْ شَيْء بَلْ هُوَ الْعَالِم بِخَائِنَةِ الْأَعْيُن وَمَا تُخْفِي الصُّدُور).

فالقَص هنا بمعنى أنّ العِباد يُقَصّ عليهم ما قد فعلوا، وهذا القَص يكون ﴿بِعِلْمٍ﴾ من الله تعالى الذي لم يغب عنه شيء قط مما فعلوا.

والقَص بمعنى السَرد، أي يُسرَد عليك ما قد عملت. فجاء القَص كناية بالبيان التفصيلي، فَمِن خلال القَص يتم سرد التفاصيل الصغيرة والكبيرة، ثيمة ثيمة، ولذلك جاء: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾.

فهذا إثبات بأن لا شيء قط يملك أن يخفى عن علم الله.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ [يونس: ٦١].

فاعلم بأن حضور الله هو حضور دائم بالنسبة إليك، ولا يغفل الله تعالى لحظة عنك، مهما غفلتَ عنه.

فهنا تنبيه إلى هذه الحقيقة، حتى تكون يقظاً للحضور الإلهي، ولا تكن في غفلة عنه، لأنك إن غفلت، أو انتبهت، يبقى الحضور كما هو، لكن غفلتك تفسح مجالاً للإكثار من المعاصي ما أمكن، ويقظتك تفسح مجالاً للإقلال من المعاصي ما أمكن.

والغفلة تؤدّي بصاحبها إلى البطش والطغيان والظلم والعِناد والاستعلاء، واليقظة تؤدّي بصاحبها إلى كل ما هو نقيض ذلك.

الباب السادس: مَوازين ومَوازين

[٨]

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾

﴿الْوَزْنُ﴾ بذاته هو عفو من الله تعالى، لأنه لولا ﴿الْوَزْنُ﴾ لعوقِبَ الإنسانُ بكل خطيئة ارتكبها، أما ﴿الْوَزْنُ﴾ فيعني أن الإنسان عندما يكون خيره أكثر من شره،

فإنه يدخل الجنة دون أن يُعاقَب بذلك الشر القليل مقارنة بالخير الكثير، وذلك من عفو الله بالإنسان.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ - معطوف على ﴿فَلَنَقُصَّنَّ﴾ - وضع الحسنات مقابل وضع السيّئات ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم الحساب ﴿ٱلْحَقُّ﴾ لا زيادة ولا نقصان، سواء بما في رصيدك من الحسنات، أو بما فيه من السيئات.

﴿فَمَن﴾ مِن الناس جميعاً ﴿ثَقُلَتْ﴾ رجحت كفة ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالخير ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑧﴾، لأن هذا الثقل يلغي كل ما هو في كفة الشر، كما لو أنه لم يفعله، وهذا من عفو الله تعالى شأنه، ذلك أن جانب الخير فيك رجح بجانب الشر، وخيرك أكثر من شرك، وطاعتك أكثر من ذنوبك، وحسناتك أكثر من سيئاتك.

ورحمة الله تعالى غالبة على عقابه، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑧﴾، حيث ظفروا بنعيم الجنة، ونجوا من شقاء النار.

عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ المَازِنِيِّ، قَالَ: (بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكَافِرُ وَالمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ⑱﴾)(١) [هود: ١٨].

قَالَ حُذَيْفَة: (صَاحِب الْمَوَازِين يَوْم الْقِيَامَة جِبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام، يَقُول الله تَعَالَى: يَا جِبْرِيل زِنْ بَيْنهمْ فَرُدَّ مِنْ بَعْض عَلَى بَعْض.

(١) صحيح البخاري.

قَالَ: وَلَيْس ثَمَّ ذَهَبٌ وَلَا فِضَّة، فَإِنْ كَانَ لِلظَّالِمِ حَسَنَات أُخِذَ مِنْ حَسَنَاته فَرُدَّ عَلَى الْمَظْلُوم، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَات أُخِذَ مِنْ سَيِّئَات الْمَظْلُوم فَتُحْمَل عَلَى الظَّالِمِ، فَيَرْجِع الرَّجُل وَعَلَيْهِ مِثْل الْجِبَال).

ولعلّك تسأل عمّا يتم وضعه في الميزان، فيجوز أن يكون ذلك على شكل صحائف تُسجّل عليها الأعمال، وكل صحيفة مكتوب عليها نوع العمل وحجمه، والأمر شبيه بالأوراق النقدية، فكل ورقة لها قيمتها النقدية المتفاوتة عن الأخرى، فهي في مجموعها سجلّات، لكن قيمتها تكمن في فئاتها، فيكون الوزن بحجم القيمة.

روي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلَ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ قَالَ: لَا يَا رَبِّ! فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، قَالَ: فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ"[(١)].

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾، وكلمة ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨﴾ تذكّر بالفلاحة، عندما يزرع الفلّاح ويجهد على زرعه، فيعطيه من ماله، وجهده، ووقته، ثم ينعم بنتيجة ذاك البَذل عند الحَصاد. ولا يستوي هذا مع الذي لم يزرع شيئاً، أو مع الذي زرع، لكنه لم يجهد على زرعه، فلا يرى حصاداً يمكن أن يحصده، وينعم به عندما يحصد الفلّاحون المجدّون حصادهم وينعمون به. ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٧ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ١٠ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١﴾ [القارعة: ٦ - ١١].

(١) أخرجه الترمذي.

واعلم أن لذلك أيضاً درجات، وهذا ما يشير إليه مبتدأ الآية الكريمة: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾.

أي نسبة الحسنات، ونسبة السيئات، فلا يتساوى جميع الذين ثقلت موازين الحسنات لديهم بذلك، فمنهم مَن تكون حسناته أكثر من غيره، وسيئاته أقل من غيره، ومنهم مَن تكون سيئاته أكثر من غيره، وحسناته أقل من غيره، رغم أن الجميع أصبح في الجنة ووقاه الله من عقاب تلك السيئات بعفوه ومغفرته.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي أن الجنة دَرَجات، بحسب ارتفاع نسبة الحسنات، رغم أن الجميع قد رجحت به حسناته وغدا في الجنة، كما أن جهنّم دَرَكات في الجانب الآخر، بحسب ارتفاع نسبة السيئات، رغم أن الجميع قد رجحت به سيئاته وغدا في النار.

ويمكنك أن تقيس ذلك على الامتحان، فليس كل ناجح يمكن له أن يدخل القسم الذي يريد، بل يدخل القسم الذي تؤهّله درجاته له، رغم أن الجميع قد حصل على وثيقة النجاح، وكذلك الذين يدخلون السجن، فليس الجميع في جناح واحد، بل كل يدخل الجناح الملائم بحجم جنايته. لأنه ليس من الحق أن يتساوى المتفوّق بدرجة امتياز، مع الناجح بالكاد، وليس من الحق أن يُوضَع شخص ارتكب مخالفة سير، مع سجناء ارتكبوا جنايات مروعة، رغم أن الجميع مودع في السجن، فذلك معنى قوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾، والله أعلم.

[٩]

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

في الآية السابقة: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾، ﴿ثَقُلَتْ﴾، موازين الخير على موازين الشر، ورجحت بها، فخفّت بذلك موازين الشر أمام ثقل موازين الخير. والآن تأخذك الآية إلى الجانب الآخر، حيث أولئك الذين ﴿خَفَّتْ﴾ بهم موازين الخير أمام ثقل موازين الشر: ﴿وَمَنْ﴾ مِن الناس جميعاً ﴿خَفَّتْ﴾ كفة ﴿مَوَٰزِينُهُۥ﴾

بالحسنات، ورجحت بالسيئات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ أي حَرموا ﴿أَنفُسَهُم﴾ دخول الجنة التي أُعِدّت لِمَن ﴿ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالخير، وما استطاعوا أن يقوا ﴿أَنفُسَهُم﴾ النار التي أعِدّت لِمَن ﴿خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالشر.

﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢، ٢٠].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ [البقرة: ١٦].

وما جعلهم يُمنَون بهذه الخسارة الفادحة أنهم ﴿كَانُواْ﴾ بآيات الله ﴿يَظۡلِمُونَ ٩﴾. يجحدون شرع الله الذي أتت به آياته ويتّبعون أهواءهم، وظلمهم إنما هو لأنفسهم، والآن يلقون عذاب ما اقترفوا من ظلم. فاعلم أن لكل شيء، وزن عند الله سبحانه وتعالى، فحتى الخطوة التي تخطوها وأنتَ تبتغي منها الخير، تكون لك خطوة خير في ميزانك، والخطوة التي تخطوها وأنتَ تبتغي منها الشر، تكون خطوة شر في ميزانك.

فكم من خطوة خطوتها، وأنتَ تجلب الطعام لعيالك، كم خطوة خطوتها وأنت تذهب إلى عملك، وأنت تذهب إلى عبادتك، وأنت تمضي في صلح، وأنت تحمل مساعدة لمحتاج، وأنتَ تعود مريضاً، وأنتَ تصل رحمك، وأنتَ تجلب حاجة لعيالك، فهذه الخطوات كلها تُسجّل لك، كما أن الخطوات النقيضة تُسَجّل عليك.

جاءت الخسارة في الآية، مقابل الفلاح في الآية السابقة، فهناك أفلحوا، وهنا لم يفلحوا.

ما تتعلّمه من ذلك، هو الإكثار من الحسنات ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، فلا تقل بأنّك أدّيتَ ما عليك من فرائض، وهذا كفيل بدخولك الجنة لأنّك أطعتَ الله تعالى فيما فَرَضه عليك، وقد سقطت عنك كل الفروض لأنك أدّيتها. لكن هل تضمن أن أحداً لن يأتيك يوم الحساب، ويأخذ منك حسناتك، فتكون كما أنك أدّيتها نيابة عنه لأنّك تجاوزتَ على حقوقه في الدنيا، ولعلّك ترى فوجاً مِن الناس كل واحد يطالبك بما ظلمته به، فلا تملك ما تسدد من الحقوق أمام عدالة الله سوى

أن تعطيهم من كفة حسناتك، وشيئاً فشيئاً تخف كفة الحسنات، لتثقل كفة السيّئات، بل لعلّ الحسنات كلها تنفذ أمام كثرة أصحاب الحقوق، فيكون الأخذ من كفة سيئاتهم، وتوضع في كفة سيئاتك لتثقل أكثر فأكثر، وعندها ستدخل النار رغم كل ما أدّيتَ من فرائض، وما قمتَ به من حسنات، فالحذر من الاعتداء على حقوق الناس ولو بكلمة، أو بإشارة، أو بطريقة غير مباشرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنهُ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"(١).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَنَاجَشُوا وَلَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا. الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ. التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ"(٢).

عن السيدة عائشة رضي الله عنها: (دَخَلَتْ عَلَيْنَا امْرَأَةٌ، فَلَمَّا وَلَّتْ أَوْمَأْتُ إنها قَصِيرَةٌ، فَقَالَ النبيُ عَليه الصلاةُ والسلامُ: "لَقد اغْتَبْتِيهَا")(٣).

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَمَّا عُرِجَ بِي مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمِشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَؤُلاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلاءِ الَّذِين يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ".

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ"(١).

فلا أحد يكون في غِنى عن الزيادة، لأن لا أحد يضمن أن أعماله الصالحة ستبقى له ولا تذهب إلى غيره من أصحاب الحقوق عليه، فهذه الزيادة تنفعك، فتعطي منها لأصحاب الحقوق دون أن ترجح كفة سيئاتك بكفة حسناتك.

الأمر الآخر، فإن هذا الإكثار من الحسنات، يمكن أن ينفعك في الطاعات المفروضة عليك، فإن كان بها نقص، يمكن لها أن تسدّ ذاك النقص بمشيئة الله، ثم لو أنك بريء الذمة ولا أحد له شيء عليك، فإن هذه الزيادة ستؤهّلك للدرجات الرفيعة من الجنة، وتكون من أولي المقامات الرفيعة عند الله عز وجل.

واعلم بأن من أبواب الزيادة، أنك عندما لا تملك المال الذي تتوجّب عليه الزكاة، ورغم ذلك تكثر من الصدقات، وتعين المحتاجين بما يقدّرك الله عليه، إن رأيتَ شخصاً وضع أذى على الطريق، ورغم أن لا شيء عليك ممّا ينتج عن هذا الأذى، لكنك تذهب وتميطه عن الطريق، إن رأيتَ سيارة صَدَمت شخصاً، وأنتَ تمضي بسيارتك، ورأيتَ السائق يفرّ هارباً دون أن يسعف المُصاب، لكنك وقفتَ وأسعفتَ المصاب، وآثرتَ إنقاذ حياة إنسان على أي مصلحة أنتَ ذاهب لتحقيقها، أن تعفو عن شخص متعسّر دَيناً، أن تمشي في صلح بين شخصَين متخاصِمَين، أن تلمس للناس أعذاراً، أن ترجح كفة التسامح في سلوكك على كفة العقاب، أن تكون مبتسماً أكثر مما تكون جَهماً، أن تكون متفائلاً أكثر ممّا تكون متشائماً، أن تكون حريصاً ألّا يفقد الناس الأمل بخيرك مهما تقلّبت بك الأحوال، فثمة أناس لا يأمل المرء منهم خيراً مهما كثر عندهم الخير، وثمة أناس يأمل المرء منهم خيراً مهما قل عندهم الخير.

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ"(٢).

---

(١) رواه أحمد.

(٢) صحيح مسلم.

ويروى عن الحسن قوله: (لو أنَّ رجلاً شتَمني في أذني هذه واعتذر في أُذني الأخرَى لقبِلتُ عذرَه).

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ العَشَرَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الخَمْسَةُ، وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ، هَؤُلَاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ، قَالَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَهَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: كَانُوا لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يُدْخِلَ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، وَثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ")(٢).

وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفاً تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا"فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: "لِمَنْ أَطَابَ الكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ"(٣).

فكما تُريد أن تُحَب، عليكَ أن تُحِب، كما تُريد أن تُستَر، عليكَ أن تَستر، كما تُريد أن يُحسَن الظَن بك، عليك أن تُحسِن الظَن، كما تُريد أن تُعفا، عليكَ أن تعفو، كما تُريد أن تُعطى، عليكَ أن تعطي، كما تُريد أن يُحافَظ على عرضك، عليك أن تُحافِظ على الأعراض، كما تُريد أن يُماط الأذى عن دربك، عليكَ أن تميط الأذى عن الدروب.

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه.

(٣) أخرجه أحمد والترمذي.

الباب السابع: تمكين ومعايش

[١٠]

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾

مِن مِنّة الله تعالى بالإنسان أنه مكّنه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ جعله متمكّناً منها، وخوّله إمكانية التصرّف بها، والتمكّن مقاييس ودرجات، فالمَلِك متمكّن من مُلكه، والأمير مُتمكّن من إمارته، والمُزارع متمكّن من أرضه الزراعية، ومالك العقارات متمكّن من عقاراته، وصاحب البيت متمكّن من بيته، وعلى هذا النحو مكّن الله تعالى الإنسان في الأرض. وعندما تتمكّن من الشيء، فإنك تخبره، وتعرف حيثياته، فأصبح الإنسان من خلال هذا التمكين متمكّناً من عمارة الأرض من خلال الأرض، أي يستخرج منها ما يعمّر به المساكن، وقد استطاع الإنسان أن يستثمر المطر الذي ينزله الله من السماء في عَمار الأرض من خلال هذا التمكين.

﴿وَلَقَدْ﴾ اعلموا بأننا ﴿مَكَّنَّاكُمْ﴾ فضّلنا عليكم وجعلناكم تتمكّنون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، والتمكين هو سيادة، وملكية، وقوة، فليس بوسع أي من مخلوقات الله التي تعيش ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أن تتمكّن منها بقدر الإنسان، فكل شيء يرضخ لتمكين الإنسان منه، من الحيوان، والنبات، والجماد، فقد مكّنه الله تعالى ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، وما يفعله الإنسان من خلال تمكينه ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، يعجز أن يفعله غيره، فكل هذه المنجزات الهائلة، ما كان للإنسان أن يبلغها، لو لم يمكّنه الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾. ثم قال: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ الأرض التي مكّناكم فيها، صالحة لتعملوا فيها ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١٩﴾ [الحجر: ١٩]. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا﴾ كل أسباب ومقوّمات رَغَد العَيش. فالشمس تشرق عليها، والليل يخيّم عليها، والمطر ينزل إليها، والهواء يتوافر فيها، وتنعمون فيها بتقلّب الفصول، وفيها مِن نِعَم

الله ما لا يمكنكم أن تحصوها ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨].
فجاءت كلمة ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ مفتوحة وغنية، بصيغة الجمع، مفردها (مَعيشة)، وزنها مفعلة، و﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ مَفَاعِلٌ، والياء أصلية فيها تضفي إليها غِنى أكثر. والـ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ هي مِهَن تمتهنونها، وتحققون معيشتكم من خلالها.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ بمعنى: فسحنا لكم فيها أبواب المِهَن حتى تكسبوا من خلال هذه المِهَن وتعيشوا عيشة كريمة.

ومن ذلك (المَعاش)، أي الأجر الذي يقبضه المرء لقاء العمل الذي يبذله، وهو يعيش بهذا المعاش. فقد وسّع الله تعالى على الإنسان بأن جعل الأرض تغتني بِما يمكن للإنسان أن يتّخذ من حِرَف، ويُصبح حِرَفياً ما هراً في حرفته، ومهما عددتَ مِن الحِرَف، فلن تكون قادراً على إحصائها، والحِرَف تتفرّع من بعضها البعض، ويتكامل بعضها ببعض، فمهما كانت حرفتك، فإنّك تحتاج إلى حِرَفيين مساعدين لك، كما أنهم يحتاجون إلى حرفتك حتى تكتمل حِرَفُهم. ومِن خلال هذه الـ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ أصبح الناس يتواصلون مع بعضهم البعض، ويغتنون من بعضهم البعض، فهذه الـ ﴿مَعَٰيِشَۗ﴾ هي مَصَالح يلتقي الناس من خلالها، فتدر عليهم المنافع، كلٌ بحسب الحِرفة التي يحترفها، وقد دعا الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتقن الإنسان حرفته، ويطوّر نفسه فيها لأنه كلّما طوّر نفسه في الحرفة، نتج عن ذلك نتاج حَسَن، عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُم عَمَلًا أَن يُتقِنَهُ"(١).

أي يكون متقناً للعمل الذي يقوم به، والمتقن لحرفته، يُقدّم نتاجاً جيداً حتى يُعرَف هذا النتاج باسمه، بل يُصبح اسمه علامة مميّزة لتسويق هذا الإنتاج، وليس هذا فحسب، بل إن مجموعة من الحرفيين الماهرين المتقنين لعملهم، في إحدى المدن يجعلون من مدينتهم مدينة معروفة بجودة الإنتاج، ويأتي ذلك على الدول

---

(١) أخرجه أبو يعلى والطبراني.

أيضاً، فتكون بضاعة هذه الدولة عالية الجودة، ويقبل الناس عليها مهما غلا ثمنها، في حين تكون بضاعة تلك الدولة منخفضة الجودة، ولا يقبل الناس عليها إلّا إذا اضطروا إلى ذلك.

واتقان المهنة مِن العِبادة لأن الإنسان المتقن لمهنته، ينفع بها الناس، في حين أن غير المتقن، يلحق الأذى بالناس، فكم مِن طبيب ألحق الأذى بمرضاه بسبب عدم اتقانه لمهنته، وكم من بناء سقط على سكّانه، وكم مِن سائق تسبب في الحوادث، وكم مِن مدرّس تسبب في فشل تلاميذه، وكم من مفتٍ أضل الناس بفتواه، وكم من وزير ألحق الخسائر الفادحة بوزارته، وكم من حاكم ألحق الويل بشعبه، والسبب يعود إلى عدم الإتقان. أخرج الطبراني بسنده عن ابن عمر قال: سمعت النبي صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إذا كان يَوْمُ القِيَامَةِ دَعَا الله بِعَبْدٍ من عِبَادِهِ، فيوقفه بين يَدَيْهِ، فيسأله عن جَاهِهِ، كما يسأله عن عَمَلِهِ". ولذلك فإن المؤمن يكون نافعاً، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَثَلُ المُؤْمِنِ مَثَلُ النَّخْلَةِ مَا أَخَذْتَ مِنْهَا مِنْ شَيْءٍ نَفَعَكَ"(١).

فكل ما في هذه الأرض التي مكّنكم الله منها، عَمارٌ في عَمار، الأشجار عامرة بالثمار، والمساحات عامرة بالخضار، والهواء نقي عليل، والشمس تسطع عليها، القمر يهلّ عليها، والطيور تغرّد فيها، وسخّر لكم أنواع الحيوانات لتتمتّعوا بلحومها ومنتوجاتها. وتعقدون علاقات حميمية فيها، تتمتّعون بلياقة البدن، وتنعمون بصفاء الذهن، تتلذّذون بالعشرة الزوجية، تكوّنون العائلات، تتقنون المِهَن، تترسخون في العِلم، إن كل شيء فيها جميلٌ في جميل، وعلى أفضل ما يرام، ونظير كل ذلك لا يريد الله منكم سوى أن تكونوا صالحين، ولا تكونوا طالحين، أن تكون عاملين، لا أن تكونوا خاملين، أن تحبوا بعضكم بعضاً، لا أن تبغضوا بعضكم بعضاً، أن تشكروا الله على نِعَمه، لا أن تجحدوها، وتتخذوا غيره أولياء لكم، وتشركوا به، وتبطروا، وتبطشوا، وتطغوا، وتكفروا بالله.

---

(١) رواه الطبراني.

ثم اختُتِمَت الآية الكريمة بـ: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾.

أي نظير كل ذلك، وبدل أن تشكروني كثيراً مع كل نظرة تنظرونها، مع كل خطوة تخطونها، مع كل لقمة تتناولونها، مع كل شربة ماء تشربونها، مع كل ما ترفلون فيه من أسباب نعمتي عليكم، فإن شكركم لي قليل. وهذا بمثابة التنبيه للإنسان، فإن الله تعالى ينبهه كي يدرك هذه الغفلة التي هو فيها، فقد يتحدّث الإنسان في اليوم آلاف الكلمات، ولا يكون فيها ذكر الله إلّا في كلمات معدودة، وقد يأتي ذكر الله على لسانه بشكل تلقائي من ضمن الكلام، دون أن يقصد ذكر الله، أو دون أن يقصد القَسَم بالله، وما إلى ذلك. فذكر الله هو خشوع، وعندما تقول: الله. عليك أن تعيش حضور الله في قلبك، أي أن الله يجعلك تستقيم، فَمِنَ الناس مَن يقسم بالله زوراً، ويقسم بالله كذباً وبهتاناً، فاعلم أن ذكر الله لا يكون من خلال لفظ حروف اسمه فحسب، بل من خلال ما يحرّك فيك من الخشوع، فعنما تذكر اسم الله، عليك أن تعيش معنى الله فيك، فما يعني الله بالنسبة لك؟ والإجابة تكون من خلال الفعل الذي تبديه بذكرك لله تعاظَمَ شأنه، فشخص يُطلَب منه أن يقسم بالله على ما يقول حتى يؤخَذ قوله بعين الاعتبار، تراه يتراجع لأن اسم الله يخيفه، ولأنه يعيش معنى الله في قلبه، فيعترف بالحقيقة، ويكون بذلك قد استقام بفضل ذكر الله. وشخص آخر يُطلب منه ذلك، فيقسم بالله وهو كاذب، لأنه لا يعيش معنى الله في قلبه، ولذلك لم يحرّك اسم الله فيه ساكناً، فيكون بذلك قد لبث على اعوجاجه. والإكثار من ذكر الله - لفظاً ومعنى - يجعلك في حالة توازن أكثر، وكلما ذكرت الله كثيراً، وعشتَ معنى الله في جوارحك، جعلك ذلك تستقيم أكثر، وتتجنّب أكثر سبل الاعوجاج. فلا ضيق يجعلك تقنط من رحمة الله، ولا سِعة تجعلك في غِنى عن رحمة الله.

﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل: ١١٢].

واعلم بأنك مهما شكرتَ الله، فإن فضله عليك أكثر، وكلّما شكرتَ الله أكثر، دنوتَ أكثر من رضوانه، وأن الذين تضيق بهم سبل الحياة، هم أولئك الذين لا يذكرون الله، أو يذكرونه قليلاً، فإن ذِكر الله حصانة كبرى من أشكال اليأس والاكتئاب، وفَرَج من كل غَم وكَرب.

فانظر إلى الآية قبل أن تغادرها، واقرأها جملة واحدة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠)﴾.

فكلّما كان شكرك لله أكثر، مكّنك الله ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أكثر، ووسّع عليك الـ ﴿مَعَايِشَ﴾ أكثر.

الباب الثامن: الأنا الإبليسية

[١١]

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (١١)﴾

الآن، وبعد أن عرّفتك الآيات السابقة في السورة على كينونة فكرة العصيان، وإلى ما يمكن للإنسان أن يلقاه وهو يصرّ على عصيان أمر ربه الذي أرسل الرسل، وأنزل الكتب للناس كي يتعرّفوا إليه، ويتّبعوا ما شرع لهم، وأنهم سيلقون النفع على قدر ما يتمسّكون بهذا الشرع، ويلقون الأذى على قدر ما يتجاهلونه. يُعيدك السياق القرآني إلى المعصية الأولى التي وقعت، وإلى أول مخلوق قال لله عز وجل: لا! وكيف كان ردّ الله عليه، وهو - جلّ شأنه - لأول مرة يُقال له: لا، ولأول مرة يُرفَض له أمر، وهو أول مخلوق يخرج عن طاعة الله سبحانه وتعالى، فكيف تولد فكرة العصيان؟

تضعك الآيات أمام معصيتَين: الأولى معصية إبليس التي كان سببها الإنسان، والثانية معصية الإنسان التي تمخّضَت عن معصية إبليس.

وإن كانت المعصية الأولى سببها الإنسان، فإن جذورها هي الاستعلاء، أي إن الإنسان قد تسبّب أيضاً في إظهار نزعة الاستكبار لدى إبليس، فقد جعله الإنسان يفصح عن نزعته الاستعلائية هذه، ولسان حال إبليس يقول، استناداً إلى تضخّم حالة الاستعلاء لديه، وامتلائه بمشاعر التكبّر: أنا أعلى منه مرتبة، وأتميّز عنه بأن الله خلقني من نار، وخلقه من طين، فكيف أسجد لِمَن هو دوني، إن ذلك ينال من رفع منزلتي، ويلغي تمييزي عنه، ولا أمتثل لذلك حتى لو كان الأمر صادراً من ربي الذي خلقني. الآن، ستضع يدك على جوهر فكرة كيف أن الإنسان تولد في مُخيّلته تداعيات فكرة الاستكبار والتميز حتى يبلغ مرحلة يظلم فيها نفسه، وهو يعتقد بأنه على صواب، لكنه يكتشف في النهاية بأنه كان في وهم كبير، وأنه في حقيقة الأمر كان يحط من قَدَر نفسه، لأن طاعة الله هي رفع للقدر وفق كل المقاييس، ومعصيته، هي حَط للقدر وفق كل المقاييس، ذلك أن الله عندما يأمرك بطاعة، إنما يرفع بذلك شأنك عنده، وعندما ينهاك عن معصية، إنما يجنّبك بذلك من حَط قدرك عنده، فمن خلال ثنائية الطاعة والعصيان، ترتفع درجات الإنسان عند ربه، أو تتهاوى.

فقد ظلم إبليس نفسه من خلال المعصية، وانتهى إلى الذل والخنوع، وهو يتلقى لعنة الله عليه، ويُطرَد من رحمته التي لا يعزّ أي مخلوق إلّا بها، ولا عزّ لملعون من الله بأي شكل من الأشكال.

يُعيد الله تعالى ذاكرة الإنسان إلى مُنطَلَق المعصية الأولى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ خلقنا آدم، ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾، صورناه على الهيئة والخصائص الإنسانية، ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن تم ذلك، وأصبح أول إنسان واقعاً ملموساً، وحقيقة موجودة: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

وَرَدَت: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ دون: أَمَرنا الملائكة أن ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾، لأنه جلّ شأنه، لو أَمَر، لوقع التنفيذ حالاً، ولا مخلوق بمقدرته ألّا ينفذ أمراً صدر عن الله ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧]، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠].

في حين إن: ﴿قُلْنَا﴾ فيها شيء من فسحة للتحاور، وكلمة ﴿قُلْنَا﴾ من القَول، كما أن أمَرنا من الأمر يتم تنفيذه دون مجال للقول كونه حاسماً وقطعياً، والتنفيذ يكون طوعاً، أو كرهاً.

فقد سبقت كلمة ﴿قُلْنَا﴾ فعل الأمر ﴿اسْجُدُوا﴾ أي: لو كان لديكم ما تقولونه قبل الانتقال إلى تنفيذ الأمر، فقولوه.

فإذن: ﴿قُلْنَا﴾، تفسح مجالاً للطرف الآخر السامع الذي وُجّه القول له، وهذا يعني بأن الله كان يعلم ما في مكنونات إبليس من استكبار، ولذلك فسح له المجال ليعبّر عمّا لديه من خلال القول. فـ ﴿قُلْنَا﴾ - قبل فعل الأمر ﴿اسْجُدُوا﴾ - حتى تقولوا ما لديكم قبل تنفيذ فعل الأمر، ثم بعد ذلك نحن نقرّر أن ننقلكم إلى المرحلة الثانية ﴿اسْجُدُوا﴾، أو نحرمكم منها.

فهم يصغون جيداً إلى القول، ويقبلونه ويرضون به، ثم ينفذون أمر السجود لآدم الذي خلقناه وصوّرناه كأب وبداية لخَلق جديد.

﴿فَسَجَدُوا﴾ الملائكة جميعاً وقد انتقلوا إلى مرحلة تنفيذ الأمر، ﴿إِلَّا﴾ باستثناء ﴿إِبْلِيسَ﴾ أبى أن ينتقل من القول إلى فعل السجود ويقتدي بالملائكة ويكون مثلهم ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾، فقد رأى بأنه أكبر وأرفع شأناً من أن يكون ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ لهذا المخلوق الجديد الذي شاء الله وقدّر أن يخلقه. فقد اجتاز الملائكة مرحلة القول بالرضا والقبول، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ حيث آثر أن يبقى عند مرحلة القول.

[١٢]

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

﴿قَالَ﴾ تحويل متلقي الـ ﴿قَالَ﴾ من صيغة الجمع إلى صيغة المفرد، بصفته الوحيد الذي لبث عند القول.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى لإبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي شيء حال بينك وبين السجود لآدم.

وتتجلّى هنا عظمة الله، رغم أنه يعلم ما الذي حال بينه وبين ذلك، لكن حتى يترك له المجال للتعبير عمّا اختلجه: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ والقول دقيق جداً أي ثمة ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ ونحن نعلم ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ لكن رغم ذلك قله، بل نجعل ذرية هذا المخلوق كلها تسمعك.

عندئذ ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي إنك تنزل من شأني عندما تطلب مني أن أسجد لِمَن هو دوني.

الكلمة الأولى من الإجابة تشير إلى تضخّم الـ ﴿أَنَا۠﴾ لديه، فـ ﴿أَنَا۠﴾ بكل ما ﴿أَنَا۠﴾ فيه ﴿خَيْرٌ﴾ أرفع شأناً وأعلى قدراً ﴿مِّنْهُ﴾.

وكلمة ﴿مِّنْهُ﴾ جاءت تصغيراً للشأن، بمقدار ما جاءت الـ ﴿أَنَا۠﴾ تضخيماً للأنانية الإبليسية فـ ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ من هذا المخلوق الجديد الذي خلقته، وهو أدنى مني.

والسجود له دلالاته، وكان يمكن لله عز وجل أن يأمر بشيء غير السجود، لكنها حكمة الله في هذا الطلب بالذات، وممّا يشير إليه ذلك أن للإنسان منزلته الرفيعة عند الله تعالى، وأن الملائكة سوف يتلقون أوامر أخرى، ويُكَلّفون بتكاليف إلهية بشأن الإنسان، ومن لحظة المنطَلَق يكون الأمر محسوماً، إمّا بالقبول، أو العصيان.

﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ثم يستأنَف القول عن السبب الذي جعله يعتقد بأنه ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أن الله خلقه ﴿مِن نَّارٍ﴾ وخلق الإنسان ﴿مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

إذن، نحن أمام نزعة الاستكبار، وما يمكن أن يتفرّع عن هذه النزعة، فإبليس يعلم بأن الله تعالى هو الذي رفع له شأنه، وهو الذي خلقه ﴿مِن نَّارٍ﴾ وكان يمكن أن يخلقه من مادة أخرى، أو لا يخلقه قط، فتضعك الآية أمام تركيبة عُقدة الاستكبار، وما يمكن أن تفعل بِمَن يتبعها.

وهنا يمكنك أن ترى مظاهر مفرزات الاستكبار لدى مختلف شرائح الناس في كل زمان ومكان، فقد ترى حاكماً يتشبّث بكرسي الحُكم، وتَتَعزّز في كوامنه مشاعر بأنّه مميّز عن سائر الناس، وأنّه أرفع شأناً من الجميع، ولا أحد البتة يصلح أن يقتعد كرسي الحكم غيره، لذلك لا يتوانى عن تصفية أي شخص يقدم على محاولة اقتعاد ذاك الكرسي، كونه يتحوَّل إلى عدوٍ لدودٍ له.

فهو إمّا أن يبقى جالساً على ذاك الكرسي، أو لا يكون، واستناداً إلى هذا المفهوم، يكون مستعدّاً أن يسحق ملايين الناس من أبناء شعبه، وأن يحرق مدناً بأكملها في دولته، وكل ذلك يهون عليه على ألّا يرى غيره يجلس على ذاك الكرسي، وهو حي يُرزَق.

وهذا لا يقتصر على الحاكم، بل يأتي إلى أي مسؤول وفق تفاوت درجات المسؤولية، وشتى ما يمكن للمرء أن يفعله في سبيل أن يحافظ على منصبه الذي يشغله.

وترى أشكال الناس الذين يبطرون، ويتعالون على الناس، فيقول أحدهم بأنه ابن فلان ابن فلان، من منظور استعلائي، وترى أحدهم ينفش نفسه، ويمشي متبختراً لأنه يملك مالاً، أو نفوذاً، وإن جلس خلف كرسيه، ودخل عليه صاحب حاجة، لا ينهض احتراماً لدخول إنسان عليه، ولا يردّ عليه السلام، بل قد ينظر إليه بازدراء لأنه تجرّأ وألقى عليه السلام، فعليه أن يلزم حدّه، ويعلم بأنه في حضرة مَن هو أرفع منه شأناً، فيقف خائفاً متوسلاً خاضعاً خافضاً الصوت وهو يطلب حاجته.

فالاستكبار يضخّم لديه عقدة الـ ﴿أَنَا۠﴾ الإبليسية ويحول بينه وبين أن يكون طبيعياً، فيذكر بأن الله قد مَنّ عليه ووضعه في هذا الموضع، وفَضّل عليه بأن أوكله على قضاء حاجات الناس.

وهذه هي الحقيقة، لكنه يبطر كما بطر إبليس، ويرى بأنه أكبر شأناً من النهوض لشخص من عامة الناس دخل عليه، أو مصافحته، أو حتى الردّ على سلامه بالمثل، أو بما هو أقل، لأنه يرى أن ذلك ينال من قيمته وشأنه، ويجعله في شيء من

المساواة مع ذاك الشخص، ولسان حاله يقول: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وضعني الله في هذه المرتبة الرفيعة، ووضعه في تلك.

فيكون قد حَكَم بأنه ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، فتكون نهايته شبيهة بالنهاية الإبليسية، حيث ينتهي إلى الذل والهوان والخزي.

فترى الناس يشعرون بالفَرَج والغبطة وهم يرون ذاك المتكبّر قد أزاحه الله تعالى عن ذاك الموقع الذي كان يتحكّم بالناس من خلاله ويستكبر عليهم، وكان مصدر هَم وكَرب لهم، فنفّس الله عنهم ذاك الهَم، وفرّج عن ذاك الكرب، وجعل ذاك المتغطرس ينتهي نهاية مذلة.

فاعلم أن ذلك مردّه إلى الاستكبار، وما تعلّمك إياه الآية الكريمة، هو توخّي الحذر من أي شكل، أو أي درجة من درجات الاستكبار، لأنه قد يبدأ صغيراً كشرارة النار، فتتسع رقعتها شيئاً فشيئاً حتى تأكل الأخضر واليابس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ"(١).

عندما يضطر المؤمن إلى قول (أنا) فإنه يعقب ذلك بـ: (أعوذ بالله من كلمة أنا)

---

(١) صحيح مسلم.

ويعني بذلك الـ ﴿أَنَا﴾ الإبليسية. ولذلك يُستَحسَن ألّا يُكثر المرء من الأنا، إلا في حالات الضرورة، لأن الإكثار من قول (أنا)، من علامات الأنانية، وهذه الأنانية تبدأ صغيرة، حتى تتضخّم وتُصبح من أشكال الأنانية الإبليسية، فيصبح المرء عنيداً، متكبراً، متعجرفاً.

فكم من شخص قدّم عملاً صالحاً خفية، وهو يتحاشى أن يقول: (أنا)، فإن كان مجهولاً عند الناس، فهو معلوم عند الله، وما يهم المؤمن بالدرجة الأولى أن يكون عمله معلوماً عند الله، لأنه يبتغي من خلال عمله الصالح، وجه الله تعالى.

وكم من فاعل خير مجهول يدعو الناس له بالخير لأنه أعانهم دون أن يُعلن شخصيته، وإن كان من حق الإنسان أن يُعلن بأنه فاعل الخير، ولا شيء في ذلك إذا كان عمله خالصاً لوجه الله، ولكن يُخشى في حال التكرار والإكثار، أن يتسرّب إليه شيء من الأنانية الإبليسية، فيُستَحسَن أن يخفي الإنسان بعض ما يقوم به من أعمال الخير وقاية من تسرّب كهذا، لأن إبليس يترصّد كل بادرة من الإنسان يمكنه أن ينفذ إليه من خلالها.

وهو من خلال ذلك يريد أن يثبت لله بأن هذا الإنسان لم يكن أهلاً ليسجد له، فيدفع به إلى كل ما هو منحَط ودنيء وقميء، ولكن الله يرفع من شأن الإنسان بشكل عام، والإنسان يثبت لله بأنه أهل للعناية الإلهية الكريمة.

أمّا مَن يَتّبع إبليس، فتلك مسألة فردية، وليست إنسانية عامة، فإن إبليس يضع الحِبال في أعناق متّبعية، ويقودهم إلى كل ما هو منحط ودنيء وقميء، ولا يُشفى غليله حتى يهين كل خصلة إنسانية حميدة فيهم، وهم يستجيبون، حتى يتجرّدون من كل ما هو إنساني فيهم، ويتحولون إلى كائنات قميئة لا تُحتَمل، ولا تنتمي إلى القِيَم الإنسانية بصلة، فيحققون لإبليس مراده منهم حتى اللحظات الأخيرة من حياتهم، فينتهون نهايات مأساوية مروعة.

فاعلم أن لا شيء يحدّ من نزعة الاستكبار في القلب بقدر التواضع، وأن تكون منحنياً لخدمة الناس، وبقدر ما تكون منحنياً لخدمة الناس، يرفع الله من منزلتك

عنده. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ"(١).

فعليك أن تعي بأن للناس عليك أكثر مِمّا لك عليهم، وأن الله يعزّك على قدر ما تمشي في حوائج الناس، وأن الله يصلح لك شأنك على قدر ما تمشي في إصلاح شؤون غيرك.

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"(٢). وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ. وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ. وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ. وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"(٣).

واعلم أن الأمر الذي لا يقل أهمية وحذراً عن ذلك هو تقييمك للآخرين وتعاملك معهم من قاعدة هذا التقييم، فلا يكون ذلك من خلال المظاهر، أو الغِنى، أو الوجاهة، بل من خلال التقوى والورع.

فعندما تعطي شخصاً ما، وزناً لا يستحقه، فإنك تشجّعه على الاستعلاء، وأول ما يستعلي، عليك، لأنك أو همته بما ليس له، لكنك عندما تعطي شخصاً تقياً وورعاً الوزن الذي يستحقه، فإنك تشجعه على المزيد، وتبارك له ما هو فيه، فيتواضع أكثر، وأول ما يتواضع، معك لأنك بيّنتَ له بأنك عرفتَ قيمته.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٣) رواه مسلم في صحيحه.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ". وَقَالَ: "اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ١٠٥﴾"(١) [الكهف: ١٠٥]". وعن مناقب عبد الله بن مسعود يقول عليه الصلاة والسلام: "أَتَعْجَبُونَ مِنْ دِقَّة ساقَيْهِ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ أُحُدٍ"(٢).

فالمنزلة عند الله تعالى لا تكون بالمظاهر والهيئات، بل بما يكون الإنسان عليه من تقوى، فالرجل السمين هو بثقل جسده أثقل من عبد الله بن مسعود الذي كان ضعيف البنية كما في ظاهر حديث النبي صلى الله عليه وسلم، لكنه ثقيل بجسده، خفيف بعمله، وعبد الله بن مسعود، خفيف بجسده، ثقيل بعمله.

فانظر إلى تضخّم الأنانية التي جعلته يجزم بأنه ﴿خَيْرٌ﴾ من الإنسان، وهذه مسألة غاية في الأهمية، فقد بلغت به الأنانية إلى مرحلة الحَسم النهائي وهو يخاطب رب العالمين مبرّراً عصيانه بالاستناد إلى تضخّم أناه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ١٢﴾.

وبطبيعة الحال، لم يكن إبليس ليعلم أن الله قد خلقه ﴿مِن نَّارٍ﴾ وخلق آدم ﴿مِن طِينٍ ١٢﴾، دون أن يُعلمه الله بذلك. وهنا مَكمَن عقدة الاستعلاء التي يتَبعها بعض الناس مع بعضهم البعض، فترى شخصاً تستفحل به نزعة الأنانية الإبليسية فيقول: أنا أبيض، وهو أسود، أنا ابن أمير، وهو عامل، أنا من الأعيان، وهو من سواد الناس، أنا جامعي، وهو أمّي، أنا غني، وهو فقير. وعلى هذا النحو تتضخّم لديه الأنا: أنا دون غيري، أنا أفضل من غيري، أنا أهم من غيري، فترى تكرار الأنا في حديثه بشكل منفر، واستناداً إلى كل تلك الفوارق، ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ودوماً ﴿خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ هي إعلاء من شأن الذات، وإنقاص من شأن الآخر، فترى هؤلاء يستهزؤون

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٢) رواه أحمد.

بالآخرين، فتتحوّل مجالسهم إلى مجالس استهزاء، وسخرية، واستصغار للآخرين، وذلك من قاعدة الامتلاء بالحقد والضغينة تجاه الأفاضل، فيشعر أحدهم بأن أي نجاح للآخرين، هو بمثابة فشل له، وأي حَط من شأنهم، إنما هو رفعة له، فينال بحديثه من مقامات الناس ما أمكنه ذلك، ويسيء إليهم، ويسعى إلى تشويههم وبث الشائعات فيهم، وهو بذلك يُغذّي نزعة أناه الإبليسية التي لا ترتوي، ولا تقف عند حد حتى تودي بصاحبها، كما أودت بإبليس إلى اللعنة والرجم. قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

أي إن النار خير من الطين، وبذلك فإن تكويني خير من تكوينه، كما أن لي الأسبقية في الخَلق: خلقتني أولاً ﴿مِن نَّارٍ﴾ ثم خلقته ثانياً ﴿مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾. واستناداً إلى ذلك، فأنا لا أتنازل من مقامي لأسجد له.

[١٣]

﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

ولأن حجته كانت باطلة، فقد خذله الله بعد أن أدلى بها، ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ من منزلتك عندنا ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ ليس ﴿لَكَ أَن﴾ تقرر الأفضلية و﴿تَتَكَبَّرَ﴾ في منزلتك التي وضعناك ﴿فِيهَا﴾.

﴿فَٱهْبِطْ﴾ جاءت الكلمة دقيقة بقدرما تحتاج إلى دقة في استيعابها وأخذ العِظة منها، فكم من حاكم مستكبر هبط من قمّة كرسيه، وأصبح بين ليلة وضحاها ذَليلاً، طَريداً، وكم من غني هبط من أوج غِناه بين ليلة وضحاها، وأصبح مديوناً مطارَداً. ﴿فَٱهْبِطْ﴾ والهبوط يكون من الأعلى إلى الأسفل سواء في المنزلة، أو في عين المكان. والهبوط عادة يأتي بغتة، فهو سقوط مادّي ومعنوي معاً، والذي يهبط، يُصاب في الصميم، لأنّه لم يعد قادراً على العودة إلى المكان والمكانة التي هبط منهما، فقد أُخرِجَ مِن المنزل والمنزلة التي كان فيهما عندما تضخّمت واستفحلت

به الأنا واستكبر، ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ الفاء هنا عاطفة تقريعية، و﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ جاءت تتويجاً لـ ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾.

جاءت كلمة الخروج عقب كلمة الهبوط، ذلك أنه قد هبط هبوطاً ذريعاً من منزلته عند الله تعالى أولاً، أي قد هبط معنوياً ولم يعد يتبوّأ المنزلة التي بوّأها الله تعالى له. ثم جاء الخروج المادّي ليتوّجه باللعنة، لأنّه ما عاد أهلاً لوجوده المادّي في ذاك المكان المقرّب من الله، بعد أن خسر وجوده المعنوي، ثم جعله الله ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾، في وجهَيه المادّي والمعنوي.

بعد ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾، وبعد ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ ﴿فَـ﴾ هذه المنزلة التي وضعناكها ﴿مَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. والصاغر هو الذليل الذي كان عزيزاً، فتلقى الذل والهوان بغتة بسبب تماديه في النعمة، والصاغر يخص المنزلة دون أن يخص السن، وبالنسبة للإنسان يمكن له أن يكون صاغراً مهما تقدّم في السن، ويمكن له أن يكون عزيزاً حتى لو كان صغير السن، فيجوز للإنسان أن يكون كبيراً في الرفعة حتى لو كان صغير السن، فيكون كبيراً في تسامحه، وتواضعه، وأخلاقه، وقيمه، وسلوكه، وقد لا يتمتع كبير السن بهذه الخِصال. ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ يا إبليس، قد جعلناك ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ وغير مسموح ﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾. فقد جاء الأمر تلو الأمر: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾، ﴿مَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾، ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾. لقد تم الحسم بعد أن أذن له الله تعالى أن يفصح عمّا كان يدور في خلده؛ والآية رغم قِصَرِها غنية بالمعاني، مكثّفة، غزيرة الدلالات، ويمكن لك أن تستنبط من كلماتها العظة تلو العظة. فكم من شخص أكرمه الله بنعمة الصحة والعافية، لكنه تمادى واستهلك طاقاته فيما يلحق الأذى بنفسه وبالآخرين، فهذه اللياقة البدنية التي متّعه الله فيها، استنفذها واستهلكها في الأهواء والمجون حتى بلغ مرحلة أن جعله الله تعالى ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ في صحته وعافيته، فهذا الذي كان يدبّ بخطواته على الأرض، لم يعد قادراً على الوقوف على قدميه، والمشي عدّة

خطوات لقضاء حاجة، وهذا الذي كان يقهقه ملء شدقيه وهو يستهزئ بالناس، ويصرخ بأعلى صوته في وجوه الناس، لم يعد قادراً على الحديث إلّا بنبرات خافتة تخرج من فَيه بالكاد، وهذا الذي كان يبطش بيديه وقدميه، فيؤذي الناس، والزرع، والحيوان، لم يعد قادراً على حمل كأس ماء، فقد خارت قواه، وأصبح يترجف كما كان يريد للناس أن يرتجفوا منه، سواء أكانوا من أبنائه، أو أقربائه، أو جواره، أو عمّاله، وما إلى ذلك. فقد طغى، وتطوّع في كتيبة الشيطان، وجعل من نفسه جنداً من جنوده، فغدا من شياطين الإنس الذين ألحقهم الله تعالى بركب إبليس وجعلهم ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾. فلا تستوي اليد التي تبني المساكن لتأوي الناس، باليد التي تهدّ المساكن على رؤوس سكّانها، واليد التي تزرع الزهور، باليد التي تزرع الألغام، واليد التي تقدّم الطعام للناس، باليد التي تحتكره وتتسبب في تجويعهم.

الباب التاسع: عداوة الشيطان للإنسان

[١٤]

﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾

لعل هذا المطلب يشير إلى أنّه لم يكن يتوقَع ذاك الردّ الحاسم الشديد من الله، ﴿ قَالَ ﴾ بعد أن صُعِقَ بأمر الله: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وإن تأمّلتَ الجملة سترى فيها حجم الغلّ، ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾، أي أمهلني حتى أنتقم من آدم وذريّته، فالإنسان هو الغاية من: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾. لأن علاقته مع الله كانت سليمة، كذلك مع الملائكة، ومع الجن، ولا نعلم أي علاقة غير سليمة له مع أي خلق من خلق الله قبل الإنسان.

ورغم علمه بأن المعصية بذاتها قد تسبّبت له بهذا العقاب الشديد الذي لم يكن يتوقعه، إلّا أنه لم يبرئ الإنسان، بل رأى بأنه السبب الذي جعله يعصى، واستناداً إلى ذلك بدأ ينصب عداءه للإنسان.

فإذن لن أدع الإنسان ما دام قد تسبّب لي بذلك، ولأنه أصبح ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ فقد تجرّد بذلك من النفع، ولـم يعد يملك سوى الأذى، لأن (كل إناء بما فيه ينضح) وهو لم يعد ينضح سوى بالذل والهوان والفسوق.

فكما أن العزيز يملك ما يعز به نفسه ويعز الآخرين، فالذليل يملك الذل الذي يذل به نفسه والآخرين، ولذلك لا يُرجى من الشيطان أي نفع، لأنه لا يملكه، وقد جرّدته لعنة الله من أي نفع، فهو يودي بتابعيه من ذل إلى ذل، ومن مهانة إلى مهانة، وأقصى ما يمكن أن يبلغه تابع الشيطان، هو أن يُصبح مثله ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ الذليلين المهانين.

[١٥]

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ١٥﴾

لقد أنظره الله تعالى بجملة مختصرة من ثلاث كلمات، والإنظار ليس مفتوحاً بحسب سؤال إبليس ﴿أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٤﴾، بل إلى وقت يعلمه الله: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٣٨﴾ [الحجر: ٣٧، ٣٨] كذلك ص ٨٠، ٨١، فهو إمهال له إلى يوم يعلمه الله تعالى لحكمته في ذلك.

[١٦]

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾

كما أنه لم يكن متوقعاً ردّ الله الشديد عليه، فلعلّه لم يكن متوقعاً استجابة الله لسؤاله بعد وقوع العقاب الصارم عليه. فبعد أن وثق بالجواب، ﴿قَالَ﴾ متمادياً: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾. يمكنك أن تستخلص من هاتين الكلمتين بأنه لم يكن له أن يعصى دون مشيئة الله، وأن الله سبحانه وتعالى لو شاء لَما أذن له أن يعصى، بل لَما أذن لفكرة العصيان أن تختلجه.

وهذا يُتيح لك أن تتعرّف على الله، ذلك أنك تقرأ كتاب الله الذي هو السبيل الأقوى لمعرفة الله، لأنّه يُخاطب عقلك، يُخاطب قلبك، يُخاطب حواسك. وهو يحتوي على تفسير ما تراه من مظاهر الحياة، وما تلمسه في نفسك، وفي الآخرين.

إنه يبث إليك علامات النضوج الكبرى، ويجعلك تكون متوازناً تعيش حالة تصالح متقدّمة مع نفسك.

﴿قَالَ﴾ إبليس بعد تلقي الإجابة: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾، ﴿فَبِ﴾ الغواية التي ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ بها: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لآدم وذريته ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾. أي لأتفرّغن ولأجعلن القعود ﴿لَهُمْ﴾ شغلي الشاغل حتى أحول بينهم وبين ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾.

عَنْ سَبْرَةَ بْنِ أَبِي فَاكِهٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ، فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ، فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ، فَجَاهَدَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ"(١).

وممّا تعلّمك إياه الآية هنا، أن العصيان لا يقترن بالجهل، بل المؤمن العارف بربه أيضاً قد تنزلق به قدماه إلى براثن الخطيئة، وإبليس لعنة الله عليه، من المؤمنين بالله، العارفين له، ورغم ذلك فقد أودى به الاستكبار إلى أودية المعصية، وأمسى رمزاً للشر، فلا تغرّنك مظاهر التديّن التي يتزيّا بها بعض الناس، ولا تغرّنك اللحى الطويلة، والعمامات الضخمة، والجبب الأنيقة، وكثرة الذهاب إلى المساجد، وما إلى ذلك من مظاهر تديّنية، فلعلّ ذاك الشخص يكنّ في نفسه غلاً عظيماً تجاه عباد

(١) رواه النسائي.

الله، ويثير فيهم انشقاقات كبرى، لعلّه عدو الله، وعدو الإنسان في الجوهر، ومؤمن بالله، ومحب للإنسان في المظهر، ولعلّه اتخذ من هذه المظاهر وسيلة للمعيشة، أو لمنزلة اجتماعية، أو لجاه عند السلطان، وهو شخص منتهك لمحارم الله إذا خلا بها.

عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا" قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا"(١).

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾. ثمة ثلاثة عناصر في هذا الشطر من الآية: ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ إبليس، ﴿لَهُمْ﴾ الإنسان، ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ طريق رضى الله.

﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾، لأكونن سَدّاً منيعاً أمامهم حتى أحيدهم عن اتّباع ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾. وفي ذلك بيان بأن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان على فطرة اتّباع صراطه ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾.

وفي الآية اعتراف من إبليس باستقامة صراط الله، ولولا ذلك لَما كان لقعوده أي معنى.

[١٧]

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧﴾

فهل سيلبث قاعداً على صراط الله ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾، لمجرّد القعود والتفرّج على الناس يمضون بجانبه؟ جاء حرف العطف بشكل ترتيبي في مبتدأ الآية التي يستأنف فيها قوله: ﴿ثُمَّ﴾ - بعد قعودي ﴿لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ - ﴿لَآتِيَنَّهُم﴾ هو الذي يأتيهم، وليس هم الذين يأتونه.

(١) رواه ابن ماجه.

وهذا يأتي على شياطين الإنس أيضاً الذين جنّدوا أنفسهم في كتيبة إبليس، فهم يذهبون إلى المستقيمين حيثما يكونون كي يحرّفوهم، لأن الإنسان المستقيم لا ينحرف من تلقاء نفسه، فلا بدّ من عوامل تؤدّي به إلى ذلك، وإبليس إن بقي في موضعه، لا أحد سيأتيه، وبالتالي سيلبث منعزلاً، ولكنّه يأتي إلى الناس في أماكن أعمالهم الصالحة كي يوسوس لهم، ويفسد عليهم ما هم به من صلاح من خلال الإغواء والاستدراج والتزيين، فاعلم بأن الاستدراجات الكبرى إلى أخطاء كبرى، تبدأ بوسوسة صغيرة، واستدراج صغير، وخطأ صغير، والعارف يتحكّم بالصغائر تلافياً من بلوغ الكبائر، لكن هذا لا يعني أن الذي يبلغ الكبائر يعجز أن يعود عنها، بل إن الله سبحانه وتعالى مكّن الإنسان من العودة إلى صراطه ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ مهما عظمت به الكبائر، ففي أي لحظة إن عزم على العودة والتوبة، فإنه يجد أبواب الرحمة والمغفرة مفتوحة له بالغاً ما بلغت ذنوبه وكبائره حتى لو كانت كزبد البحر.

إذن سيأتيهم إبليس لَعَنه الله ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾، وهنا تكمن نقطة الحذر، فرجل وامرأة يتوافقان ويتحابان وينويان الزواج، لكن إبليس يقعد لهما في صراط الزواج الشرعي، فيوسوس لهما ويزيّن لهما ما هو دون ذلك، وعندما يقع بينهما ما لا يجوز له أن يقع إلّا بإتمام عقد الزواج، يدفعان الثمن ويخسر أحدهما الآخر، وربما يكون ذلك سبباً لفشلهما لتكوين عائلة، فتشكّل تلك الخطيئة عقدة عند الرجل تجاه النساء، وعقدة عند المرأة تجاه الرجال، ولعلّ ذلك يجعلهما يستمرّان في الانحراف عن سويّة العلاقة التي جعلها الله تعالى شأنه، بين الرجل والمرأة.

وهنا مَكمَن الاختبار في قوّة الشخصية، أو هشاشتها سواء بالنسبة للرجل أو للمرأة، فإن كانت شخصيتهما قوية، سيستأنفان صراط الزواج الشرعي المستقيم، وإن اعترضهما الشيطان، سيستعيذان بالله منه ويكملان.

لكن إذا كانت شخصيتهما هشّة، سيستدرجهما الشيطان من خلال تلك الهشاشة حتى يوقعهما فيما لا تُحمَد عقباه. والأمر بالنسبة لسائر المستجدّات والعلاقات في

عِمارة الحياة، فيُصاب الإنسان بأزمات مالية، أو صحّية، أو اجتماعية، فيعتبر قوي الشخصيّة نفسه في حالة اختبار، ويصبر، في حين يستسلم هَش الشخصية ويتّخذ من ذلك ذريعة لمزيد من المعاصي، كما يتّخذ الأول ذلك ذريعة لمزيد من الطاعات.

والإنسان يدرّب نفسه على الصبر في سائر ما يلقاه، ولعلّي هنا أضرب مثلاً في كيفية تدريب النفس على الصبر من خلال موقف كان قد حصل مع علي بن أبي طالب، عندما جاءه ضيوف إلى بيته، فنادى خادمه كي يأتي ويقدّم لهم ضيافة، فلم يرد الخادم الذي كان في غرفة المدخل، ثم ناداه كرة أخرى فلم يرد، عندئذ نهض علي واتجه إليه، فرآه مستلقياً على ظهره عاقداً ساقاً على ساق، ويُغَنّي كما لو أن علياً لم يدخل! فقال له: يا غلام ألم تسمعني؟ فقال: بل سمعتك من أول مرة يا سيدي قال: ولِمَ لم تستجب؟!

قال، وهو ما يزال في وضعه: لأنني أمِنتُ غضبك.

عاد علي إلى ضيوفه وأخبرهم بما فعله الغلام، فاقترحوا عليه أن يصرفه ويستبدله بغلام آخر، فقال علي: لا. قالوا: لِمَ يا أمير المؤمنين قال: أتَعلّم عليه الصبر.

فالإنسان يحتاج أن يدرّب نفسه على الصبر، وكظم الغيظ ممَا يحيط به، وعليه أن يتخذ من ذلك الوسيلة، وكان بمقدور علي رضي الله عنه أن يصرف الخادم ويستبدله، لكنه أراد أن يختبر طاقات الصبر في نفسه من خلال هذا الخادم للصبر على ما هو أكبر.

لذلك يأتي الصبر لينظّم للإنسان سبيل مقومات الحياة، فيدرّب نفسه على الانسجام مع مختلف الظروف الحياتية التي تتبدّل عليه، تبدّل فصول السنة، فيحتمل أن يبرد، ويحتمل أن يعرق، يحتمل غبار العواصف، ويحتمل شوكة وردة الربيع.

لكن الذي يفتقد الصبر، ينهزم أمام أول امتحان، وقد رأينا ذلك لدى بعض أهل الثروة عند حلول بعض الأزمات الاقتصادية عليهم، حيث بدأنا نرى ألوانا من الانتحار لدى بعض الأباطرة، والأثرياء، وأن البعض بدأ يعلن إفلاسه، ثم يبيع حتى البيت الذي يسكنه بعد بيعه لِما كان يمتلك من عقارات، ومتاجر، وبضاعة، وبات لا

يجد حتى الأجرة الشهرية لبيت يسكنه، وليت الأمر انتهى إلى ذلك، بل بات يرزح تحت ثقل الديون المتراكمة عليه خلال تعرّضه للخسارة، حيث بات يتوارى عن الأنظار، ويتهرّب من الرد على الهواتف، بل ويختبئ في البيت عندما يطرق عليه الدائنون الباب، فلا يجسر على إظهار نفسه طالباً من أهله أن يقولوا بأنه ليس في البيت.

إذن، تحوّلت حياته من النجومية إلى الظلام، ومن النعيم إلى الجحيم، ومن العلاقات الاجتماعية، إلى العزلة، ومن استبدال سيارة كل ستة أشهر إلى المشي على القدمين في مسافات طويلة لدى الاضطرار للخروج، بيد أن ذلك لم يرق للبعض، فإذا نظرنا إلى سِيَر هؤلاء، نرى بأن (حساسيتهم) لم تظهر بسبب الأزمة التي أصابت عموم الناس، ولكن عندما دنا الأمر إلى أموالهم الشخصية، ظهرت حساسيتهم المفرطة بغتة، فأقدموا على الانتحار استنكارا لِما أصاب ممتلكاتهم، لأنهم لم يتخيلوا أن يعيشوا كبقية الفقراء من أبناء جلدتهم، بسبب ما في قلوبهم من استكبار واستعلاء، وإن نظرتَ إلى هؤلاء، سترى أسوأ أشكال الجشع في سِيَرهم، من ابتزاز، واحتكار، ونفاق، ورياء، ومكر، وتجاوز للقيم الانسانية، فكان من الطبيعي أن يقفوا إزاء الحقيقة المروعة، حقيقة بلوغ قمة النرجسية السلبية، فهم لم يعوّدوا أنفسهم على تذوّق متعة العطاء، بل عودوا أنفسهم على تذوّق متعة الأخذ فحسب.

لذلك فإن الثقافة تقوم بعملية تهذيب للثروة، فترى أهل النضج من الأثرياء يعيشون حالة انضباط وتوازن، ثم إنهم دوماً يتركون شيئاً من ثرواتهم للاحتياط كما أن لا وجود له، فإن طرأ طارئ، أغناهم هذا الاحتياط عن سؤال اللئيم، وحَفِظَ لهم ماءَ الوجه، بَيدَ أن الثروةَ مع الجهلِ تجعل من الثري أن لا يكتفي باستثمار جميع ما لديه من أموال فقط، بل يستدين ربما بقدر ما يملك كي يوسّع في استثماراته، لذلك عندما تأتي الخسارة، فإنها لا تحيله مفلساً فحسب، بل يرزح تحت وطأة الديون التي لن يتخيّل سدادها بأي شكل من الأشكال بعد الذي وقع معه، كونها أرقام مرعبة، ولذلك يَقدْم هذا الشخص على الانتحار، أو يستسلم لحالة انفعال تودي

بحياته، لأنه لا يستطيع أن يتحكّم بحالته النفسية، فهو لم يدرّب نفسه يوماً على الانسجام مع مختلف الأحوال.

فإذن نرى أن بعض هؤلاء لا يتعلّم الصبر حتى من الصيام، لأنه لا يطيق أن يجوع أياماً، فكيف يجوع وهو يمتلك كل هذه الخيرات، فتراه لا يصوم فقط حتى لا يجوع عدّة ساعات، ولا يتقصّد أن يبقى عدة أيام دون تدفئة في الشتاء، أو يتقصد أن يبقى هاتفه مفصولاً دون رصيد، بل تراه قبل أن ينفذ الوقود يأتي بحاجة سنتين قادمتين، وقبل أن ينتهي رصيد الهاتف، يأتي بأضعاف مضاعفة، ولا يحتمل شخصاً يخالفه الرأي، ولا يدرّب نفسه على كظم الغيظ عندما يواجه استفزازاً من شخص، وقس ذلك على سائر ألوان المعيشة وعندما يأتي الحديث عن القراءة، فهم يقولون بأنهم لا يمتلكون وقتاً للقراءة، والحقيقة فإنهم لا يؤمنون بجدوى القراءة، وأن القراءة تهذّب لهم سبيل حياة حرة كريمة، ممتلئة، فهؤلاء فقراء القراءة على قدر ما هم أغنياء المال، وعندما أزفت الآزفة، لم يجدوا القراءة التي تحصّنهم، القراءة التي لا تذهب هباء الريح، وتبقى وفية لصاحبها، عندما تذهب الثروة هباء الريح، ولا تكون وفية لصاحبها.

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾، أي مِمّا هم فيه حالاً، وهو الشيء الذي يكون بين يدَيك، وتكون قيد الانشغال به، فيأتي ذلك على العامل في عمله، والصانع في مصنعه، والتاجر في متجره، والمصلّي في صلاته، والمزكّي في زكاته، والحاج في حجه، والصائم في صيامه، والنائم في نومه، والمستيقظ في يقظته، والمتصدّق في صدقته، والزوجَين في عشرتهما الزوجية. فالشيطان يكون دائم السعي لينفذ إليك لحظة بلحظة، والمؤمن القوي يزداد ثباتاً على مبادئه وقِيَمه، كما أن المؤمن الواهن يزداد اضراباً وانحرافاً. والفراغ أيضاً يكون مِمّا ﴿بَيۡنِ﴾ يدَيك، فأحياناً لا يكون لديك شيء تفعله لأسباب ما، مثل حدوث أمر طارئ أدّى إلى توقّفك عن العمل، أو التقاعد، أو ما شابه، فتكون في حالة فراغ، فيستغل الشيطان ذلك لينفذ إلى ثنايا فراغك، ويبث الوساوس تلو الوساوس إليك حتى لا يدعك في صفاء فراغك، فلا تنهض إلّا وقد ثقل رأسك بأفكار لا معنى لها، فيكون الشيطان قد أرهقك، وعلى

هذا النحو، كلما استجبت له، بثّ إليك المزيد حتى تبلغ مرحلة متقدّمة من الشَتات الذهني، والاضطراب النفسي، فتهذي وتهلوس، وهذا ما يفضي بك إلى داء في عَصَب المخيّلة، فتمسي مخيّلتك عليلة، فتُصدر الهَذَيان، والهلوسات، والتكهّنات، فترى أقرب الناس يعبّرون عن استيائهم مِمّا ألتَ إليه، وأنّهم ما عادوا قادرين على احتمال ما يصدر عنك من تصرّفات وأقوال غير مسؤولة، بل حتى أنت يعتريك إحساس بأنك لم تعد قادراً على احتمال نفسك، فتستفحل بك الوساوس الشيطانية وتفتك بك.

وإلى جانب ذلك، فإن الإنسان المؤمن القوي السوي، يغتنم هذا الفراغ ليستمتع بكل لحظة من لحظاته، يحقق ساعات من الاسترخاء لبدنه، يصطحب عائلته إلى نزهات ورحلات، يرفّه نفسه ويرفّه عائلته، يستمع إلى أشياء نافعة، ويستمتع بالاستماع إليها، يمارس الرياضة، يضع لنفسه برنامجاً يغتنم فيه أوقات الفراغ، فترى عائلته تصبح أكثر قرباً وأكثر محبة له، وتراه مشرقاً حَيوياً.

ذلك أنه تجاوز كل وسوسة أراد الشيطان أن يبثّها إليه في فراغه، فلم تجسر إحداها أن تحرّك لديه ساكناً، لأنه يخبر أن الاستجابة إلى وسوسة واحدة، ستجرّ إليه أختها، وهكذا دواليك، فلا يأخذ شيئاً من ذلك على محمل الجد، ويمضي تاركاً الوساوس تتلاشى كما لو أنها خيوط دخان، فينفث فيها، فتتلاشى لأنه يدرك بأنه لو دنا منها واستنشقها، سوف يسعل، ومع التكرار، سوف يُصاب بالتهاب في مجاري التنفس، وما إلى ذلك ممّا يعكّر على المرء طيب الحياة وإشراقتها في النفس. وكلّما صَفَت مخيَلة هذا، تعكّرت مخيلة ذاك، كلّما استكانت نفس هذا، اضطرَبَت نفس ذاك، كلّما أشرَقَت الحياة في هذا، أظلَمَت في ذاك، كلّما اتَسَعَت الأرض بهذا، ضاقَت بذاك. ومن تفرّعات ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، النوم أيضاً، فالشيطان ينفذ إليك حتى في نومك، فأنتَ الآن نائم، لكنه لا يدعك في نومك فينفذ إليك في نومك، فيريك أحلاماً إبليسية، يمكن لها أن تكون سبباً إلى ما يجلب عليك الكوارث إذا اتبعتها عند الاستيقاظ، فعندما تستيقظ، يسعى الشيطان إلى تذكيرك بها، لتبني عليها التكهّنات والظنون. فاعلم أن ذلك كله يكون للشخص الضعيف في بنيته الإيمانية،

في بنيته الثقافية، في بنيته المعرفية. فيجوز تقوية ذلك بالإكثار من الاستعاذة، والاستغفار، والطاعة، والإقبال على القراءة الغنيّة المتنوعة، فتقرأ القرآن، والحديث، وقصص الأنبياء، وكتب التفسير، وسِيَر الصالحين، والفقه، والآداب الإنسانية، وكل ما يمكن أن يزيد شخصيتك قوة، ويزيدك نضجاً وانفتاحاً واستنارة ومعرفة. فيمكنك اختيار ما تقرأ بعناية، لأن القراءة غير المنتقاة بحسب ما يتناسب مع تركيبتك، ستبعث إليك المَلل، فلا تجسر على تكملة القراءة، لأن الكتاب الذي اخترته، لا يتناسب مع بنيتك الذوقية؛ فإن رأيتَ حاجتك إلى فهم بعض المعاني في القرآن، يمكن أن تختار التفسير الأقرب إليك، الذي تراك تتفاعل وتنسجم مع محتواه، فتستكمل بتشويق، وأنت تتزوّد منه بمعارف لم تكن تعلمها من قبل في القرآن، فالتفسير هو عملية تيسير لفهم القرآن واستيعابه، فيكون دليلاً إلى فهم معاني القرآن والتزوّد بنوره وهداه.

والإنسان لا يقرأ التفسير إلّا إذا وجد حاجته إلى استيعاب بعض المعاني التي يجهلها فيما يقرأ من آيات، فيستعين بالمفسّر الذي يستخرج له المعاني من ثنايا حروف الكلمات، فيرتقي قارئ القرآن من قارئ لظاهر الكلمات، إلى مستوعب لجوهرها، ومتدبّر لمعانيها، وهذا ما يحيل القراءة بالنسبة إليه إلى سلوك وعَمَل، فعندما يجهل معنى آية، فعليه أن يسأل، لأن القراءة بذاتها ليست الهدف من القرآن، بل الفهم مِمّا يقرأ.

ولذلك نرى أن المشتغل في علوم القرآن عليه أن يكون مواكباً للمنجز البشري في شتى الميادين، ومن مختلف العصور، فيكون قارئاً ماهراً لأجناس العلوم والآداب والفنون والمعارف، وما إلى ذلك من مصادر الثقافة البشرية؛ لأن ذلك يكون معيناً له في فهم تركيبة النفس البشرية التي يخاطبها القرآن، فعليه أن يتذوّق القراءة، ويستمتع بها، ويستأنس بها، ويمضي ساعات طويلة في قراءة الكتب، ويجمع دوماً ما بين التراث والمعاصرة، فيكون مواكباً للجديد، ويكون منفتحاً على أشكال الفنون، والتقنيات الحديثة، وكما أنه يمضي في الأسواق المزدحمة بالناس، يمضي في حضن الطبيعة، وكما أنه يصعد الحافلات، يصعد الطائرات، وكما أنه

يصعد الطائرات، يصعد المراكب البحرية، وكما أنه يمضي في القرى النائية، يمضي في العواصم الكبرى، عليه أن يستخدم حتى تقنيات المطبخ الحديثة في مطبخ بيته، يستخدم تقنيات التواصل الاجتماعي بنفسه، فيعيش تفاصيل منجزات عصره ويحتك بها ويتفاعل معها؛ ولا يكتفي أن يقود سيارة، أو يأخذه السائق إلى حيث يشاء، بل عليه أن يقود الدراجة النارية، والهوائية في الأسواق، عليه أن يركب الخيل والجمل والحمار في أماكن مناسبة لذلك، عليه أن يجلس على الموائد العامرة، كما يجلس على الموائد المتواضعة، وتكون صداقاته وعلاقاته الاجتماعية مع مختلف شرائح ومستويات الناس، فيدعوهم إلى زيارته، ويستجيب لدعواتهم، ولعلّ التقصير في هذا التواصل الحي مع صميم تفاصيل الواقع يؤدّي به إلى شيء من تكرار ما قد قيل، فهو لم يقرأ سوى ما قد قيل منذ مئات السنين، ويجهل التعامل مع تقنيات عصره، ولعلّ المرء يرثى لحال مثل هذا الشخص عند اللقاء به، كونه يعيش خارج عصره، ولا تشم منه رائحة العصر الذي يعيشه، فهو قليل المطالعة، مكتبته تراثية بامتياز، منعزل، لا يعلم شيئاً عن التقنيات المنزلية الحديثة، ولعلّه يفشل في سلق بيضة، ويمكن أن يكون لديه برنامج أسبوعي يظهر فيه في الأسبوع نصف ساعة في قناة ما، ويكون التسجيل أيضاً في بيته حتى لا يخرج منه، فيعيش حالة من البرود الروحي، والجمود الفكري حتى ترى علامات اليأس بادية على سحنته، فحتى البسمة لا تليق به لأنها تصرخ في وجهه وتقول بأنها مصطَنَعة وليست حقيقية، وكلّما كثرت أعداد هؤلاء، أسهموا في عملية تراجع المجتمع إلى الوراء، وجعل شرذمة بين الناس وبين الإسلام، فيعطون صورة سلبية عن الإسلام كما لو أن القرآن كان يخاطب زمناً ما ضياً، ولا مكان له في منجزات الحاضر. لذلك فإن التواصل مع مستجدّات العصر يُعدّ من الضرورات الأساسية للمنشغل في علوم القرآن.

فمن الطبيعي أن تكون أفكاره خارجة عن عصره، وبالتالي لا تخاطب أبناء عصره، بل تخاطب أناساً من الماضي لا علم لهم بكل أشكال وألوان الحداثة التي يعيشها الناس في العصر الراهن.

﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾. يجوز أن يكون الخلف هو العمل المُنجَز سابقاً، فحتى ما خَيَّبتَ قعود الشيطان لك به، وما أنجزته من أعمال صالحة، فإنه يبقى ساعياً بخيبته لتشكيكك فيها، فيبث فيك الشك نحوها، كما يبثّه في العمل الذي هو بين يدَيك وأنت مُباشر فيه الآن، لأن ما مضى هو تأسيس لِما هو الآن، وأنت تستمدّ ثباتك الآن من جدوى ما قمتَ به من قبل، فأنتَ مستكمل للمضيء على الصراط المستقيم، وكل خطوة تخطوها في هذا الصراط، تترك فيها صلاحاً، فإن نظرتَ خلفك، رأيتَ بساتيناً من زهو وأشجار الصلاح التي قدّمتها في طريقك نحو ربك، كما أن الماضي على صراط الانحراف، يكون قد ترك خلفه أودية من أشواك الفساد، فمجرّد الشك يجعله يعدل عن انحرافه، ويتّجه من الصراط الملتوي إلى الصراط ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾، كما أن مجرّد الشك يجعلك تنحرف عن الصراط ﴿ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾، وتتبع الصراط الملتوي، فيلبث الشيطان يوسوس للصالح بأن كل ما فعله من صلاح لم ينفعه بشيء، وأن بقاءه على الاستقامة كمَن يسبح ضد التيّار، في حين أن الذين يتّبعون المنحرفات، يجنون منافع كثيرة، وما شابه من وساوس من شأنها أن تشكك الصالح في ماضيه، فتجعله يتبرّأ منه ويمضي في ركب العصاة. وقد يستجيب بعض الناس لمثل هذه التداعيات الشيطانية، فتراهم ينقلبون إلى الضد، بين ليلة وضحاها، ويتحوّلون إلى فَسَقة بعد تاريخ من العفاف. لذلك فإن العزلة غير محمودة، وأهل الصلاح يتلاقون مع بعضهم البعض، ويؤازرون بعضهم البعض، ويتكاتفون مع بعضهم البعض، وإن بدا سلوك مريب من أحدهم، لا يتخلّون عنه، ويسعون إلى إصلاحه، لأن هناك مَن ينتظر ليستدرجه إلى المزيد، وإن حلّت محنة على أحدهم، يتعاونون في مساعدته. عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ

وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"(١).

عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"(٢).

فالمؤمن الحق الذي يريد لنفسه الخير، يريده للناس جميعاً، لأن الإيمان الحق ينزع الأنانية من نفس المؤمن. عَنْ أَبِي مُوسَى رَضي الله عَنه قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا"(٣).

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ﴾. الذين يعملون ﴿عَن﴾ شمالك فيشكّك في أعمالهم الصالحة التي يقدّمونها، والشيطان يرمي من ذلك بث مشاعر اللاثقة بين الناس، وإشاعة مظاهر التشكيك فيهم، فحتى الذي يصنع بك معروفاً، يقذف الشيطان إليك وسوسة لتسيء الظن بصَنيعه الذي صنعه معك، وحتى الذي تصنع معه معروفاً، يقذف الشيطان إليه وسوسة ليسيء الظن بصَنيعك الذي صنعته معه. فتنبّهك الآية الكريمة إلى أهمية سلوك حسن الظن في حياتك، وأن تلتمس للآخرين أعذاراً مهما رأيتَ فيهم مِن مؤاخَذات، وألّا تجحد ما صنعه الآخرون معك من معروف، وأن تقرّ لهم بهذا الحق وهذا الفضل حتى لو بينك وبين نفسك.

فهو معروف له عند الله، وسوء ظنّك لا ينال شيئاً من ذاك المعروف، لكنك تثبت بأنك لستَ أهلاً لتحسن الظن بذاك المعروف الذي ساقه الله لك عن طريق ذاك الشخص، فيعاقبك الله عقاب تأديب وتحذير بما يشاء من ضيق يد، أو سقام، أو حرمان من مزايا اجتماعية، ذلك حتى تكون حريصاً على مالك، على صحتك، على زوجك، على أبنائك، على أقربائك، على جوارك، على صداقاتك، على مهنتك، على سوية علاقاتك الاجتماعية، فاعلم أن حسن الظن من علامات تقوية الإيمان،

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

(٣) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

وأن سوء الظن من علامات اتّباع الشيطان، وأن حسن الظن انفتاح، وسوء الظن انغلاق، وأن حسن الظن صَفاء، وسوء الظن شَتات، وأن حسن الظن يجعل منك حَسَناً، وسوء الظن يجعل منك سيئاً. قال: ﴿مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾. ولم يقل (من فوقهم). وذلك أمر غاية في الأهميّة يمكنك أن تستنتج منه بأن الذي تكون علاقته بالله قوية، يعجز الشيطان أن يحول بينه وبين صلب هذه العلاقة: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: ٤٠]، [ص: ٨٣]. كما أنه لا يستطيع أن يحول بين الإنسان وبين رحمة الله التي تأتيه من فوق، أو بين أن ترتفع الأعمال الصالحة إلى السماء، فالعلاقة بين العبد المخلص، وربه، هي علاقة نقية صفية، لا يقوى الشيطان عليها، كما أنه لا يقوى على منع نزول رحمة الله إلى الإنسان بصفة عامة. قال في نهاية الآية: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾. بعد أن أفعل بهم ما أفعل، وأوقع بهم ما أوقع. وهذا يقع بالفعل، لكن يبقى الاستثناء، ومن ذلك: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

عن ابْن عُمَرَ، قال: (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ، حِينَ يُمْسِي، وَحِينَ يُصْبِحُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي")[١]. عَنْ أَبِي رَاشِدٍ الْحُبْرَانِيِّ قَالَ: (أَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، فَقُلْتُ لَهُ: حَدِّثْنَا مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَلْقَى بَيْنَ يَدَيَّ صَحِيفَةً، فَقَالَ: هَذَا مَا كَتَبَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَنَظَرْتُ فِيهَا فَإِذَا فِيهَا: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَالَ يَا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْنِي مَا

---

(١) رواه أبو داود.

أَقُولُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ، قُلْ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ")[١]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَصْبَحَ: "اللهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ النُّشُورُ". وَإِذَا أَمْسَى قَالَ: "اللَّهُمَّ بِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ نَحْيَا، وَبِكَ نَمُوتُ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ")[٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ"[٣]. وَعَن أَنَس بْن مَالِكٍ، قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِفَاطِمَةَ: "مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ، أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ"[٤]. وَعَن ابنِ مسعود قَالَ: (كَانَ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا أَمْسَى قَالَ: "أَمْسَيْنَا وَأَمْسَى الْمُلْكُ لِلهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَخَيْرَ مَا بَعْدَهَا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهَا، رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَسُوءِ الْكِبَرِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ".

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

(٢) رواه الترمذي والنسائي.

(٣) صحيح البخاري.

(٤) رواه النسائي.

وَإِذَا أَصْبَحَ قَالَ ذَلِكَ أَيْضاً: "أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ")(١). وَعَنْ عُثمان بن عَفان رَضي الله عَنه قال: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلَاثُ مَرَّاتٍ، لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلَاءٍ حَتَّى يُمْسِيَ")(٢). وَعَنْ جُوَيْرِيَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ، وَهِيَ فِي مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى، وَهِيَ جَالِسَةٌ، فَقَالَ: "مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا"؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّات، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ"(٣).

[١٨]

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

وهنا قد يتبادر سؤال إلى الذهن، فإن كان إبليس من الجن، فما الذي جعله يعيش في الجنة مع الملائكة، بل إنه يُصبح من الملائكة: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، فإن لم يكن إبليس من الملائكة، ما شمله القَول، و﴿إِلَّا﴾ التي استثنته من الاستجابة، أثبتت بأنه من الملائكة، ولو أنه استجاب، لكان ذلك استجابة لكونه من الملائكة الذين وُجّه إليهم القَول.

ف ﴿إِلَّا﴾ استثنَته مِن عموم الذين توجّه القول إليهم، واستجابوا، ثم إن الملائكة خلقهم الله من نور، وإبليس خلقه الله من نار كما خلق سائر الجن، فكيف يكون جنّياً وبذات الوقت ملاكاً؟! والجن يأكلون ويشربون وينامون ويتزوجون ويموتون، كما الأمر بالنسبة للإنسان، وطبيعة خَلق الملائكة تختلف عن ذلك.

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) صحيح مسلم.

فيُحتَمَل - والله أعلم - أن الله سبحانه وتعالى قد رفعه إلى السماء لأنه كان كثير الصلاح والعبادة، فأكرمه وجعله (مع) الملائكة يقوم بما يقومون به، ولكنه لم يكن من أصل الملائكة، بل ﴿كَانَ مِنَ﴾ أصل ﴿ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠].

وعملية الرفع إلى الجنة أعطَته مزايا جديدة لا يتمتّع بها سوى الملائكة، وبذات الوقت، جَنّبَته ما يصيب عموم الجن. وهي مسألة شبيهة بشخص من إحدى بلاد الشرق، ذهب ليعيش في إحدى بلاد الغرب، فأكرمه ذاك البلد بأن منحه جنسيّته، فبمقتضى حصوله على جنسية ذاك البلد، يكون له ما لهم، وعليه ما عليهم مثل سائر مواطني ذاك البلد، كونه بات يتمتّع بالجنسية التي يتمتّع بها مواطنو البلد جميعاً. لكنها في ذات الوقت جنسية مُكتَسَبة، وليست أصلية، لأنّه ينتمي إلى أصل آخر مختلف عن سكّان البلد الأصليين. فصفة المَلَاك هي صفة مكتسبة، وليسَت أصلية بالنسبة لإبليس الذي ينتمي إلى جذور جنّية، وينحدر منها، فعندما عصى، أعاده الله إلى أصله السابق، وهذا بمثابة إسقاط تلك الصفة التكريمية عنه، التي كان يتمتّع بها قبل العصيان، أي قبل وقوع فعل ﴿إِلَّآ﴾ الاستثنائية، فقبل ذلك: ﴿قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، وإبليس من ضمن الملائكة الذين جاء عليهم القول، لكنّه عندما انحَرَف عَمّا أكرمه الله به، واستكبَر، ولم يقدّر المنزلة التي بوأه الله بها، جاءت ﴿إِلَّآ﴾ الإلهية القاصمة لتُعيده إلى أصله، واعتباراً من ذلك لم يعد إبليس مشمولاً بأي أمرٍ يوجّهه الله إلى عموم الملائكة، فقد أهبطه الله من تلك المنزلة التكريمية، كما أخرجه من الجنة ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، لكونه أثبت بأنّه ليس أهلاً لها.

والأمر يكون شبيهاً بالنسبة لذاك الشخص الذي كَرّمه البَلَد ومنحه جنسيته، وجعله يتمتّع بالحقوق التي يتمتع بها مواطنوه الأصلاء، بَيدَ أنّه خالَفَ الأوامر، ولم يقم بواجباته نَظير تلك الحقوق التي أُعطيَت له، فيُسقِط ذاك البلد جنسيّته عنه، كما الأمر بالنسبة لـ ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾، أولاً، ثم تطرده من أراضيها ثانياً كما الأمر بالنسبة لـ ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾. فقد عاد إبليس إلى موطنه الأصلي الذي هو الأرض، وإلى جنسه الأصلي الذي هو الجن، ولكنّه عاد ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ﴾، عليه لعنة الله. وطبيعي أنه

أدرك بأنه سيعود إلى ما عليه بنو جلدته من الجن فيموت، لكنه استغل الموقف وطلب من الله أن ينظره: ﴿أَنظِرْنِي﴾، لا تمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾. فيعطيه الله سؤله، ولعلّ ذلك من باب طاعته السابقة، وأيضاً في الإنظار فسحة له للندم رغم كل ما حلّ به، ولا نعلم أن هناك مانعاً كان يحول بينه وبين الندم، فيكون قد عصى الله في السماء، وقد تلقّى عِقابه، وفي الأرض اتعظ من ذلك وندم وتواضع، وعاد كما كان في سابق عهده في الأرض من العابدين بعد تلك التجربة التي مرّ بها، ولعلّه كان سيموت مثله مثل سائر الجن، وأن الله غفور رحيم بِمَن يشاء من عباده، ولكنّه عَنيد، بل شديد العِناد، ومتكبّر، وشديد التكبّر، فبدل أن يغتنم استجابة الله تعالى له بالندم وطلب العفو، تمادى و﴿قَالَ﴾ مفصحاً عن غلّه تجاه الإنسان: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾، كذلك ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾. لذلك نرى أنه مع تصاعده في التمادي، يُصعّد الله عليه العِقاب، ففي البدء ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾. ولكن الآن وقد تمادى في العصيان، وأنه سيفعل ما يفعل بالإنسان، ولعلّ في كلامه ما يشبه أنه عرف مدى منزلة الإنسان عند الله، فلعلّ الله ومن باب هذه المنزلة، يخفف عنه كي يجنّب الإنسان أذاه، فتبيّن الآية الكريمة أن المنزلة تكون بموجب الطاعة، فمهما كان الإنسان مقرّباً من الله، فإن المعصية من شأنها أن تبعده عن الله، والمعصية هي التي أبعدت إبليس عن الله سبحانه وتعالى، فجاء قول الله مبيّناً هذه الحقيقة: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ بعد أن أذنّا لك أن تفضي بِما لديك.

المذؤوم هو الممقوت، أي أصبح بفعله هذا ممقوتاً، ومذؤوم مِن ذأمه، بمعنى عابه وذمه، والمدحور من الدَحر، أي الإبعاد والإقصاء، فهناك خروج تكريم، وهناك خروج طَرد، وليس كل خارج من موضع يكون مطروداً منه، وخروج إبليس هو خروج ذَم وطَرد.

ولعلّ هذا الردّ الصارم أيضاً لم يكن يتوقّعه إبليس، حيث تم طَرده مِن المَلأ الأعلى، ولكن الردّ جاء موازياً لحجم اللؤم الذي أظهره إبليس، وهذا يجلو في

وعيده بالإنسان، لعلّ الله يعفو عنه عصيانه، ويستثنيه من السجود، لِما لهذا الإنسان من منزلة عند الله، وقد تجلّى ذلك لإبليس عندما طلب الله من الملائكة جميعاً السجود لآدم، وإن كان ذلك - والله أعلم - فإن الله تعالى قد خيّب ظنه، ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾. جملة متناغمة متناسقة، تتكامل كلماتها مع بعضها البعض ﴿لَّمَن﴾ مِن ذرية آدم كائناً مَن كان ﴿تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ وعصاني ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، والملئ هنا جواب على قول إبليس ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾. أي هناك متسع في ﴿جَهَنَّمَ﴾ لكل مَن يعصاني ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

ثم اختتمت الآية الكريمة بـ ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾. فجمعت أهل العصيان من الإنس والجن مع بعضهم البعض، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧]. فلا تحسبن يا إبليس، ولا يحسبن أتباعك بأن جهنم ستضيق بالعصاة، بل فيها متسع لكل ما هو مزيد.

فهي رسالة للإنسان أيضاً بأنّه يكون عزيزاً عند الله بقدر طاعته وعبادته وتواضعه، ويكون ذليلاً عند الله بقدر عصيانه ومجونه واستكباره.

الباب العاشر: خطيئة الإنسان ومغفرة الله

[١٩]

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

كمنت كل الأحداث المذكورة في الآيات السابقة بين ﴿وَيَا﴾ في مفتتح هذه السورة، لنبدأ معها مرحلة جديدة من حياة الإنسان، حيث سيخلق الله سبحانه وتعالى أنثى أولى من ضلع هذا الذكر الأول، وبذلك ستنطلق مسيرة الجنس

البشري. فمادام ثمة أنثى، فلا بد من التكاثر من خلال رحم هذه الأنثى، لأن المُراد من خَلق الأنثى هو التكاثر، ولذلك فإن الملائكة لا يحدث بينهم تكاثر كونهم ذكور، في حين أن الجن يتكاثرون بسبب وجود الأنثى، والآن ثمة أنثى جديدة، هي أنثى الإنسان، ولا بدّ من علاقة جسدية بينهما حتى يؤسّسا لعملية التكاثر، ولا بدّ للشهوة أن تتحرّك حتى يتم التلاقح، وقد تقدّم تحليل ذلك بشيء من التفصيل في سورة النساء. وهنا ترى بأن القرآن يوزّع أحداث الموضوع الواحد على العديد مِن السور القرآنية، وذلك وفق مسار كل سورة، لأن كل حدث يكون في ذات الموضع الأكثر تعبيراً، والأكثر عظة، والأكثر حكمة، فتتكامل مواضيع أحداث القرآن المجيد بعضها ببعض، فتكون أكثر غِنى فيما لو قُصّت جملة واحدة في سورة واحدة.

فثمة امرأة تظهر لأول مرة في السورة، وقد وصفها الله تعالى بأنها زوج آدم، فبعد أن كنا أمام فرد بشري، أصبحنا أمام زوج بشري، وهنا أمر هام أيضاً وهو أن السجود كان حصرياً لآدم الرجل وحده دون حواء الأنثى، وكان يمكن أن يكون السجود لهما معاً لو شاء الله ذلك، لكن حكمة الله اقتضت أن يتفرّد آدم الرجل بهذا السجود مِن الملائكة جميعاً الذين هم من أصل الملائكة، وأن إبليس الذي لم يكن من أصل الملائكة لم يكن مستحقاً، ولم يكن أهلاً ليبقى في الجنة إلى جانب الملائكة ويستجيب لأمر الله ويحتفي بهذا المخلوق البشري الجديد الذي شاء الله سبحانه وتعالى أن يخلقه، والسجود هنا رمز للتحية، والقبول، والترحيب، والاحتفاء بما خلَق الله، وبما يليق بهذا المخلوق، والله عز وجل يقدّمه للملائكة بهذه الهيئة الخَلقية الإنسانية الجديدة التي يشهدونها لأول مرة، وبسبب العصيان والاستعلاء، فقد أوقع الله بإبليس كل ذاك العقاب الشديد، وهي إشارة كبرى بأن للإنسان منزلة رفيعة عند الله، وهو مخلوق عزيز عند الله سبحانه وتعالى.

﴿وَ﴾ الآن بعد كل ما وقع لإبليس ﴿يَا آدَمُ﴾ بسببك، ﴿اسْكُنْ﴾ و﴿اسْكُنْ﴾ نظير ﴿فَاهْبِطْ﴾، و﴿فَاخْرُجْ﴾. والسَكَن مِن السكون أي أقم في الجنة واستكن بِسَكينتها، فهذا الموضع لا يطأه مَن يعصاني، وهنا تتيح لك الآية معرفة جديدة لله عز وجل، وهي أنه يختبر خَلقه، فقد اختبر الملائكة، واختبر إبليس، والآن سيأتي

الاختبار إلى الإنسان، ذلك أن الاختبار هو الذي يُظهر الحقيقة، وبدون الاختبار ستكون الكلمات باردة وخالية من الأفعال، فالاختبار يُظهر المَعَادن، فإن أردتَ أن تتعرّف على معادن الناس، لا يكون لك ذلك دون أن تختبرهم، والعلاقات الحميمية الكبرى تنبثق من ثنايا اختبارات كبرى، فشخص تأمنه على عرضك ومالك وولدك وسرّك، لا تفعل ذلك قبل أن تكون قد اختبرته، ومرّرته بالعديد من التجارب سواء المباشرة أو الغير مباشرة. وزوجة تثق بها كل الثقة وتضحّي من أجلها بالغالي والنفيس، لأنك تذكر مواقفها معك موقفاً موقفاً، ولعلّ امرأة أخرى من عامة النساء تكون قد تأثّرت بأفكارك، فأعدلتَ لها مسار حياتها من خلال سيرتك وأفكارك، فتريد أن تعبر لك عن شكرها، فتؤازرك وتقول كلمة حق بشأنك، وترى منها مواقف طيبة، فتكنَّ لها احتراماً شديداً، ويبقى ذكرُها طيباً عندك. وفي هذا المقام أذكر السيدة أم سليم الأنصارية، هذه المرأة التي تتمتع بسيرة حسنة، وتبرهن أن الرجال العظماء يمكن لهم أن يسهموا في وجود نساء عظيمات، والنساء العظيمات يمكن لهن أن يقفن دعامة قوية إلى جانب الرجال العظماء.

لذلك فإن الزمن الذي يخلو من الرموز والأمثلة الكبرى، فإنه زمن فقير بأشخاصه المميزين، الزمن الغني برموز وأمثلة يفرز أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يقتدون بهذه الرموز التي تعيش بين ظهرانيهم.

لننظر إلى زمن وجود النبي صلى الله عليه وسلم، وننظر إلى قائمة الأشخاص الذين عملوا معه، لننظر كيف أنه استطاع أن يحدث تغييرا نعطافياً في سلوكيات الناس.

لقد صنع أناساً ما كان لهم أن يظهروا لولا وجود النبي، وهؤلاء الناس صنعوا أناساً ما كان لهم أن يظهروا لولا وجود أولئك.

إن ظهور امرأة مميزة، يمكن أن يكون حافزاً لظهور نساء أخريات يقتدين بها، ولكن هذه المرأة أيضاً تحتاج إلى حافز يجعلها تشعر بأهمية وقيمة أن تكون مميزة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ - وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ - فَرَأَى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: "آنْتِ هِيَهْ، لَقَدْ كَبِرْتِ لَا كَبِرَ سِنُّكِ"، فَرَجَعَتْ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ! قَالَتْ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يَكْبَرَ سِنِّي، فَالْآنَ لَا يَكْبَرُ سِنِّي أَبَداً، فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ"؟ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللهِ! أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي؟، قَالَ: "وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ"؟، قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لَا يَكْبَرَ سِنُّهَا وَلَا يَكْبَرَ قَرْنُهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: "يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ")[١].

لم يأت ذلك لأم سليم من تلقاء نفسه، بل كانت تسعى إلى المعرفة والتفقه والعلم، وتستنير بقراءة القرآن، وتتابع ما يقوله النبي، وما يقوم به من سنن.

وكان ابنها أنس بن مالك الذي دفعته في صباه ليخدم رسول الله عشر سنوات مصدراً من مصادر التعرف على أحاديث وسنن النبي.

تصفها السيدة عائشة أم المؤمنين بقولها: (نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين).

عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَدْخُلُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِ، إِلَّا أُمِّ سُلَيْمٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَدْخُلُ عَلَيْهَا، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: "إِنِّي أَرْحَمُهَا، قُتِلَ أَخُوهَا مَعِي"[٢]. وعند سفر النبي كانت أم سليم تديم البقاء مع نسائه وتتعلم منهن ما تعلمنه من النبي.

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

عـن أنـس رضـي الله عنـه: (أَتـى النبيُّ صَـلَّى اللهُ عليـه وسـلَّمَ علـى بَعْـضِ نِـسَائِهِ ومعهُنَّ أُمُّ سُلَيْمٍ، فَقَالَ: "ويْحَكَ يا أنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ سَوْقًا بالقَوارِيرِ"[١].

وكانت حريصة على المعرفة، عَن عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ قَالَ قَالَ إِسْحَقُ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ حَدَّثَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: (جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ وَهِيَ جَدَّةُ إِسْحَقَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ لَهُ وَعَائِشَةُ عِنْدَهُ يَا رَسُولَ اللهِ الْمَرْأَةُ تَرَى مَا يَرَى الرَّجُلُ فِي الْمَنَامِ فَتَرَى مِنْ نَفْسِهَا مَا يَرَى الرَّجُلُ مِنْ نَفْسِهِ فَقَالَتْ عَائِشَةُ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ فَضَحْتِ النِّسَاءَ تَرِبَتْ يَمِينُكِ فَقَالَ لِعَائِشَةَ: "بَلْ أَنْتِ فَتَرِبَتْ يَمِينُكِ نَعَمْ فَلْتَغْتَسِلْ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِذَا رَأَتْ ذَاكِ")[٢].

عَن أنس قال: (جَاءَتْ بِي أُمِّي أُمُّ أَنَسٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ أَزَّرَتْنِي بِنِصْفِ خِمَارِهَا وَرَدَّتْنِي بِنِصْفِهِ، فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا أُنَيْسٌ ابْنِي أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ فَادْعُ اللهَ لَهُ. فَقَالَ: "اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ". قَالَ أَنَسٌ فَوَاللهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَى نَحْوِ الْمِائَةِ الْيَوْمَ)[٣].

عن أنس بن مالك: (دَخَلَ عَلَيْنَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ عِنْدَنَا، فَعَرِقَ، وَجَاءَتْ أُمِّي بقَارُورَةٍ، فَجَعَلَتْ تَسْلِتُ العَرَقَ فِيهَا، فَاسْتَيْقَظَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقالَ: "يا أُمَّ سُلَيْمٍ ما هذا الذي تَصْنَعِينَ"؟ قالَتْ: هذا عَرَقُكَ نَجْعَلُهُ في طِيبِنَا، وَهو مِن أَطْيَبِ الطِّيبِ)[٤].

وعن أنس: (لَمَّا كانَ يَوْمُ أُحُدٍ، انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالَ: وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بنْتَ أَبِي بَكْرٍ، وَأُمَّ سُلَيْمٍ وإنَّهُما لَمُشَمِّرَتَانِ، أَرَى خَدَمَ سُوقِهِما تَنْقُزَانِ القِرَبَ، وَقالَ غَيْرُهُ: تَنْقُلَانِ القِرَبَ علَى مُتُونِهِمَا، ثُمَّ تُفْرِغَانِهِ في أَفْوَاهِ القَوْمِ، ثُمَّ تَرْجِعَانِ فَتَمْلَآنِهَا، ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُفْرِغَانِهَا في أَفْوَاهِ القَوْمِ)[٥].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) صحيح مسلم.

(٤) صحيح مسلم.

(٥) صحيح البخاري.

وعن أنس بن مالك: (أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يومَ حُنَيْنٍ خِنْجَرًا، فَكانَ معهَا، فَرَآهَا أَبُو طَلْحَةَ، فَقالَ: يا رَسولَ اللهِ، هذِه أُمُّ سُلَيْمٍ معهَا خِنْجَرٌ، فَقالَ لَهَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ: "ما هذا الخِنْجَرُ"؟ قالَتْ: اتَّخَذْتُهُ إنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ، بَقَرْتُ به بَطْنَهُ، فَجَعَلَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، اقْتُلْ مَنْ بَعْدَنَا مِنَ الطُّلَقَاءِ انْهَزَمُوا بِكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، إِنَّ اللهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ")(١).

عن أَنَسِ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (كَانَ أَبُو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ قَالَ أَنَسٌ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢]. قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾. وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ". فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ)(٢).

عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، يَقُولُ: (قَالَ أَبُو طَلْحَةَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ: قَدْ سَمِعْتُ صَوْتَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَعِيفًا أَعْرِفُ فِيهِ الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ خِمَارًا لَهَا، فَلَفَّتِ الْخُبْزَ بِبَعْضِهِ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ ثَوْبِي وَرَدَّتْنِي بِبَعْضِهِ، ثُمَّ أَرْسَلَتْنِي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهِ، فَوَجَدْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا فِي الْمَسْجِدِ وَمَعَهُ النَّاسُ، فَقُمْتُ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرْسَلَكَ أَبُو طَلْحَةَ"، قَالَ: فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ: "أَلِطَعَامٍ"؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ مَعَهُ: "قُومُوا"، قَالَ: فَانْطَلَقَ، وَانْطَلَقْتُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ حَتَّى جِئْتُ أَبَا طَلْحَةَ، فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَدْ جَاءَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالنَّاسِ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا مَا نُطْعِمُهُمْ، فَقَالَتْ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَانْطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهُ حَتَّى دَخَلَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "هَلُمِّي مَا عِنْدَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ"؟ فَأَتَتْ بِذَلِكَ الْخُبْزِ، فَأَمَرَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَفُتَّ، وَعَصَرَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سُلَيْمٍ عُكَّةً لَهَا فَأَدَمَتْهُ، ثُمَّ قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ، ثُمَّ قَالَ: "ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ"، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: "ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ"، فَأَذِنَ لَهُمْ فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، ثُمَّ خَرَجُوا، ثُمَّ قَالَ: "ائْذَنْ لِعَشَرَةٍ" حَتَّى أَكَلَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ وَشَبِعُوا، وَالْقَوْمُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَوْ ثَمَانُونَ)(١).

عَنْ أَنَسٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْفَةً فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذِهِ الْغُمَيْصَاءُ بِنْتُ مِلْحَانَ أُمُّ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ"(٢).

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وارفلا في نعيمها، وتمتّعا بِغَدَق العَيش فيها كما يروق لكما، فكل أسباب البهجة والمتعة والراحة والأمن والرفاه متوافرة في الجنة التي أعددتها لكما، ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ واختباري لكما بأن ﴿لَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ حتى تدوم عليكما نعمتي، فإن اجتزتما هذا الاختبار، لبثتما في هذا النعيم، وإن فشلتما فيه وتركتما كل هذه السعة التي في ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾ وقربتما ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ التي نهيتكما عنها ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾، حيث ستظلمان نفسيكما بعصياني.

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

[٢٠]

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

لعلّ في ظاهر الآيات الماضية تبيّن لك بأن آدم عليه السلام، قد شَهِد تفاصيل ما جرى، وأنّه كان حاضراً حضوراً فعلياً، وأن سجود الملائكة له وقع في حضوره الشخصي، وأنه رأى امتناع إبليس، وبالتالي سمع كيف عبّر إبليس عن مساحة حقده ووعيده بالانتقام منه ومن ذريته، وردّ الله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾، وهذا الكلام وإن كان موجّهاً لإبليس، إلّا أنه موجّه أيضاً لآدم، ولذرّيته، فإن اتبعتموه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾. واستناداً إلى ذلك، فلعلّ إبليس لو وسوس له وحده، لفشل في إصابة الهدف، وهو الخارج لتوّه من مشهد حي، كان هو بطله المنتصر فيه بدخول الجنة، وكان إبليس هو المنهزم المخذول المدحور فيه، وهو يجرّ أذيال هزيمته مطروداً من الجنة ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، وقد توعّده بالانتقام وجهاً لوجه في حضرة الله والملائكة، فهنا استغل إبليس العنصر الذي كان استجدّ، وما شهد وما سمع شيئاً قط.

تبدأ الآية الكريمة بحرف الفاء الاستئنافية، ﴿فَـ﴾ - في ذروة اكتشاف أحدهما لجماليات الآخر، فقد أصبحا عَريسَين للتو، ويجوز أن يكون الله تعالى قد بعث ملكاً يعلّمهما أصول الملاطفة والعشرة الزوجية، وممّا يُروى في شيء من ذلك أن حواء قالت له: (يا آدم هذا طيب زدنا منه). فهما في ذروة الاستمتاع بعَسَل جماليات ومعطيات العلاقة الزوجية في رحاب الجنة، في أوج تلك اللحظات التي رآها أكثر ما تكون مناسبة لنَيل مراده منهما - ﴿وَسْوَسَ﴾، وعليك أن تعيد كلمة ﴿ فَوَسْوَسَ﴾ مرات عديدة حرفاً حرفاً، ﴿لَهُمَا﴾ للرجل والمرأة معاً. وهنا إشارة استنارة لك بأن الرجل والمرأة عندما يكونان معاً ما يتوانى أن يـ ﴿وَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾، ولذلك تحدث الوساوس الكبرى التي تؤدّي إلى

أخطاء كبرى عندما يختلط الرجال بالنساء، وخاصة عندما يختلي رجل بامرأة. فالوسوسة تكون فعّالة أكثر إذا كانا (معاً) سواء في مكان عام، أو في خلوة، والخلوة تَؤتي أُكلها بالنسبة للشيطان أكثر، وقد نبّه وحذّر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك بقوله: "لا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما"(١).

ولا يكون الشيطان ثالثهما، إلّا ليستدرجهما إلى ما تحت الثياب، فتُظهر المرأة من مفاتن جسدها، وتمتدّ نظرات الرجل إلى تلك المواضع التي لا تسترها الثياب، فترى بعض النسوة يُظهرن مساحات من أجسادهن أكثر من التي يسترنها، فيبدو أكثر من نصف الجسد عارياً، وهي تكون في مكان عام وسط الرجال، أو تمضي في الطرقات والأسواق العامة التي عادة تكون مكتظة بالمراهقين، أو المتأخرين عن الزواج، أو ما شابه ممّن يمكن أن تتأجّج بهم غرائزهم جراء ما تثيره هذه المرأة من إظهار مفاتنها للعيان، وهذا بمثابة الطغيان بنعمة الله، فقد أكرمها الله بحُسن وصحة ولياقة ولطافة أنوثة، لكنها تطغى في هذا التكريم، وتسعى إلى تأجيج غرائز الناس في الأسواق وحيثما تطأ قدماها.

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾، الوسوسة هي كالصوت الخفي مثل الخشخشة، فيبثّها الشيطان إلى القلب، ويكرّرها عليه حتى يتفاعل معها، ومن ذلك وسوس الحلي.

يُحكى أن أحد الأولياء (سأل الله تعالى أن يريه كيف يأتي الشيطان ويوسوس فأراه الحق تعالى هيكل الإنسان في سورة بلور وبين كتفيه خال أسود كالعش والوكر فجاء الخناس يتحسس من جميع جوانبه وهو في صورة خنزير له خرطوم كخرطوم الفيل فجاء من بين الكتفين فأدخل خرطومه قبل قلبه فوسوس إليه فذكر الله تعالى فخنس وراءه ولذلك سُمي بالخناس لأنه ينكص على عقبيه مهما حصل نور الذكر في القلب).

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ ﴾ ليظهر، اللام هنا لام الصيرورة والعاقبة ﴿لَهُمَا﴾ معاً ﴿مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ما خُفي عن أنظارهما ﴿مِن﴾ عوراتهما، وتُسمّى

(١) رواه أحمد.

العورة (سوءة) لأن كشفها يسيء إلى الإنسان، والذي يُجرَح، يُقال له: تَعوّر. فإظهار العورة بهذا المعنى، هو بمثابة خدش للحياء في الإنسان، وقد حدث ذلك فجأة مع آدم وحواء عليهما السلام، دون أن يتعمّداه، ولعلّهما لو علما هذه العاقبة، لَمَا أكلا مِن الشجرة، ورغم أن ذلك قد حصل بين رجل وزوجته، إلّا أنهما تركا كل شيء، وهرعا لإخفاء ذلك، وهذه فطرة العَفاف التلقائية في الإنسان.

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾. أي: ﴿إِلَّآ﴾ من أجل ﴿أَن﴾ لا ﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ من الملائكة ﴿أَوْ﴾ لا ﴿تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الذين يخلدون في الجنة ولا يقربهم موت، فلعلّ (لا) في القَولَين مضمرة.

ويُروى (أن أول ما ابتدأهما به من كيده إياهما أنه ناح عليهما نياحة أحزنتهما حين سمعاها فقالا له: ما يبكيك؟ قال أبكي عليكما تموتان فتفارقان ما أنتما فيه من النعمة والكرامة. فوقع ذلك في نفسيهما ثم أتاهما فوسوس إليهما).

[٢١]

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

أقسم لهما الشيطان بالله تعالى أنه يقدّم لهما النصح، ولا نعلم أنه قد حُلف بالله كَذباً قبل ذلك، فهو يكون أول مَن حلف بالله كَذباً، ولعلّهما صدّقا ذلك لاعتقادهما أنه لا يجوز لأحد أن يحلف بالله تعالى كَذباً.

وفي الحديث: "الْمُؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، وَالْفَاجِرُ خَبٌّ لَئِيمٌ"(١). فأنا أقدّم لكما النصح حتى تخلدا في الجنة، وتخلد معكما ذريتكما دون أن يقربكم الموت، فصدّقا بأنها الحقيقة التي أعلمها، ولا تعلمانها، وأقسم لكما بالله على ذلك.

فالشيطان - لعنه الله - تمكّن من الوسوسة لهما بموجب أخذه العهد من الله ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾، ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وعبارة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ لا تعني بأنه سيبقى يتفرّج عليهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾، بل سيترصّدهم يوماً بيوم، وساعةً بساعة حتى يوقع بهم، ويفصح عن ذلك بعد حصوله

---

(١) رواه البيهقي.

على العهد الإلهي له: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾، واستأنف ﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

فهذه الاستجابة لعلّها من باب أن الله ما أضاع له أعماله الصالحة سابقاً، فأعطاها له من خلال الاستجابة لمطلبه الأخير، بأن أَمَدّ في عمره إلى ما شاء الله تعالى ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾، ولكنه لا يعلم متى يحل عليه هذا اليوم، وبناءً على ذلك فهو في قلق دائم لأنه يتوقع أن يحل ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ عليه في أي لحظة، فيكثّف نشاطه الإبليسي في الناس على قلق قبل أن يُدركه ﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾.

ولعلّ الأمر يكون قريباً من شخص يقوم بخدمتك، ويخلص لك خلال فترة طويلة، وأنتَ تكرمه، لكنه بغتة يطغى ويستكبر ويخرج عن طوعك، فتطرده من البيت لأنه خرج عن وظيفته وولائه لك وتنفيذ أوامرك، فلعلّه يلتمس منك مطلباً قبل خروجه من بيتك الذي أمضى فيه وقتاً طويلاً، وهو يتركه بغصّة الفراق الأبدي، فتستجيب لمطلبه كبادرة كَرَم منك، وكردّ على ما قدّمه لك من خدمات ومن طاعة خلال الفترة التي أمضاها في بيتك. أمّا إذا استغلّ كرمك واستجابتك لرجائه، فتلك مشكلته التي تفصح أكثر عن معدنه، كما تفصح أكثر وأكثر عن سِعة كرمك، ولله المثل الأعلى.

[٢٢]

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

أزلّهما بعد أن غرَّر بهما ﴿فَلَمَّا ذَاقَا﴾ والذوق هنا ليس بمعنى التذوّق، بل بمعنى الأكل: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾ [طه: ١٢١]. فعند أكلهما طعام ﴿ٱلشَّجَرَةَ﴾ على الفور: ﴿بَدَتْ﴾، ظهرت ﴿لَهُمَا﴾، لأنظارهما ﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾، عوراتهما.

وهنا قد تحقَّق ما أخبر به الله تعالى في الآية ما قبل السابقة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾. فالغاية من الوسوسة هي ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾، والآن: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾.

أصبح كل واحد يرى قبل ودبر الآخر لأول مرة، وبشكل مفاجئ. ﴿وَطَفِقَا﴾ صارا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ على ما ظهر من عوراتهما ﴿مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ ليستترا بها.

ويُقال بأن حواء بدأت بالأكل أولاً، ولم تحل العقوبة عليها، ولكن عندما أكل آدم أيضاً، حلَّت العقوبة عليهما معاً.

يقول ابن عباس: (تَقَلَّصَ النُّور الَّذِي كَانَ لِبَاسهمَا فَصار أَظْفَاراً فِي الأيدي والأرجل). ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾، النداء بذاته هو اختبار آخر، أي استئناف للاختبار، وقد جاء هذا الاستئناف على إبليس أيضاً عندما قال له الله بعد العصيان: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فتبيَّن من ردِّه إذ ذاك بأنَّه عصيانٌ للعصيان، وأن مصدره الاستكبار، فكان التصعيد في العقاب بعد إظهار الحقيقة.

الآن نحن مع بدايات المرحلة الثانية من الاختبار التي هي التحقيق، وما ينتج عن هذا التحقيق: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن﴾ أكل ثمار ﴿تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا﴾ وأخبركما ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

سوف يتوقّف القرار على الجواب، كما توقّف القرار على الجواب بالنسبة لإبليس، فهل سيكون الجواب كجواب إبليس، ويتماديا ويستكبرا ويبطرا بالنعمة، وهذا ما يرمي إليه إبليس، أم سيكتشفان بأنه قد غُرّر بهما، ويعترفان بخطيئتهما، ويتخذان من ذلك درساً بليغاً لن ينسياه، ثم يتوبا إلى ربهما.

[٢٣]

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

لقد أخطأنا باتباع الشيطان الذي غرّر بنا، واستدرجنا بحلفه بك، وظننا أنه لا يجوز الحلف بك كَذباً، فنبوء لك بذنبنا، وندمنا الشديد على ما اقترفناه، ونتوب إليك، ونسألك ﴿رَبَّنَا﴾ المغفرة ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ وتأخذنا بذنبنا ﴿وَإِن لَّمْ﴾ ﴿تَرْحَمْنَا﴾ وتعفو عنا خطيئتنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

الخسارة التي لا تعوّض بشيء قط، فنسألك النجاة من عواقب هذه الخسارة الفادحة نتيجة أننا ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ وأن ترأف بنا ﴿رَبَّنَا﴾ وتأخذنا بمغفرتك ورحمتك حتى - ﴿لَ﴾ ا - ﴿نكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. فقد اختلفت الإجابة كلياً عن إجابة إبليس الذي لعلّه اغتاظ، وأحس بأن طُعمَه رُدّ إليه.

[٢٤]

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

جاء الهبوط جَمعاً، ولعلّ ذلك يشير إلى آدم وحواء وما سينجبان من ذرية، لكن عند الدخول قال: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وحدكما ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ فكان القول خاصاً بشَخصَيهما، ومرتهناً باجتياز الامتحان بنجاح، لكن ذلك لم يحدث، ولأنهما عبّرا عن ندمهما الشديد، تم تخفيف العِقاب عنهما بالهبوط مع ذرّيتهما القادمة إلى الأرض، لكن بقي الأمل بالعودة إلى الجنة باقياً لأن هذا الهبوط يكون ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، وعبارة ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيها إشارة إلى آدم وحواء وذريتهما جميعاً.

أمّا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فذلك إشارة بأن الإنسان يتسبب بالأذى لأخيه الإنسان، وقد ثبتت هذه الحقيقة منذ البداية مع هابيل وقابيل، ثم الحروب البشرية التي وقعت بين ذرية آدم على مختلف العصور.

والدرس البليغ الذي تستنتجه من هذه الجملة، هو أن أي إنسان هو قابل أن يُصبح عدوانياً بامتياز، لأن بذور النزعة العدوانية كامنة فيه، فينبّهك الله سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة حتى لا تكون غافلاً عنها، وبالتالي حتى تكون حذراً في علاقاتك، فتعطي ثقتك لِمَن يكون أهلاً لهذه الثقة، وتحجبها عَمّن لا يكون أهلاً للثقة، فَكَم مِن شَخصٍ تلقّى ضربةً في الصَميم غدراً نتيجة إفراطه بالثقة.

واعلم أن العداوة لا تقتصر على الآخرين فحسب، بل إن الإنسان يكون عدو ذاته أيضاً، فيودي بنفسه إلى التهلكة نتيجة اتّباع الأهواء، واستهلاك طاقاته الذهنية والبدنية في السلوكيات المنحرفة.

وكأن هذا الشخص يدعو الآخرين إلى أخذ موقف عدائي منه، وهو يكون قد اتخذ موقفاً عدائياً من نفسه، حيث يذلّها ويهينها، فتراه محتقناً، مضطرباً وقد ألحَقَ الأذى بأسنانه، بعينَيه، بسمعَته، بالاستمتاع بمشاعر الأبوة، والبنوة، والأخوة، والقرابة، والصداقة، فحتى زوجته تنفر منه، بل حتى هو ينفر من نفسه، فحتى الموضع الذي يسكن فيه لا يليق بإقامة إنسان، وحتى الثياب التي يرتديها، وحتى الروائح الكريهة التي تفوح منه، فيمسي كما لو أنه شبح، ولا يأمَنه أحد على شيء قط.

ذلك أنه كائن منفلت، وقد جرّد نفسه من كل خصلة إنسانية، ولكن هذا لا يعني أن هذا الشخص قد بلغ مرحلة لا يمكنه العودة منها، ولا يوجد شخص يبلغ مرحلة لا يمكنه العودة منها سواء سلباً أو إيجاباً، فيمكن أن يهدي الله هذا الشخص وينقلب رأساً على عقب بين ليلة وضحاها، من خلال موقف ما، أو مشهد ما، أو خاطر ما، ويمكن عكس ذلك أيضاً على شخص كان صالحاً، فانقلب فاسداً بين ليلة وضحاها من خلال موقف ما، أو مشهد ما، أو خاطر ما، فكل الاحتمالات واردة في ثنايا كلمات الجملة الثلاث.

وهذا ما يجعل الإنسان في حالة صراع مع نزعات الشر في كوامنه، وهي المعركة الكبرى التي على الإنسان أن يخوضها مع نفسه من أجل انتصار نزعات الخير على نزعات الشر في كوامنه، وذلك هو الانتصار الأكبر الذي يحققه الإنسان، كما أن هزيمته أمام نزعات الشر فيه، هي الهزيمة الكبرى التي يمكن له أن يُمنى بها.

وتعلّمك الجملة بأن عليك أن تكون حَذِراً من دور الشيطان في هذه المعادلة، فهو يستثمر أي لحظة ضعف فيك، فكما أنك تسبّبتَ في خروجه من الجنة، تسبّب هو أيضاً في خروجك من الجنة، لكن شَتّان بين الخروجَين، فيسعى الشيطان بكل ما أوتي من طاقات أن يذل ويهين الإنسان، ويقوده إلى الأعمال المشينة التي يندى لها الجبين.

فهو يركّز على فكرة الإذلال والمهانة، فكلّما يذل الإنسان نفسه، يدلّه إلى المزيد، وكلّما يهين نفسه، يهوي به إلى المزيد حتى لا يبقى في المزيد، مزيد، ويبلغ

الإنسان إلى قاع القاع من الذل والمهانة والقَرَف، فيقول له الشيطان: هذا أنت وهذا حجمك، ألم أكن على صواب بترفعي عن السجود لك.

فلأجل ألّا يحدث ذلك، وهو بطبيعة الحال لا يحدث لعباد الله الصالحين، وإن وقَعَت معهم بعض أخطاء، إلّا أنّهم لا يبلغون تلك المراحل المريعة من اتّباع الشيطان، لأن حصانتهم تكون من الله عزّ شأنه: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢]، ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فبعضك أيضاً لبعضك ﴿عَدُوٌّ﴾، فلا تدع العنان لرغباتك، لأعضائك، يمكن لعينيك أن توديان بك إلى التهلكة، يمكن ليديك أن تبطشان، يمكن لقدَميك أن تقوداك إلى هاوية، يمكن لغرائزك أن تسوقاك إلى الانتهاكات، يمكن للسانك أن يودي بك إلى فتنة.

فتحذّرك هذه الجملة من الآية الكريمة من عداوة الأعضاء والحواس والأهواء إن تركتها تتسلّط عليك، وهي دعوة إلى ضبط النفس، وكظم الغيظ، والتحلّي بطاقات الصبر، والإنسان هو معلّم نفسه، ذلك أنه يتعلّم من نفسه ومن أخطائه.

بعد الهبوط إلى الأرض، تلقّى آدم وحواء درساً لن ينسياه، ولذلك يكونان في حذر شديد من الشيطان، ولم يبلغنا بأنه استطاع أن ينفذ إليهما رغم وجودهم معاً عن قرب هذه المرة في الأرض، فقد مرّا بتجربة شديدة، حيث عكّر عليهما الشيطان لذة عسل زواجهما في أيام الزواج الأولى، وهذا له استمرار، فترى الشيطان - لعنه الله - يقبل على أي عروسَين جديدَين من ذرية آدم، ويسعى كي يفسد عليهما لذة عَسَل زواجهما، ويصيب هدفه مع البعض، فتسمع أن فلاناً قد طلّق زوجته في ليلة الدخلة، أو أنه طلّقها بعد يومين من الزواج. ولذلك ترى الأهل يوفّرون الهدوء والراحة للعروسَين في الشهر الأول من الزواج، فيقبل عليهما المباركون وهم

يقدّمون لهما الهدايا في صباحية الزواج، لأنها علامة في اجتياز ليلة الدخلة بسلام، وبدء أول صباح من صباحات الزواج.

فيستمتعان بهذا الشهر من خلال السفر، وتلقي دعوات الولائم على موائد عامرة تليق بعروسين حيث يُحتفى بهما يوماً بعد يوم، فيتغدّيان في بيت، ويتعشيان في بيت، فيكون الشهر الأول من أمتع شهور الحياة الجميلة التي يعيشانها بِما يَتعارف عليه الناس بشهر العَسَل، أي هو شهر عَسَلي مميّز استثنائي من شهور العمر، فكل يوم فيه يكون عسلاً في عسل، حتى إذا انتهى هذا الشهر الأول، أحسّ أهل الطرفَين بشيء من الطمأنينة على علاقتهما الزوجية.

فكل يوم صفاء بينهما هو يوم يغيظ الشيطان، وكل يوم جفاء بينهما هو يوم يسر الشيطان، لذلك يسعى بكل إمكاناته أن يعكّر صفوهما، فلا يكون له نصيب يوم من شخصَين حذرَين واعيَين لهذه الحقيقة، لا يلتفتان إلى أي فكرة ملتوية يمكن أن تراودهما، لأنهما يعلمان أن ذلك حبل من حبال الشيطان، فيتجنّبان بعض التفاصيل التي لا لزوم لها، بعض الأحاديث التي لا تجدي بشيء، فهما يدركان بأن الشيطان قد توعدهما بأنه سيأتيهما من بين أيديهما، ومن خلفهما، وعن أيمانهما وعن شمائلهما.

أي ممّا هم فيه حالاً، وممّا وقع لكل واحد منهما في الماضي، وممّا قال أشخاص من طرف الرجل، وممّا قال أشخاص من طرف المرأة. فما يعنيهما بالدرجة الأولى، أن يحرما الشيطان من يوم، أو من ساعة، من شهرهما المجيد هذا، ويستمتعان بكل لحظة من لحظاته الممتعة، وهو أساس متين يضعانه لعمارة حياة زوجية قويمة، فترى في وجهَيهما نضارة الزواج. أما إذا كان الأمر بالنسبة لعروسَين واهنَين في شخصيتَيهما، فيكون شهر عَسَلهما شهراً شيطانياً بامتياز، حيث يكون دائم الحضور بينهما وهو يراهما يستجيبان ويتفاعلان مع وسوساته، فيكون شهرهما أغلبه، أو كله من نصيب الشيطان، فيعكّر عليهما صفو أي لحظة سعيدة يمكن أن يستمتعا بها.

فلا يتوانى أن يبث إليهما الوساوس، ويرمي إليهما الفكرة تلو الفكرة، ويستدرجهما إلى التصعيد، فيستمدّ همّته ونشاطه بقدر استجابتهما وتفاعلهما مع ما يبث إليهما، فيتحوّل شهرهما إلى شهر من التعكير، والمشاحنات، والمشادات الكلامية، حتى يتحوّل إلى أسوأ شهر عاشاه، ذلك أنهما سمحا أن يكون شهراً شيطانياً بامتياز، فيكون للشيطان منهما ما يريد.

وفي المثالَين المذكورَين تبيّن معنا بأن العروسَين الأولَين قد قطفا ثمار شهر عَسَلهما الناضجة واستمتعا بها وهما يقفان على أرضية النضوج الفكري الصلبة، بل إن بعض الثمار تتساقط عليهما من تلقاء نفسها لأنها بلغت رونق النضوج، في حين حُرِمَ العَروسَان الآخران من قطف هذه الثمار، لأنهما لم يعملا على إنضاجها، فلبثت قاسية غير مستوية، عصيّة على القطف، وهما يقفان على أرضية مهتزّة، هَشّة، يتأرجحان عليها ذات اليمين وذات الشمال، فبدل أن ترى نضارة شهر العَسَل في وجهَيهما، ترى فيهما الشحوب والاحتقان؛ وكما أن الأولَين غَدَيا كوردتَين تتفتحان يوماً بيوم، فإنهما غَدَيا كوردتَين تذبلان يوماً بيوم، وكما أن الزواج الأول يُتوَّج ببناء عائلة ناضجة متماسكة، فإن الثاني يُتوَّج إمّا بالطلاق، أو بعائلة مشتَّتة منهارة.

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿وَ﴾ تجدون ﴿لَكُمْ فِي الأرْضِ﴾ التي أهبطتكم إليها ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، تعيشون فيها حالة استقرار، ﴿وَمَتَٰعٌ﴾، تستمتعون بخيراتها، لكن ذلك لا يكون دائماً، بل: ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ يأتي أجل الموت، للأفراد وفق الزمن والأعمار، ثم كحالة جماعية اعتباراً من آدم، وإلى الإنسان الأخير، ستتركون ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، لأنها تكون قد أدّت ما عليها بما أمَرَها الله، فيكون بذلك قد حان الـ ﴿حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، حيث يكون الحساب في مكان يشاءه الله تعالى، غير ﴿ٱلْأَرْضِ﴾.

[٢٥]

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

تعيشون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ أفراداً أفراداً، ﴿وَفِيهَا﴾ يحين الـ ﴿حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾. الخروج في الآية أحال ﴿حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ الآية

السابقة إلى حينَين، حين الموت الفردي، وحين الخروج الجماعي من ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ برمّتها يوم البعث، حيث ستخرجون من ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، وتتركونها إلى حيث يشاء الله تعالى، فيتم فرز الناس وفق أعمالهم، إلى ما يستحقون. فالثمرة تكون ما بين ﴿تَحۡيَوۡنَ﴾، وما بين ﴿تَمُوتُونَ﴾، إن كانت ثمرة صالحة، أو ثمرة فاسدة، فهي ثمرة العمر الذي ينعم بها الإنسان، أو يشقى.

الباب الحادي عشر: خير اللباس

[٢٦]

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾

تَحَوَّل الخِطابُ الآن مِن آدم إلى ذريته، لأنهم هم الذين سيشكّلون المستقبل البشري ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

﴿يَا﴾، نداء الله تبارك وتعالى إلى أبناء وبنات آدم وحواء، بعد أن أصبحا فعلياً ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وفحوى النداء، تذكير بأنه جلّ شأنه ﴿قَدۡ﴾ إشارة إلى التحقق والتأكد، ﴿أَنزَلۡنَا﴾ الإنزال هنا بمعنى العطاء، فتقول: أتيته بثياب، أي أعطيته ثياباً ونزل أنزلنا منزلة، أعطينا، ثم إن الثياب من نتائج نزول المطر، فـ ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ المطر، تصنعون من نتاجه ﴿لِبَاسٗا﴾ ثياباً ﴿يُوَٰرِي﴾ يستر ﴿سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ عوراتكم. وهي ثياب تختلف عمّا كانت على آدم وحواء في الجنة، لأنها كانت على سَوية المكان الذي كانا فيه، وثياب الأرض تكون على سَوية طبيعة الأرض.

والثياب آيات الله في الناس بجمالياتها، وتنوّعاتها، وجودتها، واشكالها، وألوانها، فكل مجتمع يغتني بأزيائه، ودوماً هناك موضات تستجدّ في عالم الأزياء، ودوماً يتكاثر مصممو الأزياء، والخياطون، وهي حرفة تدر أرباحاً طائلة على محترفيها المَهَرة.

فـ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ مِـن نَعَمِنـا ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ أننـا ﴿قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾، عندما أهبَطنا أبوَيكم إلى ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ حتى لا تشعروا بالحَرَج الذي شَعَرَ به أبواكم عندما ﴿بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾.

وهذه مسألة دقيقة غاية في الأهمية، فالغَرَض من اللباس هو ستر القبل، والدبر، والإنسان مهما تقدّمَت به درجات الإباحية، فلا يتجرّأ أن يمشي في الأسواق وهو يُظهر ذلك، وحتى على شواطئ البحار يتعرّى الناس من كل شيء، إلّا من قطعة مهما صغر حجمها حتى تستر القبل والدبر، وعلى نقيض ذلك، فلو ارتدى ذات الشخص ثيابه الكاملة، ومن ذات الشاطئ، لكن يظهر شيء من قبله، أو دبره دون أن يعلم بسبب تمزّقٍ ما، فتراه عندما ينتبه إلى ذلك، يُسارع إلى إخفائه بأسرع حركة عفوية، فإظهار كل البدن قبل لحظات باستثناء ذاك الموضع، لم يُشعر بحَرَج، وإخفاء كل البدن باستثناء ذاك الموضع، أشعَرَ بالحَرَج سواء النسبة للرجل، أو المرأة. ومساحات العورة تختلف من الرجل إلى المرأة، كون الرجل يحل له أن يُظهر جوانب عديدة دون ما فوق الركبتَين، وما تحت السرة كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أسفل السّرّة وفوق الرّكبتين من العورة"، ويحل للمرأة أن تُظهر وجهها وكفيها كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّج اِمْرَأَة فَلْيَنْظُرْ إِلَى وَجْهِهَا وَكَفَّيْهَا". فالتركيز على اللباس يكون لغاية أن: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ بالدرجة الأولى، ولكن من متفرّعات السوءة هي الأماكن الأكثر قرباً مِن السوءة، فهي مناطق حسّاسة، ولعلّها لا تكون مغلّظة، ويبقى التغليظ في السوءة بالنسبة للمرأة، لأن الرجل يمكن أن يظهر منه شيء ممّا يعلو الركبة في بعض الظروف، وثمة حديث عن أنس رضي الله عنه يوم خيبر: (فَأَجْرَى رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي زُقَاق خَيْبَر ثُمَّ حَسرَ الْإِزَار عَنْ فَخِذِهِ حَتَّى إِنِّي أَنْظُر إِلَى بَيَاض فَخِذ نَبِيّ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)(١). وعن التوافق بين ذلك وبين ما رواه من

---

(١) رواه البخاري.

حديث جرهد عندما ذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: "غَطِّ فَخِذَك فَإِنَّ الْفَخِذ عَوْرَة"، قال البخاري: (حديث أنس أسند، وحديث جرهد أحوط).

ولعلّه لمَس في ذلك مخرجاً من الخلاف بين حديثَي الرجلَين. واعلم أن مفهوم العورة مختلف بالنسبة للرجل والمرأة، فما يجوز للمرأة أن تراه في المرأة، لا يجوز للرجل أن يراه فيها، وليس كل ما هو عورة في المرأة بالنسبة للرجل، هو عورة بالنسبة للمرأة أيضاً، وكذلك ليس كل ما هو غير عورة للرجل بالنسبة للرجل، هو مباح إظهاره أمام المرأة، أو أمام جمع من النساء، فبحضور النساء، يستتر الرجل ما أمكنه، ولا يُظهر - على سبيل المثال - من أعلى جسده إلى غاية السرة بحضور نساء أجنبيات، رغم أن إظهار السرة ليست من العورة وفق ما روى أبو هريرة عندما قبّل سرة الحسن بن علي وقال له: (أُقَبِّل مِنْك مَا كَانَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ مِنْك). وسَماح الحسن لأبي هريرة بذلك، يشير إلى عدم اعتبار السرة من العورة. لكن يُستَحسَن عندما ترى المرأة مفاتن المرأة، ألّا تصف ذلك لزوجها، لأنها بذلك قد تضع تصوراً لِشَكلِ ما رأتْ، في مخيّلة زوجها ولو للحظات.

﴿وَرِيشًا﴾، لعلّه نوع من الرفاهية في ارتداء الثياب، فيكون المرء مُرَيَشاً في ثيابه، كما يمكن له أن يكون متواضعاً فيها، فشخص يرتدي ثياباً قد تُعادل دخل عامل لمدة سنة، وشخص يرتدي ثياباً من المستعملة، ووفق ذلك من درجات جودة وفخامة وغلاء أنواع الثياب، وذلك مباح للناس وفق استطاعتهم.

فبعد ذكر الأساسيات، جاء ذكر الكماليات، وهي من أشكال الرفاه، ورغد العيش، والرياش يمكن أن يشمل كل ما هو زيادة عن الحاجة الأساسية، فإن امتلك المرء ثوباً، ثم اشترى ثوباً ثانياً، سيكون ذلك مِن الرياش، كونه زيادة عن الحاجة الأساسية، فذلك من زيادة فضل الله على الإنسان. روى الْإِمَام أَحْمَد عَنْ أَبِي مَطَر: (أَنَّهُ رَأَى عَلِيًّا رَضِيَ الله عَنْهُ أَتَى غُلَامًا حَدَثًا فَاشْتَرَى مِنْهُ قَمِيصًا بِثَلَاثَةِ دَرَاهِم وَلَبِسَهُ مَا بَيْن الرُّسْغَيْنِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ يَقُول حِين لَبِسَهُ الْحَمْد لله الَّذِي رَزَقَنِي مِنْ الرِّيَاش مَا أَتَجَمَّل بِهِ فِي النَّاس وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي فَقِيلَ هَذَا شَيْء تَرْوِيه عَنْ نَفْسك أَوْ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ هَذَا شَيْء سَمِعْته مِنْ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُول

عِنْد الْكِسْوَة "الْحَمْد لِلهِ الَّذِي رَزَقَنِي مِنْ الرِّيَاش مَا أَتَجَمَّل بِهِ فِي النَّاس وَأُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي").

وهذا ليس كل شيء، فجاء قوله تبارك وتعالى مبيّناً عقب ذلك: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، وفي ذلك توثيق للعلاقة بين الظاهر والباطن، بين البائن، وبين الخَفي، فيمكن للإنسان أن يتزيّا بزي شرعي سواء أكان رجلاً، أم امرأة، لكنه يفعل ذلك ليخفي فجوره، فهو في الجوهر فاجر، وفي المظهر تقي، فبيّن الله عز وجل بأن العبرة ليست في المظهر، بل: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، فتم في هذا المقام وصف التقوى باللباس كون الآية تتمحوَر حول اللباس، أي عليك أن تكون منسجماً بين ما تُظهر، وبين ما تُخفي، وأن تتقي الله فيما تلبس. والفرع الآخر من تفرّعات هذا الشطر من الآية الكريمة، يعيدنا إلى ﴿وَرِيشًا﴾، وهو تذكير للذين أفاض الله عليهم بالنعمة، ألّا يظنوا بأنهم أفضل من الفقراء، أو يتعالوا عليهم، أو يبطروا، فقد يكون الفقير الذي يرتدي ثياباً بالية، يكون مرتدياً ثياب تقوى نفيسة في جوهره، وقد يكون الثري الذي يرتدي ثياباً نفيسة، يكون مرتدياً ثياب تقوى بالية في جوهره. فتبيّن لك الآية بأن الخير يكمن في ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىَ﴾، وهي الأساس لأي لباس ظاهري. وما هو هام في هذا المقام، هو التوافق بين اللباس المادي، واللباس المعنوي. يُروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال عن ﴿لِبَاسُ التَّقْوَىَ﴾: (العمل الصالح)، وكذلك (السمت الحَسَن في الوجه).

[٢٧]

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

بدأت الآية بمنادى مُضاف، إشارة إلى استئناف القول في ذات المحوَر: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾. بشكل عام لا استثناء فيه، ويُسمى ذلك نداء علامة، لأنه إعلام للناس جميعاً بنسبتهم إلى أبيهم آدم، أما إذا جاء قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فذلك يسمى نداء كرامة.

الفتنة، هي إفساد الطاعة على المطيع، فقد أفسد الشيطان على آدم وحواء طاعتهما، و﴿أَخْرَجَ﴾ هما ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ ويريد أن ﴿يَفْتِنَنَّكُمُ﴾ ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ حتى يُخرجكم عن طاعتي، ويحرمكم الجنة التي خَرَجَ منها ﴿مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾، فهو لا يريد لكم الجنة بأي حال من الأحوال، وقد توعّدكم بذلك، فهو يريد أن تكونوا معه في النار التي تسبّبتم أنتم له بها، فلذلك طلب مني أن أنظره، وقد أنظرته، وفي ذلك اختبار لكم لتثبتوا أنكم تستحقون الجنة، أم لا.

﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾، آدم رجل وحواء امرأة، ولكن تم تغليب الرجل على المرأة، واللغة العربية تثنّي، وتغلب في التثنية، مثل: (القمران) في تثنية القمر والشمس، والقمر مذكر، والشمس مؤنث، أو (الحسنان) في تثنية الحسن والحسين، لأن الحسن هو الأكبر.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الشيطان ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ كما ترون بعضكم البعض، ليس ﴿هُوَ﴾ فحسب، بل ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ القبيل، مِن القَبيلة، أي له أنصار من قبيلته، وهم شياطين الجن، يصطادونكم في غفلاتكم. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ فقد قضت مشيئة الله أن يَروا الإنسان، ولا يُرَوا منه. وقد ذكر ابن عبد البر خمسة أسماء للجن: (الجني العادي)، والذي يسكن البيوت، يسمَى (عُمَّار)، والذي يتعرّض للصبيان (أرواح)، والمتمرّد (شيطان)، وإذا ازداد تمرّداً (عفريت).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن عفريتاً من الجن تفلّت علي الليلة في صلاتي فهممتُ أن أوثقه في سارية المسجد".

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم وجعلت صدور بني آدم مساكن لهم إلا من عصمه الله تعالى". يقول ذو النون: (إن كان هو يراك من حيث لا تراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه فإن كيد الشيطان كان ضعيفاً).

ويقول مالك بن دينار: (إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المجاهدة إلا من عصمه الله).

تبيّن الآية الكريمة بأن غاية الشيطان أن ينزع عنكم اللباس المادي الكامن في الثياب، واللباس المعنوي الكامن في الحياء، لأن أحدهما يتكامل بالآخر.

والوسوسة في هذا المقام، شبيهة بالفيروسات اللامرئية التي تنتقل إلى جسم الإنسان، أو إلى بعض الأجهزة الالكترونية، نتيجة الغفلة، فالفيروس يدخل بدنك نتيجة غفلة منك، كما أن الذي يبث الفيروس إلى جهازك الالكتروني، يستغل غفلتك، والفيروسات متفاوتة بتداعياتها وتبعاتها، من الزكام، إلى السرطانات، وما إلى ذلك، كما أن فيروسات الوساوس الشيطانية تتفاوت بتداعياتها وتبعاتها، وفي جميع حالات الفيروسات، فلا شيء يكون مجدياً قدر الاحتراز، والوقاية.

وما يثلج الصدر، هو ختام هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

اللاإيمان يكون بمثابة العَقد ما بين الإنسان والشيطان، فأساس ولاية الشيطان على الإنسان، اللاإيمان، ومتى ما آمن الإنسان بوحدانية الله، سَقَطَت عنه ولاية الشيطان، فولايته تكون ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

فالإيمان هو أعلى درجات الوقاية من وساوس الشياطين، واللاإيمان أعلى درجات الاستجابة لوسوساتهم. والشياطين هم أشرار الجن، أي هم شياطين الجن، فهؤلاء أولياء لأشرار الإنس، أي لشياطين الإنس، فالإيمان هنا بمثابة تزكية النفس من وباء الوساوس الشيطانية.

فكما أن جهاز المناعة القوي لدى الإنسان المعافى، يقاوم الفيروسات، وجهاز المناعة الضعيف تغلبه الفيروسات وتتمكّن من صاحبه وتفتك به، فإن جهاز المناعة القوي بالنسبة للإنسان يكمن في إيمانه، وجهاز المناعة الضعيف يكمن في لا إيمانه.

[٢٨]

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿ وَإِذَا ﴾ ارتكب الفاحشون الجدد ﴿فَـٰحِشَةً ﴾، برّروها لأنفسهم تحت ذريعة

أننا ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ فاقتدينا بهم، ﴿وَ﴾ - ويدّعون قائلين -: ﴿الله أَمَرَنَا بِهَا﴾، ونحن نطيع الله في أمره لنا باتّباع ما كان عليه آباؤنا. ﴿قُلْ﴾ بيّن لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وأنتم تقولون ذلك تكهّناً لا يستند إلى حقيقة. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾، ﴿أَ﴾ تنسبون إلى الله ما لم يقله.

وهذا تنبيه للغافلين الذين يعتقدون بأنّهم على صواب، ويؤمنون بجدوى ما هم عليه، وما قد قيل لهم بأن ما يتّبعونه إنما هو بأمر الله. بعد بيان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أتت الكلمة وعيداً بالألِف، بمعنى ﴿أَ﴾ تعلمون مغبّة أن تقولوا ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾. وإن كانت الجملة وَعيديّة، فهي بذات الوقت إخبارية، أي: ﴿أَ﴾ - نكم - ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الباب الثاني عشر: القِسط

[٢٩]

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد: ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾، بالعدل والاستقامة ﴿وَ﴾ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ لأن المساجد هي بيوت الله التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ففي كل سجود وأينما كنتم، اتجهوا إلى القبلة. ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ الهداية من اتباع الظنون، وكونوا ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ دون أن تشركوا به شيئاً، والإخلاص، أن تكون العبادة لله وحده، فالغاية الوحيدة من أي عبادة، تكون ابتغاء مرضاة الله، وأي غاية أخرى، سوف تنال من هذا الإخلاص.

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ٢٩﴾ جملة مكثّفة ومختزلة ودقيقة، فاعلم بأن الله الذي أتى بك، قادر أن يعيدك إليه، فـ ﴿كَمَا﴾ أنه بدأ بخلقك، فإن عودتك إليه، والعَودُ كالبدء. وإن كان ذلك يزيد المؤمنين صلاحاً في العمل، فإنه ينذر الكافرين بعاقبة الكفر، وهم ينكرون البعث: ﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٤٧﴾ [الواقعة: ٤٧]. ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾ [النازعات: ١٠، ١١].

يقول الله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ١٥﴾ [ق: ١٥]، ويقول ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ٢٧﴾ [الروم: ٢٧].

[٣٠]

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾

أمّا مَن يتبيَّن الحق بعد الذي كان فيه من ﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، فإن الله يهديه إلى الحق الذي ينشده بعد ذلك.

وأمّا مَن عانَد واستنكر وأبى التبيان، فقد ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ أبقاه الله في ضلاله، ذلك أن أهل هذا الفريق الضال أبوا أن يقيموا وجوههم ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾، ويدعوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، ليتطهّروا من براثن الفاحشة، حيث ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، بعنادهم ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ يتوهّمون بذلك ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ٣٠﴾.

فبذلك ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ﴾ حكم ﴿ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، أي استحقوا هذا الحكم فأبقاهم الله في ضلالهم، دون أن يهديهم.

وكلمة ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾، جاءت بمعنى الحسابات الخاطئة الغير مبنيَّة على دلائل وثبوتيّات، فلعلّك تحسب حسابات عديدة لأمر ما، أنتَ مقبل عليه، وتكون

قد أعددتَ نفسك جيداً لدخول ذاك المُستَجَد بتلك الحِسابات التي حَسبتها؛ ولكن إزاء الواقع تراك في واد، والمستجَدّ في وادٍ آخر، ذلك أنّك بَنَيتَ حِساباتك على تكهّنات وتخمينات، وليس على دلائل وحقائق.

فما يستند إليه هؤلاء، هي حسابات خاطئة، لماذا؟ تجيب الآية: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. فالله هو الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي طَرَدَ الشيطان من الجنّة، ولو كان الشيطان قادراً على عدم الخروج، لَما خَرَج، ولكن الله تعالى أخرجه رغماً عن أنفه ﴿مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗا﴾، ولم يملك إلّا أن يرضخ لأمر الله. فتبيّن الآية لأصحاب هذه العقيدة بأن حساباتكم خاطئة، وعليكم أن تعيدوا النظر فيها، فلا تعقدوا آمالكم على الشيطان، لأنّه غير قادرٍ على إعطائكم خيراً يعجز عن إعطائه لذاته، وأن لعنة الله جرّدته من أي شكل من أشكال الشفاعة، وهو ليس مَلَاكاً مِن أصلِ الملائكة، بل هو من الجن، وقد أكرَمَه الله، لكنه أسقَطَ عنه هذا التكريم بسبب استكباره وعصيانه ومكيدته للإنسان.

فـ ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾، بمعنى: لا تحسبوا أنكم ﴿مُّهۡتَدُونَ ٣٠﴾، واحسبوا أنّكم في حِساباتكم هذه غير مهتدين، وتلك هي الخطوط الحقيقية الأولى شَطرَ خروجكم من الفريق الذي ﴿حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾، وانضمامكم إلى الفريق الذي ﴿هَدَىٰ﴾.

الباب الثالث عشر: الاستمتاع بالزينة والطيبات

[٣١]

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾

عندما تذهب إلى بيت شخص ما، فإنّك ترتّب نفسك، وتتطيّب، وتتمشّط، وترتدي ثياباً جديدة، وتتهَندَم، وما إلى ذلك، فتكون بذلك قد أخذتَ زينتك ﴿عِندَ كُلِّ﴾ بيت من البيوت التي تدخلها.

ولكنك عندما تذهب إلى بيت الله - وكل مسجد هو بيت من بيوت الله - لعلّك لا تفعل نصف ما تفعله بالنسبة للاستعدادات في الذهاب إلى بيوت الناس، والبعض يذهب ببيجامة نوم مهترئة، أو بثياب بالية، أو متّسخة، تفوح منه روائح كريهة، ويكون شعره أجعداً، وشعرات ذقنه مشتّتة، ويكون وجهه جَهماً، على نقيض ما يذهب إلى أي بيت من بيوت الناس. فتلك الاستعدادات، وذاك الإشراق، وذاك الوجه المبتَسم، وتلك الثياب الجديدة، وذاك العطر، وما إلى ذلك، فكلّه مُخَصّصٌ لبيوت الناس، أمّا بيوت الله، فلا شيء من ذلك، بل على النقيض.

في هذه الآية الكريمة، ينبّهك الله تعالى إلى هذه المسألة، لعلّك لا تعلم، فيبيّن لك: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ فالأولوية في كل تلك المظاهر، وكل تلك الاستعدادات، تتّخذها وأنت متّجه إلى بيت الله، وهو أَولى بهذا الحُسن المادّي والمَعنَوي من أي بيت دونه. ويُستَحسَن أن يغار المؤمنون على بيوت الله كغيرتهم على بيوتهم أو أكثر، فيحافظوا على حاجات المسجد، كل بمقتضى استطاعته، فإن انتبهتَ إلى سجّادة مهترئة، استبدلتها بجديدة، إن وجدتَ إبريقاً مثقوباً، استبدلته بإبريق جديد، إن وجدتَ صنبوراً عاطلاً، استبدلته بجديد، إن وجدتَ مصباحاً لا يضيء، استبدلته بجديد، وما إلى ذلك ممَا يمكن أن يقوم به كل فرد وفق استطاعته، دون أن يُخبر أحداً. فترى بعض الميسورين الذين يرفلون ويتقلّبون في نِعَم الله، لا يحرّكهم ساكن وهم يرون مسجد الحي مَعدوماً من وسائل الراحة والنظافة، وبئس الأحياء التي تكون بيوتها فخمة راقية، ومساجدها فقيرة معدومة، فَمِنَ الأغنياء، أغنياءٌ لا يرضون أن يكون أثاث بيوتهم أفضل من أثاث بيت الله في حَيّهم، لا يرضون أن تكون زينة بيوتهم، أفضل من زينة بيت الله. فيخجلون من الله تعالى، ويحسبون حِساباً لساعة يلقون فيها الله، فيسألهم هذا السؤال، فهؤلاء تقشعرّ أبدانهم حياءً من الله.

فكم مِن بادرة لطيفة عند رجل مقتدر، وهو يرى شخصاً فقيراً يدخل المسجد بثياب رثّة، فيأخذه بسيارته، ويبتاع له ثياباً جديدة ثمينة، حتى يأتي بها إلى المسجد، فكم مِن مواقف نورانية يمكن للإنسان أن يفعلها، وهو يعبّر عن حبه لله، وعن غيرته

الشديدة على بيوت الله. فذاك الغني لم يرفل له جفن وهو في بيته ينظر إلى فخامة الأثاث، وإلى ألوان السجّاد، وأناقة الديكور، وزخرفة البناء، ويتخيّل ما عليه بيت الله من فقر، فيخرج من بيته في اليوم التالي، ويقرّر ترميم بناء المسجد بزخرفة لا تقل عن زخرفة بيته، وكسوة لا تقل عن كسوة بيته، وهو يقول: خجلتُ يا ربّي أن أقيم في بيت أجمل من بيتك. فلعلّ موقفاً واحداً يُعادل عمراً من العبادة، فإن كنتَ كريماً، يبيّن الله بأنك لستَ أكرم منه، وأنه أكرم منك، فيجازيك بما هو أكثر، وإن غرتَ على بيته، يكون أكثر غيرة على بيتك، فهناك أناس من أصحاب المواقف الكبرى التي يحفظها الله لهم. يستخلصهم من سائر الناس، فهذه أمور واردة، وهي تكون لأناس استثنائيين تقرّبوا إلى الله بأعمال استثنائية خالصة لوجه الله تعالى وابتغاء مرضاته، فحفظها الله لهم. فإن أراد الله تعالى أن يكرم إنساناً، لا يعفيه فقط من حقوقه عليه، بل يجعل الناس أيضاً يعفون عن حقوقهم عليه.

فإن بَدَرَت منه بادرة كَرَم رغم ما فيه من ضيق، وإن عَفا وسَتَرَ في موقف متنازلاً عن حقوقه، وإن صبر واحتَسَب على مصيبة كبرى أصابته، وفوّض أمره لله، وإن أقدم على إنقاذ حياة شخص رغم خطورة الموقف. فهناك أعمال حتى الناس يقفون أمامها بانبهار، لأنها لا تبدر إلّا من أناسٍ استثنائيين.

﴿۞يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾. امضوا إلى المساجد بإشراق، بزهو، بلياقة، بخطوات واثقة، بعز، بافتخار، فلا بيوت، ولا أمكنة قط أفضل من هذه التي تمضون إليها.

فِي صَحِيح مُسْلِم عَنْ اِبْن عَبَّاس قَالَ: (كَانَتْ الْمَرْأَة تَطُوف بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَة وَتَقُول: مَنْ يُعِيرنِي تِطْوَافًا؟ تَجْعَلهُ عَلَى فَرْجهَا، وَتَقُول: الْيَوْم يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنْهُ فلا أُحِلُّهُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَة ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾). وحسب القاضي عياض، فإن المرأة التي قالت هذا الكلام هي ضُبَاعَة بِنْت عَامِر بْن قُرْط.

وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: (كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاةً إِلَّا أَنْ يُعْطِيَهُمُ

الْحُمْسُ ثِيَابًا فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ)، وَعَنْهُ: (أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا وَصَلُوا إِلَى مِنًى طَرَحُوا ثِيَابَهُمْ وَأَتَوُا الْمَسْجِدَ عُرَاةً).

وَرُوِيَ (أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْ يَطُوفَ إِلَّا فِي ثِيَابِنَا وَلَا يَأْكُلَ إِذَا دَخَلَ أَرْضِنَا إِلَّا مِنْ طَعَامِنَا. فَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بِمَكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْبًا وَلَا يجد من يَسْتَأْجِرُ بِهِ كَانَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَإِمَّا أَنْ يَطُوفَ فِي ثِيَابِهِ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَوَافِهِ أَلْقَى ثَوْبَهُ عَنْهُ فَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ وَكَانَ ذَلِكَ الثَّوْبُ يُسَمَّى اللَّقَى).

وقد أبطل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في حجته سنة تسع كما يُروى عندما أمر أبا بكر رضي الله عنه أن ينادي في موسم الحج: "لَا يَحُجَّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ".

﴿وَكُلُواْ﴾ تناولوا أطيب الطعام ﴿وَٱشۡرَبُواْ﴾ ألذ الشراب، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كلوا واشربوا والبسوا، وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده"[(١)]. وممّا يُروى في أسباب نزول هذه الآية أن بني عامر ما كانوا يأكلون في أيام حجهم إلّا قوتاً، ويمتنعون عن تناول الدَسَم، اعتقاداً منهم بأنّهم يعظّمون بذلك حجّهم. وعندما قال المسلمون للنبي صلى الله عليه وسلّم بأنّهم أحق أن يفعلوا ذلك، أنزل الله عز وجل ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾. وهذا بيان بعدم جواز النهي عمّا أحل الله استناداً إلى توقّعات وظنون.

﴿وَ﴾ في ذلك ﴿لَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ لا تنفقوا أموالكم فيما لا طائل منه، والإسراف كالهدر، أي تهدر ممَا أنعم الله عليك. ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ۝٢٩﴾ [الإسراء: ٢٩].

فلا تحرم نفسك، ولا تزيد عن حاجتك ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١﴾. حتى لا تخرجوا من محبة الله لكم، فتنقلبوا من النعيم إلى الشقاء، فحافظوا على محبة الله

---

(١) رواه أحمد.

لكم بعدم الإسراف.

[٣٢]

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إن كان الله هو الذي أحلّ زينته ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من الثياب وما يمكن أن يتزيّن به الإنسان ليبدو بمظهر أنيق، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات من المأكل والمشرب، وقد ﴿أَخْرَجَ﴾ - ها - ﴿لِعِبَادِهِ﴾ من النبات، والحيوان، والمعادن، وكل ما سخّره الله لذلك، فـ ﴿مَنْ﴾ يملك الحق كي يحرّمها على العِباد، أو على نفسه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد إن ﴿زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، ﴿هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أن تُحرّم شيئاً على نفسك، أي أن تَحرم نفسك منه، فتعيش حالة حرمان، والنعمةُ بَينَ يَدَيك. فبعض الناس يحرّم حلال الله سواء على نفسه، أو على عياله، أو على الآخرين، وهو لا يملك حق التحريم، لأن الله الذي يملك ذلك، لم يحرّمه. وجاءت كلمة ﴿لِعِبَادِهِ﴾ مفتوحة لتشمل الناس جميعاً بصرف النَظَر عن الإيمان، أو عدم الإيمان، فهي من حق كل إنسان كائناً مَن كان، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩]. لكن تأتي جملة الفصل في الآية وهي: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ليكون النعيم خالصاً للمؤمنين دون الكافرين. ﴿كَذَلِكَ﴾ على هذا النحو ﴿نُفَصِّلُ﴾ نوضّح ﴿الْآيَاتِ﴾ الأدلّة والأحكام ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يتدبّرون هذا التفصيل في آياتنا.

[٣٣]

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

ما يؤذي الناس، فقد ﴿حَرَّمَ رَبِّيَ﴾، فكما أنه أحل الذي يطيب به الناس، فإنه

﴿حَرَّمَ﴾ الذي يستفحش به الناس، سواء أكان ارتكاب هذه الفواحش ظاهراً للعيان، أو خلسة وخفية. وفي ذلك ردّ على الذي يبيح لنفسه ارتكاب الفواحش في السر، فهو يتساوى مع الذي يرتكبها في الجَهر، وما هو فرق بين السر والجهر رغم تساوي العِقاب، فإن الجهر يزيد في العِقاب، إذا أدّى إلى إفشاء المعصية واستدراج الناس إليها، فهو لم يكتف بإفساد نفسه كما لدى الذي ارتكبها خفية، بل سعى إلى نشر رقعة الفساد في الأرض، وروّج للفواحش وكان من الدعاة إليها.

والاستتار، لا يعني الاستمرار، ولا يعني مباركة المعصية المستمرة، فهي معصية في وجهَيها الخفي والعَلَني. والستر من الحياء، حياء من الله، وحياء من النفس، وحياء من الآخرين، والحياء من الله، هو رأس الحياء. فالذي يستحي من الله، وإن ارتكب معصية، فإنه لا يتمادى فيها، والذي لا يستحي من الله، يتمادى في معصيته. ولعلّ الإنسان الذي يستحي، يكون أقرب إلى التوبة من الذي لا يستحي. بل حتى الذي لا يستحي في إعلان فاحشته، فإن الحياء هو خطواته الأولى نحو التوبة، فيستحي من الله، وهذا ما يجعله يستحي من نفسه، ويستحي من الناس، ثم يقبل على التوبة.

فإن زَنَت امرأة، تكون قد زَنَت فقط، أمّا إذا صوّرَت هذا الزنا وأشاعته في الناس، فتكون قد زَنَت، وإضافة إلى ذلك، تكون قد روّجت للزنا. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لَا أَحَد أَغْيَر مِنْ الله فَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِش مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ".

﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ثم فَصَلَ ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ﴾ بأن أضافهما بصيغة المفرد بواوَين معطوفَين على ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾. ﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ من الذنوب القبيحة التي يقبح بها الإنسان ﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ بمعنى الاستقواء على الآخرين، والبطش بهم، وقهرهم، وأكل حقوقهم بالباطل، فعندما يتجاوز الإنسان الحدّ، يكون قد بغى ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهذا عائد لـ ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ﴾ وكذلك إلى الجملتَين الختاميتَين من الآية الكريمة: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

ذلك أن الإنسان لا يملك حق هذا التجاوز، وهو من خلال هذه الأفعال المذكورة، يتجاوز ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، فيفعلها وفق الباطل.

﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ الشرك الذي لا أساس له من الصحة، فهو شرك يخلو من البرهان والحجّة. ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ افتراءً دون أن تتحقّقوا ممَا ﴿تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

الباب الرابع عشر: التقوى والصلاح

[٣٤]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾

لعلّ الأمة في الآية لا تعني القوم بأكمله ما دمنا ضمن سياق المحوَر الذي نحن فيه، فالأمة هنا هي مجموع الكفار الذين يجتمعون على عقيدة الكفر، وهذا المجموع هو جزء من القوم الذي تنتمي إليه هذه الأمة، لأن منها ما يخالفها، ويؤمن.

فالأجل هو العقاب الذي يوقعه الله تعالى على هذه الجماعة الكافرة ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ لتلقي العقاب ﴿لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾.

وهذا من شأنه أن يرفع اللبس الذي قد يقع فيه بعض المؤمنين عندما يرون بعض أشكال النعيم عند الكفار، وأهل الفجور، ثم إن البعض يتمادى على كتب الله ورسله: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ - ما يقرؤه محمد صلى الله عليه وسلم - ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢]. ولكن الله يمهل الإنسان ولا يعاجله بالعقاب رحمة منه، وفي ذلك إتاحة له كي يتوب، ويتراجع، ويصلح من شأن نفسه. أمّا الذين يلبثون في كفرهم بعدما يتوب منهم مَن يتوب، فإن الله ينصر المؤمنين عليهم، وقد يطول ذلك: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠﴾ [يوسف: ١١٠]. وذلك من حكمة الله في الناس.

[٣٥]

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾

﴿يَـا﴾ كافـة ﴿بَنِيٓ﴾ ذريّـة ﴿ءَادَمَ﴾ دون اسـتثناء، ﴿إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ رجال ﴿مِّنكُمۡ﴾ وفيكم، أصطفيهم كي يحملوا إليكم ﴿ءَايَٰتِي﴾ التي تبيّن لكم الحقائق، وتضع لكم منهاج حياة قويمة سليمة طيبة.

﴿ءَايَٰتِي﴾ دلائلـي وثبوتيّـاتي اليقينيـة الدامغـة التـي لا ريـب فيهـا، فهـؤلاء ﴿يَقُصُّونَ﴾ كلمة غنية تتكامل مع كلمة ﴿ءَايَٰتِي﴾. فهذه الآيات تحتوي على قصص تعنيكم، ﴿يَقُصُّونَ﴾ - ها - ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ لتأخذوا منها العظة، وتستقيم بها مقوّمات حياتكم، فتكونون حقيقيين أقوياء، تقفون على حقائق، لا مرتابين واهنين، تقفون على تكهّنات. ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ﴾ يمدّونكم بالحقائق والبراهين من خلال ﴿ءَايَٰتِي﴾ التي يقرؤونها ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾.

﴿فَمَنِ﴾ مِنكم ﴿ٱتَّقَىٰ﴾ أخذ العِبرة ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ من شأن نفسه ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ سـواء فـي الـدنيا أو فـي الآخـرة ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ دنيـا وآخـرة، لأن التقـوى والـصلاح، حصانة ومناعة في مواجهة أي خوف أو حزن، فهم لا يخافون، ولا يُخاف ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، ولا ﴿يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾، ولا يُحزَن ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾.

الباب الخامس عشر: ظلم الافتراء على الله

[٣٦]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾

أمّـا ﴿الَّـذِينَ كَـذَّبُواْ بِآيَاتِنَـا﴾ بعـد أن قَـصّها علـيهم رُسُـلُنا، و﴿اسْـتَكْبَرُواْ﴾ عـن الإيمـان بهـا وأخـذ العِظـة منهـا، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مـن الأشـقياء الـذين اتّبعـوا أهـواءهم

وتكهّناتهم، فضلّوا عن سواء السبيل، وبذلك فقد جعلوا من أنفسهم من سَكنة ﴿ٱلنَّارِۖ﴾ الذين يخلدون ﴿فِيهَا﴾ فهؤلاء ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله، وليس هذا فحسب، بل ادّعوا بأنهم أكبر من الإيمان بها.

[٣٧]

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧﴾

﴿فَمَنۡ﴾، جاءت استفهامية تعجّبية ﴿فَمَنۡ﴾، أي لا يوجد مَن هو ﴿أَظۡلَمُ﴾ أعظم ظلماً ﴿مِمَّنِ﴾ مِن الذي ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ تَقَوّلَ ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ ما لم يقل، وقال إنّه مِن الله، ومِن ذلك أن ينسب إلى الله الولد، أو الشريك، أو الصاحبة. ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ أنكَرَ آيات الله وكَذّبَها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فقد ساوى الله تعالى بين إثم التقوّل، والتكذيب، فالطائفة الأولى دَعَت إلى التقوّل الذي لم يقله الله، والثانية نَهَت عَمَا قال الله، فقد تساووا في الإثم من خلال ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، لكن رغم هذا الافتراء والتكذيب ﴿يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ يحصلون على حقوقهم المكتوبة لهم من الأرزاق والأعمار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾، وعندها يقولون لهم الملائكة تبكيتاً: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾. سواء بالدعوة إلى الافتراء الذي افتريتموه على الله، أو بتكذيب آياته واتّباع أهوائكم في عبادة غير الله. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وهذا بذاته اعتراف بالخيبة، أي كنا نعبد دون الله ما قد غاب ﴿عَنَّا﴾ ولا يملك أن ينفعنا بشيء، ولولم نكن نعبدهم، كذلك ما ملكوا أن يضرّونا بشيء. ﴿وَ﴾ - استناداً إلى هذه

الحقيقة التي تجلّت لهم -: ﴿شَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾. أقرّوا بأنّهم كفروا عندما ادّعوا شركاء ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

الباب السادس عشر: المُضِلّون والمُضَلّون

[٣٨]

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ۝٣٨﴾

الدخول هنا بمعنى الانضمام، انضمّوا إلى ﴿أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم﴾ سبقتكم بالدخول ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، كون ﴿ٱلْجِنِّ﴾ لهم أسبقية الخلق، ﴿وَٱلْإِنسِ﴾ الذين سبقوكم لتكونوا معاً ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾. فهو دخول انضمام الذي يكون من كافة أمم الجن والإنس، ومن كافة القرون.

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ﴾ انضمّت ﴿أُمَّةٌ﴾ جديدة إلى ﴿أُمَّةٌ﴾ سابقة ﴿لَّعَنَتْ﴾ كالت اللعنة على ﴿أُخْتَهَا﴾. فكما أن أهل الجنة يُهنؤون بعضهم البعض بالفوز: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨]، فإن أهل النار يلعنون بعضهم البعض بالخيبة وتحدث مناوشات وملاسنات بينهم: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فأهل النار لا يحترمون بعضهم بعضاً، لأنهم يفتقدون الطيب، وفاقد الطيب لا يستطيع أن يكون طيباً مع نفسه، أو مع غيره، على نقيض أهل الجنة الذين يحترمون بعضهم البعض، لأن الطيّب يستطيع أن يكون طيباً مع نفسه، ويكون طيباً مع غيره. فمن هنا تعلم أن أهل الطيب لا يحقدون على أهل الخبث، وأهل الخبث يحقدون على أهل الطيب، وينظرون إليهم نظرة لؤم على ما هم به، فهؤلاء ينضمّون إلى بعضهم البعض رتلاً رتلاً.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا﴾ لم يبق أحد من مستحقي النار خارجها، وقد ضمّتهم، ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ الأمّة التي اتّبعت فكرة التكذيب على الله دون أن تتحقق، تشكو إلى الله الأمّة التي ابتدَعَت وأنشأت فكرة التكذيب. فإن وجَدتَ شخصاً يعبد الشيطان، وقلت له: لِمَ تعبد الشيطان؟ قال: هذا ما وجدتُ عليه أبي، ويقول أبوه: هذا ما وجدتُ عليه أبي. وعلى هذا النحو، فإن كل أمّة تتبع أختها في الضلال، فتكون كل أمّة قد أضلّت أختها حتى إذا بلغنا الأمّة الأولى التي ابتدَعَت وأنشأت فكرة عِبادة الشيطان، وعلى هذا النحو التقوّل بأن الله له أبناء، أو شركاء، أو صاحبة، وكل ما تتفرّع عنه فكرة الضلال، فعند وقوع العقاب تلعن كل أمّة تلو أمّة أختها بشكل تصاعدي حتى بلوغ الأمّة الضالّة المبتدعة لفكرة الضلال. فكل أمّة تريد أن تُحمّل مسؤولية الضلال لغيرها أمام الله وهي تقول: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابًا ضِعۡفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾، فتظهر رغبة الانتقام لديهم، فشخصٌ غرّر بك واتّبعته حتى انتهى الأمر بك إلى السجن، فتشرح للقاضي بأنك كنتَ في حال سبيلك وأن هذا الشخص قد غرّر بك واستدرجك وجعلك تتّبعه، فتريد للقاضي أن يُنزل به عقوبة ضعف عقوبتك، فتشعر برغبة الانتقام من هذا الذي أضلّك وانتهى بك إلى هذه النهاية المروعة. فالحذر كل الحذر من رفقة السوء، والحض كل الحض على رفقة الطيب، فإن أردتَ أن تَتَّخذ صديقاً، فليكن صديقاً طيباً يشهد الناس له بالطيب، وله مواقف طيبة مشهودة.

عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك إما يحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه

ريحاً طيباً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة"[(١)]. الآية الكريمة، تحذّرك من الغفلة، وأن تلبث يقظاً حتى لا يُغَرَّر بك تحت أي ذريعة، لأنه عند وقوع الواقعة، سيتخلّى الجميع عنك، وستدفع وحدك الثمن الباهظ. ومن هنا استخلص أهل القانون مقولة: (القانون لا يحمي المغفلين). وذلك حتى يلبث الناس في يقظة لعدم تجاوز القانون. فالضعف هو الزيادة، أي زدهم عذاباً أكثر من عذابنا. ضاعف لهم العذاب في النار، أي عذاب ضلالهم، وعذاب إضلالنا، فقد زيّنوا لنا الضلال حتى أوقعوا بنا. وكلمة ﴿ضِعْفًا﴾ إقرار بأن العقاب هو عدل وحق عليهم، ولم يُظلَموا فيا رب، هذا العقاب الذي أنزلته بنا هو حق وعدل، ونحن نستحقه، كوننا نُبّهنا من أهل التقوى، فاستهزأنا بهم، وكم من قائل أراد نصحنا، وبيَّن لنا مَغبّة ما كنا فيه من ضلال بدافع المحبة، وبدافع أخوّة المشاعر الإنسانية، ولكننا آثرنا أن نبقى في غفلتنا، واتّباعنا لهؤلاء الذين أضلّونا. الآن اكتشفنا كم أن دعاة الاستقامة كانوا يحبّوننا، وكم أن دعاة الضلال كانوا يبغضوننا: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾. ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾. ولعلّ المعنى أنّكم أيضاً كنتم تضلّون غيركم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ٣٨﴾. فذهابكم إلى تجمّعات وملتقيات الضلال كان يعني أنّكم تؤيّدونهم وتؤازرونهم، سواء بحضوركم، أو بأموالكم. ودعاة الضلال كانوا يعتاشون من أموالكم ويستقوون بها، وتلك المقرّات التي بُنيَت لترويج الضلال، شُيّدَت أعمدتُها بأموالكم. ويشمل ذلك كل المقرّات والمناشط التي تروّج للضلال ومن ضمنها: قنوات التلفاز، ومحطّات الإذاعة، والصحف، والمجلّات، والكتب، وسائر أشكال المنشورات، ورقية كانت، أم الكترونية.

قال الزهري في تعريف الضعف: (الضعف ما زاد وليس بمقصور على مثلين وجائز في كلام العرب هذا ضعفه أي مثلاه وثلاثة أمثاله لأن الضعف في الأصل زيادة غير محصورة وأولى الأشياء به أن يجعل عشرة أمثاله فأقل الضعف محصور

(١) رواه البخاري ج٧ - ص ١٢٥ - ط دار الفكر - د. ت.

وهـو المثـل وأكثـره غيـر محـصور). فالـذي يـروّج للـضلال، يـستقطب النـاس، ويستدرجهم إليه، وعلى قدر ما يوسّع من دائرة الضلال، ويزيّنه للناس سواء بطريقة مباشـرة، أو غيـر مباشـرة، سـواء بـشكل علنـي، أو بـشكل خفـي، يتـضاعف عليـه العذاب.

وكلمة ﴿أُمَمٍ﴾، مفتوحة لتشمل جميع الأمم التي ﴿خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ ولا يُستثنى منها أحد، فكل جيل جديد يحيل الذي سبقه إلى (قَبل)، وهذا الجديد يتحوّل إلى (قَبل) بالنسبة لجيل جديد آخر. فهؤلاء ينتمون إلى جميع الحقب، ومن سائر الأمم. فلا تغرّنك المظاهر، فلعلّ فرقة ضالة تتمكّن من بناء مسجد في مكان ما، تدعو فيه إلى الضلال، فذلك في الظاهر مسجد، وله قبّة مسجد، ويؤذَّن فيه، وما إلى ذلك، لكنّه في الباطن يدعو إلى الضلال، وهو لا يمت إلى بيت الله بشيء سوى بالمظهر. وهذا له امتداده، فقد سبق للمنافقين أن بنوا مسجداً لغاية التفرقة بين المسلمين، وذلك بأمر من أبي عامر الراهب كي يلحقوا الضرر والتفرقة بين المسلمين، فيصلّي فيه البعض ويترك الصلاة في مسجد قباء الذي يصلّي فيه المسلمون. فقال الله جل شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ١٠٧]. وقد تم حرق هذا المسجد وهدمه.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث عن الأشعري: "إن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه إلا يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم". فقال رجل: يا رسول الله وإن صلى وصام؟ قال: "وإن صلى وصام فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين والمؤمنين عباد الله"(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تجيء الأعمال يوم القيامة فتجيء الصلاة فتقول: يا رب أنا الصلاة. فيقول: إنك على خير.

---

(١) رواه أحمد والترمذي.

ثم تجيء الصدقة فتقول: يا رب أنا الصدقة. فيقول: إنك على خير. ثم يجيء الصيام فيقول: يا رب أنا الصيام. فيقول: إنك على خير.

ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: إنك على خير. ثم يجيء الإسلام فيقول: يا رب أنت السلام وأنا الإسلام فيقول: إنك على خير، بك اليوم آخذ وبك أعطي"[١].

عن الدارمي: (أخبرنا الحكم بن المبارك أنبأنا عمر بن يحيى قال: سمعت أبي يحدّث أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الغداة فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بعد؟

قلنا: لا، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعاً فقال له أبو موسى: يا أبا عبد الرحمن إني رأيت في المسجد آنفاً أمراً أنكرته ولم أرَ والحمد الله إلا خيراً، قال: ما هو؟ قال: إن عشت فستراه قال: رأيت في المسجد قوماً حلقاً جلوساً ينتظرون الصلاة في كل حلقة رجل وفي أيديهم حصى فيقول كبروا مائة فيكبرون مائة، فيقول هللوا مائة فيهللون مائة، ويقول: سبحوا مائة فيسبحون مائة، قال فماذا قلت لهم؟ قلت: ما قلت لهم شيئاً انتظار رأيك وانتظار أمرك، قال: أفلا أمرتهم أن يعدوا سيئاتهم وضمنت لهم ألا يضيع حسناتهم شيء؟ ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟ قالوا: يا أبا عبد الله حصى نعد به التكبير والتهليل والتسبيح، قال: فعدوا سيئاتكم فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد ما أسرع هلكتكم، هؤلاء صاحبة نبيكم صلى الله عليه وسلم متوافرون، وهذه ثيابه لم تبل، وآنيته لم تكسر، والذي نفسي بيده إنكم لعلى ملة هي ما أردنا إلا الخير قال وكم من مريد للخير لن يصيبه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثنا "أن قوماً يقرءون القرآن لا تجاوز تراقيهم"، وأيم الله لعل أكثرهم منكم، ثم تولى عنهم. فقال عمرو بن سلمة: رأينا عامة أولئك الحِلق يطاعنوننا يوم النهروان مع الخوارج).

---

(١) رواه أحمد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَنْ خَرَجَ عَنِ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَمَاتَ، فَمِيتَتُه مِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ"[١]. ولعلّ خطيباً يستغل منبر بيت الله ليحقق لنفسه من خلاله مآرب شخصية، فتكون غايته من المنبر، غاية وصولية في مراتب دنيوية. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق، يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني شيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر فيها إلا قليلاً"[٢].

يقول علي بن أبي طالب للّذين يتزيون بزي الإسلام ويبنون مساجداً في سبيل تحقيق الفرقة في الناس: (أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق والمقيم بين أظهركم مرتهن بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه، كأني بمسجدكم كجؤجؤ سفينة قد بعث الله عليها العذاب من فوقها ومن تحتها وغرق من في ضمنها). ويصف الذي يفتي لهؤلاء: (قد سماه أشباه الناس عالماً وليس به، جلس بين الناس قاضياً ضامناً لتخليص ما التبس على غيره، فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشواً رثاً من رأيه، ثم قطع به، فهو في لبس الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أصاب أم أخطأ، فإن أصاب خاف أن يكون قد أخطأ وإن أخطأ رجا أن يكون قد أصاب)[٣].

وعن حذيفة رضي الله عنه: (كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: "نَعَمْ"، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: "نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ"، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: "قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ"، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: "نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) نهج البلاغة - ج١ ط٢ - دار الأندلس - بيروت ١٩٦٣.

فِيهَا"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قَالَ: "نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: "تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ"، فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: "فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ")(١).

فاعلم أن أي مقرّ يُدعى فيه إلى الحق والهداية والتقوى والاستقامة والتآلف والتعاضد بين المسلمين جميعاً، فهو بيت من بيوت الله مهما كانت هيأته متواضعة، حتى لو كان عبارة عن غرفة صغيرة في دائرة، فهذه الغرفة هي بيت الله في تلك الدائرة.

والمدير اليقظ، ينتبه إلى هذه الحقيقة، فتراه لا يأذن أن يكون فرش وأثاث وديكور غرفته، أفضل من فرش وأثاث وديكور غرفة الله، ولا يأذن أن يكون موقع غرفته أفضل من موقع غرفة الله، ولا يأذن أن تكون سعة غرفته أرحب من سعة غرفة الله في الدائرة التي جعله الله مديراً لها. فهو يستحي من الله إن لم يكن ذلك، فتراه عندما يزوره الناس في دائرته، فإنه يأخذهم لزيارة غرفة الله في تلك الدائرة، لأنها تكون أفضل وأجمل وأبهى الغرف في الدائرة. ولكن المدير الجاحد لأفضال الله عليه، لا يعنيه ذلك بشيء، فتكون غرفة متصدّعة الجدران، رثّة السجاد، كريهة الرائحة، رديئة الإنارة، سيئة الموضع.

[٣٩]

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

تقول كل أمة للأمة التي اتبعتها، ويجوز أن يقول كل شخص للشخص الذي اتبعه: **﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾**. ونقيض الفضل الأذى، أي أنكم أذيتم أنفسكم باتباعكم لنا، واذيتمونا أيضاً، فقد كنتم تؤازروننا على الضلال، وتجعلون

(١) صحيح مسلم.

مسيرة الضلال مُمكنة ومُستأنَفة من بعدنا، فلا تبرؤوا أنفسكم وتحمّلوننا كل الإثم، ﴿فَذُوقُواْ﴾ معنا ﴿ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝٣٩﴾.

[٤٠]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾

﴿أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ المؤدّية إلى الجنة مفتوحة للذين آمنوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وتواضعوا لها، وأصلحوا العمل، ولكن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ يدخل ﴿ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ﴾ ثقب إبرة ﴿ٱلۡخِيَاطِۚ﴾.

فـ ﴿ٱلۡجَمَلُ﴾ مهما حاول، فإنه لا يجسر أن يدخل ﴿فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، ويبقى دون ذلك. فالمعنى أن الذين يدعونكم إلى الضلال على أنه الطريق إلى الجنة، كمن يدعون إلى دخول الجمل في ثقب إبرة ﴿ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، فإن استطاعوا ذلك، فإنهم سيستطيعون أن يدخلونكم الجنة. فالذين يزيّنون لكم الضلال على أنه يوصلكم إلى الجنة، مثلهم كمثل الذي يزيّن للجمل ولوج ثقب إبرة ﴿ٱلۡخِيَاطِۚ﴾.

و﴿حَتَّىٰ﴾ هي إشارة إلى أنهم لو استطاعوا أن يجعلوا الجمل ﴿يَلِجَ﴾ في ثقب إبرة ﴿ٱلۡخِيَاطِۚ﴾، سيصدقونكم القول بدخول الجنة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾. فهذا هو الجزاء الذي يلقاه المجرمون من الله تعالى، نظير ما قدّموا من أفعال إجرامية، فهم يلبثون دون الجنة ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾. وقد وصمهم الله بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾ لأنهم أجرموا بحق أنفسهم، وأجرموا بحقوق الآخرين عندما ﴿كَذَّبُواْ﴾ بآيات الله ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان والعمل بها. فالتابع والمتبوع اجتمع في وصمة الإجرام وأصبح سواءً في سواء، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤٠﴾. نجعلهم مجتمعين مع بعضهم البعض في جهنم، كما كانوا يتآزرون ويتواصلون مع بعضهم البعض في التكذيب والاستكبار من كافة العصور.

الباب السابع عشر: مِهاد وغواش الظالمين

[٤١]

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾

المهاد هو الفراش، فهم يفترشون جهنم، والغواش جمع غاشية، وهو الشيء الذي تقي نفسك به، فتجعله وقاية بينك وبين حر شديد. فإن كنتَ في شمس في ذروة ظهيرة الصيف الشديد الحرارة، تبحث عن أي شيء تتخذه وقاءً بين بدنك العاري من الثياب، وبين أشعة الشمس الملتهبة. فالآن تضعك الآية الكريمة أمام هذا التصوّر، والغاية من ذلك، حتى تصلح من شأن نفسك إن كنتَ فاسداً، حتى تعيد حقوق الناس إن كنتَ أخذتها منهم بالباطل، حتى تنتهي من الاعتداء على أعراض الناس، حتى تنتهي من الوشاية، والرياء، والنفاق، وفي كل ذلك حتى ترحم نفسك من الإرهاق الفكري، والاضطراب النفسي، والقلق، والمكائد، فتنعم بصفاء الذهن، وهدوء الأعصاب، وسكينة النفس. وتتحوّل من إنسان شرير إلى إنسان خيّر، من إنسان ضار إلى إنسان نافع، من إنسان مزدَوَج إلى إنسان سَوي، من إنسان كاذب إلى إنسان صادق، من إنسان زان إلى إنسان عفيف، فإن كان بك شيء من ذلك، تنبّهك الآية كي تقلع عنه، وإن لم يكن، فتنفعك الآية بأن تجعلك محافظاً على ما أنت فيه من صلاح واستقامة، وتسعى إلى الاستزادة. كانت خاتمة الآية السابقة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾. واختتمت هذه الآية بـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾. فلا تتوسّم عدلاً من إنسان مجرم، فهو قد ظلم نفسه، وظلم غيره، فمجرّد تنفيذ الجريمة هو تحقيق للظلم لنفس مرتكب الجريمة، وللمجني عليه. وكلمة ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ في هذه الآية تُغني اشتقاقات معاني كلمة ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠﴾ في الآية السابقة، وأُخرجت الجريمة من حصرها في القتل لتشمل سائر ما يمكن أن يلحق الأذى والضر بالنفس، أو بالآخر. فكل ظلم يجعل من الظالم مجرماً، وكل جريمة تجعل من المجرم ظالماً، فقد جعلت الآيتان العلاقة متداخلة بين الجريمة والظلم.

الباب الثامن عشر: التكليف

[٤٢]

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

تريك الآية أحوال الصالحين المستقيمين في الجانب الآخر ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ من عموم ذرية آدم في كل زمان ومكان ﴿ءَامَنُواْ﴾ بِما أنزل الله، ولم يكذّبوا ولم يستكبروا ﴿وَ﴾ تفاعلوا مع إيمانهم بأن ﴿عَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾، اتّبعوا شرع الله وانتهوا عمّا نهى عنه. وجاءت عبارة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ لتراعي بعض تداعيات النفس، جاءت كلمة ﴿نَفْسًا﴾ دقيقة لتخاطب النفس البشرية، وما يمكن أن يتداعى عنها، فإن وقع الإنسان في زلّة في غفلة ما، عليه أن ينتبه ويتراجع ويستغفر ربه، لأن الشيطان يريد أن يستدرجه بتلك الزلّة للاستمرار، ويزيّنها له حتى يأخذ من تلك الزلّة ذريعة للاستمرار. فنفس الإنسان تميل إلى الذنوب، والمؤمن يتّخذ من ذنب أذنبه وسيلة للمزيد من الاستغفار والتوبة. ولعلّ في كلمة ﴿وُسْعَهَآ﴾ أن الإنسان لا يسعه أن يعيش حياته دون ذنوب، ومهما حاول فلن يكون بوسعه ذلك لأن جبلة النفس البشرية لا تتسع لذلك، بل يمكن للذنب أن يجدّد الإيمان، فلعلّ ذنباً ارتكبه مؤمن صالح، جعله يعود إلى الصراط المستقيم بقوّة ألف عابد، ولعلّ عودة من ذنب ارتكبه، تجعله يتذوّق حلاوة الطاعة بما لم يذقها في عمر من الطاعة. فالمؤمن القوي ليس هو ذاك الذي تخلو حياته من الذنوب، بل هو ذاك الذي ارتَكَبَ ذنوباً، وأصبح قوياً بالإقلاع عنها، وقوياً بعدم تمكّنها منه ليستمر فيها، أو تستدرجه إلى المزيد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾. في الآية ٣٦ قال في خاتمتها:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾. والآن استُبدِلَت كلمة واحدة من ذات الجملة، فجاءت ﴿ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ بدلاً عن ﴿ٱلنَّارِۖ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين آمنوا بالحق وأصلحوا واستقاموا ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ أهل ﴿ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الذين أُعِدَّت كي يكونوا ﴿هُمۡ﴾ أهلها وسَكَنتها و﴿أَصۡحَٰبُ﴾ الخلود فيها.

[٤٣]

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾

مِن نِعَم الله تعالى على الإنسان أيضاً أنه ينزع الغِلّ من صدره، ففي الجنة لا يوجد إنسان في صدره ذرة ﴿مِّنۡ غِلّٖ﴾. وهذا نقيض أهل النار الذين لا يكرمهم الله تعالى بهذه النعمة، فيلبثون في غِلّهم، ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾. فنحن أمام أناس أنقياء، وقد استهلّت الآية بكلمة: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾، والنزوع هو من نسيج الشيء، والغِلّ هو فيروس نائم في جسم الإنسان لا أحد يستطيع أن ينزعه إلّا الله، وهو شبيه بالفيروسات المَرضيّة التي هي في الأصل متواجدة في دم الإنسان، ولكنها نائمة لا تؤذيه بشيء، وقد تبقى نائمة حتى نهاية عمر الإنسان، وقد تستيقظ وتستفحل به في أي وقت من الأوقات وفق العوامل، ومنها التلاقح والاستقواء عندما تتسرّب إليها فيروسات أخرى من الخارج، أو عند الانفعالات المتصاعدة، لأن الجهاز المناعي يُصبح ضعيفاً أمام تسرّب فيروسات أخرى، وتجاوب الأولى معها، أو أمام تصاعد الانفعالات، فيؤدّي ضعف الجهاز المناعي إلى يقظة وتنشيط الفيروسات لتستفحل بالإنسان وتفتك به، فيرتفع به الضغط، أو تخرج نسبة السكر عن معدّلها الطبيعي، أو تتلاقح الفيروسات السرطانية، أو يتخثّر الدم فيستعصى على القلب ضخّه إلى العروق.

فكل ذلك يمكن للإنسان أن يتفاداه من خلال الوقاية من العوامل المؤدّية إليه، كما أن الأمر بالنسبة إلى النار التي يمكن للإنسان أن يتفاداها بالوقاية من العوامل المؤدّية إليها، وكما أن ذلك يؤدّي في الدنيا إلى حياة هانئة طيبة، فإنه في الآخرة يؤدّي إلى الجنة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فيحمدون الله على ذلك ويقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وهم في ذروة الحصول على حقوقهم التي وعدهم الله تعالى بها من خلال رسله، يستأنفون القول: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فآمنّا بِما حملوه إلينا من ربنا في الدنيا، والآن نرى ونعيش تحقيق ما آمَنّا به على أنه حق.

﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي ﴿تِلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾ هي نتاج عملكم في الدنيا، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧١].

الباب التاسع عشر: أعراف الله

[٤٤]

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

تُخبرك الآية الكريمة هنا بأن الحديث ممكن بين ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾، فأصواتهم تصل بعضهم البعض. ويمكن الاستنباط من فحوى هذا الحوار بأن ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ يُذكّرون ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾ عندما كانوا يستهزؤون بهم وباستقامتهم في الدنيا حيث إن ذلك سيكون هباءً في هباء. فالآن: لم يكن ذلك هباءً في هباء، بل كان ﴿حَقًّا﴾ في حق، والآن: ﴿قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حق الحق الذي ﴿وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ به، وظَفَرنا بِما وُعِدنا به. وعندما كنا نردّ على استهزائكم بالموعظة الحَسَنة، وندعوكم إلى

الهداية، لأن الله يعد الضالّين بأن يكونوا أصحاباً للنار: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ وهذا اعتراف وتأكيد منهم بأنّهم تَلَقّوا الوعيدَ بالعِقاب، بَيدَ أنّهم لبثوا في تكذيبهم واستكبارهم وعصيانهم.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ جاءت كلمة الأذان دقيقة، لأن الأذان دعوة إلى الصلاة التي تقي الإنسان أن يكون فاحشاً منكراً، ودعوة إلى الفلاح الذي يحض الإنسان كي يفلح ما استطاع في الدنيا، بهدف أن يجد الحصاد الذي وعده ربه يوم القيامة.

ونهاية هذه الآية الكريمة مُتّصلة بنهاية الآية السابقة: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾، فهذا حصادكم الذي زرعتموه.

أمّا ﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الذين ظلموا أنفسهم بحرمانها من الجنة، واستحقاقها النار. فعملك هو الذي يجعلك صاحباً للجنة، أو صاحباً للنار ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

[٤٥]

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

أي - ﴿أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ - ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾. هنا تدرك أن مرادفات اللغة العربية تغتني وتمتاز عن بعضها رغم المعنى الواحد، فلم ترد (ويريدونها) رغم أن ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ بمعنى (ويريدونها). لكن حروف كلمة الترادف تذكّر بالبغي، فهم يبغون البغي من خلال إرادتهم ليجعلوا العِوَجَ في الاستقامة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فهم قد اعوجّوا أولاً، ثم يسعون إلى تعميم الاعوجاج ليكون حالة عامة، وهم من دعاة وأئمة الاعوجاج، ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾، ذلك أن ﴿هُم

بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، فلا يحسبون حساباً للثواب والعقاب ﴿وَهُم﴾ ﴿بِ﴾ الحِساب في ﴿الآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ جاحدون.

وبالعودة إلى قراءة الآية، تجد أنها ترتكز على الذين ﴿يَصُدُّونَ﴾ الآن ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا﴾. وقد أظهَرت الآية السابقة كيف أن الذين سبقوهم في الصَدّ، قد أمسوا في الجحيم، وهم يقرّون بأنهم وجدوا وَعيدَ الله بهم، وبالمقابل وجد المؤمنون وَعدَ الله لهم. فالآية الكريمة تقول لهم: لا تضلوا ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَ﴾ لا تَ ﴿بْغُونَهَا عِوَجاً﴾ ولا تكفروا ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حتى لا تلحقوا بـ ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، وحتى تكونوا من ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

[٤٦]

﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

يضع الله سبحانه وتعالى حِجاباً بين ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ و﴿أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾، ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ﴾. ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ هي الحدود التي تحدّ وتفصل ما بين الجنة والنار، فهي تبيّن للجنة حدودها، وتبيّن للنار حدودها، وتكون حدّاً ما بينهما، وهي جمع عرف، والعرب تسمي كل مكان مرتفع من الأرض عرفاً. ﴿وَعَلَى﴾ هذه الحدود ﴿ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ يجتمع ﴿رِجَالٞ﴾، وهؤلاء الرجال ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا﴾ مِمّن هم في الجنة أو في النار ﴿بِسِيمَىٰهُمۡۚ﴾ بملامحهم.

ووضعهم في هذا المكان ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ أي ﴿عَلَى﴾ أعلى الساتر الفاصل فيه شيء من التعجّب، فَمَا الذي أتى بهم إلى هذا الموضع، فلا يكونوا في الجنة، ولا يكونوا في النار. والتواجد لا يكون خاصاً بالرجال فقط، بل بالنساء أيضاً، لكن جاءت كلمة ﴿رِجَالٞ﴾ كون النساء ينتسبن للرجال، كما الحال بالنسبة للرجال الذين ينتسبون للرجال، فهما معاً ينتسبان للرجال، فنسبة الرجل لأبيه، وكذلك نسبة المرأة

لأبيها. ثم إن الذكورة إذا اجتَمَعَت مع الأنوثة، فإن النسبة تكون للذكورة، حتى لو كانت أعداد الذكور أقل من أعداد الإناث، فإن اجتمع عشرة أشخاص، ست نساء، وأربعة رجال، فنقول: رأيناهم في المدينة، ولا نقول: رأيناهن. بل حتى لو كن تسع نساء مع طفل واحد، فإننا تقديراً للذكر في الطفل، لا نقول: رأيناهن، بل: رأيناهم، كون الغَلَبة تكون للذكورة، وفي الأصل كان الرجل قبل أن يكون للمرأة أي وجود، ثم كانت المرأة من خلال وجود الرجل، فوجودها دوماً يقترن بوجود الرجل، ولذلك تبقى تابعة للرجل وتحمل نسبة الرجل، وتكون صيغة الذكورة غالبة على صيغة الأنوثة عند وصفهما معاً. ولذلك قد تكون أعداد النساء أكثر من أعداد الرجال الذين تم وضعهم ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾.

إذن: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ بعد أن انتهى الميزان، وفَرزَ الناسُ بحسَب أعمالِهم، وقد لبث هؤلاء دون فرز عندما تبيّن أمام الميزان بأن حسناتهم لا تخوّلهم دخول الجنة، كما أن سيئاتهم لا تؤهّلهم دخول النار، فقد تساوَت كفتا ميزان حسناتهم بسيئاتهم، فلا مثقال ذرة زيادة، ولا مثقال ذرة نقصان، فتم وضعهم مؤقتاً ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ ريثما يُحسَم أمرهم بما يأمر الله تعالى في شأنهم. وفي ذاك الموضع المضطرب، ينظرون تارة إلى أهل الجنة، وتارة إلى أهل النار: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾. ينادون ﴿أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بأصواتهم، ويسلمون عليهم ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أن ﴿يَدْخُلُوهَا﴾.

الطَمَعُ في الحصولِ على شيء، هو أمنية في الحصول على ما هو ليس حقّك، ولكن يمكن لك أن تطمع في الحصول عليه بِكَرَمٍ مِن كريم، فكرمه يجنّبكَ اليأس في الحصول على مبتغاك. فجاءت الكلمة معبّرة عن جوهر الموقف، فـ ﴿هُمْ يَطْمَعُونَ﴾ كَرماً من الكريم بِما لا يستحقونه بأعمالهم، والله دوماً يُطمَع بِرَحمَته وكَرَمه.

وأهل الجنة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ﴾ [الرحمن: ٥٤].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الرحمن: ٧٦].

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ١٥، ١٦].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قلنا يا رسول الله الجنة ما بناؤها؟ قال: "لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَمِلاطُهَا المِسْكُ الأَذْفَرُ وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلا يَبْأَسُ، وَيُخَلَّدُ وَلا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ وَلا يَفْنَى شَبَابُهُمْ"[(١)]، وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن ابن صياد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة؟ فقال: "دَرْمَكَةٌ بَيْضَاءُ مِسْكٌ خَالِصٌ"[(٢)].

وما يجعل هؤلاء ﴿يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾، أن أمرهم لم يُحسَم بعد، أي هناك إمكانية للنجاة من النار، فلا تمسّهم لحظة واحدة رغم الحجم الهائل من الذنوب في موازينهم، وبناءً على ذلك، فهناك إمكانية لدخولهم الجنة رغم عدم غلبة حسناتهم كفة السيئات ولو بزنة ذرة واحدة، فكَرم الله جلّ شأنه يحسم لهم الأمر، وهم يعقدون كل آمالهم على هذا الكرم بانتظار أمر الله سبحانه وتعالى. فكما أن كفة الحسنات وضعتهم على حافة الجنة فيرونها بأعينهم، فإن كفة السيئات وضعتهم على حافة النار، فيرونها بأعينهم، فلبثوا يتأرجحون على الحافتَين.

[٤٧]

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

وكما أنهم ينظرون إلى أهل الجنة ويمتلؤون رغبة وشوقاً لدخولها طَمَعاً برحمة الله، فإنهم ينظرون إلى ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ويتّقون دخولها قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ وليس: صرفوا ﴿أَبْصَٰرُهُمْ﴾، بمعنى أنهم ومن باب الفضول والاستطلاع أرادوا أن يروا ما هم عليه ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾. أي، نظروا وهم لا يبتغون

(١) أخرجه الترمذي والدارمي.

(٢) أخرجه مسلم.

أن ينظروا، ولكنهم نظروا فضولاً واستطلاعاً كَمَن يسترق نظرة سريعة خاطفة إلى شيء، ويُعاود بسرعة. ولعلّ في هذا الصرف بذاته إشارة إلى أنهم وضعوا احتمال دخول النار، إلى جانب احتمال دخول الجنة، ولذلك ﴿قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

فكان النظر السريع فقط لرؤية الحال استناداً إلى شعورهم بإمكانية الانضمام إلى تلك الحال، فلم ينادوهم، ولم يسلّموا عليهم كما فعلوا عندما نظروا إلى ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وتمنّوا دخولها، وطمعوا برحمة الله لتحقيق أمنية الدخول، بل ﴿قَالُواْ﴾ اتقاءً: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ أي ﴿لَا﴾ تساوينا ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، و﴿لَا﴾ تضمّنا إليهم.

[٤٨]

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

يحدث أن يتعرّف ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ على أناس ﴿يَعْرِفُونَهُم﴾ بملامحهم، فيقولون لهم: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾. أي مهما كانت تجمعاتكم كبيرة، ومهما حشدتم من أناس في تجمعاتكم التي استكبرتم فيها على آيات الله، اليوم تبيّن أنه ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ﴾ ذلك كله بشيء. فمئة شخص يتواضعون لله ويؤمنون بوحدانيته ويعملون صالحاً، هم خير من ألف يفسدون في الأرض. فعدد قليل من الأشخاص مثل تاجر، وطبيب، ومزارع، ووجيه، وحِرَفي، وعامل، وما إلى ذلك يتفقون ويتعاونون فيما بينهم على أفعال الخير والصلاح لوجه الله تعالى، مثل إنشاء جمعية خيرية تُعنى بتأمين رواتب ولو منخفضة لأهل الحاجة، أو بناء مشفى خيري، أو فتح صيدلية خيرية، أو الاتفاق مع مخبز لتأمين الخبز لعائلات فقيرة، أو تزويد أهل الحاجة بمواد تموينية، وأحياناً يقوم بعض الخَيّرين بتخصيص حصّالة يضعون فيها ما باستطاعتهم على مدار عدّة شهور، ثم يوزّعون ما قد تجمّع من المال فيها على أهل الحاجة.

فَمِن الناس مَن يملكون سلسلة محال لبيع اللحوم، أو يملكون أبنية لعيادات طبية، أو سلسلة مخابز، أو مباقر، أو دواجن، أو محال لمواد تموينية، أو ما شابه، لكن منظر فقير لا يحرّك فيهم ساكناً، ولا شيء يعنيهم سوى تكديس الأموال حتى

لو كان ذلك على حساب احتكار لقمة عيش فقير. فهؤلاء لا يغنيهم كل ذلك بشيء مهما كثرَت أعدادهم، ومهما اتّسَعَت أموالهم، ولكن الذي فيه نفع، هو ذاك الشخص الذي عندما يتناول لقمة لحم طيبة، يتذكّر في ذات الوقت المحتاج الذي لا يستطيع أن يبتاع اللحم، فيتحرّك فيه ساكن، ويبتاع دابة، ثم يقسّم لحمها في أكياس، ويوزعها على المحتاجين حتى يأكلوا كما أكل، فبذلك يكون قد شكر الله على ما أطعمه من لقمة طيبة، ولأنه ليس أكرم من الله، فإن الله الذي ينظر إلى صَنيعه، يُضاعف له في العطاء. وهذا يأتي إلى سائر ما يمكن للإنسان المقتدر أن يقدّمه لأخيه الذي به عوز، فهو يشعر بالآخر، ويتآزر معه لوجه الله تعالى، فهذه المواقف الإنسانية يراها عند الله، ويُعامَل بمثل ما عامَل. فأولئك ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ عنهم جمعهم، وما أغنت عنهم أموالهم، ذلك أنهم كانوا يستكبرون على الناس، ويتعالون عليهم. فالناس يحتاجون إلى جمعيات خيرية تعزّز فيهم مشاعر الألفة والتحاب. فاعلم أن الأولوية في أي مهنة مكّنك الله منها، هي للإنسان، وأن أي مال خلا من نصيب الفقير فيه، هو مال منزوع البركة، فلا نفع في مال تجنيه من خلال إلحاق الضر بإنسان. فطبيب عديم الخبرة يرى الناس يموتون نتيجة خبرته المتدنية في العلاج، ولا يحرّك ذلك فيه ساكناً، ولا يفكّر أن يطوّر خبرته، أو يعاقب نفسه بالتوقف عن العمل شهراً، لأنه ينظر إلى الأمر من منظور مادي يفوق المنظور الإنساني، وصيدلاني يتسبب في إلحاق الأذى بالناس نتيجة أخطاء يرتكبها في إعطاء الأدوية الموصوفة في الوصفة الطبية، ولا يحرّك ذلك فيه ساكناً. فاتقان العمل من العبادة، لأن الجودة تنتج من خلال الاتقان، فلا يكون الدافع من خلال أي عمل هو الأخذ، بل الأخذ وفق جودة العطاء.

[٤٩]

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ - استئناف لنداء ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ -: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الفقراء ﴿ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾. ها هم ﴿هؤُلاء﴾ قد نالهم

﴿ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾.

وجاءت ﴿أَ﴾ سابقة ﴿هَؤُلاء﴾ تقريعاً وتعجّباً في ذات الوقت، كَمَن يقول لك كلاماً مجحفاً بحق شخص طيّب ويقسم على ما يقول، فتقول بتعجّب: أتقصد فلاناً؟!. وهذه هي المظاهر التي تعمي الناس عن الحقائق، وذلك منبته الاستكبار، حتى أن البعض لا يتنازل أن يقف بسيارته ليوصل فقيراً يكون يمشي تحت الشمس لأنه لا يملك أجر الركوب، وقد يتجاهل بأنه رآه حتى لا يسلّم عليه، بل إذا رآه الفقير في مكان ما وألقى عليه السلام، تراه إمّا يُظهر بأنه لم يسمع، أو يرد ببرود، لأنه يعتقد أن معرفته الوثيقة بفقير هي انتقاص من شأنه. وبذات الوقت فإنه لو رأى غنياً أو وجيهاً في مكان ما، فتراه يقف، ويقدّم نفسه إليه، ويعرض عليه خدماته. فإذا نظرنا إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، نراه كان يعتني بالفقراء ولم يكن يميّز نفسه عندما يكون جالساً مع أصحابه، حتى إذا دخل شخص غريب، ما عرف مَن هو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجالسين، حتى يسأل، وكان إذا مرّ بالصبيان يسلّم عليهم، وكان يلبّي طلبات الناس، ويتواضع لهم، وذات يوم عندما رأى شخصاً أتى إليه وقد ارتعد من هيبته، قال: "هوّن عليك فلستُ بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد".

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ فهاهم ﴿هَؤُلاء﴾ الذين لم يكونوا يعجبون المستكبرين ينالون المقامات الرفيعة عند الله، في حين مُني المستكبرون بالخزي والعار والذل. ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ هاقد نالهم الله ﴿بِرَحۡمَةٍۚ﴾ ونحن نراهم بأعيننا يرفلون في نعيم الجنة، كما نراكم بأعيننا تتقلّبون في سعير النار.

إلى هنا وقد انتهى كلام ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾، ليجيء أمر الله بشأنهم: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩﴾.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: (أصحاب الأعراف قوم ينتهى بهم إلى نهر يقال له الحيوان، جانباه قضب الذّهب مكلّل بالدّرّ، فيغتسلون فيه ويخرجون وفي

نحورهم شامة، فيعودون فيغتسلون فيزدادون بياضاً وحسناً، فيقال لهم: تمنّوا، فيتمنّون ما شاؤوا، فيقال لهم: لكم سبعون ضعفاً، فهم مساكين أهل الجنّة).

[٥٠]

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾

يبدو أن الأمر قد حُسِم بشأن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ﴾، فلم يعد لوجودهم ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ ذكر، وقد تحوّل ذاك الوقوف إلى شيء من الماضي، فتستأنف الآية المرحلة الجديدة التي لم يبق فيها أحد خارج الجنة، أو خارج النار: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، وكلمة ﴿أَفِيضُواْ﴾ تبيّن مدى الحاجة القصوى إلى ﴿ٱلۡمَآءِ﴾ أولاً: ﴿أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ فعندما تكون عطشاناً، تطلب بعض الماء لتشربه، أما إذا كنتَ في عطشٍ شديد، وبذات الوقت تكون محفوفاً بالنار المشتعلة بك، فعندها تطلب فيضاً ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، من أجل إطفاء النار، لأن فيض ﴿ٱلۡمَآءِ﴾ يَتَمَكّن من النار ويُطفئها. فلم يطلبوا شربة ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، بل: يا ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾. فإن أول شيء طلبوه هو ﴿ٱلۡمَآءِ﴾ لكونه يطفئ النار، وينهي الحرارة المرتفعة، ويروي العطش. ثم لم يركّزوا على شيء بعينه، بل ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ فتكون إجابتهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠﴾.

الباب العشرون: وزر الجحود بآيات الله

[٥١]

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾

فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حرّم الله عليهم ما في الجنة ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾

فقد أمضوا حياتهم في لهو ولعب ﴿وَغَرَّتۡهُمُ﴾ استدرجتهم ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ إلى متاهات الأهواء. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ﴾ نحرمهم نعيم الجنة ﴿كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ فهم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ حرموا أنفسهم من هذا النعيم، وقد جعلتهم الأهواء ينسون ﴿لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾. ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ كذلك ﴿نَنسَىٰهُمۡ﴾ لأنهم ﴿كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾، فهم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ﴿مَا كَانُواْ﴾ يؤمنون بما حَمَلَت إليهم آياتنا، وبَيَّنَتْ لهم هذا الذي يرونه في ﴿يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾، وهم الآن يلقون عاقبة جحودهم. وهذا الذي ذُكر من الذين يكونون في الجنة، أو الذين يكونون في النار، أو ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾ لم يحصل بعد، فهذه الأماكن المذكورة هي خالية من الناس حتى يوم القيامة، وهذه الوقائع متصلة بالآية الثامنة: ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ﴾. أي أن ذلك سيقع ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾. وأنه لم يقع بعد، وبذلك فلا أحد ﴿عَلَى الأَعْرَافِ﴾، ولا أحد في الجنة، ولا أحد في النار بعد، فهذا كله إخبار من الله عز وجل بأنه سوف يحصل ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾. والمجال مفسوح أمام المخيّلة البشرية كي تتخيّله على سبيل أنه سيقع، بوعد قاطع من الله تعالى. فالحكمة من ذلك أن الإنسان سيكون بإمكانه أن يختار ما هو أفضل، ويتقي ما هو أسوأ عندما يُظهره الله سبحانه وتعالى على هذا الغيب الذي سوف يقع لا محالة. وهذا أيضاً فضلٌ من الله على الإنسان، فالناس كما نعلم جميعهم ما يزالون في الأرض منذ خروج آدم عليه السلام من الجنة، وأجساد الناس جميعاً ما تزال في الأرض بمن فيهم الأنبياء والرسل، ويُستثنى منهم عيسى عليه السلام الذي له خصوصيته حتى في الخَلق، كما ورد في القرآن، والسنة. فالجنة خالية من الناس، وكذلك النار، حتى يأتي ﴿يَوۡمَئِذٍ﴾، فيكون الحساب الأكبر، ويكون الفرز الأكبر للناس جميعاً. فإذن لم يقف أحد على الميزان بعد، ولن يقف عليه أحد قبل حصول ذلك اليوم الموعود، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يروي بأنه رأى أناساً في الجنة، وأناساً في النار، وسأل عنهم جبريل عليه السلام،

فعرّفه عليهم كما جاء في بعض الأحاديث، فكيف يتوافق ذلك مع ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ الذي لم يأت بعد؟ فهذا جائز لأن أرواح الأنبياء والرسل وأقطاب الصلاح البشري تكون في الجنة، لكن الأجساد هي في الأرض، وهكذا أرواح المشركين وأقطاب الفساد البشري. فمعلوم أن أرواح المؤمنين، وأرواح الكفار لا تكون في موضع واحد، والتعامل مع أرواح المؤمنين، لا يكون كالتعامل مع أرواح الكفار عند الموت.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَيْرٌ يَعْلَقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَهُ اللهُ إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ"(١). ويكون النبي صلى الله عليه وسلم أول الداخلين إلى الجنة، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ"(٢).

وإذا كان ذلك بمثابة التكريم للمؤمنين في مرحلة البرزخ، فإنه بمثابة الرحمة للكفار لأن ذلك قد يخفف عنهم العذاب ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾. وهذا مثل شخص يتم توقيفه على ذمّة التحقيق، وبعد سنة من التحقيق والأدلّة، تثبت عليه الجناية ويُحكم بسببها سنة ونصف، فتُحسَب سنة التوقيف تلك من الحكم، فلن يلقى العقاب الذي يتوجب عليه عند إثبات الجناية ووقوع الحكم خلال سنة ونصف، بل يلقاه فقط في نصف سنة. وعلى ذلك فإن البعض قد يخرج من البرزخ إلى يوم الحساب وقد اقتص منه تماماً. فالرسول صلى الله عليه وسلم يجوز أن يكون قد رآهم في المعراج، ويجوز أن يكون قد رآهم أيضاً في المنام، وذلك بما أذن الله تعالى له بذلك. عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: "يَا بِلَالُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ

---

(١) رواه مالك في الموطأ.

(٢) رواه مسلم.

نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ".

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم: "رأيتني دخلت الجنة فسمعت خشفة، فقيل هذا بلال، ورأيت قصراً بفنائه جارية فقيل هذا لعمر". وهذا يشير بأن رؤيا الأنبياء وحي، فقد جزم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا يُحَدِّثُ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ أَنَّ رَجُلا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ فِي الزَّرْعِ فَقَالَ لَهُ أَوَلَسْتَ فِيمَا شِئْتَ قَالَ بَلَى وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَزْرَعَ فَأَسْرَعَ وَبَذَرَ فَتَبَادَرَ الطَّرْفَ نَبَاتُهُ وَاسْتِوَاؤُهُ وَاسْتِحْصَادُهُ وَتَكْوِيرُهُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى دُونَكَ يَا ابْنَ آدَمَ فَإِنَّهُ لا يُشْبِعُكَ شَيْءٌ فَقَالَ الاَعْرَابِيُّ يَا رَسُولَ اللهِ لا تَجِدُ هَذَا إِلا قُرَشِيًّا أَوْ أَنْصَارِيًّا فَإِنَّهُمْ أَصْحَابُ زَرْعٍ فَأَمَّا نَحْنُ فَلَسْنَا بِأَصْحَابِ زَرْعٍ فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم)(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً لَا يَبُولُونَ، وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتْفِلُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلُوَّةُ الْأَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ وَأَزْوَاجُهُمُ الْحُورُ الْعِينُ عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعاً فِي السَّمَاءِ"(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ في الجَنَّةِ لَسُوقاً يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ فَيَزْدَادُونَ حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدْ ازْدَادُوا حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُم بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُم بَعْدَنَا حُسْناً وَجَمَالاً"(٣)، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله

(١) رواه البخاري (٦٩٦٥).

(٢) صحيح البخاري.

(٣) أخرجه مسلم.

صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المشْرِقِ أَوِ المغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُم"، قالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال: "بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ"(١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾"(٢) [السجدة: ١٧]. وأبواب الجنة تُفتح وتُغلق عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئاً إِلَّا رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا"(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتِ الشَّيَاطِينُ"(٤).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ أَوْ فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إلا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ"(٥). أما عن صفة أهل الجنة فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر بها في القرآن الكريم ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]،

(١) متفق عليه.

(٢) البخاري (٣٢٤٤)، مسلم (٢٨٢٤).

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه مسلم.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ [الغاشية: ٨ - ١٠]، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٧]، ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان: ١١]. وتستقبلهم الملائكة كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزمر: ٧٣]، ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

الباب الواحد والعشرون: تفصيل الكتاب

[٥٢]

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿وَ﴾ - الآن يا مَن لا تريدون أن تكونوا من الذين ﴿نَنسَاهُمْ﴾ -: ﴿لَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ﴾ أنزلنا لكم على رسولنا كتاباً ﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾. أمّا الذين لا ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بما فيه من ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فيكونون قد اختاروا أن ﴿نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾، وقَبِلوا أن يكونوا في زمرة الذين يقولون للمؤمنين: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ﴾. فيقول لهم المؤمنون: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾. فالآن لم يحدث شيء من ذلك بعد، والقرار لكم. إن هذا الكتاب هو ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ بما فيه ويعملون بما آمنوا به.

[٥٣]

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾. يُخبر الله بأن انتظارهم إنما هو انتظار تحقيق الوعد الذي جاء به كتاب الله، مهما كانوا يوهمون أنفسهم بغير ذلك. ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾، ﴿يَوْمَ﴾ يتحقّق الوعد الذي في ثنايا هذا الكتاب: ﴿يَقُولُ﴾ يعترف ﴿ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ جحدوه ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ ما قالوه كان حقاً.

الآن وقد تبيَّنَت لنا حقيقة أننا كنا في ضلال ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ ينجوننا من النار، ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الحياة الدنيا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الباطل، بل نعمل بما ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾. هؤلاء بعد أن ينتهي الحساب، يكونوا ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بأن أنفقوا أعمارهم دون نفع، والخسارة هنا هي خسارة عمر بأكمله، هذا العمر الذي يمكن أن يحقق فيه الإنسان كل يوم ربحاً من خلال عمل الخير، ويمكن أن يحقق كل يوم فيه خسارة من خلال عمل الشر. وقد بَيّنَت الآية ٩، بأن خسارة النفس تكون من خلال خفة موازين الخير: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم﴾.

﴿وَضَلَّ﴾ غاب ﴿عَنْهُم﴾ عن مؤازَرَتهم ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾، يتوهّمون بأنّهم سيؤازرونَهم وسيشفعون لهم في الآخرة. ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. فَمَن كانوا مع بعضهم البعض، تَشَتّتوا ولم يعد أحد منهم يعترف بالآخر، ذلك أن الباطل هو الذي جَمَع بينَهم، فتبيّن الآيةُ بأن الجمع هو جمع الحق مهما كان عدده قليلاً، وأن جَمع الباطل ليس جَمعاً حقيقياً مهما كان عدده كبيراً.

الباب الثاني والعشرون: حكمة التأنّي

[٥٤]

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

آية تفصيلية مكثّفة المعاني، مكتنزة الدلالات: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾. وكان يمكن أن يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾، لأن ﴿رَبَّكُمُ﴾ هو ﴿ٱللَّهُ﴾. أو يقول ﴿إِنَّ﴾ ﴿ٱللَّهُ﴾، لأن ﴿ٱللَّهُ﴾ هو ﴿رَبَّكُمُ﴾. لكن بدأت الآية التفصيلية البيانية بـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾، لأن الله سبحانه وتعالى يُطلعنا فيها على أمورٍ أساسيّةٍ كبرى، وهي الأمور التي أقلَقَت الفكر البشري، وما تزال تقلقه دون الوصول إلى نتائج حاسمة، وإن كان سؤال: كيف تشكّلَ الكون؟ كبيراً، إلّا أن: كيف تشَكَّلَت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ أكبر بكثير، وهو السؤال الذي يعيدنا إلى الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي خلقكم هو ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده الذي لا شيء قط قبله، قد ﴿خَلَقَ﴾ قبلكم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بكل ما فيها من مستويات وأطباق وسِعة وخواص ﴿وَ﴾ كذلك ﴿خَلَقَ﴾ كوكب ﴿الأَرْضَ﴾ الذي أنتم عليه ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

ولأن الخطاب موجّه إلى الإنسان الذي يعيش على ﴿الأَرْضَ﴾، نرى - والله أعلم - أن قياس اليوم هو الذي يكون على ﴿الأَرْضَ﴾، أي من خلال شروق الشمس ومغيبها، واليوم الواحد يستغرق ٢٤ ساعة. فيا أيها الناس اعلموا ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾. لأن هذا القياس هو الأقرب والأوثق لهم بالنسبة لقياس الزمن. لكن لماذا ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وهو القادر عل خلق ذلك في يوم واحد، أو أقل ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠]، هنا عليك أن

تأخذ حكمة التريّث، وفي الحديث: "التأني من الله والعجلة من الشيطان". فليس كل ما تستطيع أن تفعله في زمنٍ ما، تستعجل بفعله، فعليك أن تبدأ بتدرّج رغم مقدرتك على فعل العمل كله في وقت قياسي. والله جلّت قدرته لم يكن ليخطئ لو فعل ذلك في أقل من الأيام الستة، وشاء ذلك لحكمة منه، فكل ما يكون من الله هو حكمة في حكمة. لذلك يمكن اجتزاء الآية من سياقها على سبيل النصح بالتأنّي بالنسبة لشخص يعجل في أمره، فتقول له: على رسلك، فإن الله القادر على كل شيء قد ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾. وهذا ما يغتني به القرآن حيث يمكن قراءة بعض الآيات قراءات متعدّدة ضمن سياقها، وكذلك اجتزاءها من سياقها لأغراض مختلفة، فَمِنَ القرآن ما يجوز اجتزاؤه لأغراض ينتفع بها الناس مثل العظة، والدعاء، ومنه ما لا يجوز اجتزاؤه بأي حال من الأحوال وعلى الأخص في مسائل الفتيا والتشريع.

فيجوز لك أن تجتزئ من الآية ١٩ من سورة النساء: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ وتُخرج هذا الكلام من سياقه، وتوظّفه في سياق آخر. ﴿فَعَسَىٰٓ أَن﴾ تكره عملاً، وقد جعل لله لك ﴿فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾، ثم لعلّك تكره شخصاً، ولكن فيما بعد يأتيك خيرٌ كثيرٌ من خلال هذا الشخص، وما إلى ذلك مِمّا يجعلك تتأنّى في اتخاذ المواقف الحاسمة. ومِمّا يمكنك استخدامه من الذكر الحكيم في سائر حياتك:

﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: ٩٩].

﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ﴾ [المائدة: ١٠٠].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٦٧﴾ [الأنعام: ٦٧].

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣].

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١].

﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ١٠].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢].

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨].

ومن الأدعية التي يمكنك أن تأخذها من القرآن الكريم لسائر شؤون حياتك:

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران: ١٦].

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨].

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٣].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩١ - ١٩٤].

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: ٤٧].

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس: ٨٥، ٨٦].

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبرهيم: ٤٠].

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١].

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠].

﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الكهف: ١٠].

﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾ [طه: ٢٥، ٢٨].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩].

﴿رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: ١١٨].

فالأيام الستة التي شاء الله جل جلاله أن يخلق فيها ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيها بيان لك بأن الله يفعل كل شيء في وقته، فالوقت المناسب هو الذي يجعلك تنتفع بِما ينعم الله عليك، فلعلّك تطلب أمراً والوقت لا يناسب انتفاعك به، بل قد يحمل لك ضرّاً لو حقّقه الله لك في ذاك الوقت الذي لا تعلم بأنه غير مناسب لحصولك على ما تريد، ولا تظن بأن الله سبحانه وتعالى يهمل دعاءك، بل يؤجّله، ويحقّقه لك في وقت وفق ما يراه مناسباً لك، وإن كان فيه أذى لك، يستبدل دعاءك بِما هو نفع لك حتى لا يذهب دعاؤك هباءً، وتحقيقاً لوعده لك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦].

الأمر الآخر قد ترى ظلماً يمتدّ، ولكن الله لحكمة منه يمهل حتى يوقع العقاب في وقته المناسب، وإذا جاء الوقت الذي جعله الله يجيء في وقته المناسب، لن يكون بوسع شيء قط أن يوقف وقوع العقاب. كما بيَّنت لك الآية ٣٤: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾. فذلك مدعاة للصبر والتريّث، ويعكس على شخصية الإنسان حالة من الهدوء والاستيعاب ﴿وَلَقَدْ

خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق: ٣٨، ٣٩].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ شاء الله عز وجل وله المشيئة فيما يشاء، أن يستوي ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ عرش الرحمن ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، فهل بمقدور أحد أن ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ غير الله الذي خلقهما؟

فانظر إلى بديع العبارة، وبديع التناسق بين الكلمات المتناغمة مع بعضها البعض في ثنائية الليل والنهار، وتعاقبهما لبعضهما البعض بدقة فائقة. ﴿يُغْشِى﴾ كلمة بالغة الدقّة، تذكّر بالغشاء الذي عادة يكون ناعماً ورقيقاً وشفّافاً، والغشاءُ يفصل بين جانبَين، فيكون فاصلاً شفّافاً بينهما، وهذا وجه آخر من وجوه عِمارة بناء السورة (الأعراف)، الفواصل، والعرف، الفاصل. ورغم أن الأغشية رقيقة وشفافة، فإنها تكون بالغة الأهمّية، مثل غشاء العذرية، غشاء الأذن، الغشاء الفاصل بين البيضة وقشرتها، وما إلى ذلك. فـ ﴿يُغْشِى﴾ إشارة إلى الغشاء الفاصل ما بين الليل والنهار، وهذا الغشاء هو الذي ينظّم عملية تعاقب الليل والنهار، فبدايات انبلاج الضوء هي بدايات ناعمة حيث يتسرّب الضوء بنعومة كما لو أنه حرير ليفترش على بساط الأرض، وهي لحظات ساكنة هادئة ينتشر فيها الضوء رويداً رويداً، وهي من أفضل الأوقات التي يُستَجاب فيها الدعاء. في هذا الوقت وبشكل متلازم، فإن الظلام يتوارى رويداً رويداً بدقّة متناهية حتى ينسحب تماماً ويسلّم المكان للضوء الساطع الذي ينتشر بكل حضوره كما لو أنه لن يغيب. لكن كما فَعَلَ بالليل، فإن بدايات الليل تفعل به ذات الفعل في المساء، وإن كانت تلك الأوقات ذَهَبيّة بالنسبة للنهار، فإن لحظات المساء تكون مخملية مذهلة، وللمساءات الجميلة خصوصيتها، فعند المساء يطيب الخروج، كما يطيب الجلوس مع العائلة في البيت، ومساء كل موضع يتمتّع بجماليات ومزايا خاصة، مساءات الأماكن الواقعة على البحار والأنهار، مساءات الأرياف، مساءات المدن الصغيرة، مساءات العواصم الكبرى.

هكذا تزحف خيوط المساء رويداً رويداً، وبالمقابل يجرّ النهار آخر بقاياه رويداً رويداً، حتى يختفي تماماً ويخيّم الظلام على المكان كما لو أنه لن ينفكّ عنه ثانية.

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [فاطر: ١٣]، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ [الزمر: ٥].

فذلك هو الغشاء الذي يكون بينهما، وما تعلّمك إياه الآية أيضاً أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الليل قبل النهار، وبذلك فإن الأصل هو الظلام، فحتى في وَضَح النهار، تبقى بعض الأماكن مظلمة كونها غير معرّضة لضوء النهار بشكل جيّد، فتُستَخدَم الإنارة فيها، وعند انطفاء الإنارة، يعود الظلام إلى ما كان عليه، وإذا عكستَ الأمر، ترى بأن الظلام مهما اشتدّ فإنه لا يستطيع أن يخترق الضوء، وليس بوسع الظلام بأي حال أن يبدّد الضوء، لكن القليل من الضوء، يبدّد الظلام. والبدء يكون من الليل: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾ [النور: ٤٤].

وفي القرآن سورة الليل وترتيبها ٩٢، وقد ورد الليل ومشتقاته ٩٢ مرة في القرآن. وبذلك فإن مساحة الظلام على الأرض تفوق مساحة الضوء، كون الضوء يكون من خلال تعرّض بقعة من الأرض لأشعة الشمس، وقد قُدّرت المسافة بين الأرض والشمس بنحو ١٥٠ مليون كم.

عقب ذلك جاءت كلمتان لا تقلّان شفافية: ﴿يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا﴾. أي دون تأخّر، وفي لسان العرب: (الحَثُّ: الإِعْجالُ في اتِّصالٍ؛ وقيل: هو الاستعجالُ ما كان. حَثَّهُ يَحُثُّهُ حَثّاً.

واسْتَحَثَّه واحْتَثَّه، والمُطاوع من كل ذلك احْتَثَّ.

ويقال: حَثَثْتُ فلاناً، فاحْتَثَّ. قال الجوهري: الحِثِّيثَى الحَثُّ، وكذلك الحُثْحُوثُ.

وحَثْحَثَه كحَثَّه، وحَثَّه أَي حَضَّه.

وَولَّى حَثِيثاً أَي مُسْرِعاً حَريصاً.

ورجل حَثِيثٌ ومَحْثُوثٌ: حادٌّ سَريعٌ في أَمره كأَنَّ نَفْسَه تَحُثُّه.

والطائرُ يَحُثُّ جَناحَيْه في الطَّيَران: يُحَرِّكُهما)[1].

﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾. سخّرها الله لكم، ولا تملك من أمرها شيئاً سوى أن تكون طَوع أمر الله، فكل ما تراه يطرأ على ﴿الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ يكون بقضاء الله تعالى وتصريفه.

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾. فكما أن ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾، فإن الأمر بشؤون ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ يكون ﴿لَهُ﴾. واختُتِمَت الآية بـ: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾. وهنا تذكير للإنسان بـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ كما في مفتَتَح الآية، وكذلك هو ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ الذي لا رب لمخلوق قط غيره، ذلك أن لا أحد قبله، ولا شيء قبله، وهو سبحانه وتعالى قبل أي قبل. ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾، والبركة هي الخير والإحسان والكَرَم والعطاء، و﴿تَبَارَكَ﴾، أي هو مصدر كل بركة تحل على العِباد، فـ ﴿تَبَارَكَ﴾، أي عظم شأنه، وتعالى، وكثر خيره، وأحلّ البركة على مَن شاء، وبارَكَ فيمَن شاء من عباده، فالإنسان يصبح مَبارَكاً ببركة الله له. فيكون ﴿تَبَارَكَ﴾، بمعنى إظهار المقدرة على إحلال البَرَكة، وحرف التاء، إظهاريّة، أي تظهر بركته على خَلقه.

---

(١) لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي ط٣، ج١٥، دار صادر، بيروت.

الباب الثالث والعشرون: التضرّع والخفية في الدعاء

[٥٥]

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾

التضرّع هو التوسّل والخشوع، فأن تتضرّع إلى الله عز وجل، يعني أن تتوسّل إليه وتخشع له، لكن لماذا؟ لأنك تطلب منه أن يعفو عنك أولاً، ثم إن يمنحك ما لا تستحقه بعملك. فهو إن أعطاك ما هو استحقاقك، ما ظَلَمَك، لكن هذا لا يرضيك، لأن ما تريد هو يتجاوَز استحقاقك، وهذا ما لا يحصل إلّا من خلال العفو عن تجاوزاتك، وبالتالي إعطائك ما هو أكثر مَمّا تستحق. فيوجّهك الله أن تتخذ التضرّع سبيلاً إلى ذلك، وهذه بشارة كبرى من الله، فهي تحمل أملاً بالاستجابة. فبدأت الآية شاملة الناس جميعاً:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾، أي رغم كل تجاوزاتكم أيها الناس كافة، لا تقنطوا، بل ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾. وجاءت ﴿رَبَّكُمْ﴾ أيضاً بالجمع العام. وهو تذكير بأنّه خَلَقَكَ، وسَوّاكَ، ورَبّاكَ، وأطعَمَكَ، وأسقاكَ، فإن خرجتَ عن أمره في فعلٍ ما، فإن باب الأوبة إلى ربك ورب العالمين مفتوح. ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾، والخفية من الخفوت، أي تتضرّع إليه بخفوت دونما ضجيج أو صوت مرتفع، أو إبداء حركات ملفتة، فذلك شأن بينك وبين ربك الذي تصله الهمسة التي تهمسها في قرارة نفسك. فليس الهدف أن توصل صوتك إلى الآخرين، أو يروك من خلال حركاتك، أو تظهر لهم الدموع التي تنهمر من عينيك، فبعض الناس تراهم يرفعون أصواتهم، ويبكون، ويجعلون الكلمات تغص في حناجرهم، ويبدون حركات ملفتة، ومِنهم مَن يُظهر ذلك في بعض الوسائل التصويرية وما شابه، فكأنه مركّز على الذين يرونه، والغاية أن يراه الناس فيما هو فيه. تبيّن لك الآية بأن ذلك من شأنه أن يترك أثراً على حالة التضرّع إلى الله، ويجعلك في شتات بين الله، وبين رؤية الناس لك، أو سماعهم لصوتك. فتكون في حالة انتباه بأن الناس ينظرون إليك، أو يسمعون

صوتك، ويرون حركاتك، وهذا يأتي على حساب التركيز فينال منه. فعليك أن تركّز في دعائك إلى ربك: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾، لأن هذا التركيز هو الذي يجعل الدعاء يصل نقياً صافياً إلى الله دون أن تشوبه شائبة، وكأن معنى التضرّع قد تكامل بالخفية، وأن حالة التضرّع الكاملة تتحقق من خلال الخفية، عن النبي صلى الله عليه وسلم"خير الذكر الخفي". فالخفاء يبقيك في حالة صفاء ذهني بينك وبين الله، وعندما تذرف الدموع، فإنك تكون قد ذرفتها خالصة لله، لأنك موقن أن لا أحد يراك غير الله، وهذا ما يزيد الجوارح خشوعاً، فترى صدرك منشرحاً بين يدَي الله، وتراك في حالة عظمى من السكينة الروحية في رحاب رحمة الله التي تتسع لتغفر ذنوبك حتى لو كانت كزبد البحر. فلا أحد بينك وبين الله، وقد عدتَ إليه نادماً متضرّعاً خاشعاً تدعوه الرحمة والمغفرة، وعند ذاك حتى الملائكة يستغفرون لك: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر: ٧]. وجاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: (رَفَعَ النَّاس أَصْوَاتهمْ بِالدُّعَاءِ فَقَالَ رَسُول الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَيّهَا النَّاس اِرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمّ وَلَا غَائِباً إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَ سَمِيع قَرِيب"). فعندما تريد أن تتحدّث مع شخص في أمر مصيري هام، فإنك تريد أن تكونا معاً دون أن يكون معكما أحد لأن ذلك يجعلك مركّزاً على ما ستقوله له، وأن حضور أي شخص يمكنه أن يفسد عليك حالة التركيز، ثم يقطع بعض خيوط الأفكار. وفي جميع الأحوال فإنك لا تستطيع أن تسقط من حسابك حضور هذا الشخص الثالث ونظراته إليك، وسمعه لك.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾. فلا يريد الله لك أن تكون معتدياً حتى يحبك، وذلك يدعوك كي لا تكون معتدياً، وإن كنتَ معتدياً أن ترفع اعتداءك، لأن الله إن أحبك معتدياً، آزرك على الاعتداء، لكن حبه لك مشروطاً باللا اعتداء يجعلك تجنح إلى اللا اعتداء في سبيل تحقيق حب الله لك. فالتضرّع بخفية، هو السبيل إلى مغفرته التي لا تجعل من ذنبك ماضياً فحسب، بل تلغيه كما لو أنه لم يكن. ولكن

هنا مقصد من ختام هذه الآية القصيرة بهذه الجملة، والمقصد يبقى ضمن السياق، فما علاقة ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾، بـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾؟ فاعلم بأن الاعتداء ضمن السياق يأتي بمعنى المبالغة في الدعاء، كأن تشترط شروطاً في الدعاء، ومن ذلك أن يقول شخص: اللهم امحق هذا الملك، واجعلني بدلاً عنه، أو اجعل زوج هذه المرأة يموت كي أتزوّجها، أو انزع من هذا الشخص ثروته، أو ما شابه، بحيث يكون دعاؤك عبارة عن اعتداء على الآخرين وإلحاق الأذى بهم. فتدعو الله أن يكره أناساً وهو يحبهم، أو ينزع عنهم كرمه الذي أكرمهم به، فهذا اعتداء على الناس من خلال الدعاء، ويمكنك أن تعكس ذلك على الأرض أيضاً، فترى شخصاً لمجرّد أنه يتقرّب من شخص له نفوذ أو سلطة، يريد أن يؤذي الناس من خلاله، فيطلب إليه أن يلحق الأذى بأشخاص ما، وحتى إن أنكر ذاك الشخص ذلك، فإن قول الاعتداء يكون قد وقع. فإذن لمجرّد الدعوة بالظلم يجعل الاعتداء واقعاً حتى دون الاستجابة للدعاء. وقد ذكر الله تعالى كلمة (الحب) في الآية، وفي ذلك تذكير للإنسان بألّا يكره الناس ويتمنى لهم الشر، بل إن يحبّهم ويتمنّى لهم الخير، فالله ﴿لَا يُحِبُّ﴾ أن تتمادى في دعائك على حقوق الناس، وحتى المخطئ أن يكون الدعاء له بالصلاح والهداية. من هذا المنطلق يجوز أن يكون العكس صحيحاً، فـ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ في دعائهم للآخرين بالضر، و﴿إِنَّهُۥ﴾ ﴿يُحِبُّ﴾ اللامعتدين في دعائهم للآخرين بالنفع. وإذا كان ذلك في الدعاء، فإنه يشمل سائر ما يمكن أن يجعل من الإنسان معتدياً على غيره سواء بالأقوال أو الأفعال. وهنا عليك التنبيه بأنه لا يعني عدم الإكثار أو الإلحاح في الدعاء بما ينفع، فعلى الإنسان أن يكون مداوماً على الدعاء، وألّا يفقد الأمل بالاستجابة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَكْثِرْ، فإنما هُوَ يَسْأَلُ رَبَّهُ"(١). وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدّعاءِ". والإلحاح أن تداوم على الدعاء من أجل النفع سواء لك أو لغيرك.

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

[٥٦]

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

لقد أصلح الله ﴿الْأَرْضِ﴾، وجعلها صالحة لأن يكون عليها الناس جميعاً، ويقومون بأعمال صالحة، فالأصل أن ﴿الْأَرْضِ﴾ صالحة، والأصل أن الإنسان صالح. ولذلك جاء مبتدأ الآية بالنهي: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، أي أنتم لستم فاسدين، و﴿الْأَرْضِ﴾ ليست فاسدة، والفَساد هو عامل مُكتَسَب، فلا تكسبوا الفساد، ولا تنشروه بين بعضكم البعض على امتداد ﴿الْأَرْضِ﴾. فالله يصلح للناس شأن الأرض، وهي ليسَت حكراً على جيل جَنَحَ إلى الفَساد، فإن أقام الحروب، ولوّث بيئة ﴿الْأَرْضِ﴾، فإن الله يُنزل الأمطار، ويرسل الأنبياء والرسل، ويجعل الأدوية لأوبئة الناس، وأوبئة ﴿الْأَرْضِ﴾، ويوفّق الصالحين والحكماء في نشر العلوم النافعة، فيعود كل شيء إلى أفضل ما كان عليه بفضل الله، حتى يبقى الإنسان في معدنه الصالح، وتبقى ﴿الْأَرْضِ﴾ في معدنها الصالح.

إن الله ينهاكم أن ﴿تُفْسِدُوا﴾، ويرشدكم أن تـ ﴿ادْعُوهُ خَوْفاً﴾ من إنزال العقاب بكم كما أنزله على مَن سَبَقوكم من الفاسدين. وتـ ﴿ادْعُوهُ﴾ ﴿طَمَعاً﴾ في رحمته التي هي ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

الباب الرابع والعشرون: بشارة الرياح بالمطر

[٥٧]

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

﴿الرِّيَاحَ﴾ تحمل البشارة بمجيء المطر، كذلك تنشر هذا المطر وتجعله يتّسع

فيصل بعض الأماكن التي لا يصلها دون ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾.

﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ غيماً مثقلاً بالماء ﴿سُقْنَٰهُ﴾ سقنا ذاك الغيم المثقل بالماء ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾. فهذا ردّ بليغ على قول المنكرين بالبعث، فتلك الطبيعة التي كانت ميتة، ها هي امتلأت بالمروج الخضراء.

يبقى القرآن محافظاً على جماليته اللغوية ودقّة كلماته المكتنزة، وقوّة معانيه، فيذيقك بلاغة اللغة وهي في أوج تكامل جماليتها، ويفتح مخيّلتك على كنوز المعاني من خلال انتقاء الكلمات الدقيقة الأكثر تعبيراً عن قوّة المعاني التي تسري في عروقها. ومع المداومة على قراءة القرآن، تتشكّل لديك ذائقة خاصة، فتنفر نفسك من جملة فجّة، أو عبارة هشّة، أو أسلوب ركيك.

وعلى نقيض ذلك، فلو قرأت كتاباً جيداً، فإنك تتفاعل معه، وتلتذّ بقراءته، وأنت تستشعر قيمة هذا الكتاب وتنتفع به، ولا يعني ذلك أن الكتاب الآخر كان سيّئاً في مضمونه، بل لعلّه يطرح موضوعاً هاماً للغاية، بَيدَ أن الركاكة، والهشاشة، والمُباشَريّة الفَجّة، قد وقفت حائلاً بينك وبين استئناف القراءة. وتلك هي الكتب التي تُنشَر ولا تُقرأ، فيكون نشرها كعدم نشرها، كونها تفتقد إلى عناصر ومقوّمات الكتب التي تلبث مقروءة في كل زمان ومكان، وتمتلك إشراقات التشويق إلى قراءتها، والعودة إلى قراءتها، وما ذلك إلّا لأنك تستشعر مدى حاجتك إليها، ومدى ما تقدّمه لك هذه الكتب النفيسة. فالمواظبة على قراءة القرآن، ترفع سويّة ذائقة تلقّي جماليات وبلاغة اللغة لديك، فيميّز لك القرآن الكريم، الغث من السمين في سائر القراءات الأخرى، ويجعلك متمكّناً من استخلاص جواهر المعاني من رَحِم الكلمات.

تبدأ الآية بهذه الجملة البديعة المكتنزة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾. هنا تتخيّل كيف أن الرياح تحمل البشرى للناس والدواب والطبيعة بقدوم هطول المطر. وجاءت كلمة ﴿يُرْسِلُ﴾ تشريفاً للرياح التي جعلها الله تحمل هذه

البشرى. ﴿وَ﴾ الله ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ﴾، ﴿وَ﴾ ليسَت هي التي تأتي من تلقاء نفسها بشكل آلي، وعندها كانت ستحل الكوارث، لأن لا أحد بمقدوره أن يمسكها، فالله ﴿ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ هو وحده قادر على إمساكها والتحكّم بها في الوقت الذي يشاء.

فهذه ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ أمينة على حمل البشرى برحمة الله من خلال قدوم المطر الذي ينتعش منه كل ما في الأرض. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾، عندما يثقل الغيم بالمطر ويغدو ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾، كالمرأة التي تثقل بحملها، والشجرة التي تثقل بثمارها، عندئذ ﴿سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾، فالشتاء الذي هو فصل ذروة المطر، يكون عادة بعد الخريف الذي هو فصل الرياح التي تُسقط الأوراق اليابسة الميتة عن الأشجار، وتطرحها أرضا وتدفع بها على شكل ركام إلى حيث الأودية والأنهار، مبشرة الشجرة في ذات الحين بثوب عيدي مزركش جديد لم تر له مثيلا في أي عيد مضى، هامسة بأنها سوف تخلع عنها ثوب السنة الماضية الذي غدا بالياً واكتظ بالغبار.

ثم يهمس لها أن الشتاء ينتظر ليقدم بعد ذلك ويغسل سائر بدنها بعذوبة مطره الذهبي، والربيع منهمك الآن بحياكة ثوبها المزركش الأنيق الذي يليق بقوامها الممشوق، ويجعلها عروسا متجددة تستقطب بحلتها أنظار وحواس كل مارٍ بجوارها من أنس، وجن، وطير، ودابة، ونبات، وجماد.

يهتف الخريف لها بحنان إنه في عجلة من أمره لأن الشتاء والربيع ينتظران كي يكرماها، وعليها أن تتشجع وتتجاوب كي يحتفيان بها، فتخلع الشجرة بحياء شديد أوراقها، وتسلّم نفسها بخجل وتردد عذراء، أمانة لأنامله الأمينة، ينفخ على أعوادها اليابسة وهو يتأمل تخلص الشجرة من آخر ذرة غبار، ثم حينئذ ما يلبث أن يسلّم الأمانة إلى انتظار الشتاء الذي يتسلّمها تحت جنح رذاذه ويشرع في غسل بدنها عضواً عضواً بِفَيض مطره الغزير حتى ينظّف عنها آخر ذرة غبار، فيرسل آنئذ

الربيع زخات خفيفة من رذاذه حتى يتخلّص كل ما في الشجرة من آثار الغبار، ثم ما يلبث أن يرسل نفحات دافئة من خصلات شعر شمسه، فتنشّف أعضاءها عضواً عضواً بدفء، ثم ما يلبث الربيع آنئذ أن يبدأ في إلباسها الثياب التي حاكها على فصال جسدها قطعة قطعة، بادئاً بالقطع الداخلية الصغيرة، ومنتهياً بآخر لمسات الزينة.

تأخذ الشجرة المباركة أوج حلّة زينتها، فلا ترى البلابل موضعاً أكثر جمالاً وقدراً منها كي تقضي فيه وقتها، فتتهافت إلى ربوعها الخلّابة من كل صوب وحدب أزواجاً أزواجاً.. فرادة فرادة، فتبني لها أعشاشاً، وتتزاوج، ويطول بها المقام حتى تفرخ في شدو، وزغاريد. يمرّ المارّ، فلا يكون له إلّا أن يقف ليمتّع بصره بالنظر، وهو يسبّح فالق الإصباح على سحر هيأتها، وكمال بهائها، ونضوج ثمرها، وطيب ريحها، وعذوبة سَكَنتها.

قال: ﴿سُقۡنَٰهُ﴾. فالسحاب يكون في حالة انتظار حتى يسوقه الله، فترى الغيم المثقل بالمطر يمضي في الأفق إلى ما يشاء الله، ولا ينزل منه المطر إلا في الموضع الذي يشاء الله، فهو قد يمضي فوق بقعة أرض دون أن تنزل منه قطرة مطر، وقد ينزل المطر بغزارة في موضع، ولا ينزل في موضع قريب منه، قد ينزل في الريف، ولا ينزل في المدينة، أو قد ينزل في هذا الحي من المدينة، ولا ينزل في حي مجاور له. ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ﴾ أنزل الله تعالى بهذا الغيم ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ ﴿فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ بهذا ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾. فلا ثمرة تثمر، ولا ورقة تخضرّ دون ماء. ﴿كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾. بعد أن بيَّن الله لك هذا التفصيل في كيفية إيجاد الحياة في النبات الميت، وبعثه من جديد، ضَرَبَ به مثلاً على بعث الإنسان بعد موته. فالله الذي يحيي هذا النبات اليابس بعد موته، فيجعله يزدهر بالحياة قادر أن يحيي الإنسان بعد موته، فالذي يقدر على الخلق أول مرة، يكون قادراً على البعث بعد الموت، والنبات مثال يريه الله لكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾.

الباب الخامس والعشرون: بين الطيّب والخبيث

[٥٨]

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

الطِيبُ مُبارَكٌ من الله، فيكون أمره مَيَسّراً، وجاءت عبارة ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾، أي لا أحد بوسعه أن يمنع الخير الذي يخصّه الله عز وجل للإنسان ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾، الطيّبون الذين يعيشون في بلدٍ، فيتطيَّب البَلَدُ بِطِيبهم، ويصبح طيباً.

فاعلم أن الإنسان الطيّب أينما كان، وحيثما تَواجَد، تطيَّب الناس من طيبه، فإن كان في بيت متواضع، ترك الناس قصورهم كي يزوروه لأنهم يستشعرون بالراحة والسَكينة والنقاء، ويستنشقون منه مسك عذوبة طِيب الإنسان، فيتطيّبون بالتقرّب إليه، والحديث معه، فالإنسان الطيّب هو خير طبيب نفسي لأولئك الذين فَتَكَت بهم أوبئة الحياة الماديّة، أو الوساوس الشيطانية، أو استبَدَّت بهم هلوسات النفس.

فالطيّب هو في الوقت عينه طبيب للنفس، يكون قد طَبَب نفسه أولاً، فأصبح طيباً، ثم إن بعض الناس يشعرون بالراحة والتنفيس عن الكَرب، والتفريج عن الهَم، وهم ينظرون إليه، أو يُجالسونه، أو يتحدّثون إليه، بل حتى وهم يتخيّلونه، فإن مجرّد ذكره يكون عامل تخفيف بالنسبة إليهم.

فتبيّن لك الآية الكريمة بأن هؤلاء قد خَصّهم الله تعالى برزق طَيَّب مُبارَك، وهذا الرزق المُبارَك، ليس بوسع أحد كائناً مَن كان أن يمسكه عنهم، أو أن ينال من بَرَكة الله فيه. ثم جاء الشطر الثاني من الآية معطوفاً على الشطر الأول: ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾. جاء العطف في ﴿وَٱلَّذِى﴾، ليبيّن بأن الطِيبَ إن خَرَجَ عن طِيبه، أصبح

خبيثاً، وبالتالي ما يصيب الخبيث، سيصيبه كذلك.

فلا يكفي أن تكون طيباً وأن رزقك يأتيك ﴿بِإِذْنِ﴾ ربك، فعليك أن تكون متمسّكاً بالطيب ومداوماً عليه، وهذا من أسباب دوام مباركة الله، فكما أنك تريد أن يديم الله في بركته عليك، فعليك أن تلبث مداوماً على الطيب، وتسعى إلى التقدّم فيه. فكلما تقدّمتَ خطوة إضافية في الطيب عَمّا كنتَ عليه، أتَتكَ المُباركة مُضافة إلى ما كانت عليه بالنسبة إليك. وجاءت كلمة ﴿ٱلطَّيِّبُ﴾ شاملة كل ما هو طيّب، فإن كنتَ كريماً، أكرمك الله بأكثر مِمّا أكرمتَ به، وإن كنتَ ستيراً، سترك الله بأكثر مِمّا سَترتَ به، وإن كنتَ عفوّاً، عفا الله عنك بأكثر مِمَا عفوتَ به.

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾. هكذا جاء الحسم الإلهي في هذه المسألة قولاً فصلاً واحداً، وهو عهد من الله للإنسان. ﴿وَ﴾ في الجانب الآخر: ﴿الَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً﴾.

النَكَد هو المنزوع البَرَكة الذي يفتقد إلى مسك الطيب، لا يستمتع الإنسان به، ولا يقتصر النَكَد في الطعام، فقد يكون هذا الشخص الخبيث في بلد طيب، أو يُدعى إلى وليمة لتناول الطعام في بيت شخص طيب لبعض عوامل القرابة أو الجوار أو ما شابه، فالعَطَب سيكون في معدته التي لا يشاء الله تعالى لها أن تهضم طعاماً طيباً بيسر، أخرَجَه للطيبين، ثم إنه لا يتلذّذ بتناول الطعام، بل يلتهمه كما تلتهم الدواب العلف، فلايكون طعامه ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ٤﴾ وبالعودة إلى تمام الآية: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ٤﴾ [النساء: ٤] فاقترن ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ٤﴾ بالطيب، وما دون ذلك لن تأكلوه ﴿هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ٤﴾ بأي حال من الأحوال. فإذن عاقبة ذاك الطعام لن تكون محمودة بالنسبة للشخص الخبيث الذي تناوله، بل ينكّد عليه يومه، حيث تتعسّر معدته بهضمه، فيبقى يعاني اضطرابات سوء الهضم حتى تخرج آثار ذاك الطعام الطيب من بَدَنه الخبيث.

ونقيض ذلك، فإن الطيّب يسوق الله رزقه الطيّب المُبارَك حتى لو حلّ النَكَدُ على البلد كله، فيُستثنى الطيّبون من ذلك، فهو عهد الله في قول حاسم واحد: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

فلا شيء يمكن له أن يحول بين إيصال هذا الرزق الطيّب إلى ذاك الشخص الطيّب حتى لو قذفت به الظروف إلى خيمة في بقعة أرض مهجورة، في حين أن ذاك الخبيث حتى لو كان في قصر، وكل ألوان الطعام والشراب متاحة له، فإنها تكون ﴿نَكِدًا﴾ عليه، فلا يستطيع أن يتناول قطعة حَلوى، لأن نسبة السكر المرتفعة في دمه لا تسمح له بذلك، ولا يستطيع أن يشبع لحماً، لأن نسبة البروتين المرتفعة لا تسمح له بذلك، ولا يستطيع أن يستمتع بتناول القشدة، أو صفار البيض، أو الكبد، لأن نسبة الشحوم الثلاثية والدهون لا تسمح له بذلك. ولا يستطيع أن ينعم بالمكيّفات سواء في حرّ الصيف، أو برد الشتاء، لأن التهاب قصبات المجاري التنفسية لا يسمح له بذلك، ولا يستطيع أن يستمتع بنوم عميق لأن دورته الدموية المضطربة تفرض عليه أن ينهض ويمشي بضعة خطوات، وإذا تجاوز تمدّده في الفراش أربع ساعات، فإن ذلك يجعله في خطر وهو نائم، ولا يستطيع أن يأتي زوجته إلّا في الشهر مرة، دون إثارة ما أمكن، أو بأقل ما يمكن منها، لأن الأطباء حذّروه بأن حالة قلبه لا تحتمل تفاعلات الإثارة.

وهو منصوح من ضمن نصائح الأطباء بأن يتجنّب الضحك بطلاقة، لأن الانفعالات السلبية أو الإيجابية قد تؤدّي إلى ما لا يُحمَد عُقباه بسبب بعض الاضطرابات في جملته العصبية، وإلى ما شابه بما ينكّد على هذا الخبيث كل مقوّمات حياته رغم كل ما تبدر عليه من مظاهر رَغَد العَيش.

﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾. فأمام هذه الحقيقة، يزداد الشاكرون شكراً لله، ويتقدّمون في مراتب الطيب، ويتجنّبون مواضع الخبث.

﴿كَذَٰلِكَ﴾، بفضل منا ﴿نُصَرِّفُ﴾، نبيّن ونفصّل ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾، الحقائق والأدلّة ﴿لِقَوْمٍ﴾، لأناسٍ ﴿يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾. يستوعبون هذه ﴿ٱلْآيَٰتِ﴾، ويتدبّرونها

ويتفاعلون معها، فـ ﴿يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾ الله على فضله.

الباب السادس والعشرون: نوح عليه السلام

[٥٩]

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾

الآن سوف ننتقل إلى مرحلة مفصليّة من تاريخ الإنسان، وهي مرحلة انتهاء الإنسان تماماً من سطح الأرض، وما بقي من الإنسان هو فقط وجود نوح ومَن معه في سفينة على الماء، وما دون ذلك، فلا وجود لبَشَرٍ قط. إذن، سوف يقود نوح عليه السلام، المسيرة الجديدة الثانية للبشرية عندما تستوي سفينته ﴿ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ﴾ [هود: ٤٤].

وسوف يكون الأب الثاني للبشر بعد آدم، والخلاف بين الرَجلَين المؤسّسَين للذريّة البشرية، أن الأول خُلقَ دون أب أو أم، وقد وجد نفسه بَغتة في الجنة، والثاني وجد أن الطوفان قد سَحَقَ كل كائن بشري أينما كان تواجده من سطح الأرض، ووجد نفسه ومَن معه في سفينة، وعندما تستوي سفينته ﴿عَلَى﴾ جبل ﴿ٱلْجُودِىِّ﴾، سوف يدرك عظمة مسؤولية تأسيس إنسان جديد سوف يخلقه الله عز وجل.

ولذلك سيكون حريصاً على الإنسان كل الحرص، وخائفاً عليه كل الخوف، وكذلك قلِقاً عليه كل القَلق، وهو الذي قد خرج للتو من طوفان سحَق الأخضر واليابس، بما في ذلك أكثر الناس قرباً إليه، فلذّة كبده، وحليلته، وكل ذلك تحوّل في هنيهة إلى شيء من الماضي الذي لم يعد له أي وجود.

فالآن سوف تبدأ مسيرة جديدة للإنسان، وسوف تشرق عليه الشمس مرة أخرى، سوف يهطل المطر مرة أخرى، سوف ينبت الزرع مرة أخرى، سوف تتكاثر

أشكال الدواب والطيور مرة أخرى، سوف تعود الحياة بكل مقوّماتها وزَخَمها مرة أخرى، بعد أن تلقّت البشرية درساً بليغاً نتيجة تماديها في الطغيان. ويبقى الإنسان مسكوناً بالخوف من الطوفان كلّما اشتدّ المطر، لكن بعض المؤشّرات الإلهية تطمئنه بأن ذلك وإن اشتدّ بغزارة، فهو مطر خير وإنبات، وليس مطر طوفان وسحق، ومن بعض علامات الطمأنينة ما يظهر في كبد السماء من ألوان قَوس قُزحية عند هطول المطر. لكن لم يختف الطوفان من تعرّضه للحياة البشرية، أو الطبيعية، ولو بشكل جزئي، فهو يمكن أن يتعرّض لأشخاص، أو لبيوت، أو لقرى، أو لمدن، أو لدول، مِمّا يجعله جزئياً وليس عاماً وشاملاً للأرض برمّتها. وذلك من ألوان العقاب للناس عندما يتمادون في الطغيان والفسوق والفجور.

تُفتَتَح الآية بمقدّمات حلول الطوفان، وأن الله يرسل لأولئك القوم رسولاً منهم وإليهم كي ينذرهم، لعلّهم يتراجعون عَمّا هم فيه من التمادي في العصيان قبل أن ينزل العقاب الشديد الذي كَمن في الطوفان: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾.

كان يمكن القول ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، دون ﴿لَقَدْ﴾، لكنها جاءت لمزيد من التأكيد والتوثيق، ويجوز أن تكون جواب قسم محذوف، فأنذرَهم ونصَحَهم كي يتراجعوا عَمّا هم فيه من العصيان، ولدى بعض علماء الأنساب هو: (نُوح بْن لَامَك ابْن متوشلخ بْن أَخْنُوخ وَهُوَ كما قيل إِدْرِيس النَّبِيّ عَلَيْهِ السَّلَام، اِبْن برد بْن مهليل ابْن قنين بْن يانش بْن شِيث بْن آدَم عَلَيْهِ السَّلَام).

﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ودعوا الشرك، ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، فهؤلاء كانوا يصنعون التماثيل ويعبدونها، وكانوا يطلقون عليها أسماء مثل: ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرا. ولعلها أسماء لأناس صالحين، ولكن ما هو غير صالح أنهم باتوا يعبدون هذه التماثيل التي صنعوها، وأطلقوا عليها الأسماء نسبة إلى الصالحين: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾.

اليوم الذي لا أحد ينفعكم فيه، ولا أحد بمقدوره أن ينجيكم ﴿عَذَابَ﴾ عاقبة الشرك بالله الذي ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾.

وما تستخلصه هنا، هو ألّا تعطي للناس أكثر من أحجامهم البشرية، ولا يمكن لأي مخلوق قط أن يرتقي إلى درجة أن يُعبَد، فالإنسان هو مخلوق يَعبد الله وقد خلقه الله كي يعبده، لا أن يعبد مخلوقاً مثله، أو يصنع تمثالاً، أو رمزاً لمخلوق ما ثم يعبده، وليس بالضرورة أن تنحصر العبادة في السجود أو الركوع، بل إن تأمل من هذا الرمز ما لا يجوز لك أن تأمله إلّا من الله.

[٦٠]

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾

كلمة ﴿ٱلْمَلَأُ﴾، تشير إلى الملء، بمعنى قد امتلأت الأرض بالمفسدين، والاستثناء يكون نادراً جداً، تقول فلان صرّح بقوله على الملأ، أي على الجميع. ﴿قَالَ﴾ له ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ المجموع ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ كجواب على نصحه لهم: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

رفضوا حتى التفكير بقوله، كونهم اعتبروا الكلام صادراً من شخص يعيش ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

بل إنهم أرادوا أن ينالوا حتى من الذين اتبعوه: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ١١١].

وذلك كي يسدّوا الطريق على الذين يريدون الإيمان به، وهنا تجلو نزعة الاستكبار لديهم، حيث إنهم اعتبروا أنفسهم فوق الفئة التي رأوها دونهم سواء بالنفوذ، أو المال، أو ما شابه.

[٦١]

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾

أجابهم رافعاً صفة الـ ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾ عن نفسه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ ﴾، ومبيّناً الحقيقة: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

لم يقل (أنا)، بل: ﴿وَلَٰكِنِّي﴾، أي لم آت من تلقاء نفسي حتى تتهمونني بال ﴿ضَلَٰلَةٌ﴾، ولو كنت أتيت من تلقاء نفسي، لكان لكم أن تصفونني بذلك ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾. فكان يواظب على محاولات إقناعهم حتى إنهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: ٣٢].

يقول لهم بأن ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ هو الذي أرسلني من أجل إصلاحكم، ومن أجل نفعكم، وإنذاركم وأن الله سوف يعاقبكم على ما أنتم به من عصيان، ويوقفكم عند حدودكم إن رفضتم الانصياع لأمر الله، وما أنا سوى حامل هذا البيان الإلهي إليكم.

[٦٢]

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾

أوصل لكم ما كلّفني به ﴿رَبِّي﴾ وأقدّم لكم النصح، وأنذركم أن لدي معلومات ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ بشأنكم ﴿تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ها، إن لبثتم في عِنادكم واستهتاركم بِما ﴿أُبَلِّغُكُمْ﴾ به من ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾.

فالأرض ليست كوكباً مجهولاً لا صاحب له، يفعل الإنسان فيه ما يشاء، ويطغى ما يشاء، فعليه أن ينصاع لأوامر صاحب هذا الكوكب، وإلّا فإنه يوقفه عند حدّه رغماً عن أنفه مهما كان نفوذه ممتدّاً، ومهما امتلك من مال وعتاد، ومهما استقوى بأعداد هائلة من رجال حوله، فإن الله يفتّت كل ذلك بين ليلة وضحاها.

وانظر إلى بلاغة الكَلم الطيّب المُبَطَّن بقوّة التعبير: ﴿وَ﴾ اعلموا بأني ﴿أَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. إن نصحي لكم هو السبيل لنجاتكم مِمّا أعلمني به الله بشأنكم.

[٦٣]

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾

ما يزال يفعل كل ما بوسعه حتى يثنيهم عَمّا هم عليه من التمادي في العصيان،

وهذا درس بليغ نتعلّمه، فعندما يستشري الفساد في مجتمع، ويكثر فيه الفجور، ويستهزئ الناس بالقرآن، وبالدعاة إلى الحق، فذلك لا يعني فشل أئمّة الدعوة إلى الحق، بل يعني أن الناس طغوا إلى درجة أنهم باتوا يستهزؤون برسالات الله وأنبيائه ورسله، وكل أشكال الدعوة إلى صراط الله المستقيم.

فنوح عليه السلام، لم يقصّر في دعوته، بل نجح في الإبلاغ بما كلّفه به الله عز وجل، لكنه رأى الجحود والاتهامات الضالة من الناس، ومحمّد صلى الله عليه وسلم، بلّغ الناس بِما تلقّاه من الله سبحانه وتعالى، لكنهم أبوا ذلك، فما كان عليه سوى أن يترك أحب البقاع، والمكان الذي أُنزل عليه ما يزيد عن ثلاثة أرباع الوحي فيه، وأيضاً المكان الذي فيه ذكرياته الطيّبة حيث التقى فيه أم المؤمنين الأولى خديجة عليها السلام، كيف أنه كان يهرع إليها عندما كان يأتيه الوحي وهو يقول لها: "زملوني زملوني"، فخروجه بالقوة من كل ذاك الواقع الذي ترعرع في جنباته، ويعبق برائحة طفولته، وتشكّلت فيه معالم شخصيته، لم يكن لأنه قصّر في أداء الرسالة، بل لأن الناس استشرى فيهم وباء الطغيان وباتوا ينكرون كل ما هو حق، ويقبلون كل ما هو ضلال، فيبقى الأمر بالتدخّل الإلهي لإيقاع العقاب المباشر والصارم بحق هؤلاء، لأن الله لم يخلق الأرض ليعيث فيها المفسدون فساداً، بل لصلاح الإنسان واستقامته وفضيلته، وأن يستمتع بِما يُخرج الله تعالى من خيرات طيبة، ويلبث النَكَدُ لأهلِ النَكَد.

فترى البعض يكيلون الاتهامات لأهل الدعوة والصلاح، ويوصمونهم بالفشل في إيصال الحق إلى الضالّين، بل يتمادى البعض أكثر فيحمّل الدعاة - بكل تفرّعات الدعوة من إمامة وخطابة وفقه وتفسير، وما إلى ذلك من علوم شرعية تدعو إلى الحق - مسؤولية هذا الإعراض عن دين الله. فالداعية تكمن مهمته في إبلاغ الناس ونصحهم، وتقديم الحجج والأدلة الدامغة إليهم كي يصلحوا من شأنهم ويتقوا الله.

أمّا إذا أصرّوا على عِنادهم واستهزأوا، فذلك لا ينال من مهمّة الداعية، أو من قيمته، وعبر التاريخ البشري، فإن لله سبله في كيفية إيقاع العقاب بالضالّين.

فالدعاة مصابيح الله في الأرض، والله جل جلاله يؤازرهم، عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ"(١). لماذا؟ لأن هذا الذي يؤذي ولياً من أولياء الله، إنما يريد أن يُطفئ مصباحاً من مصابيح الهداية في الأرض.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾، جاءت الكلمة تعجّبية واستفهامية في الوقت عينيه، من خلال همزة التعجّب وواو العطف في مبتدئها: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾.

فلا تعجبوا فقد ﴿جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ هدى ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، وليس على مخلوق آخر لا تعرفونه من الملائكة أو الجن، فأنا أعرفكم وأنتم تعرفونني، ونحن من أصلاب بعضنا البعض.

فلا تعجبوا، فإن هذا الرجل الذي لا يعجبكم هو الأقرب ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ من مغبّة ما أنتم فيه ﴿وَلِتَتَّقُواْ﴾ بالتوبة إلى الله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ فيعفو لكم عمّا قد سَلَف.

[٦٤]

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

جاءت الكلمة مباشرة وبليغة ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، وهذه شهادة جلية من الله تعالى بأنه صادق، فالذي يكذب، لا يُكَذَّب حتى لو كُذِّب، لأنه كاذب. لكن الذي يُكَذَّب، لا بد له أن يكون صادقاً حتى يُكَذَّب في صدقه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾. تبرئة لنوح عليه السلام من تكذيبهم له، ومصادقة على صدقه. حيث كانوا يتداولون فيما بينهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

(١) صحيح البخاري.

عندما أبلغهم بكل ما أرسله الله به ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٥ - ٩].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾، استخلصه الله تعالى ﴿وَ﴾ استخلص ﴿مَعَهُۥ﴾ المؤمنين ﴿الَّذِينَ﴾ آمنوا وآزروه، وهم قلّة، وأنجاهم بأن جعلهم ﴿فِي ٱلْفُلْكِ﴾ السفينة.

لكن هذا الطوفان العام حصل بعد تسعة قرون ونصف من الدعوة المستمرة، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

وحصيلة كل هذه القرون من الدعوة لم تنتج سوى عن نحو ثمانين شخصاً بين رجل وامرأة من كافة سكان الأرض، وهم من الطبقة الفقيرة. حتى إن الوجهاء كانوا يشترطون عليه أن يطرد هؤلاء حتى يأتوا إليه، وكان يرفض هذا المطلب، وبعد كل هذا الجهد الدؤوب وهذه القرون الطويلة من الدعوة، وهذه النتيجة القليلة من المؤمنين، جاء أمر الله إلى نوح عليه السلام بأن يصنع سفينة كبيرة ويستعد لوقوع العقاب على القوم، ونجاته مع مَن آمنوا من خلال دخولهم إلى السفينة. ثم إن يجمع من أشكال الحياة من حيوان ونبات زوجين، وبذلك فإن السفينة لا بدّ لها أن تكون ضخمة حتى تستوعب كل ذلك، فبالإضافة إلى المؤمنين الذين معه، هناك بعض أنواع الحيوانات تكون ضخمة مثل الفيلة، أو الإبل، أو البقر، أو ما شابه، كما أن وجود كل هذه الحيوانات في مكان واحد يشكّل خطراً عليها، فبعضها مفترسة، وبعضها وديعة، فلا بدّ من صناعة أقفاص لتحمي بعضها من بعض سواء الحيوانات الصغيرة، أو الكبيرة، كما أن هذه السفينة تحتاج إلى واقية حتى تقي نزول المطر على مَن بداخلها، وما إلى ذلك من عوامل الاستعدادات.

لكن وبدل أن يتعظ القوم من ذلك وهم يرونه منهمكاً في عمله هذا، وكان بإمكانهم أن يتوبوا حتى اللحظات الأخيرة، قالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

ويتداولون فيما بينهم على سبيل الاستهزاء إن كان نبياً، أو نجّاراً، وأنه يقوم بصناعة سفينة ضخمة في موضع لا نهر فيه، وكانت زوجته واسمها (واهلة) تقول بأنه مجنون، وهذا العمل يستغرق وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً. قيل: (كان الرّجل من الكفّار يحمل ولده إلى نوح عليه السلام فيريه إيّاه ويقول: يا بني لا يفتننّك هذا الشيخ المجنون عن دينك ودين آبائك، فلمّا ضاق ذرعاً دعا على قومه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: ٢٦]، فاستجاب الله دعاءه وأمره بغرس شجر الساج، فعلم نوح عليه السلام أن في الأمر مهلة، فأمر بغرس الأشجار عشر سنين، وأدركت القطع بعد أربعين سنة، ثم أمر الله بقطعها واتّخاذ السفينة منها، وألهمه كيفيتها فعمل السفينة على خلقة البط، وجعل لها رأساً كرأس الدّيك، وذنباً كذنب الطّاووس، وصيّرها أربعة أطباق، طبقاً له ولأصحابه، وطبقاً للبهائم والوحوش، وطبقاً للسّباع، وطبقاً كالسقف لئلّا يصل المطر إليهم من نحو السّماء، وقيّرها داخلاً وخارجاً، وسدّها بالمسامير، وكان طولها ثلاث مئة ذراع، وعرضها خمسين، وسمكها ثلاثين، وفرغ من ذلك فبينا ابنته تختبز إذ فار التّنّور بالماء وفجّرت الأرض عيوناً فبادرت إلى أبيها تخبره، فنادى نوح في أصحابه فاجتمعوا إليه ودخلوا السفينة، وحشر الله إليه حيوان الأرض فأخذ من كل جنس زوجين، فكانت أبواب السماء مفتّحة بماء منهمر والأرض متفجّرة بالماء أربعين يوماً، ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾) [هود: ٤٤].

إذن عندما انتهى كل شيء ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ [هود: ٤١]، ﴿وَ﴾ ركب الجميع في السفينة: ﴿أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾، فقد أغرقهم الله بسيل الطوفان، بِمَن فيهم زوجته وأحد أبنائه. فهؤلاء جميعاً الذين تعرضوا للغرَق: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾. ونظير ذلك يكون بأن مَن أنجيناهم: آمنوا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآۚ﴾.

وهذا يعني أن كل جبال الأرض مهما بلغ ارتفاعها، فإنها قد تعرّضت للفيضان الذي غمرها، حيث تحوّلت الأرض كلها إلى مساحة سويّة من الماء، ولا شيء يظهر فوق الماء باستثناء سفينة نوح. لكن التكاثر البشري اقتصر على ذرية نوح عليه

السلام، وذلك من أبنائه الثلاثة سام، وحام، ويافث ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧].

يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (لما خرج نوح من السفينة مات من معه من الرجال والنساء إلا ولده ونساءه). أما أشكال الحياة الأخرى، فقد تكاثرت أيضاً مِمّا كان في السفينة ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

يقول وهبُ بنُ منبِّهٍ: (سامٌ هو أبو العربِ وفارسَ والرومِ وأهلِ الشامِ وأهلِ اليمنِ، وكان هو القيّم بعدَ نوحٍ في الأرض، ومن ولدِهِ الأنبياءُ كلُّهم، عربُهم وعجمُهم، وجعلَ اللهُ في ذريته النبوةَ والكتابَ، وهو الّذي اختطَّ مدينةَ القدسِ، وأَسَّس المسجدَ الأقصى، وكان مَلِكًا عليها، وحامٌ أبو السودانِ وأهلِ الهندِ والسندِ والزنْج والحبشةِ والنوبةِ وكلِّ جلدٍ أسودَ، ويافثُ أبو التركِ ويأجوجَ ومأجوجَ والفرنجِ).

فبعد كل ذاك الكلام الطيب، وذاك الإنذار المبين، والمقابلة بالتكذيب والاستهزاء، كان تدخل الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾. فقد أعماهم الاستكبار عن رؤية الحق والإيمان به. وهذا درس نتعلّمه، وهو ألّا نتّخذ مواقف مسبقة من الآخرين قبل أن نصغي إليهم بشكل دقيق وجيد، وأن نؤمن بما ينفعنا، ونتجاهل عَمّا لا ينفعنا. فليس المهم أن تسمع الحق، بل المهم أنك تأخذه وتنتفع به، وليست ثمة معضلة أن تسمع شخصاً يقول الباطل، المهم أن باطله لا يجد سبيلاً للتأثير عليك، بل تكون أكثر ثباتاً وعزيمة على الحق الذي أنت فيه، فإن قوّة الإيمان تقوّيك على الباطل وتجعله ضعيفاً أمامك، وضعف الإيمان يضعفك أمام الباطل، ويجعله قوياً عليك، وقد اختتمت الآية بكلمة بالغة الدلالة ﴿عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾. وهذا ليس عمى العَينَين، لأنهم كانوا يرون بأعينهم، بل هو عمى القلب، لأن القلب لا يخشع بما ترى العينان من آيات الله في الأرض وفي الناس.

الباب السابع والعشرون: هود عليه السلام

[٦٥]

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

الآن سندخل حقبة جديدة أخرى من التاريخ الإنساني الذي يقصّه الله تعالى على رسوله من أجل أن يحمل هذا القَص إلينا ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ ﴾ [يوسف: ١١١]. ﴿عَادٍ﴾ بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. وهو الذي عُرِف القوم به.

و﴿هُود﴾ بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح. كما جاء عند بعض أهل الأنساب.

وهو من الأنبياء الذين أتوا في المرحلة الانتقالية الجديدة بعد الطوفان، وبعد تكاثر الناس في الأرض. لكن بدأت بذور الفساد تظهر في الناس مرة أخرى، وشيئاً فشيئاً عادوا إلى ما كان عليه قوم نوح كما لو أن كل ذلك لم يقع.

ويجلو هذا من خلال ما يقوله ﴿هُود﴾ عليه السلام لقومه، وما يردّ به قومه عليه، وهو متشابه مع ما قاله نوح، وما سمعه من قومه. والعائدون إلى الضلال هم قوم ﴿عَادٍ﴾، وكلمة الأخ التي وردت في الآية الكريمة هي تذكير بروح الأخوّة الإنسانية الفطرية. فعندما تنصح شخصاً، لا يكون لك ذلك قبل أن تشعر نحوه بروح الأخوّة الإنسانية، وعندما تضل شخصاً، لا يكون ذلك قبل أن تنزع عن نفسك مشاعر الأخوّة الإنسانية تجاهه: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ ﴾. أي كما أرسلنا نوحاً إلى قومه، أرسلنا ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ ﴾. هذا النبي الذي أرسله الله إلى قومه كي يبيّن لهم الحق، ويحذّرهم من مغبّة الضلال.

﴿قَالَ﴾ مخاطباً إياهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ دعوا عبادة ما دون الله ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده دون أن تشركوا به شيئاً ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾ ليس من إله لكم غير الله. ثم في النهاية على شكل تحذير: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ فقوا أنفسكم عقاب الله.

[٦٦]

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

هناك عند نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾. وهنا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾. والسفاهة بمعنى أنك تقول كل ما يأتي إلى لسانك بشكل عشوائي، والسفيه هو ذاك الشخص الذي لا يعقل ما يقول، فما يصدر منه من أقوال يكون هَذَياناً، ولذلك استأنفوا قولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾. فما تقوله ليس صدقاً، وأنت لستَ رسول الله، بل أنت شخص سفيه تتلفّظ بما تهذي به مخيّلتك. وهذا ما قاله ﴿ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾، كموقف حاسم من نصحه لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

[٦٧]

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

هنا بيان بأن على الإنسان ألّا يسكت عندما يُجار عليه، وتتوجّه إليه التهم الباطلة، بل عليه أن يردّ على كلامهم ويبيّن أصل الحق الذي هو فيه. لأن سكوته بمثابة الرضى، وهو تعبير عن موقف ضعيف، فأجاب بقوة وبثقة: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾، لا أقول شيئاً عن سفه ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ وإنما أنا مكلّف ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

[٦٨]

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾

الكلمات بالغة الدلالة وغزيرة المعاني، ورغم أنه كلام مُستَرسَل مُتَّصل مع بعضه، إلّا أنه انقسم إلى آيات مستقلّة، وكان يمكن أن يكون في آية واحدة، كونها جملة واحدة غير متقطّعة. لكن جاء ذلك حتى يتوقّف المرء أمام بلاغة العبارات في

الآيات القصيرة، فالبلاغة لا تقتصر على الآيات الطويلة فحسب، بل تكون كذلك بالنسبة للآيات القصيرة المختزلة في عدّة كلمات.

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾، وهذا متصل بـ ﴿وَلَٰكِنِّي﴾ في الآية السابقة، أي: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾، أرسلني كي ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾. فما أقوله لكم ليس من عندي، وهو تكليف من الله تعالى ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ﴾ مرشد مريد بكم الخير ﴿أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾. أنقل لكم بأمانة ما حمّلني الله تعالى إليكم.

[٦٩]

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

جاء مفتَتَح الآية مطابقاً لقول نوح عليه السلام في الآية ٦٣ ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾. وهذا تذكير وفي الوقت عينه إنذار بوقوع العقاب إن استمرّوا في التمادي، فقد كرّر عليهم ذات الكلام، أي أقول لكم ما قاله نوح لقومه قبل أن يقع عليهم الطوفان. ولذلك استؤنِفَت الآية بكلام جديد مخاطباً الحاضر: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾.

لا تنسوا بأن الله لو سَكَتَ على الطغيان، لَسَكَتَ على ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وما كان من لزوم أن يُغرِق كل أولئك الناس وأشكال الحياة من سطح الأرض، ليأتي بأناس على شاكلتهم. فإن استمررتم بالتسفيه والتكذيب، فاعلموا بأنكم لستم أفضل من ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾، وسيلحقكم الله بهم.

﴿وَاذْكُرُوا﴾ جيداً ولا تنسوا ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ﴾ الله ﴿خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ﴾ أن أغرق ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ بالطوفان، ﴿وَ﴾ أكرمكم الله بأن ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾. البسطة هي ضخامة البَدَن وطوله، فقد كانوا يتمتّعون بلياقة وقوة في أبدانهم: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٤].

فقد أمدّكم الله بالعافية واللياقة، بعد أن نظّف لكم الأرض من الفاسدين، وسلّمكم إياها نظيفة، وكذلك أعطاكم زيادة عَمّا أعطى ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾. فالبسطة هي الزيادة والدرجات المتقدّمة من الكمال.

وقد وردت البسطة في وصف طالوت مقترنة بصفتين: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فكان في زمانه أعلم بني إسرائيل، وأكثرهم جمالاً. لكن هنا جاءت البسطة شاملة الزيادة في الخَلق كله، مثل: الطول، والضخامة، والقوة، والجمال، وما شابه. فقد متّعهم الله وخصّهم بأن زادهم ﴿فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾. وهذه الزيادة عليها أن تجعلهم يشكروا الله: ﴿فَاذْكُرُوا﴾ اشكروا ﴿آلَاءَ﴾ نِعَم ﴿اللَّهِ﴾ عليكم بهذه الزيادة، ولا تبطروا ولا تطغوا ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾. يزيدكم الله مِن نِعَمه، ويديمها عليكم، ويصلح لكم شأنكم، ويستجيب لدعائكم، وفوق كل ذلك، يجعل الجنة من نصيبكم.

[٧٠]

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

الذي يكون التكذيب ديدنه، يلبث في اعوجاجه مهما سعيتَ إلى إصلاحه، بل يتحايل بكل ما استطاع حتى لا يتزحزح عَمّا هو فيه من اعوجاج، فيكون الحديث معه كحديث الطرشان. فمهما قدّمتَ إليه من حجج قويّة، وأدلّة دامغة، وبعبارات بيانية بليغة، فإنه يتهرّب من نصوع الحقيقة، ويؤثر البقاء في الظلمات.

وكما أن الذي يكون على حق، تكون كلماته متّزنة مترابطة متناغمة بليغة، تطفح بإشراقة المعاني السامية، فإن الذي يكون على باطل، يتذرّع بذلك من خلال كلمات هشّة، وجمل ركيكة، وأسلوب فَجّ.

فانظر إلى قولهم: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾. وقبل ذلك قيل لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠﴾.

ولذلك إذا دقّقتَ فيما يتذرّع به المكذّبون والمغرضون، سترى بأنهم يصفون أهل الحق بصفات هي فيهم، وبعيدة كل البعد عن أهل الحق، بل حتى أجوبتهم تعبّر عن مدى التزمّت في مواقفهم، دون أن يكونوا منفتحين على الإصغاء إلى الحق. فهم يرفضون حتى مجرّد فكرة أن يعبدوا ﴿ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾، ولذلك استخدموا حرف الألف كمبتدأ لجوابهم وكتعجّب، كَمَن يجحّظ عينَيه، ويمطّط شفتَيه، ويهزّ رأسه باستغراب ويقول: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ﴾. والكلمة بذاتها فيها إشارة إلى إدانتهم له ﴿أَجِئۡتَنَا﴾، ﴿أَ﴾ تجرّأتَ و﴿جِئْتَنَا لِنَعْبُدَ الله وَحْدَهُ﴾، يا لغرابة ما تدعونا إليه، فكيف تطلب منا أن ﴿نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾. ثم يستأنفون تعجّبهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧٠﴾.

فبعد كل ما قدّمه لهم من استفاضة في الشرح، وتذكيرهم بما قد حصل لـ ﴿قَوۡمِ نُوحٖ﴾، وأن الله قد أكرمهم زيادة، وما إلى ذلك من الإفادة والبيان، ثم توجيه التحذير لهم من مغبّة التكبّر والتكذيب، لم يحرّك ذلك فيهم ساكناً كما لو أنهم لم يسمعوه. فعندما تنصح شخصاً وتحذّره من جناية تراه مقدماً عليها، وتذكّره بأن عقاب هذه الجناية شديد، وأن فلاناً من الناس قد ارتكبها، ولاقى عقوبتها الشديدة، ولكنك تراه مصرّاً على عِناده، فلايبقى أمامك سوى أن تمسك به حتى لا يودي بنفسه إلى ارتكاب تلك الجناية، وبالتالي إلى عدم إيقاع ذاك العِقاب الشديد عليه، لكنه يدفعك عنه ويتّهمك بأنك على ضلال وتبتغي إضلاله.

[٧١]

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾

وهذا بمثابة التحذير الأخير وقد وقفوا على حافة الهاوية السحيقة، وهو يراهم

ويسعى بكل إمكاناته أن يثنيهم عن العِناد ولو طرفة عين، فدقّق في نهاية الآية الكريمة: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٧١﴾. وما كان بحاجة إلى قول هذا الكلام لهم، لولا أنه وجد فيه فسحة لإمكانية العودة إلى الحق خلال فترة الانتظار هذه التي سوف تحسم الأمر، لأن الأمر لو كان محسوماً، لوَقَع.

ويبقى القرار لهم، وهم يتمتّعون بكامل الحرية في الاستئناف، أو التوقّف، ولأن العاقبة مريعة ومهولة، فإنه يذكّرهم في ذروة اللحظات الحاسمة التي هي وشيكة الوقوع بين غمضة عين وأخرى، والقوم لا يأبهون كما لو أن الأمر لا يعنيهم بشيء.

وهذه هي حال أهل النصح مع أهل العِناد والاستهزاء، فإن البأس شديد، والعِقاب مروع.

﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ﴾، فالشرك بالله ﴿رِجۡسٞ﴾ ﴿وَ﴾ - يجعلكم عرضة لـ - ﴿غَضَبٌ﴾ من الله. فأنا أقول لكم الحق الذي أرسلني به الله إليكم، ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾. وهي مَحض ﴿أَسۡمَآءٖ﴾ خالية من الأفعال، ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾، لا تملك أي سلطة لأي تصرّف. حذاري.. حذاري يا قوم، إن العِقاب بات أكثر قرباً من أي وقت مضى ﴿وَأَنَا۠ لَكُمۡ نَاصِحٌ﴾، صدّقوني فما زال بالإمكان العودة.

[٧٢]

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾

يبدو بأن كل ذلك لم ينفعهم بشيء، ولبثوا مصرّين على ما هم عليه من طغيان، وهو لم يفقد الأمل في تراجعهم حتى وقع العِقاب بالفعل. ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، ليقع العقاب على المفسدين، ولم يُذكر كيف كان عِقابهم في هذه السورة، ولكن ظهر ذلك في سور أخرى من القرآن الكريم مثل: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا

صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت: ١٦].

كذلك: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

وهكذا فإن الله تعالى ينجي المؤمنين الصالحين، ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾. فعاقبهم الله ولم يدعهم يعيثوا فساداً في الأرض، وممّا يُروى: (كانت منازل عاد وجماعتهم حين بعث الله تعالى فيهم هودا عليه السلام الأحقاف، والأحقاف الرمل فيما بين عمان وحضر موت من أرض اليمن وكانوا قد فسقوا في الأرض كلها وقهروا أهلها بفضل قوتهم التي جعلها الله فيهم، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله عز وجل صنم يقال له (صداء)، وصنم يقال له (صمود) وصنم يقال له (الهباء).

فبعث الله عز وجل فيهم هودا عليه السلام وهو من أوسطهم نسباً وأفضلهم موضعا فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس، ولم يأمرهم بغير ذلك فيما ذكر فأبوا عليه وكذبوه).

وقيل: (إن الله تعالى أمر الريح فأمالت عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام يسمع لهم أنين تحت الرمل ثم أمر الله الريح فكشفت عنهم الرمل ثم احتملتهم فرمت بهم في البحر).

وبذلك فقد أنجى الله تعالى هوداً والمؤمنين الذين معه، وهذه سنّة الله في الأرض، حيث تبقى للطيّبين، وينتصر فيها الطيبون حتى لو ظهر المفسدون في بعض المراحل الاستثنائية، وحتى لو طالت بهم بعض السنوات، ولكن سنّة الله تقضي بأن تكون الغَلَبة للمؤمنين الصادقين، العاملين على صلاح الأرض. ولا يكون ذلك لأقوام فحسب، بل حتى للجماعات والقبائل والعوائل والأفراد.

وحتى عند العِقاب، فإن الله ينجي الصالحين ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ منه، لماذا ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ منه؟ لأن العِقاب يكون عاماً، مثل سقوط طائرة، أو غرق باخرة، أو حادث سير، أو فيضان، أو عاصفة، أو حريق، وما إلى ذلك. ولا أحد ينجو من ذلك سوى ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ من الله تعالى ﴿وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾.

الـ ﴿دَابِرَ﴾ هو الآخر الذي لم يبق بعده أحد منهم، أي استأصلنا ﴿دَابِرَ﴾ آخر المكذّبين بِما أتى الرسل من آيات الله، ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ بها.

الباب الثامن والعشرون: صالح عليه السلام

[٧٣]

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾

ما زال الخطاب القرآني يذكّر الناس جميعاً بأنهم أخوة، ومهما بلغت حدّة الخلافات الفكرية والعقائدية بينهم، فليس للإنسان أن يتجاهل رابطة الروح الإنسانية الأخوية هذه. وهنا تكون العلاقة بين أشدّ الناس إيماناً وصلاحاً، وهو نبي الله، وبين أشدّ الناس كفراً وفساداً، وهم قومه الذين يعبدون الأصنام ويشركون بالله.

ورغم ذلك، يذكّرهم الله تعالى بالانطلاق من خلال هذه الرابطة لمعالجة أي خلاف ينشب بينهم: ﴿وَإِلَىٰ﴾ قبيلة ﴿ثَمُودَ﴾، وقد سموا بذلك نسبة إلى أبيهم الأكبر ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح. ﴿أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۗ﴾، صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود.

فبعد كل الذي وقع لآدم، ثم لقوم نوح، ثم لقوم عاد، جاء أناس غيرهم. ودوماً فإن الغاية من التجدّد الإنساني، هو الصلاح، وأن المفسدين يُصابون في الصميم،

مهما تمتّعوا بعوامل القوة والجبروت، لأن سنة الله أن يكون الصلاح عاماً في الأرض، وليس الفساد. وتلك كلها أدلّة يبيّنها الله سبحانه وتعالى للناس جميعاً في كل زمان ومكان.

وتفصل بين هود وبين صالح عليهما السلام مائة سنة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾. فأساس صلاح الإنسان هو عبادة الله الذي ليس ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ﴾، ولذلك يبدأ الرسل بالدعوة إلى ترك الشرك، وعبادة الله، وتلك هي الخطوة المشرقة الأولى التي يمكن للإنسان أن يخطوها على سبيل الصلاح الحقيقي الذي ينقذ الإنسان من قلق الازدواجية، إلى سكينة التوحيد.

فإن سَكَنَ الإنسان في معتقده، صلح حاله، واستقام أمره، لأن ما دون ذلك تشوبه الازدواجية مهما تظاهر المشرك بالاستقرار.

فالمؤمن يؤمن بإله واحد، ويشترك معه المؤمنون جميعاً وعلى مختلف العصور بالإيمان بهذا الإله الواحد فقط دون غيره، وذلك من أقوى عوامل الاستقرار.

في حين إن المشرك يتشتّت في العبادة، فترى آلاف الأشكال والألوان التي يعبدها المشركون، وهم لا يتفقون في شركهم على ما يعبدون، فحتى عبادة المشرك لله سبحانه وتعالى، إلى جانب شركه، لا تنفعه بشيء، ذلك أن الشرك دوماً يكون عامل تشتّت ذهني.

في حين إن توحيد الله الذي لا إله غيره ولا شريك له، يكون عامل راحة ذهنية. فبعد تأسيس حالة التوحيد في النفس البشرية، يأتي العلاج بتدرّج على أساس سليم. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾. إن الله رؤوف بالناس ويبيّن لهم الأدلّة والثبوتيّات رأفة بهم، فأهل قبيلة ﴿ثَمُودَ﴾ قد طلبوا من النبي صالح عليه السلام أن يجعل لهم ﴿نَاقَةُ﴾، وقد سأل الله عز وجل كي يستجيب

لمطلبهم. وقد استجاب الله لرسوله في الناقة، دليلاً لهم إلى تصديق رسول الله إليهم.

وهي ﴿نَاقَةُ﴾ خلقها الله بشكل استثنائي دون ذكر ودون أنثى، وبشكل فوري دون حمل.

إن ذلك بمثابة دليل عظيم بأن ما يقدر عليه الله، لا يقدر عليه سواه، وأن جميع الأشكال الشركية لو اجتمعت، ما كان بوسعها أن تأتي بناقة بهذه الطريقة، لأن الله لا يجعلها قادرة على ذلك، وليس بوسعها أن تقف حائلاً بين ما يريد الله فعله.

فهذا من شأنه أن يثبت الإيمان بوحدانية الله في القلوب، وبذات الوقت، فإنه يُظهر معادن الكفار الحقيقية، فهم إزاء هذه الثبوتيات الجلية، ليس بوسعهم ألّا يؤمنوا مهما أظهروا اللاإيمان، فهم يؤمنون، ولكن الاستكبار يمنعهم أن يقرّوا بهذا الإيمان، وبالتالي فإن هذا الإيمان لا ينفعهم، ذلك أن قلوبهم مكتظة بالعناد، والغل، والحقد، والتعالي. فينكرون حتى إيمانهم، ويسعون ما بجهدهم أن ينزعوا هذا الإيمان من صدورهم، وألّا يصدّقوه، ولكن كل ما حولهم يبيّن ويثبت لهم بأن الله هو واحد أحد، فرد صمد، وأنه الوحيد الذي تكون له القدرة على كل شيء بشكل مطلق ودون أي استثناء.

ولذلك ترى أن بعض الملاحدة في النهاية يعترفون بفشلهم الذريع في مواراة هذا الإيمان، فيعلنون إيمانهم، ويتوبون ويتراجعون عن تاريخهم، ويفتحون صفحة جديدة من حياتهم، حتى لو كان ذلك في وقت متأخّر جداً.

فبعض الناس تخف حالة العناد لديهم مع التقدّم في العمر والتجارب الحياتية، فيتواضعون ويُراجعون حساباتهم بشكل دقيق، ثم يسألون الله المغفرة عَمّا قد سلف.

ويتحوّلون إلى أناس صالحين، بل ومنهم مَن يتحوّلون إلى دعاة إلى الإسلام في مجتمعاتهم غير المسلمة، فيكونون صوت الإسلام فيهم، ويؤثّرون على الكثيرين منهم، فيدخلون الإسلام بفضل الله، ثم من خلال ما أثّر عليهم هؤلاء الدعاة الذين هم منهم وفيهم وأبناء جلدتهم.

[٧٤]

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

هنا عليك أن تدقّق في الكلمات التي يقولها أنبياء الله، والكلمات التي يقولها المشركون، فترى الأدب والاحترام في كلماتهم حتى وهم يتحدّثون مع أكثر عباد الله عدوانية وطغياناً. وبالمقابل ترى العبارات القاسية التي يقولها المشركون لأشخاصٍ هم قِمَمٌ في الفضيلة والأخلاق والصلاح والاستقامة والمحبة. فهذا درس بليغ تتلقاه في أدب الحوار مع الناس بما كانوا عليه، فتتعلّم كظم الغيظ، وضبط النفس، فلا تدع أحداً يغلبك في أدبه بالتحاور معك، فمهما كان محاورك مؤدّباً، عليك أن تكون أكثر أدباً منه، وأضعف الإيمان ألّا تتنازل لتكون أقل أدباً منه في تحاورك معه.

وقد رأيت أن القوم قالوا لنوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾.

وكذلك قالوا لهود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾، فكان ردّه لطيفاً ومؤدّباً، فلم يردّ بكلامهم عليهم، بل اكتفى بأن رفع صفة السفه والكذب عن نفسه بأدب جَم: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

فانظر إلى بديع الكلام الذي يقوله النبي صالح لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾.

وكلمة ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، بمعنى حريٌ بكم أن تشكروا الله ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾.

أي ما أنتم به من نعمة الآن، كانت لأهل ﴿عَادٍ﴾، ولكنهم عندما طغوا،

عاقبهم الله بطغيانهم، ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ ذلك جيداً ولا تنسوه، لأن هذا الذكر يجنّبكم ما آلوا إليه. فالآن أصبحتم ﴿خُلَفَآءَ﴾ لكل هذه النِعَم ﴿مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾. ﴿وَ﴾ قد ﴿بَوَّأَكُمْ﴾ مكّنكم الله ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي كانت لهم.

﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، تشيدون القصور على الأرض السهلة، ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، كذلك ﴿تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ لكم البيوت في ﴿ٱلْجِبَالَ﴾.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

الخلاف بين ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ في مفتَتَح الآية، و﴿فَٱذْكُرُوٓاْ﴾ هنا، أن ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾ جاءت تذكيراً بـ ﴿عَادٍ﴾، وما حلّ بهم نتيجة تماديهم. و﴿فَٱذْكُرُوٓاْ﴾ هنا جاءت تذكيراً لهم ليقدّموا الشكر لله على آلائه، لأن ذكرهم لـ ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، يقيهم أن يعثوا ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

[٧٥]

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾، قالت الأكثرية القوية المستكبرة على ما جاء به، ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ للأقلّية التي تواضَعَت وآمَنَت، فقد ذكرت الآية صفتَين متناقضتَين لفريقَين متناقضَين، ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ أي تعالوا عن الإيمان، و﴿ٱسْتُضْعِفُواْ﴾ أي تواضعوا للإيمان: ﴿تَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، وهذا بمثابة بثّ الشكوك فيهم، فكانت إجابتهم الحاسمة والثابتة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾. ثابتون على ما آمنّا به، ولا تزحزحنا شكوككم عن إيماننا.

فالذين آمنوا، رأوا كيف أن ﴿صَٰلِحًا﴾ دعا الله، وقد استجاب الله لمطلب هؤلاء من خلال معجزة الناقة، وذلك من أكبر البراهين على صدقه. ورغم ذلك أبى

المستكبرون أن يتنازلوا عن استكبارهم، ولم يكتفوا بذلك، بل تمادوا ليزحزحوا المؤمنين عن إيمانهم، ويبثّوا فيهم الشكوك.

[٧٦]

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾

وقد جاء قولهم فَجّاً، كَمَن يقف على أرضيّة هَشّة وهو يتأرجح عليها، وإذا أمعنتَ القراءة في الآية القصيرة، سيجلو لك أن جوابهم لا يصدر إلّا من الذين لا يملكون حجّة في موقفهم، فيتفوّهون بعبارات غير منضبطة.

فإن قال لك شخص ملحد بأنه لا يؤمن بالله، تسأل الله له الهداية. أمّا إذا قال: لا أؤمِن بِما آمنتَ أنتَ به، فذلك اتهام لشخصك بأنك على باطل، لأنه خصّك بقوله.

وهذا الأسلوب الذي يخلو من أدب الحوار، ما يزال سائداً لدى المغرضين، فيكيلون الاتهامات الشخصية لأهل الورَع والاستقامة.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ﴾، كان رد فعل المستكبرين وهم يرون الناس ترق قلوبهم للإيمان أن قالوا لهم: ﴿إِنَّا﴾ نحن ﴿بِـ﴾ ما أتى به صالح ﴿الَّذِيَ آمَنتُمْ﴾ أنتم ﴿بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ رافضون أن نكون معكم في هذا الإيمان.

[٧٧]

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ٧٧﴾

تمادوا في الطغيان والتكذيب، والله سبحانه وتعالى يمهلهم ويمهلهم، ثم إن المؤمنين يحتملونهم ويحتملونهم، علّهم يراجعون أنفسهم ويهتدون، ولكنهم لا يستوعبون الحكمة من الإمهال، فيتمادون أكثر ويطغون أكثر:

﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ بأن نحروها، ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ غدوا أكثر عِناداً وصلابة في استكبارهم للامتثال بِما جاء من الله.

﴿وَقَالُواْ﴾ استهتاراً: ﴿يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾، أي بما قاله لهم في الآية ٧٣: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾.

﴿فَ﴾ لم يأبهوا بذلك و﴿عَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ﴾ التي جعلها الله استجابة لدعاء رسوله، رأفة بهم. ثم إنهم يستعجلون العذاب على أنفسهم استناداً إلى التكذيب ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾.

فإن كنتَ صادقاً فيما تقول بأن الله أرسلك، ها قد عقرنا ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾ فأين ﴿عَذَابٌ﴾ الله الـ ﴿أَلِيمٞ ٧٣﴾ الذي حذّرتنا منه؟! وكل هذا حتى يحرجوه، ويوسّعوا من دائرة بث الشكوك والشبهات حوله.

وهذا هو عين التمادي المتصلّب، فيحدث أن ترى شخصاً ضالاً، يتقصّد شخصاً مستقيماً بالإساءة، فيجعله هدفاً له حتى يثنيه عن استقامته، فهو لا يكتفي بأنه ضل السبيل، بل لا يعجبه أن يستقيم غيره أيضاً، فتراه يلاحق ذاك المستقيم من مكان إلى آخر، ويوجّه إليه التهم الباطلة من مجلس إلى آخر، ويريد أن يحرجه بعبارات تخلو من الأدب، وينسب إليه الأكاذيب.

فلا يكون أمام المستقيم سوى أن يرفع التهم الجارفة عن نفسه بأدب جّم، ولكن الضال يزداد اعتداءً عليه، فقط لأنه رفع عن نفسه الاتهامات الباطلة التي لا أساس لها من الصحة، ولم يقرّ بالكذب على أنه صدق.

فكان عليه أن يصدّق الكذب ويقرّ أمام الناس بأنه صدق. وحتى لو فعل ذلك، لأظهر للضال بأنه شخص كاذب، لأنه أقرّ بالكذب على أنه صدق، وهو يعلم بأنه كذب مثلما يعلم الضال بأنه كذب.

وهذا مثال يذكره الله تعالى لنا حول العلاقة بين أهل الصلاح، وأهل الفساد في التاريخ البشري، فتبيّن الآيات بأن ما يحدث في الحاضر ليس جديداً في هذه العلاقة.

[٧٨]

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾

الآن تريك الآية الكريمة بأن ذلك التمادي لن يكون بوسعه أن يستمرّ، وأن الإنسان المستقيم له مَن ينصره مهما بدا ضعيفاً في موقفه، ومهما تخلّى الناس عنه، ومهما استقوى عليه أهل المكائد.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، وقد جاءت الكلمة في الصميم تعبيراً وكشفاً للضعف الحقيقي الذي هم عليه، والإنسان لا يرتجف إلّا إذا خَارَت قواه، ومادام الإنسان يتمتّع بالقوة، فإنه يقاوم الارتجاف، لكنه إذا تعرّض لمرض، لا يملك سوى أن يرتجف، لأن قوته تكون قد خَارَت عنه، وكذلك عندما يصبح شيخاً طاعناً في السن، فإنه يرتجف لأنه لم يعد يتمتّع بالقوة التي كان يتمتّع بها، وكانت تصدّ عنه الارتجاف.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، أي أصبحوا مأخوذين بـ ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ التي ﴿أَخَذَتۡهُمُ﴾ مِمّا كانوا عليه من قوة وأصبحوا تحت سطوتها. فهذا هو الوهن الحقيقي الذي كانوا يستقوون به، ثم جاءت العبارة الأخرى لتُظهر استسلامهم: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾.

فلم يعد بمقدورهم حتى أن يقفوا على أقدامهم، فذاك الذي كان يجري بلياقة حصان، ها هو يخنع ويستسلم لرجفة سلّطها الله عليه، فتصطكّ ركبتاه ولا تجسران على حمله للحظة واحدة، وتلك اليد التي طالما بطش بها، لم تعد قادرة على حمل شربة ماء، وذاك الصوت الأجشّ الذي طالما صدع به أسماع الناس بهتاناً، تحوّل إلى نبرات خافتة مرتجفة، وتلك العينان اللتان طالما جحّظهما في وجوه الناس، زاغتا، ولا تكادان تنفرجان إلّا بالكاد.

وهذا من الدروس البليغة التي يعلّمها القرآن لإنسان كل زمان ومكان، فعندما تجري بلياقة حصان إلى فعل شر، تذكّر أولئك الذين ﴿أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾.

فإن متّعك الله تعالى بلياقة بدنية سليمة، وعينَين سليمتَين، وقَدَمَين سليمتَين، ويدَين سليمتَين، وصوت سليم، فعليك أن تثبت لله بأنك أهل لهذه النِعَم التي بوّأك إياها. فتجري بقدَميك إلى عمل صالح، وتحمل بيدَيك الخير للناس، تقول بصوتك طيب الكلام، تنظر بعينَيك إلى الناس بأدب، فلا تختلس النظر إلى الناس لتحرجهم بنظراتك إليهم.

فَمِن الأدب أنك عندما تدخل على شخص، أن تُشعره بدخولك، أو تطرق الباب حتى لو كان الأمر بين الرجل وزوجته، أو بين أهل البيت الواحد، وألّا يباغت أحدهم الآخر، فلعلّه يكون في وضع حَرِج. فذلك من آداب حسن استخدام النظر الذي يُسجَّل للإنسان، وهذا يُقاس على اختلاس السَمَع أيضاً، فتَشعر الآخر بأنك تسمعه، إن وجدتَ نفسك بغتة تسمع صوت شخص دون علمه. والإنسان لا يولد كاملاً، لكنّه يخطئ ويتعلّم فيصلح مِمّا كان فيه من خطأ، فليس المهم أنك أخطأت، بل المهم أنك أصلحت.

إذن، الـ ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ هنا تنجم عن الذعر المباغت، ونجد بعض تفاصيل ما أصابهم في سور أخرى مثل: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: ٨٣]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٧﴾ [فصلت: ١٧]، ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤﴾ [الذاريات: ٤٤]. فيُحتَمل أن العِقاب كان على شكلَين، الصاعقة من السماء، والزلزلة من الأرض، فلم يملكوا من أمرهم سوى أن يصبحوا ﴿فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾، أي قضى العِقاب الإلهي عليهم، وقد أنجى الله تعالى رسوله، والذين آمنوا من ذلك.

[٧٩]

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٧٩﴾

وهذا إرشاد لك كي تفتح قلبك لأولئك الذين يقدّمون لك النصح، ويعظونك،

فتشكرهم على بادرة نصحهم لك. فانظر إلى حجم ما يتمتّع به رسول الله صالح عليه السلام من الأدب مع قومه حتى بعد أن أوقع الله تعالى بهم العِقاب، فلم يشمت بهم، بل تركهم ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾، أنذرتكم بِما كلّفني به ﴿رَبِّي﴾ بشأنكم، وفعلت كل ما كان بوسعي أن أفعله من أجل إنقاذكم من نتائج ما كنتم عليه من ضلال واتباع الأهواء، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ ما استطعتُ أن أنصح ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾، فأصررتم على تكذيبي، والآن قد وقع ما أنذرتكم به، ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ بأدب كما كان بينهم بأدب.

الباب التاسع والعشرون: لوط عليه السلام

[٨٠]

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

ولأن الأمر عظيم، ولأن البأس شديد وبالغ الخطورة، فما تزال الدروس والأمثلة القرآنية تتوالى من تاريخ الإنسان مع استفحال المعاصي. وإن كانت السورة في مقدّمتها قد وضَعَتك أمام المخيّلة بالنسبة للجنة، والنار، والميزان، والأعراف، حتى تكون على بيّنة بما يمكن له أن يحدث لك، فإنها هنا تضعك أمام الوقائع الحياتية الملموسة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ جاء ذكر لوط عليه السلام في مبتدأ الآية، وهو يحذّر قومه الذين ابتكروا الشذوذ، أو كما يُعرَف في وقتنا بـ (المَثلية الجنسية)، أي يعاشر المرء جنساً مِن مثله، وهذا انحراف عن الطبيعة البشرية.. ولوط بن هاران بن تارخ، هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، وقد أرسله الله إلى قوم (سدوم) عندما فَشَت فيهم هذه الفاحشة التي ابتكروها: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

فهؤلاء هم أول مَن أتوا فاحشة الانحراف الجنسي، وحرّفوه عن مساره الطبيعي كما تُطلعنا الآية الكريمة. وقد أدان لوط هذا السلوك الشاذ فيهم ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مُديناً إياهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الانحراف عن طبيعة العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

فلم يسبق لأحد من ذرّية آدم عليه السلام قد أتى ذلك قبل قوم لوط عليه السلام، ولذلك لبث هذا الفعل المنافي للحشمة مُنتَسباً إلى قوم لوط، ومع مرور الزمن بات يُوصَف المنحرفون جنسياً بـ (اللوطيين) في بعض التعريفات.

ونرى أن هذا الوصف غير دقيق، رغم أننا نرى أن الذين يستخدمون هذا الوصف، لا يتقصّدون به الإساءة إلى شخصية لوط، بل ينسبون بذلك هذا المُنحَرف إلى قوم لوط، نَسابَة الانحراف.

فإذن الوصف للفعل، وليس للشخص، والانتساب إلى الفعل، وليس إلى الشخص، ولذلك نرى أن ننزّه اسم لوط عليه السلام من هذا السلوك المنافي للحشمة الإنسانية، فيتم انتساب الأعمال الصالحة إلى أهل الصلاح في التاريخ البشري، لأن لوطاً قد تبرّأ من أفعالهم، فليس من الدقة أن نصف المشركين الذين كانوا في مكة بالمحمّديين حتى لو كان بعضهم ينتسب إليه نَسابة الدَم، لأن محمّداً صلى الله عليه وسلم قد تبرّأ من أفعالهم، وأدانهم في شركهم، فإذن هم قوم محمّد صلى الله عليه وسلم، وليسوا محمّديين. فيجوز أن يُعرَف الذين يتّبعون هذا السلوك بالمنحرفين، أو المَثليين، أو الشاذّين، ويبقى قوم لوط هم الذين ابتكروا هذه ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وأول مَن أتوها في التاريخ الإنساني.

[٨١]

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

هذا بيان لوصف نوع ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، كونها تَرد في القرآن كوصف للجِماع دون عقد شرعي، وهو ما يُعرَف بالزنا.

﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْۖ﴾ [النساء: ١٥].

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾. وهنا إشارة جليّة أن ذلك لم يحدث بسبب قلّة ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾، بل إنهم كانوا يأبون معاشرة ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ رغم كثرتهن، وهذا ما يحدث في بعض المجتمعات الغربية رغم تكاثر أعداد النساء، والتيسير المُتاح في مسألة الزواج، بل التغاضي حتى عن العلاقات الجنسية غير الشرعية، وإتاحتها، فإن البعض يلجأ إلى المَثلية رافضاً المرأة سواء بعقد شرعي، أو بزنا.

وقد اعتبرت بعض قوانين الغرب ذلك من الحريّة الشخصية تجاوزاً، فلم تنص بعقوبات رادعة بحق هؤلاء، مِمّا جعل الشذوذ مُستشرياً ومُباحاً.

ولأن الانحراف يستجرّ الانحراف، فقد رأت بعض النساء أيضاً أن يُباح لهن ذلك كناية بالرجال، فظهر ما يُعرَف بالنساء السحاقيّات، وهنّ كذلك مثليّات يرفضن معاشرة الرجال، ويأتين بعضهن البعض ﴿شَهْوَةً مِّن دُونِ﴾ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾.

وقد رأت هذه القوانين أن تسكت عن ذلك أيضاً، وتتيحه على غرار الرجال.

إذن ليس لك أن تترك لأهوائك الحبل على الغارب، لأنك عضو في مجتمع، ورب لأسرة، وأخ، وعم، وخال، وما إلى ذلك، والأمر لا يتوقف عليك، بل يترك ذلك أثراً على مَن هم على صلة بك، وقد تُفَسد الأسرة كلها نتيجة فساد الأب، فكان لا بدّ من استحداث قوانين بالنسبة لحرّية الأبناء دون أن يكون للآباء الحق في ردعهم.

والمعضلة التي تنجم عن ذلك أن أي ممارسة منحرفة وغير طبيعية، تؤسّس سلوكاً منحرفاً عاماً على سويّة شخصية الإنسان، فيكون بشخصية مهزوزة، مضطربة، مكتئبة، قلقة، متوتّرة، ذلك أن ممارسته الجنسية، هي ممارسة شاذة على الطبيعة البشرية، كون الله قد خلق الذكر والأنثى، وجعل الذكورة تكتمل بمسك الأنوثة، وتكتمل الأنوثة بمسك الرجولة، فيستمدّان معالِم حياة طبيعية سويّة من تكامل هذه العلاقة. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم، يحثّ الناس على الزواج، ويوجّه العزّاب إلى الإكثار من الصوم.

بعد أن قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ﴾، أضاف: ﴿بَلْ﴾، أي: والحقيقة: ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾. والإسراف بمعنى البَطَر، كما الأمر بالنسبة للبعض سواء في الشرق، أو الغرب؛ فعندما يفتح الله عليه وييسّر له أمره، تراه يبطر ويمرد ويشذّ عن قاعدة الطبيعة البشرية، فيلجأ إلى علاقات غير شرعية، أو منحرفة. فيكون بذلك قد أسرف بالنعمة التي أتاحها الله له.

فالحقيقة ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

من جهة أخرى، فإن الإسراف هو الإنفاق فيما لا طائل منه، فتنفق شيئاً دون أن تنتفع بِما أنفقت، ودون أن ينتفع به غيرك. وهنا تتعلّم من الآية بأن العشرة الزوجية بين الرجل والمرأة، تعود بنفعها عليهما معاً، وذلك من خلال الأبناء، وتكوين عائلة، وتلبية الحاجات الطبيعية فيهما، والاستقرار العاطفي، والتوازن العصبي، والانضباط النفسي، وكل ذلك إلى جانب أواصر علاقات القرابة بينَ عائلتَي الزوج والزوجة، ومن خلال المنزلة الاجتماعية التي يكسبها الزوجان، فالزواج يجعل منه عمّاً، ويجعل منها عمّة، ويجعل منه خالاً، ويجعل منها خالة، وما يتفرّع من صلات القربى التي تكون أساسها العشرة الزوجية بين رجل وامرأة.

فالشذوذ لا يحقّق شيئاً من ذلك، ﴿بَلْ﴾ يشكّل جناية على المرأة، لأن هذه الشهوة قد أودعها الله تعالى في الرجل لتكون من حق المرأة، والبذور التي يقتلها الرجل ويسرف بها في أهوائه المنحرفة، هي من حق رحم المرأة، ولذلك فإن الرجل عندما يأتي امرأته يكون قد عَبدَ الله، لأنه يكون قد أطاع الله، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ"(١).

والمرأة التي تمسك نفسها عن زوجها، تكون قد عَصَت الله في أمره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إِذَا دعَا الرَّجُلُ امْرأَتَهُ إِلَى

(١) صحيح مسلم.

فِرَاشِهِ فلَمْ تَأْتِهِ فَبَات غَضْبانَ عَلَيْهَا، لَعَنتهَا الملائكَةُ حَتَّى تُصْبحَ"[١]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهَا فَتَأْبَى عَلَيْهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيْهَا حَتَّى يَرْضَى عَنْهَا"[٢]. عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "وَنِسَاؤُكُمْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ الْوَدُودُ الْعَؤُودُ عَلَى زَوْجِهَا، الَّتِي إِذَا غَضِبَ جَاءَتْ حَتَّى تَضَعَ يَدَهَا فِي يَدِهِ، ثُمَّ تَقُولُ: لَا أَذُوقُ غُمْضًا حَتَّى تَرْضَى"[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: (قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: "الَّتِي تَسُرُّهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ"[٤]. عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ، وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا لِمَا عَظَّمَ اللهُ عَلَيْهَا مِنْ حَقِّهِ")[٥].

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: (تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ وَلَا شَيْءٍ غَيْرَ فَرَسِهِ، قَالَتْ: فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَكْفِيهِ مَئُونَتَهُ وَأَسُوسُهُ، وَأَدُقُّ النَّوَى لِنَاضِحِهِ وَأَعْلِفُهُ، وَأَسْتَقِي المَاءَ وَأَخْرُزُ غَرْبَهُ وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ وَكَانَ يَخْبِزُ لِي جَارَاتٌ مِنَ الأَنْصَارِ وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ، قَالَتْ: وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلَى رَأْسِي وَهِيَ عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ)[٦].

فالإسراف هو هدرٌ لطاقة الرجل، كما أنه اعتداء على حق مشروع من حقوق المرأة. والكلام موجّه لإنسان كل زمان ومكان، وليس مقتصراً على قوم لوط فحسب.

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) أخرجه البيهقي.

(٤) أخرجه النسائي.

(٥) رواه ابن حبان.

(٦) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

[٨٢]

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

فلقي رفض النصح في جواب قومه، بدل أن يستجيبوا ويعتدلوا ويصلحوا من شأنهم.

﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ الخروج هو النفي، أي انفوهم من هذه القرية، لسبب ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾. وهذا هو دَيدَن العصاة، فحتى اتهاماتهم يعنون بها الإغاظة، لأنهم يعلمون بأنها بعيدة كل البعد عن الحقيقة، وقد رأيت أنهم قالوا للمؤمنين من قوم صالح: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

والآن: ﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ لماذا؟ لأن تهمتهم الوحيدة ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾. أي ﴿يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ من أن يأتوا ﴿ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ﴾. وقد قالوا ذلك من باب السخرية والاستهزاء. فهم ليسوا من ملّتنا، وعلى ذلك انفوهم ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾.

[٨٣]

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

أخرج الله تعالى رسوله ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ ليوقع العِقاب بِما تبقّى جميعاً، ولعلّ الأهل بمعنى أهل بيته، أي آمنت به ابنتاه فقط، فخرجتا مع أبيهما دون أحد غيرهم، لأن البقية كلها لم تؤمن. ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]. فأهل لوط هم زوجته وابنتان بِكران له، وقد استثنى الله تعالى ﴿ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ من الأهل، كون الزوجة، هي من أهل زوجها، كما أن زوجها هو من أهلها. والاستثناء يشير بأنها كانت تضمر موالاتها للقوم، فكانت

بذلك ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ الذين شملهم العذاب. وغَبَرَ بمعنى هَلَكَ، و﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٨٣﴾ أي ﴿مِنَ﴾ الهالكين.

[٨٤]

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٨٤﴾

هنا يصف الله سبحانه وتعالى فاحشة الشذوذ بالإجرام، وأن الله يتولى عقاب ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٨٤﴾.

﴿فَٱنظُرۡ﴾ والكلام موجّه لمحمّد صلى الله عليه وسلم، ليس ليحتفظ به، بل ليبلغنا إياه، ﴿فَٱنظُرۡ﴾ يا محمّد، وأبلغ الناس لينظروا ﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٨٤﴾. فالذي يقبل أن ينتهج منهج الانحراف، يكون قد قَبِلَ وصف الله تعالى له بالمجرم، وقَبِلَ أن تكون له ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٨٤﴾. أما الـ ﴿فَٱنظُرۡ﴾ الموجّهة للرسول صلى الله عليه وسلم، فهي تبيّن له بأن النصر يكون للصلاح وليس للفساد، مهما كانت أعداد الصالحين قليلة، فإن استطاع الأنبياء أن يقنعوا قلّة من أقوامهم، فإن لوطاً لم يستطع أن يقنع حتى هذه القلّة؛ بل لم يستطع أن يقنع حتى زوجته، وهذا ما حصل مع نوح أيضاً: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ۝١٠﴾ [التحريم: ١٠]، ورغم ذلك فقد نصرالله تعالى نوحاً مع مَن آمن به، ونصر لوطاً مع ابنتَيه البكرتَين اللتين آمَنتا به.

أما بالنسبة لامرأته، فلعلّها أخفت عدم إيمانها حتى تبقى مع ابنتَيها، أو حتى تحافظ على حياتها الزوجية، لأنها لو أخبرته بأنها غير مقتنعة بما يدعو إليه، أو غير مؤمنه بأنه رسول من عند الله، لعلّه ما أبقاها عنده زوجة، وكان اسمها (واعلة) عندما كان يأتيه أضياف، تدل القوم عليهم من خلال إشعال النار إذا كان الوقت ليلاً، وإذا كان نهاراً من خلال التدخين، لكن الله لا يخفى عليه شيء، فأظهر الحق للعيان. وهذا بذاته من باب التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى لا يصيبه شيء من

اليأس، أو يحزن بسبب الانكار الواسع الذي كان يلقاه من قومه، وهم الذين أخرجوه من أحب بقاع الأرض إليه، وما إلى ذلك.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾، فقد عاقبهم الله تعالى بأن جعل حجارة شديدة الحرارة تقع عليهم من السماء ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢ ، ٨٣]. لبثت الحجارة المكوّنة من الطين المطبوخ بالنار، تتساقط دون انقطاع، وكل حجرة مكتوب عليها اسم مَن يُرمى بها، فتصيبه أينما كان، يبيّن الله تعالى كيف أنه يوقع العِقاب بالمفسدين، وكيف ينجي الصالحين.

الباب الثلاثون: شعيب عليه السلام

[٨٥]

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

ما يزال الناس يطغون كلّما يعاقب الله قوماً، ويجدّد الأرض ويطهّرها من المفسدين، فيأتي غيرهم، وقد هيّأ لهم أسباب النعيم والرفاه، وأرسل لهم الرسل والأنبياء، لتوجيههم وإرشادهم، وأغدق عليهم بالأرزاق والخيرات. لكنهم يُعاودون الفساد مرة أخرى، فيوقع الله بهم العِقاب.

وفي هذا بيان بأن الله تعالى لا يميّز في عقابه بين قوم وآخر، أو في زمن وآخر، كما لا يميّز في ثوابه بين قوم وآخر. فأفعال الناس هي التي تقيّمهم عند الله، مهما كانوا وحيثما وُجِدوا.

إن الله غني في أمثلته للناس، ويبيِّن لهم من قرن إلى آخر، ومن حقبة إلى أخرى أن الغَلَبة لن تكون للفساد، بل للصلاح. ومهما كثر المفسدون ومهما امتدّت رقعة الفساد، فإن الله يُعاقِب المفسدين بفسادهم، ويجعلهم يمنون بالهزيمة، وينصر عليهم قوماً صالحين ويورّثهم الأرض. فهي إذن دروس حتى يصلح الإنسان من شأنه، ويبلغ قناعة بأن الخير له ولأبنائه يكون في الصلاح، وأن بركة الله تكون في الصلاح، وأن الفوز في الدنيا والآخرة لا يكون إلّا بالصلاح. ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾.

درس بليغ آخر يمنّ الله تعالى به على الناس ليتّعظوا ويأخذوا العبرة، ويتجنّبوا عواقب الفساد التي مُني بها المفسدون من قبلهم، والأمثلة الغنية تبيّن تفرّعات الفساد. وهم أولاد ﴿مَدْيَنَ﴾ بن ابراهيم، من زوجته الثالثة (قَطُورَا) التي تزوّجها في أواخر عمره، وشعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب، وقد تزوج (ريثا) ابنة لوط، وَوُلِد له أبناء، هم: (عَيْفَةُ) و(عَفَرُ) و(حَنُوكُ) و(ابْيَدَاعُ) و(أَلْدَعَةُ).

وعندما كثر نسله، عُرفوا بقبيلة ﴿مَدْيَنَ﴾، وكانوا نحو خمسة وعشرين ألفاً.

لقد دعا قومه إلى عبادة الله بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾. ذلك أن رأس صلاح الإنسان يكمن في عبادة الله، ورأس فساد الإنسان يكمن في عدم عبادة الله، وفي الشرك. فجاءت الكلمة دقيقة ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

وهذا بيان لك بأن الإنسان لا يكفي أنه يؤمن بالله، أو لا يشرك به، بل إن أراد أن يكون في صلاح من أمره، عليه أن يعبد الله من خلال الطاعات، لأن هذه الطاعات تكون بمثابة المطر للزرع حتى يثمر، وعدم العبادة يجعل الإيمان يقيناً دون تفعيل، كما لو أنك بذرتَ دون أن تسقي. ولذلك اشترك النبيّون في مفتَتَح إرشادهم للناس بالدعوة إلى عبادة الله أولاً، لأن الإنسان إن عَبدَ ربه، استقام أمره، وإن عصى ربه، اعوجّ أمره. واعلم أن كل اعوجاج أصله معصية، وكل استقامة أصلها عبادة، فمن خلال العِبادة تتقي الله، فتزدهر زهور العبادة في قلبك، وتستقيم حياتك، وتتحوّل إلى إنسان نافع فاضل مُحِب ومُحَب، مرغوب فيه، لا مُنفَر منه.

وهذا كله ينعكس على تفاصيل حياتك اليومية، فتكون ناضجاً، هادئاً، طيباً، متّزناً، حكيماً، تعيش حياتك ببطولة في مجتمعك، ويرغب الجميع أن يتقرّبوا إليك. في حين إن الذي يأبى عبادة الله والمثول لأوامره، تتنغّص حياته عليه، فيكون مشَتّتاً، مضطرباً، يتحاشاه الناس أينما وجدوه واتقوا شره.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. اعدلوا في كيلكم إذا كلتم، وميزانكم إذا وزنتم، وجاءت كلمة ﴿فَأَوْفُوا۟﴾ بمعنى ﴿فَأَ﴾ عطوا تمام البضاعة التي قبضتم ثمنها، ولا تنقصوا منها شيئاً من خلال التحايل في ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. فإن استطعتم أن تتحايلوا على الناس، فلن تستطيعوا أن تتحايلوا على رب الناس.

﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾. وكلمة البخس تذكير بقلّة النفع من هذا الاعتداء على أموال الناس بالتحايل من خلال ﴿ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾. فالبخس هو القليل النفع، فترفّعوا عن هذا التحايل. إذن تعلّمك الآية الكريمة بأنك عندما تقبض قيمة بضاعة جيدة من شخص، ثم تعطيه بضاعة ما دون ذلك، تكون قد بخسته، أي هي بضاعة ليست وفق القيمة التي دفعها لك، فتكون بذلك قد بخسته.

ومثل ذلك ما يضع البائع بضاعة جيدة من الخضار والفاكهة أو ما شابه، في الواجهة، ثم يخفي في أسفلها ما دون ذلك بحيث لا تكون ظاهرة للعيان، فيضع لك الوزن الذي تريد في الكيس من تلك البضاعة الخفية، وإن مدَدتَ يدك إلى حبة لتضعها في الكيس، منعك لأنه يكون قد وضع ذلك ليستجرّ به الناس ويخدعهم.

فذلك كالمصيدة التي يصطاد بها الناس، حتى يبيع من خلالها بضاعته الرديئة بسعر البضاعة الجيدة، وعندما تعود إلى البيت، تكتشف ذاك الغَث، فتضطر أن ترمي نسبة في الحاوية، واحياناً تكون النسبة مرتفعة قد تشمل ثلاثة أرباع ما قد بخسك به، وقد أخذ منك قيمة كاملة عن بضاعة جيدة سليمة.

ولذلك نرى أن يتجنّب البائع هذا الشكل في البيع، وأن يدع المشتري ينتقي ما يريد، فإن انتقى حبّة فاسدة، فيكون هو الذي انتقاها. ثم إنه يفرز البضاعة ما دون الجيدة، فيعرضها للبيع ظاهرة للعيان بسعر منخفض، لأنه قد لا يأمن أن تمتد يده إلى حبّة فاسدة، فتضعها في الكيس في لحظة طَمَع. فلسدّ هذا الباب، يعرض البضاعة كاملة وظاهرة للعيان، ويعفي نفسه من مسؤولية الانتقاء. وقد توعّدهم الله تعالى بالويل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ١ - ٣].

جاءت كلمة الأشياء جامعة ومفتوحة لتشمل كل شيء يمكن أن يبخس فيه البائع على حق المشتري، وإن كان الميزان يعني الثقل الموازي للوحدة الذي يمكن أيضاً أن يبخس البائع من خلاله المشتري من خلال إحداث خلل في هذه الوحدات، فإن الكيل يعني جودة البضاعة التي قد لا تخضع للميزان، مثل الأقمشة، والأثاث، ومختلف الأدوات التي يمكن للبائع أن يبخس بها **﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾** على أنها أصلية، وتكون ما دون ذلك. ما هو مهم أن تعلم بأن هذا الكلام ليس موجهاً من نبي إلى قومه بشكل خاص، بل هو مثال لجميع البشر أينما كانوا وحيثما وُجِدوا، فلو كان الكلام مقتصراً على قوم دون غيره، لَما كان من وجوده في القرآن من معنى، لأن الناس كانوا سيقرؤونه دون أن يجدوا فيه نفعاً. فاعلم أن كل أنبياء ورسل الله، هم أنبياء ورسل للناس جميعاً، وأن في قصصهم عبرة وموعظة للناس جميعاً.

فيا أيها الناس جميعاً: **﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾**.

فلا يجوز لك أن تقول بأنني لستُ مَعنياً بهذا الكلام، وأنه كلام خَصّه نبي لقومه. ولذلك جاء خاتم أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، مصدّقاً لِما جاء الأنبياء والرسل من قبله، وهذه الأحداث والوقائع يقصّها الله تعالى لك من خلال رسوله، والغاية من قَصّها، أن تنتفع بها، وتتعظ بها.

وكذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم الذي يحملها إليك ينتفع ويتعظ بها، فبيَّن له الله تعالى المقصد من هذا القصّ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولذلك فإن كل كلمة في القرآن، تلزم الإنسان، وما من كلمة احتواها القرآن، لا تلزم الإنسان. جاءت خاتمة الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾. فإذن إن أردتم الخير، عليكم أن توفوا ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ﴾، فاعلموا أن ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

[٨٦]

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

هذا يذكّر بقول الشيطان في الآية ١٦، عندما قال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾، فلا تتحوّلوا إلى شياطين الإنس، وتقتدوا بالشيطان في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾. يقول لهم، والكلام ما دام قد ورد في القرآن، فهو للناس جميعاً:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾، ﴿لَا﴾ ترصّدوا الناس ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق، ﴿تُوعِدُونَ﴾ تهدّدون ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ تمنعون الذين آمنوا بالله عن سبيله السَوي.

فالمَنع يكون على شكلَين، معنوي بالتهديد والوعيد، ومادي باعتراضهم على الطرقات التي يسلكونها للوصول إلى شعيب.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾. فهذا هو لب الصِراع بين الاستقامة والاعوجاج، فدوماً أهل الاعوجاج يترصّدون أهل الاستقامة، ويسعون ما أمكنهم للإيقاع بهم، حتى يحيدوهم عن استقامتهم إلى الاعوجاج، ولا يدعوهم بشأنهم، ويستخدمون في ذلك شتى المكائد. في حين إن أهل الاستقامة يسعون ما أمكنهم لإنقاذهم من عواقب

الاعوجاج، ويستخدمون في ذلك الكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، حتى يحيدوهم عن الاعوجاج إلى الاستقامة، ثم يكتفون بذلك ويدعونهم بشأنهم. فهؤلاء لم يكتفوا بأن باتوا في الاعوجاج، بل يـ ﴿بْغُونَهَا عِوَجاً﴾ بشكل عام حتى يشيع الاعوجاج ويعم في المجتمع، ولذلك يقعدون للمؤمنين المستقيمين ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾.

فيذكّرهم: ﴿وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ بعد أن عاقب الله الكثرة الفاسدة، واستخلص القلّة المؤمنة، ﴿فَـ﴾ ها قد ﴿كَثَّرَكُمْ﴾ الله من تلك القلّة المؤمنة، وأنه لو سكَتَ عن المفسدين، لَسَكَتَ عن تلك الكثرة.

ثم يأتي تحذيره من سوء العاقبة: ﴿وَانظُرُواْ﴾ اتعظوا واعتبروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾. تلك العاقبة التي تنتظر كل مفسد، فاتقوا أن تكون لكم تلك العاقبة بالّا تلبثوا مفسدين، وتصلحوا من شأنكم، فما زال بإمكانكم ذلك رغم كل ما اقترفتموه من فساد، وهذا من رحمة الله ورأفته بكم.

[٨٧]

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

﴿طَآئِفَةٌ﴾ الاستقامة الذين ﴿ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ نظير ﴿طَآئِفَةٌ﴾ الاعوجاج الذين ﴿لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾، وقد أبلغتكم جميعاً ما حمّلني الله تعالى إليكم، والآن: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ﴾ إن كنا نحن على حق، أو أنتم، وأن الله تعالى لا يتركنا هكذا، فلا تستعجلوا الأمر ﴿حَتَّىٰ﴾ يأتينا حكم الله، ﴿وَهُوَ خَيْرُ﴾ أحق ﴿ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لنا ولكم.

[٨٨]

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

هنا تمادى ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وقد انضمّوا إلى بعضهم البعض جميعاً،

فأصبحوا ملأً مستكبراً على الإيمان، وقالوا بموقف واحد: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ﴾ ﴿وَ﴾ نُخرج ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ بِما تدعو إليه ﴿مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ إن لبثتم على ما أنتم فيه، ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾.

فلم يكتفوا برفض النصح فحسب، بل بوضع شرط على الناصح والمؤمنين به أن ينزعوا عقيدة الإيمان من صدورهم، وإلّا سوف يحجرون على بيوتهم وأموالهم، ويطردونهم بالقوّة من القرية التي لن تعود لهم، ولن يدعوا أن تطأها أقدامهم بعد الآن، ولذلك نسبوا القرية إلى أنفسهم فقط فقالوا: ﴿قَرْيَتِنَآ﴾ كما لو أن ﴿شُعَيْبًاۖ﴾ والمؤمنين معه ليس لهم شيء قط في هذه القرية، فجرّدوهم منها.

وإذا نظرتَ إلى قول شعيب عليه السلام، سترى بأنه اكتفى بالنصح دون أن يتجاوز ذلك، وقال بكل أدب: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، فليكن الله حَكَماً ﴿بَيْنَنَاۚ﴾، ولا نكرهكم على شيء، ونظير ذلك نطلب منكم ألّا تكرهوننا على ما لا نريد. فجاءت خاتمة الآية بإجابة شعيب لهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

فأضعف الإيمان أن نقول لكم ما لدينا، وتقولوا لنا ما لديكم، ويدع كلٌ منّا الآخر بشأنه ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

[٨٩]

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

كما أن قول المستكبرين جاء جَمعاً، فإن قول المؤمنين كذلك جاء جَمعاً للردّ عليهم، فبعد أن آمنّا وعاهدنا الله على ما آمنّا به، فإننا ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ نكون

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾، ولم نك صادقين في إيماننا، والحق أننا صَدَقنا في إيماننا، وقد آمَنّا عن قَناعةٍ.

فقد ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ من ملّتكم التي عاقبتها غير محمودة، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ فنحن ما دمنا قد آمنّا، فقد فوّضنا أمرنا لله وتوكّلنا عليه ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾.

هذا الكلام شبيه بالدعاء، حتى يجعل الله الإيمان راسخاً في صدورهم، لا يزحزحه شيء، فعلى الإنسان دوماً أن يسأل الله تعالى ثبات الإيمان، وكان إبراهيم عليه السلام يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، فالإيمان من أعظم أفضال الله تعالى على الإنسان، وعلى الإنسان أن يحافظ على إيمانه بالطاعة، ويسأل الله تعالى ألّا يحرمه هذا الإيمان، ويجعله دوماً في زيادة. عَن أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: "يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ، وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: "نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ")[(١)]. فنحن نكون في مشيئة الله وليس في مشيئتكم، وقد شاء الله ﴿إِذْ نَجَّىٰنَا﴾ من ملّة الكفر إلى ملّة الإيمان، وإنَّ رجوعنا يعني أول ما يعنيه أنكم على حق، وأننا على باطل، وبذلك نكون ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ من خلال ارتدادنا عَمّا آمَنّا به.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. لا شيء قط بوسعه أن يخرج عن علم الله، وقد ﴿وَسِعَ﴾ اتّسع علمه ليشمل ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، ولا نتّكل على غيره. ثم اتجهوا إلى الله عز وجل قائلين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

دعاء بمنتهى العدل، ولا يغيظ أحداً، فعندما ترى شخصاً على خلاف معك

(١) رواه أحمد والترمذي.

يقول: ربي افتح بيني وبين هذا الشخص ﴿بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾، فإن كنتَ على حق، فعليك أن تُصادق على دعائه بقولك: (آمين). وخلاف ذلك، فإنك تكون على باطل، لأن الرجل يدعو الله بإحقاق الحق. والفتح هنا بمعنى القضاء، أي ﴿رَبَّنَا﴾ نسألك أن تقضي وتفصل ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ٨٩﴾ القاضين والفاصلين ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾.

[٩٠]

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾

فبدا أن ﴿ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾، لم يُصادقوا على قوله، ولم يقولوا (آمين)، بل صعّدوا في وتيرة النزاع، ولم يدعوهم بشأنهم، بل تمادوا أكثر بِوَعيدهم وقالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾.

وردت في الجملة لامان، الأولى على سبيل التهديد ﴿لَئِنِ﴾ في حال اتباعهم ﴿شُعَيۡبًا﴾، عندئذ تأتي اللام الثانية ﴿لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾، كتنفيذ للتهديد، أي أننا سنجعلكم تدفعون ثمن اتباعكم لشعيب باهظاً. والثَمَن الذي هَدّدوا به كما ورد في الآية ما قبل الماضية، هو الطرد من القرية، أي سوف نجرّدكم من كل ما تملكون، ولا ندع أقدامكم تطأ هذه القرية. فالآن أرادوا أن يحوّلوا القول إلى الفعل، ليحققوا فيهم هذه الخسارة التي هدّدوهم بها.

[٩١]

﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾

فلم يمكّنهم الله من تنفيذ وعيدهم، ولم يأذن لهم كي يؤذوا ﴿شُعَيۡبًاۗ﴾ والمؤمنين ﴿ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾. وهي ذات الآية ٨٧ التي وردت بحق ثمود، لكن ﴿ٱلرَّجۡفَةُ﴾ هنا مختلفة عن رجفة ثمود، وهؤلاء هم ﴿أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩﴾ [الشعراء: ١٨٩].

فقد تعرضوا لحر شديد، وباتوا يبحثون عن أي ملاذ يخفف عنهم هذا الحر. وعندما رأوا سحابة سوداء في السماء، تظللوا بها، عند ذاك أمطرت عليهم ناراً وأحرقتهم.

دوماً نرى بأن الله تعالى يمهل الإنسان ما دام يكون مكتفياً بخطيئته على نفسه، وساتراً نفسه فيها، أو يكون متأرجحاً بين الذنوب والتوبة، كما الأمر بالنسبة لأهل الأعراف. فهو يرتكب خطيئة بينه وبين نفسه، ولا يؤذي أحداً، ولا يُشجّع أحداً على الذنوب، فذلك ذنب يتحمّل وزره هو وحده، ويكون الأذى مقتصراً عليه فقط ولا يتعدّاه إلى غيره. لكن التمادي الغليظ يكمن في أولئك الأشخاص الذين لا يكتفون بارتكاب الذنوب، ويفشونها بعد أن يسترهم الله فيها، ثم لا يكتفون بذلك أيضاً، بل يستهزؤون بآيات الله، والذين يؤمنون بها، ثم يكيدون المكائد للمؤمنين، فيقعدون لهم ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ ويسعون إلى إلحاق الأذى المادي والمعنوي بهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. وكل ذلك ليس لأن، بينهم وبين هؤلاء عداوة شخصية، بل لعلّهم لم يلتقوا بهم قط، ولكنها عداوة بنية تَنيهم عن الاستقامة إلى الاعوجاج. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ التي أُنذروا بها، وحُذِروا كي يتجنّبوها، فها هم هؤلاء أيضاً قد لحقوا بركب المفسدين، ولم يملكوا من أمرهم شيئاً سوى أن يستسلموا لـ ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي عاقبهم الله بها.

هؤلاء الذين تمادوا في الطغيان، وكانوا يجوبون المسافات وهم في أوج قوتهم وعافيتهم ونفوذهم، ولكنهم كانوا يوظّفون تلك الامكانات للفساد، وظَنّوا أن الأرض لا صاحب لها، وأن الناس لا صاحب لهم، وأنهم يفعلون ما يشاؤون دون أن يكون لأحدٍ أن يوقفهم عند حدودهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾.

وهو عِقاب إهانة وإذلال لهم، حيث خارَت قوّتهم، ﴿فَـ﴾ انتهوا بأن ﴿أَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. تحوّلوا إلى جثامين تحت وطأة ﴿الرَّجْفَةُ﴾ التي سلّطها الله عليهم.

[٩٢]

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾

الخسارة التي توعّدوا بها المؤمنين، مُنيوا هم بها، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾، ﴿لَّمۡ﴾ يحافظوا على ما أنعم الله تعالى عليهم من النِعَم، فأصبحوا كما لو أنهم ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ في القرية التي أرادوا أن يُخرجوا منها ﴿شُعَيۡبٗا﴾ والمؤمنين. أي أصبحوا كما لو أنهم لم يكونوا ﴿فِيهَاۚ﴾. وبذلك فإن حكم الله عندما جاء، ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٩٢﴾، نتيجة استكبارهم وتكذيبهم بالحق الذي أتى به شعيب إليهم.

[٩٣]

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾

عندئذ وقف شُعَيب في أوج قوته، وفي أوج النصر الذي وعده الله به، وتركهم في رجفتهم، ﴿وَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أنذرتكم وحذّرتكم بِما كلّفني به ﴿رَبِّي﴾ بشأنكم، ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ﴾ نصحتكم أن تتّبعوه، لكنّكم كذّبتموني واستمررتم على ما أنتم فيه.

﴿فَ﴾ - بعد كل ما بيّنته لكم، وبعد كل ما بَدَرَ منكم نحوي ونحو الذين آمنوا بي - ﴿كَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أرادوا إفساد الناس جميعاً، ويرغموا عليهم الفساد بالقوة، وقعدوا للصالحين ﴿بِكُلِّ صِرَٰطٖ﴾ كي يصدّوهم ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وحتى في تلك اللحظات، لم يشمَت بهم، ولم يقل لهم (لا) ﴿ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ۝٩٣﴾، بل: ﴿فَكَيۡفَ﴾ وهي كلمة واحدة، لكنها مليئة بالمعاني.

﴿فَ﴾ ما الذي أقوله لربي إذا أسيتُ عليكم، ماذا أقول للمؤمنين، ماذا أقول لنفسي، وقد وقع حكم ﴿اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

ولعلّ بعض المؤمنين خطر لهم أن يأسوا، ولعلّه أراد بذلك أن يدفع عن نفسه أيضاً الأسى على ما أصابهم من هلاك، لأن هؤلاء كانوا أقرباء النَسب، والأسى هو الحزن الشديد، فكان قوله: ﴿فَكَيْفَ﴾ بعد كل الذي وقع ﴿ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾. ولذلك عندما ترى النهاية الحَتميّة لشخص تَمادى في طغيانه وجوره، لا تستطيع أن تأسى عليه وأنتَ تتذكّر كل ما سَبّبه لك وللأبرياء، وكل ما نشره من فساد، فترى بأن عِقاب الله جاء ردعاً له، وتنفيساً للصالحين الذين كان يرزح بطغيانه على صدورهم. فكيف تأسى عليه وقد أوقفه الله عند حدّه، وحتى يكون عِبرة لغيره بأن الظلم لا يدوم.

[٩٤]

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فالغاية من ﴿الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾، أن يضرع الناس إلى ربهم ويستقيموا، أي هما عِقاب تأديب وتنبيه من أجل أخذ العبرة. وهنا يتحوّل العِقاب إلى شكل آخر من آيات الله في الناس، فيقرأ الناس هذه الآيات من خلال بعضهم البعض ويتّعظوا. فكم مِن بأسٍ وقع على شخص، فكان سَبباً في صلاحه، وكذلك صلاح غيره، فعندما ترى بأساً أو ضَرّاً وقع على شخص يرتكب موبقة، قد يكون ذلك سبباً في تنبيهك ويقظتك، فتقلع عن تلك الموبقة، وتضرع إلى الله وتتوب إليه.

لذلك ذكَرَت الآية الكريمة العِقاب في أمرَين هامَّين في الحياة، وهما العافية والرزق، فالداء يقع على البَدَن ويفتك به، وهو ما وصفه الله ﴿بِالْبَأْسَاءِ﴾، ويصيب الله الإنسان في رزقه، فيصبح فقيراً، وقد وصف الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي يوقع الضَرر المادّي عليك.

فأصبحنا أمام ثنائية المرَض والعَوز حتى يتّعظ الإنسان ويعرف قيمة نِعمَتَي العافية والمال، فلا يستهلكهما فيما لا طائل فيه، يعرف قيمة ماله فلا يفرّط فيه،

ويعرف قيمة عافيته فلا يفرّط فيها. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "عَجَبًا لِلْمُؤْمِنِ لَا يَقْضِي الله لَهُ قَضَاء إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاء صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ".

[٩٥]

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ﴿الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾، جعلنا الصحة العامرة، والرزق الوفير بدلاً عنهما، لبثنا نغدق عليهم بالنِعَم ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ تضاعف بهم رَغَد العَيش أضعافاً مُضاعفةً. وكلمة ﴿عَفَوا۟﴾ بمعنى أنك تأكل وتشبع، وتعيف ما قد فضل، وهذا دليل على أن الله أكرمك بِما هو زيادة عن حاجتك. ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾، أي باتوا في زيادة سواء في العافية، أو أطايب الطعام والشراب، أو السكن الجيد، أو الأموال، وما شابه بِما يمس مقوّمات حياة كريمة، فاكتشفوا علاجات لأوبئة كانوا يعانونها، تَيسّرَت بهم سُبُل الحياة، انفَتَحَت أمامهم أبواب المكتشفات العلميّة. فقد مكّنهم الله تعالى من الرفاه، وأصبحوا يرفلون في ألوان النعيم التي لم يَنعم بها أحد قط قبلهم. فبدل أن يحمدوا الله على ما أغدق عليهم من الرفاه، بطروا وتمادوا، وباتوا ينحرفون، ويتخلّون عن عِبادة الله، ولا يذكروه ولا يشكروه، بل يستهزؤون بكتب الله ورسله، وينكرون الحساب.

ويتذرّعون قائلين: ﴿قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، حصل لهم ذلك بحكم عوامل الطبيعة والظروف، سواء في ﴿ٱلضَّرَّآءُ﴾، أو في ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾، فما نحن فيه أيضاً ليس من الله، بل بحكم عوامل الطبيعة والظروف والتطوّر البشري. فكان ردّ الله تعالى على جحودهم واستكبارهم وبَطرهم:

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

هكذا عندما يأخذ الله الإنسان ﴿بَغْتَةً﴾ من كل ما هو فيه دون أن يكون له أن يقاوم.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُم﴾ من كل ما هم فيه ﴿بَغۡتَةً﴾ فُجاءَةً، ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾، لأنهم يكونون قد غرقوا في المعاصي، فيأخذهم الله ﴿بَغۡتَةً﴾ وهم في ذروة معاصيهم وفجورهم.

[٩٦]

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿وَ﴾ - كل هذا الذي حصل، كان بالإمكان الّا يحصل - ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ الذين أصابهم ما أصاب ﴿ءَامَنُواْ﴾ بِما أُنزِلَ إليهم من خلال أنبياء الله ورسله ﴿وَٱتَّقَوۡاْ﴾ الله وأصلحوا ما بهم من اعوجاج واستقاموا، عندها وبدلاً عن كل ذلك الذي أصابهم: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

المطر الذي يحمل لهم الخير ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ والنبات من ﴿الأَرْضِ﴾. ينتفعوا به. إذن ثمة أناس يفتح الله عليهم ﴿بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، فتراهم ينعمون ويستلذّون بكل مقوّمات حياتهم، يتمتّعون بصفاء الذهن، وطمأنينة القلب، يكونون حكماء في تصرّفاتهم، يأخذون العِبرة من التاريخ ومن الحاضر.

واعلم أن البركات لا تقتصر على أشياء دون غيرها، ولا تقتصر على المظاهر، بل يعيش الإنسان تفاصيلها وحقيقتها، تتفتّح أساريره لإشراقتها، تنتشي حواسه لعبيرها. ويوماً عن يوم يزداد خبرة ونضجاً واستنارة وامتلاءً بالحياة، فتراه ناجحاً في مهنته، ناجحاً في علاقته الزوجية، ناجحاً في تربيته لأبنائه، في علاقته بأقربائه وجواره.

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ﴾، ما أصابهم كل ذاك العِقاب الذي جلبوه على أنفسهم نتيجة تجاوزاتهم وتماديهم في العصيان، بل: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وقد حصل ذلك لقوم يونس عليه السلام، حيث تراجعوا عن ذنوبهم

وتابوا إلى الله قبل أن يحل عليهم العذاب ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨]. وقد آمن القوم جميعاً وكان عددهم يزيد عن مائة ألف ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨].

فأقصى ما يمكن أن يغدق عليك أغنى أغنياء الأرض، هو أن يفتح عليك خزائنه وممتلكاته، لكن الله بيده خزائن وممتلكات الأرض جميعاً. فإن قال بأنه يفتح للمؤمنين المتّقين ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فذلك من أعظم ما يمكن للإنسان أن يحظى به من نعيم، فلا شيء بوسعه أن ينال قيد شعرة من بركة الله في بَدَنك، أو رزقك، أو أهلك، وشرط كل ذلك أن تكون مؤمناً، وتقيّاً في إيمانك. ثم جاء قوله تبارك وتعالى، كفاصل للجملة السابقة، ﴿وَلَٰكِن﴾، أي ﴿وَلَٰكِن﴾ بدل أن يؤمنوا ويتّقوا لنفتح ﴿عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بآياتنا ورسلنا، ولبثوا في عصيانهم وفسادهم، ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾. والعبارة دقيقة، أي يكون العِقاب مِن جنس المعصية، فلكل شيء نتاج، فإن زرعتَ ورداً، جنيتَ ورداً تنتعش به، وإن زرعتَ شوكاً، جنيتَ شوكاً تُشاك به.

فالزاني يُعاقِبه زِناه، والفاجر يُعاقِبه فجوره، والفاسق يُعاقِبه فسوقه، والسارق تُعاقِبه سَرِقته، والكاذِب يُعاقِبه كذبه. فتظهر أوبئة لأهل معصية ما، فيكفّوا عن ذلك خوفاً من إصابتهم بهذا المرض، وعلى هذا النحو في سائر أنواع المعاصي، كما أن الله سبحانه وتعالى يُعاقب الإنسان بالحرمان من رزق رزقه به، فلم يقدّر هذا الفضل، أو يبذّر فيه، ومثل ذلك بعض الأوبئة التي تصيب الحيوان، فيضطر الناس إلى التخلّص منها تفادياً من انتقال تلك الأوبئة إلى الإنسان، فيكونوا بذلك قد انحرموا من رزق وفير رزقهم الله به، ثم حرمهم إياه.

وبالمقابل فإن الثواب أيضاً يكون من جنس الطاعة، ويُروى أن أبا الطيب الطبري (قد جاوز المائة سنة وهو ممتَّع بعقله وقوته، فوثب يومًا من سفينة كان فيها

إلى الأرض وثبة شديدة، فعوتب على ذلك فقال: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر).

وإن كان ذلك في الدنيا، فهو في الآخرة أيضاً، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "مَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا فِيهَا أَبَدا. وَمَنْ شَرِبَ سَمّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدا مُخَلَّدا فِيهَا أَبَدا. وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً"(١).

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ"(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه ومسلم: "مَنْ ضَرَبَ سَوْطاً ظُلْماً اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَة"(٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ"(٤).

وقد جعل الله سبحانه وتعالى للجنة أبواباً لا يدخلها أحد غير أولئك الذين تميّزوا بأعمال صالحة بعينها، وجعل لجهنم أبواباً لا يدخلها أحد غير أولئك الذين تميّزوا بأعمال طالحة بعينها. وقد رأينا كيف أن بعض أزلام الطغاة الذين كانوا يدبّرون الاغتيالات للناس، ثم يدّعون بأنهم انتحروا، أو اغتيلوا، أو ماتوا بحوادث، أو أمرض، فكانت نهايتهم على أيدي ذات الطغاة، فتم اغتيالهم، أو شيع بأنهم انتحروا، أو اغتيلوا، أو ما توا بحوادث، أو أمراض. فذاقوا ما كانوا يُذيقونهم لغيرهم، وذاق أهلوهم ما ذاق أهلوا أولئك. فالذي يوشي بالناس، يُوشى به، والذي

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٠).

(٣) رواه البزار والطبراني.

(٤) صحيح مسلم.

يكذب، يُكذَب عليه، والذي ينتهك الأعراض، يُنتَهَك عرضه، والذي يغتصب، يُغتَصَب، فإن الله سبحانه وتعالى، يُسلّط على الفاسدين أناساً من معادنهم.

ثم تعلّمك الآية في وجهها الآخر بأن الذي يعز نفسه، يعزه الله، والذي يتجنّب أن يؤذي الناس، يجنّبه الله أذى الناس.

فإن أردتَ أن تكون فاسداً، فإن الله لا يزيدك فساداً، بل يرشدك إلى الصلاح، وإن أردتَ أن تكون صالحاً، فإن الله يزيدك صلاحاً، ويجنّبك الفساد. فمهما حرصتَ على نفسك، فإن الله أحرص منك عليك، وإن مَدَدتَ خطوة إلى الصلاح، باركَها الله ويسّرك إلى المزيد، وإن مَدَدتَ خطوة إلى الفساد، أعاقها الله، وعسّرك فيها حتى لا تمدّها إلى المزيد، لعلّك تتراجع.

[٩٧]

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾

فإن نمتَ، هل تأمن أن بأس الله لا يقع عليك وأنتَ في لفائف نومك، وكأن الآية تسألك: كيف يأتيك نوم وأنت في كل هذا الوزر، وأنت في كل هذا الظلم، ﴿أَفَأَمِنَ﴾ تَ أن تنهض من نومك.

فاترك فراشك، ولا تعد إليه قبل أن تعيد للناس حقوقهم عليك، قبل أن تصلح من شأنك وتتوب إلى بارئك، وتستغفره عَمّا بَدَرَ منك سواء عن عَمد، أو غير عَمد، فإنه يَغفر العَمد، وغير العَمد. فالبأس في الآية الكريمة، ما يصيب الجسد، لأن النائم لا يعلم مالذي يصيب جسده وهو نائم، فقد يحترق، قد تأتي حشرة وتلسعه، قد يدخل عليه شخص ويقتله، قد يرى حلماً ويضطرب، ونتيجة ذلك ترتفع نسبة أي معدّل في دمه، فيصاب بشلل، وما إلى ذلك مِمّا يمكن أن يصيب الإنسان وهو نائم. وهنا تنبيه بأن الله لا يسلّط عليك ما يؤذيك وأنت يقظ فحسب، بل قد يحدث ذلك عندما تكون نائماً، فلا تأمن أن يصيب بَدَنَكَ بأسُ الله بَدَنَكَ في ظلمة سكون الليل وأنت نائم.

[٩٨]

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾

وقد يأتيك بأسُ الله وأنتَ تمضي وقتاً في التسلية واللّعب مع أصحابك نهاراً،

فعليك وأنت تلعب، وقد نسيتَ نفسك في اللّعب والتسلية، ألّا تنسى بأن الله لم ينسك، ويمكن أن يصيبك في بَدَنِكَ وأنتَ في ذروة لعبك ﴿ضُحًى﴾، في وَضَح النهار، وهذا نظير ما جاء في الآية السابقة عند النوم. فعلى الأغلب يكون الليل وقت النوم، وكلّما تقدّم الليل وحَلَكت العتمة، استسلم الناس للنوم أكثر. فجاء التذكير والتنبيه لك وأنتَ نائم في سكون الليل، ثم وأنتَ يقظ تلعب في وضح النهار. والهمزة في ﴿أَوَ﴾ استفهامية ولعلّ بينها وبين الواو العاطفة كلمة محذوفة، وتقديرها ﴿أَ﴾ تجاهل ﴿وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ استناداً إلى تجاهلهم، والتجاهل هنا غير الجهل، فالذي يجهل قد لا يعلم، لكن الذي يتجاهل، فيعلم لكنه يتجاهل ما يعلم.

[٩٩]

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾

المكر هنا بمعنى المُباغَتة بالحق، كالذي يمضي في طريق، فيسقط شيء ما عليه من بناء فيجعله في عاهة، أو تصدمه سيارة عابرة، أو تصيبه طلقة طائشة، أو بغتة يرى نفسه وسط حريق، أو بين يدَي مجرم.

والآية متعلّقة بالآيتَين السابقتَين، فقد يحدث ذلك في أي وقت من الأوقات، وفي أي وضع تكون فيه. ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾، حتى يصولوا ويجولوا ويمردوا، كما لو أن لا أحد بمقدوره أن يردعهم أو يوقفهم عند حدودهم. فعليك أن تضع ذلك دوماً بالحسبان، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ﴾ مُباغَتة ﴿ٱللَّهِۚ﴾ المتوقعة وغير المتوقعة ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾. فكل الأوقات متوقّعة لإيقاع العِقاب على المفسدين سواء أكان ذلك متوقّعاً من قِبل الناس، أو غير متوقع، فبعض الوقائع يعجب الناس لوقوعها، لأنهم لم يكونوا يتخيّلون وقوعها حتى على سبيل التخيّل. فشخص يكون قد طغى وتمكّن من البلاد والعِباد، ينتهي نهاية لم يتوقعها أحد، ولكن الله يذل هذا الظالم، ويجعله يخنع ويُهان على مرآة من الناس. فيتحوّل ما لم يكن يخطر للمخيّلة إلى

واقع ملموس يراه الناس جميعاً. فإن الله لا يدع البلاد والعِباد للطُغَم الفاسدة، بل يستخلص البلاد والعِباد من طغيانهم: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾. وتكمن خسارتهم على مقدار لا شعورهم ولا يقينهم بهذا المكر الإلهي الذي سيصيبهم بغتة، ونقيض الخسارة، الفوز. فإن آمن الإنسان بهذا المكر، سيكون ذلك سبيله للتقوى، فيتحوّل من خاسر إلى فائز. وعلى ذلك، آمِنوا بوقوع عِقاب الله في أي وقت من الأوقات حتى تكونوا من الفائزين، ولا تكونوا من الخاسرين.

[١٠٠]

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

الآن يبيّن الله تعالى بأن هذا القص ليس لأناس مرحلة ما، أولقوم ما، بل هو قَص موجه للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان. ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يتبيَّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ عن بعضهم البعض في كل زمان ومكان. والكلام موجّه إلى الحاضر ﴿يَرِثُونَ﴾ الآن ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الذين أصبحوا في الماضي. فيامَن ترثون ﴿ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ﴾ أن نزعناها من ﴿أَهْلِهَآ﴾ ﴿أَوَلَمْ﴾ يتبيَّن لكم: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ لأصبناكم بذنوبكم، كما ﴿أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ﴾، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿نَطْبَعُ عَلَىٰ﴾ قلوبكم، كما طبعنا على ﴿قُلُوبِهِمْ﴾.

وجاءت ﴿لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ معبّرة بدقّة بالغة عن لب المعنى، والسمع هو للقلب، فصمم القلب لهو أشدّ من صمم الأذنَين، ذلك أن أصمّ الأذنَين يمكن له أن يتّغظ بما يرى، أو يقرأ، لكن أصمّ القلب، مهما أسمَعَته أذناه من عبارات، مهما أرته عيناه من آيات الله، فإن ذلك لا يحرّك ساكناً في قلبه. فهو إن سمع ثناءً، أو سمع توبيخاً، كان ذلك سياناً عنده، إن قبض أجره، أو سرق، إن صدق، أو كذب، كان ذلك سياناً في مذهبه، إن أتى امرأته، أو زنى، إن رأى فاحشة على أهله، ما حرّك ذلك في قلبه ساكناً، أي يُصبح كائناً هَمَجيّاً مجرّداً من المشاعر الإنسانية. فدقّق في

الآيـة: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ أي نجعـل بـضاعتهم هـي التـي تـصيبهم، فيُصابون بِما اقترفوا.

ثم قال جل شأنه: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فهي عبارة تحذيرية، لأنها لم تقع، لكنها ممكنة الوقوع وفق قوله: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ وهذا يعني بأنه لم يشأ بعد، وأنه ﴿لَوْ﴾ شاء، لَما ظَلَمَكم، بل أصابكم بذنوبكم، وهنا فسحة كي يقلع الإنسان عن الذنوب، لأن عدم المشيئة هي للإمهال، وهي فرصة يتيحها الله سبحانه وتعالى للإنسان كي يتوب، فيمكن للإنسان أن يغتنم هذا الإمهال، ويتوب، فيتجنّب أن يطبع الله على قلبه، ويتحوّل بذلك إلى كائنٍ عَدَمي بكل مقاييس وتفرّعات العَدَميّة. ولكن كيف يطبع الله على قلب إنسان؟ ذلك أن هذا الإنسان يَستَفحش، ويخرج عن المنظومة الإنسانية، فيستهزئ بالقِيَم، والفضائل، والأخلاق، والشرائع. فلا يفرّق بين حق وباطل، وبين حلال وحرام، أي يجرّد نفسه من كل خصلة إنسانية، وعقاباً له، فإن الله تعالى يَدَعه يلوّث سمعته، ويتّسع في فساده حتى يغلظ في طغيانه، فيصيبه الله بذنوبه، وهو في أوج هذا التمادي.

[١٠١]

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾

﴿تِلْكَ﴾ المجريات التي وقعت لأهل ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾، يقص الله على رسوله ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾، وهي ليست الكل، بل جزء ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾، أي غَيضٌ من فَيض، فالقَص هو بمثابة أخذ عَيّنة من مجمل الوقائع، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يصبر على أذى قومه كما صبر الرسل من قبله. ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، فلم نتركهم في غفلتهم وجهلهم، بل أرسلنا إليهم الرسل منهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، بالأدلّة والثبوتيّات، والإنذار والتحذير، وتفصيل الأمر لهم، وجعله بَيّناً جَليّاً. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾. كان بإمكانهم أن يؤمنوا، وقد بيَّن

لهم الرسل كل مقوّمات وعوامل وأدلّة الإيمان، لكنهم أبوا أن يؤمنوا بالحق الذي كذّب به أسلافهم ﴿مِن قَبْلُۚ﴾، وأبوا إلّا أن يقتدوا بهم، ويلبثوا في ملّة المكذّبين.

فكان مجيء الرسل بالنسبة إليهم، كعدم مجيئهم، لأنهم أبوا حتى فكرة التصديق، ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾، بأن يتركهم يغلظوا ويستفحشوا، فيأخذهم بأعمالهم. فمثلما طبع على قلوب أولئك يا محمّد ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٠١﴾ الذين ينكرون ما أرسلك الله به.

[١٠٢]

﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ وَإِن وَجَدۡنَآ أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾

تُقابِلُ الآيةُ بين كلمَتَين ثَقيلَتَين هما العهد، والفسوق، وإحداها تُناقِض الأخرى، وتنفر من الأخرى.

فالفاسق لا عهد له بأي حال من الأحوال، والمُعاهِد لا يفسق عن عهده بأي حال من الأحوال.

والإنسان الذي لا عهد له، يحذره والناس ويتوقعون منه أي شائنة، ذلك أنه كائن فاسق في بنيته، والفسوق يجري في دمه، والناس يتحاشونه، ويتجنّبون أن يقرب إليهم، أو يدخل بيوتهم، فهو كائن لا خير فيه البتة، وأينما تواجَد، حلّ معه الأذى، فهذا هو ديدنه، وهذا هو أذاه الذي ما يزال الناس يعانون آثاره عليهم، ﴿وَمَا وَجَدۡنَا لِأَكۡثَرِهِم مِّنۡ عَهۡدٖۖ﴾.

فهذا ما وجده الله قبل ذلك فيهم، ويخبر الله عز وجل بأنه وجد ﴿أَكۡثَرَهُمۡ لَفَٰسِقِينَ ١٠٢﴾، وهذا استئناف للآية ١٠١، أي أكثر أهالي ﴿تِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآئِهَاۚ﴾، فيحذّر الناس من عواقب فسوقهم.

وما تبقّى من الأكثرية، هي أقلّية صَدَقَت ما عاهدَت الله به، ولم تفسق عن أمره. وهنا يتبيَّن لك بأن العقاب عندما يأتي عاماً على البلاد، ذلك يكون مردّه أن الفسوق

غدا في الأكثرية، فيستخلص الله الأقلّية الصالحة وينجيهم، أو يرى في شأنهم ما يكون نفعاً لهم، ولا يكون عِقاباً لهم.

ولعل ذلك يدخل ضمن الابتلاء الذي يجعله الله تعالى لأناس يحبهم. عن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: "إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ"(١). عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"(٢). عَن جابر رَضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "يَوَدُّ أَهلُ العَافِيَةِ يومَ القِيَامَةِ حِينَ يُعطَى أَهلُ البَلاءِ الثَّوَابَ لَو أَنَّ جُلُودَهُم كَانَت قُرِّضَت فِي الدُّنْيَا بِالمَقَارِيضِ"(٣). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"(٤).

فثمة أناس يصطفيهم الله لنعمة الابتلاء، فلا ينتهي من كارثة، حتى تقع عليه أخرى في ماله، وبدنه، وأهله، وعمله، وعلاقاته في مجتمعه، لكنه يصبر ويحتسب ويقوّي إيمانه أكثر فأكثر، ولا يصيبه القنوط طرفة عين، لأنه يرى في ذلك إشارات محبة الله له، رغم أن الأذى يكون قد أصابه مع الأذى الذي أصاب الفاسقين، ولكن شَتّان بين الأذَيين، كما شَتّان بين تاريخ الشَخصَين النَقيضَين.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه الترمذي.

الباب الواحد والثلاثون: موسى عليه السلام

[١٠٣]

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣)﴾

الآن يُدخلك القَص الإلهي إلى حقبة انتقالية كبرى جديدة من التاريخ البشري، وهي تبدو أكثر قرباً زمنياً من سابقاتها، وأتباع هذه الحقبة ما زالوا موجودين، ولكن بنسبة قليلة، قياساً بنسبة النصارى، والمسلمين، كما أن نسبة الذين يرون بأنهم فراعنة قليلة.

﴿ثُمَّ﴾ - بعد كل ذلك الذي فيه بيان بأننا لا نسكت عن المفسدين - ﴿بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ﴾، أصبح كل ذلك في حكم البعد. وقد بعث الله تعالى رسوله ﴿مُّوسَىٰ﴾، ليصبح واقعاً في الحاضر، فتخبرك الآية بأن ﴿فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ طغوا وقد ساد الطغيان في الأرض، ولذلك بعث الله ﴿مُّوسَىٰ﴾، لإصلاح الفساد الذي عَم. وهنا تتعلّم أمراً هاماً، وهو أن الله تعالى لا يرسل الأنبياء، إلّا في حال تعميم الفساد وتفشّيه في الناس. فذلك درس بليغ تتعلّمه من سياق الأحداث التي وقعت لأقوام، وأرسل الله لهم الأنبياء.

فالنبي يأتي عندما يسود الفساد في الأرض. والأمر الهام هنا، هو أن البشرية بعد محمّد صلى الله عليه وسلم، لم تعد بحاجة إلى الأنبياء والرسل، ذلك أن الصلاح البشري في الأرض يكون متقدّماً على الفساد، ومهما ظهر الفساد، فإنه لا يكون شاملاً، فترى بيوت الله منتشرة على أصقاع الأرض، وترى أن القائمين على تيسير أمور الحج، ينظّمون حجاج بيت الله الحرام في أعداد، حتى يتمكّنوا من الحفاظ على تنظيمهم وسلامتهم، ويرون بأن المجال لو فُسح للجميع دون تحديد أرقام، سيخرج ذلك عن سيطرتهم التنظيمية، مِمّا قد يتسبب بإلحاق الأذى بالحجاج نتيجة

الازدحام الشديد غير المنضبط من قِبَل القائمين على أعمال الترتيب والانضباط، فدوماً هناك مَن ينتظرون أدوارهم للحج إلى بيت الله الحرام. فإذن، بعد محمّد صلى الله عليه وسلم، لبث الفساد في الأرض متفاوتاً في نسبته دون أن يكون عاماً بِما يستدعي إرسال أنبياء ورسل، لأنه بموازاة هذا الفساد، فإن الصلاح في تقدم وازدهار، والمساجد تزداد بناءً في رحابة أرض الله، وأعداد المسلمين في تزايد. وحتى الذين لا يؤمنون، فإنهم لا يقفون عائقاً أمام انتشار الصلاح، فترى المنابر الإسلامية في شتى الوسائل، والدعاة يستأنفون نشر الصلاح في الناس على نقيض ما كان يحدث كما تبيَّن مع الأنبياء والرسل، حيث كان العصاة يمنعون الصالحين من نشر الصلاح، في حين بات العصاة يكتفون بعصيانهم. لذلك بقيت المعالجة الإلهية للفاسدين نسبية، أي يتلقى المفسدون العِقاب بشكل فردي، وإن كثرت أعدادهم بعض الشيء، يكون العِقاب مقتصراً على الموضع الذي يكونون فيه. إذن يمكننا القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم، جعل العالم بخير، وقد تحقق قول الله تعالى فيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فما جاء به من صلاح وقيم، غدا أكثر رسوخاً في الناس، وقد انتقلت الحياة البشرية برمّتها إلى مرحلة استنارية جديدة بِما يمكننا تسمية ذلك بمرحلة ما قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ومرحلة ما بعد محمد صلى الله عليه وسلم. فالرحمة التي أرسله الله تعالى بها ينتفع بها الناس ما بَقيَت الحياة من بعده، وهي رحمة قابلة للانتشار، وغير قابلة للتراجع من خلال ما حمّله الله تعالى من كمال الدين وتمام النعمة، وقد رضي الله تعالى الإسلام ديناً للناس كافة. وهذا ما أرسى دعائمه محمد صلى الله عليه وسلم من خلال رسالته الخاتمة ونبوّته الخاتمة. ولذلك ترى بأن الله جلّ شأنه قد فتح أبواب النعيم على الناس كما لم يفتح من قبل، وأغدق على الناس بأسباب رَغَد العَيش بِما لم يغدق من قبل. ونظير ذلك فإنه تبارك وتعالى، لا يسكت عن المفسدين والفَسَقة والطغاة حيثما وُجِدوا، إن كانوا أفراداً، أو جماعات، بالغاً ما بَلَغَت قوّتهم، ومهما كان تمكينهم ونفوذهم. فقد استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يحسّن السلوك البشري العام بالقرآن، فأصبحت البشرية بعد القرآن أكثر

نضجاً، وأكثر وعياً، وأكثر تقدّماً. فمهما بلغ شخص من قوة ونفوذ، وقاد أعظم دول العالم، فإن الناس سيستهزؤون به إذا دعاهم إلى عبادته، أو ادّعى النبوّة، فقد أحدث القرآن الكريم انقلاباً فكرياً في مسار العقلية البشرية، فأصبح هذا العقل يوظّف في الإنتاج والاختراع ووسائل الترفيه، بدل توظيفه في ادّعاء النبوّة، أو الترويج للفساد. ولم يسبق لذلك أن حدث خلال التاريخ البشري برمّته، فأصبح القرآن المجيد الانعطاف الأكبر في مسار صلاح الذهنية البشرية.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ الذين كانوا يؤازرونه، ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾. بدل أن يؤمنوا لتستقيم لهم حياتهم، ويصبحوا في عدل من أمرهم، لكنهم أنكروها وجعلوها وسيلة ﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾، من خلال تأويلهم الخاطئ لهذه الآيات، وبالتالي توظيفها لأعمال الظلم. ﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد، وقل للناس أن ينظروا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٠٣﴾، الذين ظلموا بآياتنا.

[١٠٤]

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾

أخبره موسى بأنه لم يأت من تلقاء نفسه، وأن الله هو الذي أرسله إليه، قالها بثقة وقوة رغم جبروت فرعون في وقت لم يكن أحد يجسر أن يناديه باسمه، لأنه كان يدّعي الألوهية: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]. وجاءت ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾، تذكيراً له بأنه ليس إلهاً، وأنه عبد كسائر عباد الله، وأن الذي أرسله إليه هو ربّه، و﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾.

[١٠٥]

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾

عبارة دقيقة وبليغة ومتناغمة في كلماتها، وهي كفيلة بأن يصدّق السامع قائلها، إلّا إذا كان مستكبراً عن الإيمان: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾. فلم يدع

له مجالاً للشك، حتى إنه لم يقل له: أقول لك ﴿ٱلْحَقَّ﴾. ولكن جاءت الـ ﴿لَآ﴾ النافية لِما هو غير ﴿ٱلْحَقَّ﴾، ثم الـ ﴿إِلَّا﴾ المستثناة كتأكيد على تمام ﴿ٱلْحَقَّ﴾ لمزيد من الإثبات أمام رجل كهذا وهو من أشدّ المستكبرين حتى إنه كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤].

ورغم ذلك فقد أوصاه الله مع أخيه هارون بالحوار الليّن معه: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤]. لقد أرسلني الله إليك يا فرعون، و﴿حَقِيقٌ﴾ متوجّب ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾.

لأنني رسول الله ومؤتَمَن ومكلَّف ﴿أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الذي كلّفني به إليك. وإن لم تصدّق، فـ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أعطاني الله برهاناً حتى تصدّق، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ حتى آخذهم معي إلى الأرض المقدّسة.

فقد وضعه أمام خيارَين، فإن صدّق، لبّى له ما جاء به، وسمَح له بأخذ الإسرائيليين الذين كان يستعبدهم، ويعذّبهم في الأعمال الشاقة، أو يقدّم له برهاناً من الله.

[١٠٦]

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

لبث في استكباره، ولم يصدّقه طالباً منه أن يُظهر برهانه الذي يحمله من الله إن كان صادقاً فيما يقول. وهذا الجواب فيه إشارة جَليّة عن مدى استكباره، فلم يذكر الله رغم تكرار تذكيره بالله فيما قاله موسى له. فهات برهانك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ برسوليتك كما تقول.

[١٠٧]

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

كان يحمل العصا بيمينه، فرماها إلى الأرض على الفور كجواب عَمَلي مباشر

على قول فرعون ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾. فتحوّلت العصا إلى ثعبان أصفر اللون، ضخم في حجمه، وقد جعل الله تعالى فيه الحياة. ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ التي فيها برهان الله ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾، يتحرّك من موضع إلى آخر بشكل بائن.

[١٠٨]

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

أدخَلَ ذات اليد في جيبه، ثم أخرجها لتغدو ﴿بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾، وهو بياض نوراني، فقد خَرَجَت اليد تشعّ نوراً في عينَي كل مَن ينظر إليها. وكان موسى عليه السلام شديد السمرة ولأن شدة البياض تدل على البرص، فإن الله عز وجل قد برّأه من ذلك. ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [النمل: ١٢].

بعد أن أظهر ذلك، أعاد يده إلى جيبه، ثم أخرجها مرة أخرى لتعود إلى ما كانت عليه في شكلها الطبيعي.

[١٠٩]

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾

القول هنا هو لفرعون وكذلك لِمَن كانوا معه ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء: ٣٤]. وذلك تجنّباً للتعارض بين الآيتَين الكريمتَين، فيكون فرعون قد قال ذلك، و﴿ٱلْمَلَأُ مِن﴾ قومه وافقوه وقالوا ذلك أيضاً. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾. خبير في السحر يعرف كيف يأخذ بأعين الناس حتى يجعلهم يرون كيف أن العصا صارت ثعباناً، واليد السمراء صارت بيضاء.

[١١٠]

﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

إشارة إلى تردّد فرعون من اتخاذ أي قرار بحق موسى عليه السلام بعد أن رأى منه ما رأى، فجرت محاورة ما بين فرعون وبين ملئه، حتى يروا مخرجاً من هذا الأمر. وعبارة: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، بمعنى يريد أن يأخذ بني إسرائيل من

مصر، وليس هذا فحسب، بل يؤثّر على سائر الناس من غيرهم ويستميلهم إلى صفه، حتى يصبح مَلَكاً قوياً يتمتع بشعبية كبيرة في مملكة فرعون، وبالتالي فيكون فرعون قد ضعف. وكلمة ﴿أَرْضِكُمْ﴾ تذكير بالوطن، وقد أقام بنو إسرائيل نحو أربعة قرون في مصر، أي: أصبَحَت وطناً لكم. ثم لعلّ البعض منهم قد أصبح من المقرّبين لفرعون، ومن أعوانه، فقال ذلك حتى يثير فيهم مشاعر التعلّق بالأرض التي يعيشون عليها. وعبارة ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾، موجهة إليهم جميعاً كي يشعروا بالمسؤولية، وهذا استكمال لقوله ﴿أَرْضِكُمْ﴾. أي ما الذي سنفعله جميعاً حتى ندافع عن بلادنا. وهذا الكلام يدل على شعوره بالخوف من خسارة الحشود المؤيّدة له، فبات يجعلهم شركاء في المسؤولية عن حماية البلاد. وقد جاءت العبارة ذكية ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾، أي ما تقولونه أجعله أمراً للتنفيذ.

[١١١]

﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾

رأى مستشاروه في هذه المحاورة أن يتم تبليغ موسى، وهارون بانتظار الرد الذي سيأتي بعد شيء من الانتظار. فالإرجاء هو الانتظار ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ اجعلهما في حالة انتظار ﴿وَ﴾ خلال هذا الانتظار ﴿أَرْسِلْ﴾، كلّف جماعة كي ينتشروا ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾، ﴿حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾، جامعين السحرة.

[١١٢]

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾

هؤلاء الذين ترسلهم ﴿فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾، سوف يجمعون السحرة، ثم ينتقون أكثرهم علماً بالسحر، ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ متمكّن في السحر، من كافة أرجاء البلاد، فيتبارزون مع موسى من خلال مواجهة سحره بسحر أقوى منه، وبذلك فإن الناس لا يصدّقونه، ويرفضون الذهاب معه.

[١١٣]

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣ ﴾

قامت تلك الجماعة بإحضار ﴿ٱلسَّحَرَةُ ﴾ من كافة الأرجاء للقيام بِما يتم تكليفهم به، ويبدون واثقين من أنفسهم ومن إمكاناتهم. ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ ﴾ أصبحوا في حضرته، ورهن إشارته، وأبدوا استعدادهم لمبارزة موسى، و﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾. في حال فوزنا عليه بالسحر، نريد أن تؤجرنا على ذلك.

[١١٤]

﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾

وعدهم ﴿فِرۡعَوۡنَ ﴾ بأكثر مِما طلبوا، فالأجر يكون لمرة واحدة، وينصرف المرء بعد أن يقبض أجره، فقوله ﴿نَعَمۡ ﴾، أي لكم ما شئتم من الأجر، ثم ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ من مالي وجاهي بأن تكونوا من رجالي الخاصّين الذين يحصلون على الرواتب والمكافآت والامتيازات بشكل مستمر، ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾ ستحظون بتلك المنزلة إضافة إلى الأجر. وهذا ما يحثّهم كي يبذلوا قصارى جهدهم حتى يغلبوا موسى، ويكونوا من ﴿ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾. وهنا أيضاً إشارة بأن ﴿فِرۡعَوۡنَ ﴾ أصبح مستعداً لدفع أي ثمن نظير أن يُغلَب موسى الذي بدا يهابه بعدما رأى منه ما رأى، وأراد أن يستعين عليه بالسحرة. لذلك وافق على طلبهم وأغراهم بالزيادة: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾. وفي ذلك إشارة إلى عدم ثقته بنفسه بأنه يستطيع أن يوجه إليه عقاباً خشية ما يمكن أن يبدر من موسى بشكل غير متوقع كما حدث.

[١١٥]

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥ ﴾

﴿إِمَّآ ﴾ للتخيير بين أن يَبدأ هو بِما لَدَيه، أو يَبدؤوا هم في هذه المُبارَزة التي

أُعِدَّت لتكون أمام أعين جمع غفير من الناس ومن ضمنهم فرعون. و﴿تُلْقِيَ﴾ بمعنى أن تجعل ما لديك ملقياً على الأرض، ثم نفعل نحن أيضاً ذلك، ويكون الحضور حَكَماً بيننا. ثم إن موسى عليه السلام، هو شخص واحد في مواجهة مجموعة مختارة من أمهر سَحَرَة البلاد.

[١١٦]

﴿قَالَ أَلْقُوا۟ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

طلب منهم أن يبدأوا بإلقاء ما لديهم على الأرض، فباشروا بفعل ذلك بكل قوة السحر التي امتلكوها، ولم يكن أحد يتخيّل أنه سيرى هذا العَجَب الذي أتوا به. تقول الآية الكريمة: ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾. فقد أصبح الناس في ذهول مِمّا رأوا، واعتقدوا أن لا أحد بوسعه أن يأتي بمثل ذلك. وكلمة ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ تشير من خلال السين والتاء إلى شدة الرهبة. ولبث موسى مع أخيه هارون ينظران إلى هذا المشهد المريع. في تلك اللحظات يقول الله جل شأنه: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٧، ٦٨]. أصبح الناس في رهبة شديدة وهم ينظرون إلى هذه الأعمال السحرية التي أتوا بها. رُوِي (أنهم جَلَبُوا ثَلَاثِمَائَةٍ وَسِتِّينَ بعيراً موقُورَةً بالْحِبَالِ، والعِصِيّ، فلما أَلْقَوْهَا، تحرَّكت، ومَلأَت الوادِيَ، يركَبُ بعضُها بعضاً فاستهول النَّاس ذلك، واسترْهَبَهم).

وروي (أنهم جمعوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً كأنها حيات جسام غلاظ ولطخوا تلك الحبال بالزئبق وجعلوا الزئبق داخل تلك العصي فلما أثرت حرارة الشمس فيها تحركت والتوى بعضها على بعض وكانت كثيرة جداً تخيل الناس أنها تتحرك وتلتوي باختيارها وصار الميدان كأنه مملوء بالحيات).

[١١٧]

﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أمام كل هذه الحشود من السَحَرة، وكل ما لَدَيهم من أدوات هائلة، لم يكن

﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام الذي كان عليه أن يبارزهم، يملك سوى عصاه. ولعلّ المنظر بدا غريباً بالنسبة للجماهير الحاضرة منذ البداية وحتى هذه اللحظات، وأن التوقّعات: ما الذي يمكن أن تفعله هذه العصا الصغيرة أمام كل هذه الأدوات الهائلة، وهذه الحشود الكبيرة من السَحَرة؟!

في تلك اللحظات والأعين تنظر إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ وما يمكن أن يفعله تجاه هذا المنظر، جاء وحي الله تعالى ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ بإلقاء العصا إل الأرض. وهنا عليك أن تنتبه بأن المبارزة هي ليست بين ﴿مُوسَىٰ﴾ وبين السَحَرة، بل هي بين الله الذي يمثّل ﴿مُوسَىٰ﴾ كلمته، وبين هؤلاء السَحَرة؛ وأن هذا السحر الذي قدّموه لعلّ أحداً لا يستطيع أن يأتي بسحر أعجب منه، لأنهم كانوا الأكثر مهارة وإمكانيات في البلاد كلها. وهذا ما قاله ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام، بأنه لم يأت من تلقاء نفسه، بل أتى بتكليف من الله؛ وأن الذي رأوه من العصا، لم يكن من خبرة لَدَيه في السحر، وهو لا يمتلك خبرة في السحر، بل إنه ينفّذ ما يتلقّاه من الله. فجاء قوله عز وجل: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ﴾.

ودون هذا الوحي الإلهي، لا يستطيع ﴿مُوسَىٰ﴾ أن يفعل شيئاً قبالة هؤلاء، فجاء قول الله جدلّ شأنه، بصيغة الأمر الفوري للتنفيذ: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾. فهذا هو ردّ الله على سحرهم العظيم، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ تحوّلت العصا إلى حيّة ضخمة ﴿تَلْقَفُ﴾ تلتهم ﴿مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ كل هذه الأشكال السحريّة واحدة تلو الأخرى مهما كان حجمها كبيراً. قَالَ اِبْن عَبَّاس وَالسُّدِّيّ: (كَانَتْ إِذَا فَتَحْت فَاهَا صَارَ شِدْقهَا ثَمَانِينَ ذِرَاعًا، وَاضِعَة فَكَّهَا الْأَسْفَل عَلَى الْأَرْض، وَفَكَّهَا الْأَعْلَى عَلَى سُور الْقَصْر). وَقِيلَ: (كَانَ سِعَةُ فَمِهَا أَرْبَعِينَ ذِرَاعًا، فَقَصَدَتْ فِرْعَوْن لِتَبْتَلِعَهُ، فَوَثَبَ مِنْ سَرِيرِهِ فَهَرَبَ مِنْهَا وَاسْتَغَاثَ بِمُوسَى، فَأَخَذَهَا فَإِذَا هِيَ عَصًا كَمَا كَانَتْ). جاءت كلمة ﴿يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ بالغة الدقّة، فالإفك من الكذب، وهو مثل السراب الذي يظهر من بعيد على أنه ضباب، لكن عندما تدنو منه، لا يكون كذلك.

فإذن مهما كان السحر قوياً، فإنه لا يملك ألّا يتلاشى أمام أمر الله، وهذه إشارة

جليّة بأن السحر لا يتم إبطاله على يد ساحر، لأنه يُدخِل سحراً في سحر، وفي أفضل الأحوال إذا تخلّص المسحور من السحر الأول، فإنه يكون قد وقع تحت سطوة السحر الثاني، مثل الذي يعالج نفسه من الأرق بتناول أقراص منوّمة، فيكون قد نام بالفعل، لكنه استيقاظه لا يكون استيقاظاً طبيعياً، لأنه لم ينم نوماً طبيعياً. لذلك تظهر ردود أفعال جديدة عليه نتيجة هذه الأقراص المنوّمة قد تكون أكثر سوءاً من الأرق الذي كان يعانيه. فالطبيعي أن يواجه الإنسان أي حالة نفسية، ويصارح نفسه، ويصل إلى سبب هذه الحالة، ويعالجها.

وعلى الأغلب فإن القلق النفسي ينتج عن حالة من اللا انضباط يسلكها المرء في حياته، فيتّبع خطأً ويوهم نفسه بأنه على صواب، فيكون هذا الشخص مزدَوَجاً في حياته، حتى يتحوّل إلى كائن فِصامي يكون في الظاهر على شيء، وفي الباطن على نقيضه، يقول كلاماً، وهو يعلم بأن ما بداخله لا يوافق هذا الكلام. ومن الطبيعي أن هذا الشخص لن يكون بوسعه أن يعيش حياة طبيعية سويّة، استناداً إلى الفِصام الذي يعيشه في سلوكه اليومي.

ثم إنه يزيد الحالة سوءاً وهو يستخدم أدوية للتخفيف من الاضطرابات النفسية التي يعانيها، أو من الكوابيس الليلية، أو من أفكار غريبة تخطر له. فالمنهج السليم بالنسبة للأوبئة النفسية، أن يواجه الإنسان نفسه بالحقيقة، ويصلح من شأن نفسه، ويذكر الله كثيراً، ويُصبح شخصاً ينتفع منه الناس. فالاستعانة بالله خير حصانة للإنسان من أي أذى يمكن أن يترصّده، فيتحصّن الإنسان على قدر ما يذكر الله، ويستعيذ به، ويستغفره، ويقرأ القرآن حتى تعتاد عيناه على القرآن، فتحبان القرآن، ويحبهما القرآن، حتى يعتاد سمعه على سماع القرآن، فيحب القرآن، ويحبه القرآن، حتى يعتاد قلبه على ذكر القرآن، فيحب القرآن، ويحبه القرآن، فيحب الله، ويحبّه الله. تبيّن لك الآية الكريمة بأن الله تعالى يأتي بِما لا يمكن لمخلوق أن يأتيه، فانظر إلى حجم إمكانات فرعون، وكل هذه الحشود التي جمعها من كافة أرجاء البلاد. ثم انظر إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ وهو شخص واحد، ولا يملك بيده سوى عصا، ولكن الله آزَرَه ونَصَره على كل هؤلاء، بهذه الإمكانات المحدودة، قياساً بالإمكانات الهائلة

التي جُمِعَت عليه، فهذا هو الله عندما يشاء أمراً، تقع المعجزات من أجل تحقيق هذا الأمر.

[١١٨]

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

عندما يسطع ﴿ٱلْحَقُّ﴾، فإن الباطل لا يملك إلّا أن ينوس وينطفئ في حضرته.

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ الذي أتى به الله من خلال موسى ﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾. فأبطل ما أتى به فرعون من خلال سَحَرته.

[١١٩]

﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

فقد غَلَبَ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي يحمله موسى، باطلهم الذي جاؤوا ليتبارزوا به.

﴿وَٱنقَلَبُوا۟﴾، بعد أن صوّروا أنفسهم على أنهم كبار في تمكّنهم ومهارتهم، ﴿انقَلَبُوا۟﴾ لتظهر حقيقتهم التي هي نقيض ذلك ﴿صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ظهروا صِغاراً في أعين الحضور أمام موسى، وفي ذلك بيان بأن على الإنسان أن يعلم بأنه مهما غدا متمكّناً، وقوياً، فهو ضعيف أمام الله، وعليه ألّا يغتر بنفسه، وأن يتواضع أمام خلق الله، لأنه من خلال ذلك يكون قد تواضع أمام الله.

[١٢٠]

﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

عند ذاك رقّت قلوبُهم، وتواضعوا وآمنوا بأن ما لدى موسى ليس سحراً، وإنما هو من رب العالمين. فتركوا السجود لفرعون، وسَجَدوا لله.

[١٢١]

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

إن فرعون قد خَدَعَنا، وهو ليس إلهاً، لأنه لو كان إلهاً كما يزعم، لَمَا تَرَكَنا ننهزم

أمام الحق الذي أتى به موسى، وقد نصره الله علينا دون أن يستطيع فرعون فعل شيء أمام هزيمتنا. إن ما أتى به موسى هو الحق، ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

[١٢٢]

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

الرب الذي أرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ إلى فرعون، هو ليس ربهما فحسب، بل هو رب ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ الذي لا رب للعالمين سواه.

[١٢٣]

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

تَوَهَّمَ الرجل بأن الإيمان بالله يحتاج إلى أخذ إذن منه، ثم اتهَمَهم بأنهم خدعوه، بعد أن خذلوه أمام حشود الجماهير ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ التي جرى فيها التبارز، وما ذلك إلا ﴿لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ﴾. وهنا تصوير لشعور الطاغية الذي يشعر بالوهن عندما يهاجر المواطنون من وطنهم بسبب طغيانه، فهو يستمدّ دعائم طغيانه من وجود الناس الذين يمارس عليهم هذا الطغيان، ويكونون تحت سيطرته. أمّا إذا خرجوا عن دائرة سيطرته، فإنه يشعر بأن نفوذ طغيانه يقل ليقتصر على عدد قليل من الناس، ولعلّ هؤلاء أيضاً يهاجرون ويلحقون بأولئك. لذا يسعى الطغاة إلى توسيع دائرة نفوذهم، فلا يكتفون ببلدانهم، بل يسعون إلى احتلال بلدان أخرى من خلال افتعال الحروب كي يتحكّموا بأكبر عدد من الناس. فالرجل كان في مواجهة موسى الذي يريد أن يأخذ منه بني إسرائيل، والآن أصبح أمام خروج نخبة من مهرة السحر عليه، ولذلك بدأ يشعر بالضعف.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ﴾، فما يهمه أن يبقى أهل المدينة فيها حتى يمارس عليهم طغيانه، لأن خروج الناس من سيطرة الطاغية، يعني تجريده

من ممارسة الطغيان، ولذلك يسعى ما أمكنه كي يعيق حركة الخروج من البلاد. فتوعَّدَهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

بمعنى سوف ترون ما الذي سأفعله بكم، كي يبث الرعب من عاقبة الخروج عليه بالنسبة للآخرين أيضاً.

[١٢٤]

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

فقد توعَّدَهم بالتنكيل بأقصى ألوان العِقاب البَدَني، لم يقل: لأسجننكم. بل مباشرة العِقاب الدموي الفوري بأن يقطّع الأيدي والأرجل ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾. أي اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن أفعل بكم ذلك، ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾. وهو تعذيب بَدَني شرس حيث يتم تصليب أجسادهم ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]. وكل هذا حتى يوصل رسالة إلى عموم الشعب من خلالهم، فقط لأنهم آمنوا بالله.

[١٢٥]

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

حسمنا أمرنا، وخرجنا عن ألوهيتك الباطلة التي أو هَمتَنا بها، وانقلبنا إلى حقيقة الإيمان بالله الواحد الأحد الذي لا شريك له.

[١٢٦]

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

إنك لا تنتقم ﴿مِنَّآ﴾، ولكنك تنتقم من إيماننا ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾. البراهين التي أتى بها موسى، وأبطَلَت سحرنا، هي التي جَعَلَتنا نؤمن ونوقن بأن الله قد أرسله، وما قدّمه موسى، ليس سحراً، بل هو الحق، وأن ما لدينا هو السحر الذي لا يملك أن يصمد أمام الحق. ومهما تبدّا لنا بأننا أقوياء بسحرنا، فإن ما أتى به موسى أظهَرَ لنا بأننا ضعفاء أمام الحقيقة. ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾. كلمة ﴿أَفْرِغْ﴾، تشير إلى مدى حاجتهم إلى الصبر، لأن الإفراغ لا يكون في شيء مملوء، بل في شيء فارغ.

﴿أَفۡرِغۡ﴾ على فراغ قلوبنا من الصبر ﴿صَبۡرٗا﴾، حتى نستعين به على مقاومة ما يتوعّدنا فرعون من ألوان العذاب المروع الشديد القسوة ﴿وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾.

لا تجعلنا نضعف أمام الخوف، أو أمام شدّة العذاب، واجعلنا نتوفى على الإيمان بك، لا على العودة إلى كفرنا. لذلك نسألك ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾، حتى لا ينال فرعون من عزيمتنا على الإيمان بك.

[١٢٧]

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ ﴾

حَرَّضوا ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ على المزيد من الفتك بهؤلاء، فغدوا يؤجّجونه نحو التصعيد، وليس ذلك من أجل ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، بل من أجل حفاظهم على مواقعهم، لأن وقوع ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، هو خسارة حتمية لهم في مواقعهم. فـ ﴿ٱلۡمَلَأُ مِن﴾ أعوانه الذين يعتمد عليهم في إدارة الحكم، وهم من الوصوليين الذين يتواجدون في كل زمان ومكان، ويمكن لهم أن يفعلوا أي شيء، ويتنازلوا عن أي شيء من أجل أن يتقرّبوا إلى الحكّام، ويتمكّنوا من ممارسة جزء من سلطانه على الناس. وبعد أن يحقّقوا وصولهم، يمكن لهم أن يسكتوا عن أي تجاوز، ويوافقوا على أي أمر جائر حتى يحافظوا على مواقعهم. فلا تبدر منهم بادرة نصيحة، أو بادرة انتقاد، فيومؤون رؤوسهم بالإيجاب لكل ما يرون، وما يسمعون. وعلى الأغلب فإن هؤلاء هم الذين يتسببون في دفع الطاغية نحو مزيد من الطغيان والجور من خلال تحريضه وتأجيجه على إصدار القرارات الجائرة. فلم يشف غليلهم بقطع الأيدي والأرجل ﴿مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾، والتصليب، بل حرّضوه إلى المزيد قائلين: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ﴾. فكان أن استجاب لهذا التحريض، و﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾.

ولعل الرجل كان قد اكتفى بهم فقط، دون أن يتمادى إلى الأبناء، أو النساء. ولكنهم دفعوه إلى هذا التمادي، ولذلك فإن بعض القرارات الجائرة لا تكون من الطاغية نفسه، بل من مقترحات الوصوليين من حوله.

وإذا دقّقتَ في هذه المسألة، سيجلو لك بأنهم من خلال ذلك، ينتقمون من الطاغية بشكل غير مباشر، لأنهم يثبّتونه في طغيانه أكثر، ويُضاعفون عليه أوزار الطغيان.

فنحن ما نزال ضمن سياق المعادلة الإلهية، حيث كل شيء يعادله شيء مثله، فهؤلاء أتوا ليس حباً بالحاكم، أو خدمة للشعب أو البلاد، بل فعلوا ما فعلوا، وتنازلوا عَمّا تنازلوا، وتغاضوا عَمّا تغاضوا من أجل تحقيق هذا الوصول، وعندما وصلوا، لا بدّ لهم أن ينتقموا من الحاكم أولاً، ولكن بطريقة غير مباشرة، وأحياناً بطريقة غير مقصودة. ومن الطرف الآخر فإنهم يسعون إلى إسكات أصوات الحق في المجتمع، لأن هذه الأصوات عندما تعلو، فإنها ستبيّن ما هم عليه من باطل. ولذلك فهم يجمعون الأدلّة والوقائع والمستجدّات التي تحدث في المجتمع، ويبنون عليها مقترحاتهم، ويؤجّجون بها الحاكم ويحرّضونه إلى المزيد من الطغيان والتمادي، من خلال إصدار الأوامر الجائرة، سواء علناً، أو خفية. فترى في كل زمان ومكان يتم تهديد المصلحين بإلحاق الأذى بهم، وكذلك بأبنائهم ونسائهم. وقد انتهت الآية الكريمة باستئناف قول فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾. أي سنلاحقهم من مكان إلى مكان حتى نقهرهم، ونجعلهم يمنون بالهزيمة.

[١٢٨]

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ١٢٨﴾

الآن استطاع ﴿مُوسَىٰ﴾ أن يجد له موطئ قدم في ديار فرعون، فبعد أن كان مع أخيه هارون فقط، أصبح هناك مَن يؤمن به ويؤازره، ويتّخذ منه مرشداً، فأرشد هؤلاء الذين وقفوا إلى جانبه متحدّين فرعون ووعيده لهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾، لأن الله لديه ما يُقهر

فرعون. ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾، حتى يأتي الله بأمره ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ﴾، وليست لفرعون، ولو استطاع أن يُخرجنا بالقوة، لأخرجنا دون تردّد، ولكنه مرتعب من المعجزات الإلهية التي رآها من خلالي. واعلموا بأن الله يورث أرضه ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾، ويجعلهم أسياداً عليها. وفي ذلك اختبار لهم، وإن حصل وأورثها لطغمة فاسدة، وجعلهم يتمكّنون من البلاد والعباد، فليس ذلك كي يستمروا في الطغيان، بل يريهم النعيم والسيادة لعلّهم يصلحون، ويأمرون بالصلاح. ﴿وَ﴾ لكن تبقى ﴿العَقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ﴾.

وهذا يبقى ضمن سياق السورة التي تأتي بكل هذه البراهين والأدلّة والوقائع من التاريخ الإنساني لتبيِّن بأن عقاب الله يبقى يلاحق المفسدين أينما كانوا، أفراداً، أو جماعات، وبمختلف مذاهبهم ومناهجهم. **فإن الله يسلّط عليهم الأوبئة، وعوامل الدمار، ويسلّطهم على بعضهم البعض حتى تبقى ﴿العَقِبَةَ لِلمُتَّقِينَ﴾. واعلم أن الكثرة ليست قياساً للعاقبة الحميدة، فقد ترى عدّة أشخاص أتقياء في مدينة كاملة، وترى شخصاً واحداً يحقق بطولة في حقبة زمنية بأكملها، فتُعرَف تلك الحقبة باسمه، رغم أنه لم يكن ملكاً، ولم يكن غنياً، ولكنه كان متقياً، وأصبح رمزاً للتقوى. فأخذ الناس يستنون بِما سَن من سنن طيبة.**

[١٢٩]

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾

إذن عندما يستخلفك الله في حكم، أو في دائرة، أو موقع، أو متجر، أو مال، يكون ذلك لينظر ﴿كَيۡفَ﴾ تتصرّف بِما استخلفك الله.

هل ستراعي شرع الله فيما أنت فيه، أم ستستغل ذلك وتطغى وتجور.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾، بأن اتّبعنا هذا الطاغية بالقوّة. و﴿أُوذِينَا﴾، أي كان يتجاوز على حقوقنا له ولحاشيته.

﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾، فتبيَّن لنا ما كنا نجهل ﴿مِن بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ من

آيات بدّدَت جهلنا، وجَعَلَتنا نؤمن إيماناً صادقاً، ونكتشف ما كنا فيه من جهل، ولم يسكت الذي كان يؤذينا ونحن نعرف الحق، فألحق كذلك بنا الأذى.

﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

عندما تكون مظلوماً، ويرفع الله عنك الظلم، وعندما تكون ضعيفاً، فيجعلك الله قوياً، هنا عليك أن تدرك بأن الله تعالى جعلك في الوضعَين النقيضَين، ومن خلال ذلك تظهر الدقّة في حقيقة ما أنتَ عليه، ودوماً تذكّر بأن الله عز وجل ينظر ﴿كَيْفَ﴾ تعمل.

وكما أنه نصرك، وقوّاك، فإنّه قادر أن يُنصِرَ ويقوّي عليك إذا جَنحتَ شَطر الجور.

[١٣٠]

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

هذه هي عظمة الله سبحانه وتعالى، فإنه يمهل الإنسان إمهالاً تلو إمهال، لعلّه يتراجع، ولكن المستكبر بدل أن يتّعظ من هذا الإمهال، فإنه يتمادى في طغيانه حتى أنه يتّخذ من هذا الإمهال ذريعة للاستمرار في ظلمه.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾. أمهلناهم من خلال تتالي السنين، ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

ثم أمسكنا عليهم الأرزاق بعد النعيم.

ويُروى (أنه يبس لهم كل شيء حتى نيل مصر، ونقصوا من الثمرات حتى كانت النخلة تحمل الثمرة الواحدة). ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ الله ويتوبون إليه، ويصلحون من شأنهم.

[١٣١]

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾

﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾. الخصب، والثمار، والحيوانات، والرزق الوفير ﴿قَالُوا۟

﴿لَنَا هَٰذِهِۦ﴾، أي نحن نستحقّها، وسعة المعيشة ﴿هَٰذِهِۦ﴾ اعتدنا عليها.

قال سعيد بن جبير: (كان ملك فرعون أربعمائة سنة، فعاش ثلاثمائة سنة لا يرى مكروهاً).

فحتى ينبّه الله الإنسان فإنه يمسك عنه ليذكر بأن هذه النعمة التي يرفل بها، إنما هي من الله، وعليه أن يشكر الله عليها، ويكف عن الفساد.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾، فالإنسان يُصاب بالسيّئة، فيُصبح مُصاباً بها بعد أن يكون قد مارسها، فتصيبه.

فبدل أن يقلعوا عن ارتكاب السيئات، حتى يتفادوا إصابتهم بها، أخذوا ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾. التطيّر هنا هو إنساب السَيّئة إلى ﴿مُوسَى﴾، والذين آمنوا به، أي أنّهم تسَبّبوا في إصابتهم بهذه السَيّئة، وهي: القحط، والمحل، والعوز، والجذب، والمرض. فادّعوا أن ذلك قد حلّ عليهم بسبب وجود ﴿مُوسَى﴾ والذين وقفوا إلى جانبه، وخرجوا عن طوع فرعون.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾. فذلك ليس بسبب ﴿مُوسَى﴾، ومَن معه، بل يصيبهم ذلك نتيجة تماديهم في الغي وفق حكمة الله في الإنسان.

عَن أَنَس بْن مَالِكٍ، قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا طِيَرَةَ، وَالطِّيَرَةُ عَلَى مَنْ تَطَيَّرَ"[(١)] وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا عَدْوَى وَلا طِيَرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ قَالَ كَلِمَةٌ طَيِّبَةٌ"[(٢)].

فالإنسان يكون مسؤولاً عَمّا يصيبه من سوء نتيجة عصيانه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾. من كثر انهماكهم في الغي، ما عادوا يميّزون بين الحسَنة التي تجيئهم من الله، والسيّئة التي تصيبهم نتيجة فسادهم. واستناداً إلى ذلك باتوا يعتقدون أنهم كانوا في سِعة خلال كل تلك السنوات، وإذا لبثوا على ما

(١) أخرجه ابن حبان.

(٢) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

هم عليه، ستلبث السِعة فيهم؛ ولكنهم إذا خَرَجوا عَمّا هم عليه واتَّبَعوا ﴿مُوسَىٰ﴾، فإن القحط سوف يصيبهم، ولذلك كانوا يقولون بأن ﴿مُوسَىٰ﴾ هو سبب ما يصيبنا من ضيق لأننا قبل مجيئه إلينا لم نر شيئاً من ذلك.

وهنا درس بالغ الدقّة تتعلّمه من هذه الجملة التي اختُتِمَتْ بها الآية الكريمة، وهو أن دوام الرخاء مع وجود الفساد، لا يعني سكوت الله عن الفساد، بل يعني إمهال الله تعالى للمفسد كي ينيب ويرجع.

وقد يجعل الله عليه ضيقاً بعد ذلك، كي ينتبه بأن الله قادر أن يغدق عليه، وقادر أن يمسك عنه.

ومثل ذلك، يمتّعه بعافية، ثم يبتليه بداء لعلّه يتّعظ. فإن كان ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾، فإن ثمة مَن ﴿يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أيضاً هذه الحقيقة، وإن كانوا قلّة، ولكنهم رغم ذلك يتظاهرون بأنهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾. كي يلبثوا في حاشية الغي، ولا يخرجوا منها.

[١٣٢]

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

فكل ما يبدر منك هو محض سحر في سحر، ولا تظنّن بأننا سنؤمن ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾.

لتأت بِما تشاء، واعلم بأننا لن نصدّق بأنك رسول الله، ولن نتخلّى عَمّا نحن فيه.

[١٣٣]

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

إلى هذا الحدّ، ما يزال الله جلّ شأنه يمهلهم رحمة بهم علّهم يرجعون، فكانت السيّئة أشدّ من سابقتها، لأنه لعلّ مع الشدّة تلين القلوب وتنيب إلى الحق، وهذه

الشدّة نظير ما كانوا فيه من سِعة؛ فجعلهم الله في سِعة، ثم في شيء من الوسَط، ثم في شدّة: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ﴾. كل هذه الألوان من الشدائد ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾. بَيّنات وجليّات كي يتّعظوا بها ﴿فَـ﴾ بدل أن يتّعظوا، ﴿اسْتَكْبَرُواْ﴾ على الإيمان واليقين، ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

[١٣٤]

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

وتستمر رحمة الله تعالى بالإنسان، ويستمر إمهاله له رغم كل ما يبدر من الإنسان، لعلّه يتراجع ولو قليلاً، ثم قليلاً بشكل متدرّج كي يكون صالحا وطيّباً ومحباً، وموحّداً لله تبارك وتعالى، وشاكراً إياه على نعمته.

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ ﴾. عندما أصبحوا تحت وطأة ﴿ٱلرِّجْزُ﴾، ورأوا أنفسهم في وضع لم يعد يُطاق، واستعانوا بكل ما يمكنهم أن يستعينوا به، بذلوا كل ما يمكنهم أن يبذلوه من أجل إزاحة هذا ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ عنهم، أو التخفيف من وطأته. وتبيَّن لهم أن فرعون الذي اتخذوه إلهاً غير قادر على فعل شيء لهم، كما أن فرعون نفسه بات واهناً أمام سطوة ﴿ٱلرِّجْزُ﴾. عند ذاك لم يبق لهم غير ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام كي يلجؤوا إليه، علّه يستطيع أن ينقذهم من هذه المحنة الكبرى التي ألمَت بهم، لينقلبوا مرة أخرى إلى النعيم. ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾. اسأل ﴿رَبَّكَ﴾ الذي تقول بأنك رسوله إلينا، أن يرفع ﴿عَنَّا﴾ هذا ﴿ٱلرِّجْزُ﴾. ﴿لَئِن﴾ إذا سألته واستجاب لك، و﴿كَشَفْتَ﴾ رفعت ﴿عَنَّا﴾ ما نحن فيه من الفاقة التي أصابتنا، عندئذ ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾، نصدّقك ونوقن بأنّك حقّاً رسول من عند الله، ونستجيب لمطلبك الذي جئتنا به، ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

[١٣٥]

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

دعا موسى عليه السلام، ربه أن يرفع عنهم العذاب، فاستجاب الله عز وجل لدعاء رسوله، ورفع عنهم ما سلّط عليهم، وجعلهم مرة أخرى في رفاه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾.

ولبثوا يتقلّبون في رَغَد العَيش، ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

فنكثوا مرة أخرى بعهدهم مع موسى، ولم يؤمنوا به، وامتنعوا أن يرسلوا معه ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾.

روي: (أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة لا يقدر أحد أن يخرج من بيته، ودخل الماء بيوتهم حتى قاموا فيه إلى تراقيهم، وكانت بيوت بني إسرائيل مشتبكة ببيوتهم فلم يدخل فيها قطرة، وركد على أراضيهم فمنعهم من الحرث والتصرف فيها، ودام ذلك عليهم أسبوعاً فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فكشف عنهم ونبت لهم من الكلأ والزرع ما لم يعهد مثله ولم يؤمنوا، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت زروعهم وثمارهم، ثم أخذت تأكل الأبواب والسقوف والثياب ففزعوا إليه ثانياً فدعا وخرج إلى الصحراء، وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت إلى النواحي التي جاءت منها فلم يؤمنوا، فسلط الله عليهم القمل فأكل ما أبقاه الجراد وكان يقع في أطعمتهم ويدخل بين أثوابهم وجلودهم فيمصها، ففزعوا إليه فرفع عنهم فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، ثم أرسل الله عليهم الضفادع بحيث لا يكشف ثوب ولا طعام إلا وجدت فيه، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم وتثب إلى قدورهم وهي تغلي، وأفواههم عند التكلم ففزعوا إليه وتضرعوا، فأخذ عليهم العهود ودعا فكشف الله عنهم ثم نقضوا العهود، ثم أرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً حتى كان يجتمع القبطي مع الإسرائيلي على إناء فيكون ما يلي القبطي دماً وما يلي الإسرائيلي ماء، ويمص الماء من فم

الإسرائيلي فيصير دماً في فيه). وهذا يحتاج إلى زمن، قيل بأنه استغرق عشرين سنة متصلة، وكلّما أخرجهم الله من محنة، لبثوا في استكبارهم دون أن يؤمنوا.

[١٣٦]

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

الآن، بلغوا حَدّ اللاعودة، ولم تجد معهم مختلف ألوان وأشكال الاختبار والإمهال، فهم يريدون أن يلبثوا في الفساد والأهواء والطغيان، دون أن يقيموا لله حدوداً، ودون أن يؤمنوا به، بل يؤمنون بفرعون إلهاً. وهنا يكون الله سبحانه وتعالى قد غضب على المتمادين في الفساد، إلى درجة أنهم باتوا في وضع لم يعودوا يستحقّون فيه أي إمهال آخر، أو أي شكل من أشكال التقلّب من حال إلى حال لعلّهم ينيبون، لأنهم عزموا وثبتوا على ألّا ينيبوا. فيوقع الله عز وجل عند ذاك عليهم عِقابه الحاسم الذي هو ليس اختباراً، ولا إمهالاً، بل هو عقاب بشكل قاطع مباشر لا مجال فيه لأي إمهال آخر، ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾.

لقد جمع الله لهم كل ذلك فوق بعضه البعض، خلال كل تلك المراحل والسنوات والتقلّبات، لعلّهم تابوا، فأسقط الله عنهم كل ذلك الذي تم جمعه، ورفعه عنهم، وعفا عنهم، وجرّدَهم من كل ما رتكبوه من آثام. لكنهم لم يفعلوا ذلك، ولبثوا في عِنادهم واستكبارهم، واستغلاظهم في ألوان المعاصي. والانتقام الإلهي هنا بيان بأن الله كان قادراً أن يردعهم في أي وقت، لكنه رحمة بهم، ترك لهم الفرصة تلو الفرصة، والسَنة تلو السَنة، والتقلّب بين العافية والمرض، والغنى والفقر، لعلّ ذلك يجدي معهم فيؤوبون إلى الحق، ويقلعون عن الباطل. فأصابهم بِما جَمَعه لهم، فذلك هو انتقام الله تعالى للإنسان. ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾.

جعلناهم يغرقون في مياه البحر ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، بِما اقترفوا من تكذيب للبراهين والأدلّة الدامغة التي بَلَغتهم ﴿وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾. ينكرونها ويتغافلون عنها.

[١٣٧]

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

انتصار المغلوبين على أمرهم، على الجبابرة والطغاة، فأحياناً لا يستطيع المرء أن يفعل شيئاً تحت وطأة الظلم سوى أن يسأل الله الفرج، لأن أي مقاومة قد تودي بالبلاد والعباد إلى الهلاك؛ بسبب تمكّن الطاغية وأعوانه على مفاصل الإدارة في البلاد، وبسط نفوذهم على الجيش، والسلاح، والعتاد، والأموال، والموارد، والقرارات. فيصبح الناس تحت ظل ذلك الواقع، ضعفاء لا حول لهم ولا قوة. لكن الله تعالى يهين هؤلاء الطغاة، ويذلّهم، ويجعلهم عبرة للناس، ويقدّم الأرض نظيفة لأناس صالحين، عادلين، طيّبين.

فإن لبثوا في استقامتهم، بارك الله لهم، وأغدق عليهم بالمزيد، وجنّبهم المكائد، وإن ضلّوا، يمهلهم الله، لكنه لا يسكت عن ضلالهم. ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ﴾. لقد جعل الله بركته على ﴿مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾، وهذه البركة تكون بمثابة حصانة إلهية للأرض كي لا يسود فيها الفساد.

ودوماً فإن الله يُخرج مفاتيح إدارة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ من أيدي الظالمين، ليضعها في أيدي العادلين، ومهما تمكّنوا من هذه المفاتيح، فإن الله يُخرجها من أياديهم، ويعرّضهم للذل والخزي، ولو بعد حين. فإن رأيتَ الظلم في بقعة، فإنك ترى العدل في بقاع، وإذا رأيتَ حاكماً جائراً، فإنك ترى حكّاماً عادلين. ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾. أخرجناهم من العبودية، إلى السيادة، لأنهم كانوا مستضعفين تحت طغيان ﴿فِرْعَوْنُ﴾ وأعوانه، وقد ﴿صَبَرُوا۟ ۖ﴾، فجازيناهم

﴿بِمَا صَبَرُواْۖ﴾، وجعلناهم أحراراً، ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ١٣٧﴾.

سحقنا وأزلنا ﴿مَا كَانَ﴾ يقوم به ﴿فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾، وكل ما كان يعرشونه في ﴿ٱلْأَرْضِۖ﴾، حيث كان فرعون أكبر ملوك ﴿ٱلْأَرْضِۖ﴾ وكانت مملكته كبيرة.

[١٣٨]

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٖ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٖ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٞ تَجْهَلُونَ ١٣٨﴾

المجاوزة تكون من خلال المرور على موضع، ثم اجتيازه، وتجاوزه، ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾. أي ما كان لهم أن يجتازوه، لولا أننا ﴿جَاوَزْنَا﴾ عبرنا بهم. وهو بحر القُرُم، الذي يُعرف بالبحر الأحمر، وكان ذلك عندما ضرب ﴿مُوسَىٰ﴾ بعصاه على ﴿ٱلْبَحْرَ﴾، ففلقه الله تعالى، كي يعبروا من الشطر الشرقي، إلى الشطر الغربي. ﴿فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٖ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٖ لَّهُمْۚ﴾.

الاعتكاف هو التواجد في مكان تفرّغاً للعبادة، ولأن البقر كا يُعبَد عند الكنعانيين، فيُقال بأن القوم كانوا كنعانيين. وعن ابن جريح: (أن أصنامهم كانت تماثيل من النحاس). عندما رأوا ذلك، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٞۚ﴾. فهؤلاء قد أتوا مع ﴿مُوسَىٰ﴾ دون أن يعلموا حقيقة التوحيد، رغم أنهم آمنوا به كونه حرّرهم من فرعون بعد الذي حصل. فإذن، اعتاد بنو ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على الآلهة والتماثيل نتيجة مكوثهم في ظل ذلك، ولمّا رأوا هذه التماثيل، لعلّ ذلك حرّك فيهم شيئاً من الحنين إلى ما كانوا عليه، ف: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٞۚ﴾.

ومن هنا كانت فكرة عبادة العجل بالنسبة لبني ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾، لأن هذا أول ما رأوه بعد خروجهم من مصر، وعودتهم إلى ديار بني ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ في الأرض

المقدّسة، فكان جواب ﴿مُوسَى﴾ بأن ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾، أي ما تزالون في جهلكم رغم كل ما شاهدتموه من المعجزات.

[١٣٩]

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

بَيَّنَ لهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذين ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ زائل ﴿مَّا﴾ يعبدون. وكلمة ﴿مُتَبَّرٌ﴾، بمعنى أن هذه الأصنام لا تستطيع أن تنفعهم بشيء، فهي جامدة لا حراك فيها، وبالتالي فإن وجودها كعدم وجودها. ﴿وَ﴾ - استناداً إلى ذلك، فكل ما يفعلونه تجاه هذه الأصنام، فهو عمل - ﴿بَاطِلٌ﴾. والباطل بمعنى أنه بلا جدوى، فاعتكافكم، وعدم اعتكافكم لهذه الأصنام سيّان، لأنها هي ذاتها تتبرّأ مِمّا يفعلونه تجاهها.

[١٤٠]

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

لقد أكرمكم الله، وميّزكم بأن ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ في هذا الزمان، وليس هناك في ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ مَن هو أفضل منكم عند الله الآن. فكيف تريدونني أن أصنع لكم تماثيلاً، وأدعوكم إلى عبادتها دون ﴿غَيْرَ اللهِ﴾. فحري بكم أن تعبدوا ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي لا إله إلّا هو، وتشكروه على فضله.

[١٤١]

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

وهنا تذكير لهم كيف أن الله أنجاهم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الذين كانوا يذيقونهم أشدّ ألوان ﴿ٱلْعَذَابِ﴾. ولا يكتفون بذلك، بل يفتكون بأبنائهم بالقتل، ويستبيحون

أعراضهم، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾. فهذا من شأنه أن يجعلكم تشكرون الله على إنقاذه لكم من هؤلاء.

[١٤٢]

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

جعل الله تعالى ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ لـ ﴿مُوسَىٰ﴾، ثم أتمّها ﴿بِعَشْرٍ﴾، حتى يخرج من قومه ويأتي لهم بِما يُنزل الله عليه. ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

فهذه هي الفترة الزمنية سيغيب فيها ﴿مُوسَىٰ﴾ عن قومه. عندئذ أوصى أخاه كي ينوب عنه في العناية بقومه، وأن يصلح، وألّا يتّبع ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾، ريثما يعود.

[١٤٣]

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

الميقات، هو الوقت الذي يتم تحديده من أجل أن يقع فيه الشيء الذي اتُخِذَ مِن أجله هذا الميقات. والآن، قد جاء ﴿مُوسَىٰ﴾ إلى هذا الميقات، وشرّفه الله عز وجل بأن ﴿كَلَّمَهُۥ﴾. والتكلّم هو وقوع كلمات المتكلّم على سَمَع السامع مباشرة.

وعندما سَمع كلمات ﴿رَبُّهُۥ﴾، طلب أن ينظر إليه ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾. أحسّ بهذا الشعور في تلك اللحظات النورانية، فعبّر عنه.

فـ ﴿قَالَ﴾ له الله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾. أي لا تحتمل رؤيتي لأن إمكاناتك غير مؤهّلة وغير معدّة لذلك في الدنيا. ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾.

ولـم يـدع الله تعـالى ذلك محض كـلام، بـل أحاله إلى فعـل ليلمسه ﴿مُوسَىٰ﴾ ويعيشه، فقـال: ﴿وَلَٰكِنِ﴾ - أي لـك مـا تـشاء مـا دمتَ قد طلبتَ ذلك - ﴿انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الذي سأتجلّى لك عليه كي تراني.

﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾ لبث صامداً وثابتاً ﴿مَكَانَهُ﴾ وأنا أتجلّى له ﴿فَسَوْفَ﴾ تتمكّن من رؤيتي. ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾. أي انهار ﴿الْجَبَلِ﴾ لعظمة تجلّي الله، ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾، أي فَقَدَ الوعي في حضرة هذا المشهد العظيم الذي لم يحتمله وعيه. ﴿فَلَمَّا﴾ عندما ﴿أَفَاقَ﴾ من الإغماء، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

التوبة هنا بمعنى إنني اعتقدتُ أن بإمكاني أن أراك، ولكنني الآن تعلّمتُ درساً مِمّا وقع. ثم قال ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾.

كلمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ هنا بمعنى أنك الأعلى والأعظم الذي يأتي بِما لا يمكن لأحد أن يأتيه، فعندما يرى الإنسان أمراً يتعجّب له، يقول: سبحان الله. أي آمنتُ بأن الله على كل شيء قدير. والمشهد نفسه قد جعل ﴿مُوسَىٰ﴾ أكثر قوة، وأكثر عزيمة وهو الذي رأى للتو قوماً يعبدون أصناماً، يدّعون أنها آلهة. فأي آلهة هذه التي تكون باهتة لا حراك فيها، ولا تملك أن تبدي حركة واحدة، ولذلك جاء قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾. فقد رأى بأن لا أحد في الأرض يمكن أن يكون أكثر إيماناً منه بعد الذي وقع. ولذلك سيفعل أقصى ما يمكنه أن يفعل في نشر ما يتلقاه من وحي.

[١٤٤]

﴿قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾

﴿قَالَ﴾ له الله: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ انتقيتك واخترتك من بين سائر ﴿النَّاسِ﴾، كي تحمل رسالتي، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾. عد إلى

قومك، وبلّغهم شريعتي، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾. على ما أنعمتُ به عليكم من تحسين الحياة لكم، وإنقاذكم من أوبئة العقائد الباطلة.

[١٤٥]

﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾

هي ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وقد كتب الله فيها ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾، فلم يدع شيئاً قط، إلّا وكتبه الله تعالى في هذه ﴿ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾.

والموعظة هي ما يتّعظ الإنسان بذكره، والتفصيل، هو البيان الواضح الذي لا تشوبه شائبة. ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ بعزيمة، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾. وهي دعوة لبني إسرائيل أن يتفوّقوا ويتقدّموا، ويكونوا الأحسن. ﴿سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾. سترون كيف تكون نهاية ﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾، الذين يفسقون عن الحق.

[١٤٦]

﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾.

فأساس الخروج من الضلال إلى الهداية، أن يتواضع الإنسان وينزع التكبّر من قلبه، عند ذاك فإنه يرى الحق حقاً فيتّخذه، ويرى الباطل باطلاً فيتجنّبه. أمّا إذا لبث في استكباره على آيات الله، فإنه يلبث في ضلاله، ولذلك فإن الله يدعه فيما هو فيه من ظلمات، ويحرمه بِما تحمل هذه الآيات مِن هداية ورشد للإنسان. ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

هؤلاء، سأجعلهم في صَرفٍ عن منافع ﴿ءَايَٰتِيَ﴾، كعقاب لهم كونهم ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

فهم لا ينتفعون بأي برهان يرونه، ويتجنّبوا ﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ الذي ينفعهم، ويتخذوا ﴿سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ الذي يؤذيهم.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾. فما يصيبهم هو حصيلة تكذيبهم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وغفلتهم عنها.

[١٤٧]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

مهما أقام المرء بنياناً كبيراً، ومهما بدا للناظرين إليه بأنه بديع، ولكن سينهار هذا البناء إذا كان قائماً على أساس هَش، وغير قَويم. ولذلك ترى شخصاً يسطع اسمه في المجتمع، أو في البلاد، ويبدو كما لو أنه متحكّم بأرزاق وأحوال الناس، لكنه ينتهي نهاية ذليلة، لأن أرضيته التي وقف عليها، كانت أرضية فاسدة، وكل ذلك تحقق له نتيجة غفلة من الناس في ظروف ما، فاستغل ذاك الظرف، وأخذ يوسّع في نفوذه.

فهو شخص جائر، والحياة لا تبقى على ذاك الظرف، والله سبحانه وتعالى يغيّر الأحوال، فيلقى ذاك الجائر عقابه، ويظهر على حقيقته. فتبيّن لك الآية الكريمة أن كل إنسان يُجزى بِما يَعمَل، سواء في الدنيا، أو في الآخرة، فلا تغرّنك المظاهر، فهو يُجزى بِما يَعمَل حتى وهو في قمّة نفوذه، وكذلك تكون نهايته، وكذلك يكون في الآخرة. وعكس ذلك، فقد ترى شخصاً صالحاً، ويبدو للناظر بأنه بائس لأنه يقيم في بيت متواضع، وله دخله المتواضع، ولكن حتى وهو في ذروة ذلك، فإن الله يجازيه بصلاحه، فيكون سعيداً في حياته، مربياً جيداً لأبنائه، جاراً طيّباً، يأتمنه الناس في أموالهم وأعراضهم، تسري سيرته الطيّبة على الألسنة، يعيش بصدر

منشرح، وذهنيّة نقيّة، يخفّف عن الناس بابتسامته ووجهه البشوش، وكلماته الطيّبة، وخصاله الحميدة، وكما الأمر في الدنيا، فإن الله تعالى يُجازيه في الآخرة. فاقرأ الآية بدقّة: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾. جاءت الأعمال جمعاً لأي عمل يمكن أن يقوموا به، فهو سيكون مُحبَطاً، أي منزوع البركة، وقابلاً للانهيار في أي لحظة متوقّعة، أو غير متوقّعة. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾. والجملة سؤال وجواب في الوقت عينه، أي إنهم ﴿يُجْزَوْنَ﴾ بـ ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

[١٤٨]

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

لم يصبروا حتى يعود إليهم نبيهم بما يعود من عند الله، بل استعجلوا الأمر وصنعوا تمثالاً كتجسيد لعجل مِمّا كان معهم ﴿مِنْ﴾ ذهب. ثم جعلوه يُصدر صوتاً كصوت العجل. يقول الله جل شأنه، في صنيعهم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾. أي أنه مجرّد صوت يصدر بشكل آلي لا حياة فيه ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ جامد لا يملك أن يتحرّك، أو يحرّك. فهذا ما ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾. باتخاذ هذا المُجَسَّد إلهاً يعبدونه من دون الله.

[١٤٩]

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

عندئذ أدركوا أن تمثالاً كهذا وقد صنعوه، ويخبرون كل قطعة فيه، لا يمكن له أن يكون إلهاً يفعل ما يفعله إله موسى الذي أراهم المعجزة تلو المعجزة. ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾، أي تحقّق وتأكّد لهم أنهم أخطأوا. عند ذاك ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا

﴿رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾. فتابوا إلى الله وسألوه المغفرة حتى لا يكونوا ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾.

[١٥٠]

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾

عَلِمَ ﴿مُوسَىٰٓ﴾ ما بَدَرَ من ﴿قَوْمِهِۦ﴾، فغضب إثر عودته إليهم، وتأسّف على ما وقعوا فيه من ضلال. ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ بغيابي عنكم وقعتم في السوء، ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾، ألم يكن بمقدوركم أن تصبروا حتى أعود إليكم بِما أحمل من ﴿رَبِّكُمْ﴾ من صلاح لشأنكم. ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من يده ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾. الجرّ يكون من خلال الشعر، ولعلّه قد جرّه بيدَيه من شعره، ولحيته ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ٩٤﴾ [طه: ٩٤]. وهذا يشير إلى مدى غضبه، والمشهد يصوّر كيف أن الإنسان عندما يغضب، يقبض بكفّه على شعر المغضوب عليه، ليقرّبه أكثر فأكثر ﴿إِلَيْهِ﴾، فيقول له ما يقول، ثم يدعه. وفي ذلك إشارة بمعنى، ألم تكن قد سمعتني جيداً عندما قلتُ لك: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾. هل كنتَ تريد أن أفعل بك ما أفعل الآن لتسمع جيداً.

عندئذ جاوبه هارون مدافعاً عن نفسه، ومبيّناً ما قد وقع بالتفصيل: ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ رأوني وحيداً، فاستغلّوا ضعفي في مواجهتهم بغيابك، وهم يعلمون بأنني لا أستطيع أن أفعل ما تفعله، أو أقدّم ما تقدّمه من معجزات حتى يرتدعوا. ﴿وَ﴾ عندما أردتُ منعهم ﴿كَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾، لأنهم كانوا مصرّين على فعل ذلك، ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾.

فالكلام كله تهدئة في تهدئة، وعندما يختلف الأخوة، فإن ذلك يجعلهم عرضة لشماتة ﴿ٱلْأَعْدَآءَ﴾. والشماتة بمعنى الاستضعاف، فالإنسان لا يريد أن يبدو ضعيفاً أمام أعدائه، بل يريد أن يحافظ على قوّته في أعينهم، لكن خلاف الأخوة يجعل الأعداء يستضعفونهم، ويستهزؤون بهم.

ولذلك ﴿قَالَ﴾ له ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾.

أي خرجنا أنت وأنا من بطن امرأة واحدة، ورضعنا من حليب امرأة واحدة، وترعرعنا في بيت واحد. وهذا تذكير له بأنهما عاشا طفولتهما وترعرعا في بيت واحد، وأنهما كمثل شخص واحد.

فقد جاء الكلام دقيقاً يمتص غضب ﴿مُوسَىٰ﴾، حتى أنه لم يقل: ﴿ٱبْنَ﴾ أمّي، بل ﴿قَالَ﴾ عبارة أكثر قرباً: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾، أي أنت وأنا من ﴿أُمَّ﴾ واحدة.

ثم أنهى كلامه المهدّئ من روع ﴿مُوسَىٰ﴾: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ وهذه تبرئة له من أفعالهم، ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠].

فهو لم يؤمن بما قاموا به، بل أدانهم، ولم يعنهم في صناعة هذا التمثال، لكنه لم يكن قادراً على منعهم بالقوة. فاكتفى بموقفه وإدانته لهم، لأن هذا أقصى ما كان يمكن أن يفعله.

[١٥١]

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

وَجَدَت كلمات هارون صداها في نفس موسى، وامتصَّت غَضَبه، فـ ﴿قَالَ﴾ وقد عاد إليه الهدوء: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ ما بَدَر مني تجاه أخي، ثم أشرك أخاه أيضاً في الدعاء، وهذه إشارة بأن كل شيء بينهما عاد إلى ما كان عليه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾.

لأن المغفرة هي أساس إدخال الإنسان في رحمة الله، فلا أحد قط لا يحتاج إلى مغفرة الله، ولا أحد قط يمكن له أن يستغني عن مغفرة الله، وهذا الموقف من شأنه أن يصدّ أي شماتة يمكن لها أن تصدر من ﴿ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾، كما أن إشراكه له بالدعاء فيه تبرئة له من ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾ عندما قال له: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠﴾. واختُتِمَت الآية بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٥١﴾. كل رحمة هي مشتقّة من رحمتك، ورحمتك هي الأصل، وهي فوق كل رحمة، وكل مَن يرحَم، إنما يرحم بمقتضى رحمتك له. وهنا يتبيَّن لك أن كل خلاف يمكن له أن يُحلّ مِن خلال الحوار الصادق والجاد، والاستماع الصادق والجاد بين المتحاورين. فقد أصغى موسى جيداً لأخيه، كما أن أخاه استوعب مدى مسؤوليته في هذه المهمّة.

[١٥٢]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾

عبادة غير الله هي عملية افترائية، والافتراء أن تعتقد بشيء لا أصل له، وتدّعي بأنه الأصل، وبذات الوقت لا تعتقد بالأصل الذي ينتسب هذا اللاأصل إليه.

﴿إِنَّ﴾ هذه الفئة من قوم موسى ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ ألّهوا ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾ بأن صنعوا له تمثالاً وعبدوه، ﴿سَيَنَالُهُمۡ﴾ سيصيبهم ﴿غَضَبٞ﴾ عقاب ﴿مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾. سيجعلهم أذلّاء على ما اقترفوا من افتراء، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ١٥٢﴾، بِما افتروا.

[١٥٣]

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٥٣﴾

الندم على ارتكاب ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والتوبة إلى الله، أساس المغفرة، فارتكاب ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ قد وقع، لكن الآن وبعد وقوعها، هل أنت مصرّ عليها، وتتّبعها بسيّئات أخرى، وتستكبر عن التوبة، وتتّخذ أشكالاً ورموزاً فتعبدها وتقدّسها وفقما تمليه عليك أهواؤك. وتعتقد بأن الحياة فوضى عارمة المتمكِّن فيها يعتدي على المُتَمَكَّن منه، أم أنك بعد وقوعها، قد ندمت، وتبت إلى الله، وسألته المغفرة، ولزمت حدودك

دون أن يردعك أحد، ولكن خوفاً من الله.

وهي من الآيات التي يمكن لك أن تجتزئها من سياقها، فتكون عامة وشاملة ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في كل زمان ومكان. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ"(١).

﴿وَ﴾ أي شخص من ﴿الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ سواء قوم موسى الذين قَصَدَتهم الآية ضمن السياق، أو ﴿الَّذِينَ﴾ سيرتكبون ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في أي زمان ومكان، ومهما كانت هذه ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾. وبعد ارتكابها أقلعوا عن تلك ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ﴿تَابُواْ﴾ إلى الله ﴿وَءَامَنُوٓاْ﴾ أي حتى لو كانت تلك ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ شركاً بالله. ﴿وَ﴾ لكنهم الآن ﴿آمَنُواْ﴾ بالتوحيد.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، ﴿مِن بَعْدِ﴾ التوبة والإيمان ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر الذنوب مهما تعاظَمَت، ﴿رَّحِيمٌ ١٥٣﴾، بالتائبين المؤمنين.

[١٥٤]

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ١٥٤﴾

عبارة ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ﴾ تعلّمك بأن صوت ﴿ٱلۡغَضَبُ﴾ يمكن أن يرتفع في الإنسان، ويمكن أن يخفت، ويمكن أن يسكت. وسكوت ﴿ٱلۡغَضَبُ﴾ في الإنسان هو أقصى درجات الاسترخاء والسكينة والصفاء، فالغضب مهما قلّبته، فلا ينجم عنه سوى الدمار.

ولذلك أرتكَ آيات السورة مع الأنبياء الستّة الذين أدخلَتك إلى أجوائهم، كم أن الله سبحانه وتعالى يمهل ويمهل لكي لا يحل غضبه على الإنسان، حتى أن الإنسان يعجب أحياناً لهذا الإمهال المتعدّد في أشكاله، والطويل في أوقاته، لأن غضب الله إن وقع على قوم، فإنه يهلك كل شيء.

---

(١) رواه ابن ماجه.

وقد جاء هذا القَص المستفيض، موعظة للإنسان حتى يتجنّب غضب الله، سواء أكان فرداً أم عائلةً، جماعةً أم قوماً. وحتى بالنسبة للغضب بين الناس، فلا ينجم عنه سوى الدمار، فعندما تُغضب شخصاً، يُتَوَقّع أن يبدر منه أي ردّ فعل كي يؤذيك، وهو في ذروة غضبه.

وأيضاً عندما تغضب، قد يودّي ذلك إلى ارتفاع نسبة في معدّل ما في دمك، ويتحوّل إلى داء. فالأولوية القصوى هي لعدم غضب الله، وأن تغتنم فُرَص الإمهال، وهي كثيرة، وتكون شديد الحرص على عدم إغضاب الله عز وجل، وتسأله التوبة والمغفرة حتى لو تكرّرت الذنوب، أو تعاظَمت، فلا تقنط من رحمة الله، وكما في الحديث: "اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبعِ السَّيِّئَةَ الْحسنةَ تَمْحُهَا، وخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ"(١).

أن تستبدل ذلك بالحسنات. ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي كان قد وضعها جانباً فور دخوله ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ يهتدي بها الضالون عن سبيل الله ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ من الله ﴿لِّلَّذِينَ﴾، ينتفع بها مَن ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ يتواضعون ويؤمنون.

[١٥٥]

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

عند ذاك انتقى ﴿مُوسَىٰ﴾ من بين ﴿قَوْمَهُۥ﴾ الذين لم يعبدوا العجل ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ كي يذهبوا معاً إلى الميقات الذي جعله الله لهم. وعندما بدأ ﴿مُوسَىٰ﴾ يناجي ربه ﴿أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ من الرهبة. عندما رأى ﴿مُوسَىٰ﴾ ذلك ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾. لك المقدرة على إهلاكنا جميعاً في أي وقت ﴿لَوْ

(١) رواه الترمذي.

شِئْتَ﴾. نسألك ربنا ألّا تهلكنا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُۖ﴾، ونسألك أن تهدينا وتجنّبنا الضلال. ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ تتولّى أمرنا بِما ﴿تَشَآءُ﴾، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾. يكمن الخير في مغفرتك لنا.

[١٥٦]

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

اجعلنا في وضع حسن في دنيانا، وفي وضع حسن في آخرتنا، ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ﴾ اهتدينا بهدايتك لنا، وجئناك بهداك إليك.

﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُۖ﴾ مِن الذين يستحقون العذاب، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، لا شيء قط لا تسعه ﴿رَحْمَتِي﴾. هكذا بشكل مطلق ﴿كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، مهما تعاظَمت واتّسَعت الذنوب بإنسان، فإنه يجد في رحمة الله سِعة للمغفرة، إذا ندم وتاب وأصلح.

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ الرحمة التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾، ستكون ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله، ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي أمر بها الله، ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾. يزدهر إيمانهم بصالحات الأعمال.

[١٥٧]

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

الآن، فاصلة في سياق الآيات للتنبيه بأن كل هذا القص الذي مضى، هو موعظة

لكل حاضر فيما بعد، فتنتبه إلى ما أنت فيه في واقعك وأنت تتلقّى القص القرآني.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾، اليهود والنصارى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ﴾ محمداً صلى الله عليه وسلم، ﴿ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾. فيؤمنون بأن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء استكمالاً لِما جاء ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ يعزّز فيهم كل ما هو معروف ويأمرهم باتّباعه ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ يمنعهم من كل ما هو منكر، ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ﴾ اتّباعه. ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يبيح لهم ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي حظّروها وحرّموها على أنفسهم، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ التي أحلّوها لأنفسهم، ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾. يزيح عنهم القيود التي قيَّدوا أنفسهم بها، ويجعل لهم الحياة أكثر سِعة.

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾ خاتم أنبياء ورسل الله ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ آزروه ﴿وَنَصَرُوهُ ﴾ أعانوه على النصر ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ جعلوا من هذا ﴿ٱلنُّورَ﴾ يبدّد الظلمات التي كانوا فيها، فباتوا يرون الحقائق كما هي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ﴾ في كل ذلك: ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾، في الدنيا، وفي الآخرة.

[١٥٨]

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

لقد أرسلناك يا محمد إلى جميع ﴿ٱلنَّاسُ ﴾، فبرسالتك تختتم رسالاتي، وبك يختتم رسلي، ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾. ما أحمله إليكم لا يخالف ما جاء به قبلي من الرسل والأنبياء، لأن الذي أرسلني وأرسلهم هو إله

واحد ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾. ولا أحد يقدر على ذلك غيره ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ الذي أرسل لكم الرسل والأنبياء، ﴿وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾. كونوا كما يكون عليه نبيكم عليه ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ اعملوا بِما يدعوكم إليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٥٨﴾. تنتقلون من الضلال إلى الهداية.

[١٥٩]

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾

فالعلاقة بين المسلمين وبين اليهود، تبقى علاقة قائمة، فيلتقي الصالحون من المسلمين بالصالحين من اليهود، وكلاهما يدينان الفاسدين، سواء في المسلمين، أو في اليهود. فثمة أناس من اليهود يقولون ويؤمنون ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، ويدعون إليه ويكونون عادلين في أحكامهم ومواقفهم. فهؤلاء لا يجوز مقاطعتهم، وتكون العلاقات معهم طبيعية ما داموا ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ١٥٩﴾. وفق شهادة الله سبحانه وتعالى بحقّهم، وهي أعلى الشهادات التي يجدر بالمسلم أن يؤمن بها ويعمل بها.

[١٦٠]

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٦٠﴾

معجزة أخرى من معجزات ﴿مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام، عندما أمره الله عز وجل، ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَۖ﴾، عندئذ ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ من ﴿ٱلْحَجَرَۖ﴾ اليابس الصلب: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًاۖ﴾ ينبع منها الماء كي يشرب الناس. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾، حميناهم من أشعة الشمس، وجعلنا ﴿ٱلْغَمَٰمَ﴾ ظلاً لهم من حرقة الشمس، ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰۖ﴾، حتى يأكلوا ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا﴾ رزقناهم

به، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بعصيانهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾. بما اقترفوا من جحود فضل الله عليهم.

[١٦١]

﴿وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١﴾

جعلهم الله تعالى يسكنوا قرية آمنة ويأكلوا من خيراتها بما شاؤوا من ألوان الرزق الوفير، ودعاهم أن يقولوا الحق، وأن يدخلوا ﴿ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾، يسجدوا لله، فيغفر لهم ذنوبهم، وكذلك سيزيد الذين يحسنون.

[١٦٢]

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾

لكنهم زوّروا الكلام، فلم يقولوا ﴿حِطَّةٞ﴾، عند ذاك عاقبهم الله بأن أرسل ﴿عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عقاباً لهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢﴾.

[١٦٣]

﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾

واسأل اليهود يا محمّد عمّا جرى في ﴿ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ﴾. قريبة من ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾، وتشرف على شاطئه.

﴿إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ﴾، يعتدون على حدود الله يوم ﴿ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ﴾. تظهر الأسماك على سطح الماء، ﴿شُرَّعٗا﴾ حيث يوم ﴿ٱلسَّبۡتِ﴾ تشرع الأسماك في ظهورها إليهم، فقد أبلاهم الله تعالى ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾.

[١٦٤]

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

رغم ذلك فكان البعض يقدّم إليهم الموعظة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ويتراجعون عَمّا كانوا فيه من المعاصي.

عن ابن عباس: (﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، هي قرية على شاطئ البحر بين مكة والمدينة، يقال لها: (أيلة)، فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعاً في ساحل البحر. فإذا مضى يوم السبت، لم يقدروا عليها.

فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة، وقالوا: تأخذونها، وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم! فلم يزدادوا إلا غيّاً وعتوّاً، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم.

فلما طال ذلك عليهم، قالت طائفة من النهاة: تعلَّموا أنّ هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، وكانوا أشد غضَبًا لله من الطائفة الأخرى، فقالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾، وكلّ قد كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله، نجت الطائفتان اللتان قالوا: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾، والذين قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان، فجعلهم قردة وخنازير).

[١٦٥]

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

فإن الله تعالى قد أنجى الصالحين ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾. أما الظالمين فقد أصابهم الله ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾. ينكرون الحق، ويتّبعون الباطل.

[١٦٦]

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

عندما استكبروا ﴿عَن﴾ أمر الله، ولبثوا على ما هم عليه من عصيان، مسخهم الله إلى ﴿قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

[١٦٧]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

إن الله تعالى يبعث على العصاة من اليهود ﴿مَن﴾ يذيقهم شديد ﴿الْعَذَابِ ۗ﴾ ما داموا يلبثون في المعاصي، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ﴾، لا تعلم متى يقع عقابه، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

وهنا دعوة لهذه الفئة الضالة من اليهود أن تتعظ من العقاب الذي يسوقه الله تعالى إليها، وتتوب مثل بقية اليهود المؤمنين الصالحين. فعقاب الله للفئة الضالة، هو من أجل الموعظة والتوبة والخروج من الضلال إلى الهدى، ولذلك جاء ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ معطوفاً على ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ﴾. فإذن العقاب هو ليس للعقاب، بل للمراجعة ليكونوا مثل ﴿قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ الذين ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾.

[١٦٨]

﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

الواو هنا عطفت مضمون الآية إلى سابقتها، فإن النَعيم كذلك ابتلاء، كما أن الشدّة ابتلاء، والحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾. فبات الكلام يشمل اليهود، وسائر الأمم، ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾. جعلنا الناس على تقاسيم أمم، من هذه الأمم

﴿ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ الصلاح. ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾، امتحناهم ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ الخيرات ﴿وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الشدائد ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ يتعظون و﴿يَرۡجِعُونَ ١٦٨﴾ إلى الحق.

[١٦٩]

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦٩﴾

تكون مغفرة الله للإنسان بموجب أعماله، وليس بموجب أقواله، فالذي يعمل صالحاً، يكون قد اهتدى. وبذلك فإن الأجيال الجديدة عليها أن تتعظ مِما وقعت فيه الأجيال السابقة التي ضلّت السبيل، فأصابها ما أصابها من الله، وكذلك مِما سلكته الأجيال السابقة التي اهتدت إلى سواء السبيل، فأثابها الله وأنجاها، وكانت في عناية الله. وعلى الإنسان أن يتعظ ويقدم على العمل الصالح.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾.

عندما يأتي أناس، يقرؤون أحكام الله، ويتبيَّن لهم الحلال من الحرام، ورغم ذلك، يأتون الحرام ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾. وعليكَ أن تميّز هنا بين المُذنب الذي يتوب، ويسأل الله المغفرة، والمُذنب الذي يصرّ على الذنب ويستمرّ فيه قائلاً بأن الله لن يعاقبه، وأنه سيغفر له.

﴿أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾. فإن الله تعالى لا يدعو إلى الاستمرار في الذنوب على أمل المغفرة، بل يدعو إلى الإقلاع عن الذنوب والتوبة إلى الله على أمل المفقرة. ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ﴾، أي تجاهلوا ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ الذي ﴿فِيهِۗ﴾.

وهذا لا يعني بأن الذنوب لا تتكرّر بالنسبة للمؤمن، بل يمكن لها أن تتكرّر لكنه يتوب، ويسأل الله المفقرة من خلال التوبة، وليس من خلال الاستمرار في الذنوب.

[١٧٠]

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ﴾ أمّا الذين لا يتجاهلون ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي علموه من كتاب الله تعالى و﴿يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ يعملون به ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. إن الله تعالى يحفظ للعاملين الصالحين الذين يحكمون بشرع الله، ويقيمون ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وأن ﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ في الأرض، لا يضيع عند الله.

[١٧١]

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

النتق هو الرفع، أي اقتلع الله سبحانه وتعالى بقدرته على كل شيء، ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ ورفعه ليصبح ﴿فَوْقَهُمْ﴾، ﴿وَ﴾ عندئذ ﴿ظَنُّواْ أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾.

الباب الثاني والثلاثون: شهادة الربوبية

[١٧٢]

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

فهذه المعاهدة التي عاهد بها الإنسان ربه بالإيمان، فقد ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾، فقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، أتشهدون بأني ربكم.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ فأقرّوا بربوبيه الله لهم. وهذا تذكير للإنسان حتى لا يدّعي ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أنه كان غافلاً عن ذلك.

فالذي يستكبر، يكون قد أخلّ بهذه المعاهدة التي هي معاهدة الإنسان بشكل عام لله سبحانه وتعالى. فقد ﴿أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾.

الشهادة هنا هي الإقرار بربوبية الله من خلال قولهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ﴾. تبيّن لك الآية الكريمة بأن كل إنسان لديه معاهدة بينه وبين الله بالإيمان بوحدانيته، وهذا أمر بالغ الأهمّية، وتكمن أهميته أن الإنسان الذي يكفر، لا يبلغ يقيناً كاملاً بالكفر، بل يقدم على ذلك استكباراً، فهو مهما تذرّع بالحجج، فإنه يعلم في حقيقة نفسه بأنه ليس على صواب، وأن الصواب هو الإيمان، ولذلك يكون متذبذباً، ولا يكون مستقرّاً في كفره. في حين أن الإنسان المؤمن، يبلغ يقيناً بصواب إيمانه، ذلك أنه يكون موفياً بمعاهدته مع الله، ويستمدّ من هذا اليقين السَكينة النفسية، فينعم بنسائم الاستقرار والهدوء.

[١٧٣]

﴿أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾

﴿أَوۡ﴾ تتذرّعوا بإنساب الشرك إلى آبائكم، وقد اتّبعتم ما كانوا عليه، وتبرؤون أنفسكم قائلين: ﴿أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣﴾.

فهذا بيان من الله عز وجل يتبيَّن فيه الرشد من الغي حتى يتّبع الإنسان الحق، ويتجنّب الباطل وفق معاهدة الحق التي عاهدها الإنسان مع الله، وليس وفق الباطل الذي اتّخذه البعض، وفسق به عن الحق.

فالإنسان ينفطر على الحق، وليس على الشر، وعلى توحيد الله، وليس على الشرك به.

الباب الثالث والثلاثون: الرجوع إلى الحق

[١٧٤]

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٧٤﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، بهذا البيان يفصّل الله براهينه للناس حتى يتراجعوا عن الباطل،

ويتّبعوا الحق الذي عاهد به الإنسان ربه، وبموجبه تمضي مسيرة الحياة.

أما الذي يفسق، فلا يتذرّعن بأنه كان غافلاً. ولذلك جاء قوله عز وجل بالتفصيل، أي البيان الجلي الذي لا لبس فيه، ولا غموض.

[١٧٥]

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥﴾

أخبر الناس يا محمّد عن ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾، رجل آتاه الله تعالى علماً، فلم يعمل بذاك العلم، ولم ينتفع به، فأغواه ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ وجعله ﴿مِنَ﴾ الضالّين.

تبيّن الآية بأن على الإنسان أن يشكر الله على نعمة العلم، وينتفع به، وينفع به غيره، لأن ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يريد أن يضل الإنسان عن سواء السبيل.

[١٧٦]

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾

فالذي يتّبع الأهواء، يبقى مضطرباً يبدو عليه الإنهاك، وقد شبهه الله تعالى بـ ﴿ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ﴾ تجعله يركض ﴿يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ﴾ في موضعه، كذلك ﴿يَلۡهَثۡ﴾. وهنا بيان دقيق عن تفاصيل الحياة التي يعيشها الإنسان الذي يتّبع الأهواء، فحتى لو رأيته مستكيناً هادئاً، فاعلم بأنه ﴿يَلۡهَثۡ﴾ في داخله من تعب اتّباع الأهواء. بل لا يتركه اللهاث حتى وهو مستغرق في النوم، فيخترق أحلامه، ويعكّر عليه نومه. ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ﴾.

قد لا يعلم المؤمن هذه المعاناة المتفاقمة، أو قد تحدث له أحياناً بشكل عارض نتيجة حدث طارئ ما، فهنا تنبيه وبيان بأن حياة المكذّب بآيات الله تمضي على هذا النحو المفصّل مهما تمظهر بعير ذلك. ﴿فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾.

فتكون هذه ﴿ٱلۡقَصَصَ﴾ موعظة لهم وتحرّك عقولهم، فـ ﴿يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦﴾. ويخرجون من ظلمات الباطل إلى نور الحق، من اضطرابات انتهاك حدود الله، إلى سكينة الالتزام بهذه الحدود.

[١٧٧]

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾

فأولئك ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اتّبعوا الضلال، لا يجوز الاقتداء بِما كانوا عليه من ضلال، وهي أمثلة سَيّئة لا يقتدي بها سوى الضال، ولا يجني منها غير السوء، ﴿وَ﴾ - كما أن أولئك - ﴿أَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾، فإن متّبعيهم ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ سوف ﴿يَظۡلِمُونَ ١٧٧﴾.

[١٧٨]

﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾

فالهداية هي هداية الله التي على الإنسان أن يكون دائم التضرّع إلى الله سبحانه وتعالى حتى يهديه، وحتى يديم عليه نعمة الهداية. أما الذي يستكبر و﴿يُضۡلِلۡ﴾ سبيل الحق، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨﴾. الذين لا يصيبون ربحاً سواء في الدنيا، أو في الآخرة.

[١٧٩]

﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾

فلا تكمن العبرة في المظاهر، وأن فلاناً من الناس يتمَتّع بلياقة وصحة، أو جاه أو مال أو نفوذ، ولكن كل ذلك غير مفعّل، وهو فارغ المعاني الحقيقية لآلاء الله في الإنسان، مثل العملة المزوّرة، فهي تبدو في مظهر حسن، ولكن أمام الحقيقة فلا

قيمة مادية لها، مهما كانت فئتها، وأنها تودي بصاحبها إلى التهلكة. فأمام الحقيقة، تظهر المعادن الحقيقية.

يقول الله سبحانه وتعالى في مستهل هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾، جعلنا وأصبح الجعل في حكم الواقع ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾، يدخلونها بأعمالهم.

انتهت هذه الجملة التي يبيّن الله تعالى فيها حكمه، وانتبه هنا إلى الصيغة المستقبلية للجمَل التالية من الآية التي تبيّن كيف أن الإنسان يمكن له أن يتفادى ذلك. فالآية تخاطب قارئها الحالي الراهن، لأن ما مضى، قد مضى، والقارئ الراهن هو في حكم الحاضر الذي يمكن له أن يعتبر، أو يلبث على ما هو عليه. إذن فهؤلاء الذين يلحقون ﴿أُوْلَئِكَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾، تتحقّق فيهم هذه الصفات: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾. لا تخشع، ولا تلين للحق، وتلبث قاسية على التمسّك بالباطل.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾. العين هي التي يبصر بها الإنسان الحقيقة، وعين لا تبصر الحقيقة، فهي عين عمياء، كالورقة النقدية المزوّرة، مظهرها قيمة، وجوهرها فارغ.

﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾. فليس المهم أن الأذن تسمع، لكن الذي يفعله هذا المسموع بها. فهؤلاء ﴿يَسْمَعُونَ﴾ الأصوات بآذانهم، ولكنهم يستجيبون ﴿بِهَآ﴾ لصوت الباطل، ولا يستجيبون ﴿بِهَآ﴾ لصوت الحق، ثم لا يتفاعلون بها مع الحق الذي يسمعونه.

وقد ذكر الله لك ثلاثة أعضاء هامة في البدن، كي تنتبه إلى دقّة تكامليّة العلاقة بين هذه الأعضاء. فالقلب الذي يخشع، يجعل العين التي ترى، تبصر. والعين التي تبصر، تجعل السمع الذي يَسمَع، يتفاعل مع ما يسمع في علاقة تكاملية بينها، وبذلك يكون العكس بالعكس. ولم يذكر الله العقل، لأنه بشكل تلقائي يمكن استنتاج أن ذلك يكون تحت أمرة العقل، فالطفل لا يستوعب هذه الأشياء، وكذلك

المعتوه، أو الذي يُصاب بِعَطَبٍ في عقله لسبب ما. فذلك يكون خارج الحكم، براءة له من الله.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ الذين تم ذكرهم ﴿كَٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، كالماشية في الأكل والشرب واللامبالاة، ﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، لماذا؟ لأن الأنعام التي هي الإبل والبقر والضأن والماعز، لم يمتّعها الله بالمدركات التي متّع بها الإنسان، فهي غير مطلوب منها التكاليف.

﴿بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ﴾، من هذه الأنعام غير المكلّفة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾. كونهم يستطيعون الاستجابة، لكنهم يتكبرون.

الباب الرابع والثلاثون: التحسّن بأسماء الله الحسنى

[١٨٠]

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾

دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الناس أن يسألوه حاجاتهم بأسمائه ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وهي أسماء ينتفع الناس بمعانيها، ويرون كل طلباتهم فيها.

كذلك فهذه الأسماء ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تبيّن صفاته عزو جل، من خلال التعرّف على هذه الأسماء. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾. فالإنسان الذي يُحسن الله إليه ويستجيب لدعائه، عليه أن يأخذ ما يمكن له أن يأخذ، من مضامين أسماء الله ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ ويُحسن بها إلى غيره وفق المقياس البشري الذي حدّده الله تعالى للإنسان. فإن أكرمك الله، عليك أن تكون كريماً، وإن سترك الله، عليك أن تكون ستيراً، وإن عفا عنك الله، عليك أن تكون عفواً.

وعلى هذا النحو تنظر إلى كل نعمة أنعم بها الله تعالى عليك، فتشكره بأن تحسن علاقتك بالناس.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ۝٨ ﴾ [طه: ٧، ٨].

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَٰلِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٤ ﴾ [الحشر: ٢٤].

فأسماء الله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، تُحَسّن للإنسان حياته وتجعله يتحسَّن بها. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ"(١).

وهذا لا يعني أنه ليس لله سبحانه وتعالى غير هذه الأسماء، عن عَبْدِ اللهِ بن مسعود قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي إِلا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا". فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلا نَتَعَلَّمُهَا؟ فَقَالَ: "بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا"(٢).

فالعدد الذي ذكره صلى الله عليه وسلّم هو من ضمن أسماء الله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ "مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ". والإحصاء، بمعنى الحفظ، وتفعيل هذه الأسماء في حياتك والعمل بها، فتكون متفاعلاً في حياتك مع أسماء الله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾. فلا تكتفي بقراءتها، بل تتفاعل مع معانيها، وتتعرّف على الله من خلال كل اسم من أسمائه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، فتسأل الله حاجتك من خلال أسمائه ﴿الْحُسْنَىٰ﴾، وأنت موقن بأن الله قادر عل الاستجابة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: ١٢٧].

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) رواه أحمد.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣].

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزمر: ٤٦].

يقول ابن الوزير: (واعلم أن الحسنى في اللغة هو جمع الأحسن لا جمع الحسن، فإن جمعه حسان وحسنة، فأسماء الله التي لا تحصى كلها حسنى، أي أحسن الأسماء، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، أي الكمال الأعظم في ذاته وأسمائه ونعوته، فلذلك وجب أن تكون أسماؤه أحسن الأسماء، لا أن تكون. حسنة وحسانا لا سوى، وكم بين الحسن والأحسن من التفاوت العظيم عقلاً وشرعاً ولغةً وعرفاً)(١).

يقول ابن القيم: (أسماؤه سبحانه وتعالى كلُّها أسماء مدح وثناء، وتمجيد، ولذلك كانت حسنى)(٢). وكذلك يقول: (وهناك صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن، فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغِنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناء من غناه وثناء من حمده وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفوُّ القدير، الحميد المجيد، العزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف)(٣).

---

(١) العواصم من القواصم ٧/ ٢٢٨.

(٢) مدارج السالكين ١/ ١٢٥.

(٣) بدائع الفوائد ١/ ١٦١.

في الشطر الآخر من الآية الكريمة يقول الله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾. ذلك أن البعض يستهزئ بالذي يدعو الله بأسمائه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فيبيّن الله جل شأنه: اتركوا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ ترونهم يكفرون ﴿فِىٓ﴾ أسماء الله ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾. فإن الله هو الذي يجازيهم، كما أنه هو الذي يستجيب لكم.

[١٨١]

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

لم يدع الله الحياة للضالّين، بل خلق أناساً ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾، وقد مضى في الآية ١٥٩.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾، وهنا المعني أمة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَمِمَّنْ﴾ أي كذلك بعد ﴿قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ خلق الله ﴿أُمَّةٌ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾. يدعون إلى الحق، ﴿وَبِهِۦ﴾ يكونون عادلين.

الباب الخامس والثلاثون: استدراج المكذّبين

[١٨٢]

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾

إن الله تعالى يستدرج ﴿الَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ بآياته واستكبروا على الإيمان بها ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي ﴿مِّنْ حَيْثُ﴾ لم يحسبوا لذلك أي حساب، ولذلك لم يحتاطوا، فيجعل الله تعالى أسباباً يستدرجهم من خلالها ليقعوا في شر أعمالهم، ويلقوا عقاب ما ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بآيات الله.

[١٨٣]

﴿ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣ ﴾

آية قصيرة، لكن كلماتها مكتنزة المعاني، وكل معنى في الكلمة يتكامل مع المعاني الأخرى لذات الكلمة، ثم تتكامل معاني كلمات الآية مع بعضها البعض.

فهي جملة متناسقة ومتناغمة، وفيها عِظة عظيمة، كما أنها تعرّف الإنسان على الله أكثر، وقد جاءت الكلمة الأولى منها بضمير المفرد، فإن الله جل شأنه يقول: ﴿ وَأُمۡلِي ﴾. والكلمة من الإملاء، فشخص يملي على مجموعة أشخاص شيئاً، حتى يحفظوه ويعملوا به. والذي يتلقّى الإملاء، عليه أن يلتزم بِما أُملي عليه، وإلّا سيتحمّل مسؤولية اللاعمل بالإملاء الذي تلقّاه.

كذلك فإنك تقول لشخص: انتظرتك مليّاً. ومعنى ذلك أنك أمهلته ومنحته وقتاً تلو الوقت حتى يأتي، والمَلَوان، الليل والنهار. ويجوز اشتقاق الكلمة من مَلَأ. وهذه إشارة بأن الظالم عندما يقع عليه عقاب الله، يكون قد امتلأ إمهالاً، لكنه نظير ذلك، امتلأ طغياناً، فيكون المُنتَظَر قد بلغ مرحلة الملء، وحصل مليّاً على على مراحل الانتظار والإمهال حتى يؤوب إلى الحق، لكنه يكون قد رَسَخَ في عِناده، دون أن يؤوب، فلم يعد الإمهال مجدياً معه، لأنه بدل أن يتوب إلى الله ويصلح ويحسن، فإنه يزداد تمادياً وبطشاً، فيأتي وعيد الله: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾.

عندها يوقفه الله عند حدّه، وهو قادر أن يرفع الظلم عن عباده، ويعاقب الظالم بشدة، وهذا بمثابة التحذير الشديد حتى لا يجعل الإنسان من نفسه عرضة ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾. أي ﴿إِنَّ﴾ أخذي للظالمين شديد، لأن الله سبحانه وتعالى يمهل الظالم، لعلّه ينيب، وكذلك يقلّب عليه الأحوال. فإن كان بعافية، يجعله عليلاً، وإن كان عليلاً، يشفيه، وإن كان فقيراً، يجعله غنياً، وإن كان غنياً، يجعله فقيراً، ويجعل عليه المِحَن والتقلّبات حتى يرتدع عن ظلمه، ويتوب إلى الله، ويصلح من شأن نفسه، وعندها فإن الله غفور رحيم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قالَ إبليسُ: يا ربِّ، وعزَّتِكَ لا أزالُ أُغوي بني آدمَ ما

دامَت أرواحُهم في أجسادِهِم. فقالَ اللهُ: وعزَّتي وجلالي، لا أزالُ أغفِرُ لَهُم ما استغفروني"[١]. والكلام مفتوح يشمل أي ذنب يمكن للإنسان أن يرتكبه مهما كان كبيراً، أوصغيراً. وعن الأغر بن يسار المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أيُّها الناسُ، توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرةٍ"[٢].

أمّا إذا ازداد الظالم تمادياً وعِناداً، وحَسِبَ أن الله تعالى يوافقه على ظلمه، حيث يغدق عليه الصحة، والنفوذ، ورَغَد العيش، رغم بطشه وطغيانه. فاعلم بأن الله جل شأنه يقلّب له ذلك إمهالاً كي يتوب، وليس كي يستمر في الطغيان: ﴿۞أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾ [غافر: ٢١]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: ٤٤]. فالعِقاب يكون شديداً على الظالم العَنيد موازاة بشدّة عِناده، بعد أن يكون قد تلقّى الإمهال تلو الإمهال من رب العالمين.

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٣]. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: المُسلِمُ أَخُو المُسلِمِ لا يَظلِمُهُ وَلا يُسْلِمُه، مَن كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَن فَرَّجَ عَن مُسلِمٍ كُربَةً فَرَّجَ اللهُ عَنهُ بِهَا كُربَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ"[٤]. وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا

(١) رواه أحمد.

(٢) رواه مسلم.

(٣) صحيح مسلم.

(٤) صحيح مسلم.

كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ"(١). وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضي الله عَنه، عَن النَبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليه صَدَقَةٌ، كُلَّ يَومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ، يَعْدِلُ بيْنَ الاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، ويُعِينُ الرَّجُلَ علَى دابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عليها، أوْ يَرْفَعُ عليها مَتاعَهُ صَدَقَةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وكُلُّ خُطْوَةٍ يَخْطُوها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ، ويُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ"(٢). وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضي الله عَنهما: (أَنَّ رَجُلا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكَشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا، وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ الْمَدِينَةِ - شَهْرًا")(٣). فالكلمة الأولى من هذه الآية الكريمة هي بمثابة تحذير للظالم، وبذات الوقت، طمأنينة للمظلوم، فإن الله لا يقبل التمادي في الظلم، فإن أمهَل، فإن ذلك يكون رحمة منه للتوبة والإصلاح، فلعلّ الإنسان يكون منفعلاً في أمرٍ ما، فيبدر منه أذى، لكنه بعد ذلك ينتبه، ويعود إلى رشده، ويصلح.

والأمرُ عامٌ، يشمل الناس جميعاً في مختلف شؤونهم: الزوج مع زوجته، الأب مع أبنائه، الجار مع جواره، مدير العمل مع عمّاله، الحاكم مع شعبه، بل حتى المرء مع نفسه، وما إلى ذلك.

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ" ثُمَّ قَرَأَ "﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾"(٤) [هود: ١٠٢]. فالعقاب لا يقع إلّا بعد الإمهال، لكنه إن وقع، لن يفلت الظالم منه مهما كان متمكّناً في الأرض.

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) رواه الطبراني.

(٤) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

فالإملاء يكون ﴿لَهُمۡۚ﴾، بلام التبيين، فليحذر الظالمون، وليطمئن المظلومون: ﴿إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾.

[١٨٤]

﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾

إن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به ﴿مِّن جِنَّةٍۚ﴾، وهو لا يأتي بالآيات من عنده، بل إن الله قد أرسله. ﴿إِنۡ هُوَ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم ﴿إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤﴾ ينذركم من مغبّة ما أنتم به من ضلال، ويبيّن لكم الحق.

[١٨٥]

﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾

إن النظر ﴿فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يجعل الناظر يسبّح الله، ويؤمن به، ويصلح العمل، لأن لا أحد يعلم متى يكون أجله، وعندها سيواجه الحقيقية التي كان يستكبر على الإيمان بها.

[١٨٦]

﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾

إن الله سبحانه وتعالى هو الذي عنده الهداية، فعلى الإنسان أن يسأل الهداية من الله، لكنه دون ذلك يلبث ضالاً.

﴿وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٨٦﴾. فيدع الله أهل الضلال يستمرّون ﴿فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ﴾، ما داموا قد أصرّوا على الضلال، فالله قادر أن يهديهم، لكنه لا يفعل ذلك عقاباً لهم، ولذلك ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾.

الباب السادس والثلاثون: علم الله بالغيب

[١٨٧]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

لم يخبر الله تعالى أحداً من مخلوقاته كافة عن ميعاد ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾، ولا أحد قط يعلم بهذا الميعاد غير الله. ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ يسأل أهل مكة محمداً صلى الله عليه وسلم متى ميعاد ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾. ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾. وحده الله يعلم بذلك.

﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾، ﴿لَا﴾ أحد غير الله يعلم وقتها ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظمت ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فذلك شأن الله وأنت لستَ معنياً بذلك ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أن الله وحده يعلم، ولم يخبر بها أحداً من قبل.

[١٨٨]

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

فهنا على الإنسان أن يسأل الله تعالى النفع في الدنيا والآخرة، لأن أي نفع لا يصيب الإنسان إلّا بمشيئة الله، وكما أن عليه يستعين بالصبر، لأن عدم مشيئة الله تحول دون أي ضر يمكن له أن يصيب الإنسان، فلا أحد يملك لنفسه ﴿نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وذلك أيضاً بالنسبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ

﴿ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾. ولذلك فإن الإنسان يخفى عنه ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾ الذي لا يعلم متى يقع.

الباب السابع والثلاثون: ولاية الصالحين

[١٨٩]

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾

إن الله تعالى ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي﴾ خلق الإنسان الأول الذي تنتمون إليه، وتسلسلتم من صلبه، وهو الذي فضّل عليكم بأن جعل منكم أزواجاً يسكن بعضكم إلى بعض، ومن خلال ذلك يستمر تسلسلكم. وهذا يستوجب عليكم أن تكونوا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾. لا من الجاحدين فضل الله عليكم. ففي البدء ﴿۞ هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ جعلكم تتكاثرون ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ آدم عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، حواء عليها السلام ﴿لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾. ليشعر بالسكينة والأنس معها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ عاشرها ﴿حَمَلَتۡ﴾ نتيجة تلك العشرة ﴿حَمۡلًا خَفِيفٗا﴾.

تم التلاقح كبداية أولى لجنين، وبدأت حواء تتحرّك بخفّة كون الحمل ما زال ﴿خَفِيفٗا﴾. ﴿فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ﴾، أمضت الشهور وهي تحمله في بطنها ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾، عندما أثقل بها الحمل، ولم يعد خفيفاً، ولم تعد قادرة بالخفّة التي كانت عليها. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾. عندما أدركا أن الولادة باتت قريبة، سألا ﴿رَبَّهُمَا﴾، أن يجعل ذريتهما سليمة وصالحة، ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾، على فضلك والاستجابة لدعائنا.

[١٩٠]

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾

لعلّ الآية تعني ذرية آدم وحواء من بعدهما، حيث منهم مَن جعل لله ﴿شُرَكَآءَ﴾. وكان الأجدر بهذه الذرية أن تقتدي بأبوَيها في شكر الله تعالى دون أن تشرك به. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ استجاب لهما الله بالبشر السوي، أشرك بالله، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾. تنزه ﴿ٱللَّهُ﴾ عن كل أشكال الشرك الذي يمكن للإنسان أن يتّخذها للعبادة.

[١٩١]

﴿أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ١٩١﴾

إن شرككم بِما هو مخلوق، والمخلوق لا يُعبَد، بل يَعبُد الخالق، فالعبادة لا تكون إلّا للخالق الذي يكون بيده ملكوت كل شيء.

[١٩٢]

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾

تعجز هذه المعبودات التي يتّخذها المشركون للعبادة، أن تنفع بشيء، وتعجز أن تدفع عن ذاتها الضر.

[١٩٣]

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾

﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾، إذا دعا المشركون هذه الأصنام أن تهديهم إلى الحق ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾. فإنها ليست قادرة على ذلك، ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾. السواء من التسوية، وجملة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾، إجابة على جملة الابتداء: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ﴾. وقد وردَت الهمزة على كلمة ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ﴾ للتسوية بين جملتَي: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣﴾. فحديثكم مع هذه الأصنام هو كعدمه، لأنها عاجزة عن الاستجابة، و: ﴿أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ

صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾. فإن ذاك ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾. فلا استجابة في حالة الدعاء، كما لا استجابة في حالة الصمت.

[١٩٤]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿ إِنَّ ﴾ هذه المعبودات التي تخذونها للعبادة، إنما هي من خلق ﴿ٱللَّهِ﴾ كما أنتم من خلق ﴿ٱللَّهِ﴾. فاسألوها حاجة، ولتستجب ﴿لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في شرككم.

[١٩٥]

﴿ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٌ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٍ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٌ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٌ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

فهي أصنام باهتة لا حراك فيها، وإن كانت قادرة على الضر، فاجمعوها واجعلوها تضر بشيء إن كانت قادرة على ذلك.

[١٩٦]

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

ولايتي وعبادتي لله ﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ القرآن، وشرع فيه الشرائع، وبيَّن فيه الهدى من الضلال، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ بعنايته وحفظه.

[١٩٧]

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

أمّا هذه الأوثان، فإنها تعجز أن تحميكم، وتعجز أن تحمي ذاتها.

[١٩٨]

﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

لأن المشركين يستكبرون على الإيمان بالحق، فإنهم لا يستجيبون لِما تدعوهم

إليه يا محمد من الهدى، ولا تبصر أعينهم الحق.

[١٩٩]

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾

﴿خُذِ﴾ انتهج منهج ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ في الناس، اجعل يا محمّد ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ منهاجاً في حياتك، ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾. ما عرّفك الله به من تشريع في الوحي، ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾. بعد أن تبلّغ ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ ما كلّفك الله به، ورأيتهم استكبروا، دعهم في جهلهم، فقد أدّيت ما عليك.

الباب الثامن والثلاثون: حصانة الاستعاذة

[٢٠٠]

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾

النزغ، كالوخز، فيأتيك ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ على شكل وَخَزات يخزك بها، فإن استجبتَ، نالت تلك الوَخَزات منك بالنسبة لـ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، ودَفَعَتك إلى الأفعال على قاعدة تلك الاستجابة. لأن الوخز يكون للدفع إلى المعصية من خلال الاستجابة لذاك الوخز. وَوَخز ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يكون على شكل وسوسة ينغز بها القلب، والكلام هنا موجّه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ويبقى مفتوحاً للناس بشكل عام كي ينتفعوا به.

يا محمّد ﴿وَإِمَّا﴾، وهذا بيان بأن النزغ لم يقع لمحمّد صلى الله عليه وسلم، بعد، لكن ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ يسعى إلى ذلك، ويستغل أي لحظة كي يحقّق هدفه بهذا النزغ، وهو شبيه بقوله: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]. ولم يشرك النبي صلى الله عليه وسلم، والله عز وجل ينبّه رسوله، ويحصّنه. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾، عند ذاك ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ استجر ﴿بِٱللَّهِۚ﴾ والتجئ إليه حتى يدفع عنك النَزغ. عن النبي صلى الله عليه وسلم: "وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ

ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ. كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنْ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ"(١).

فإذن، يمكن لـ ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أن يدنو بوخَزَاته من الإنسان، فيستشعرها في قلبه، عندها تكون الاستعاذة بالله وحدها هي السبيل في صرف ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ووخزاته عنك. ﴿إِنَّهُۥ﴾ الله الذي تستعيذ به ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما تلفظ بلسانك من كلمات الاستعاذة، وكذلك فهو ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ بِما يسعى به ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ نحوك، وبِما يكون عليه قلبك. وهذه علاقة تكاملية بين اللسان والقلب. إن الله ﴿سَمِيعٌ﴾ لِما تلفظ بلسانك، و﴿عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ بِما تشعر به في قلبك.

[٢٠١]

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿إِنَّ﴾ تقوى الله تجعل الإنسان مبصراً الأشياء على حقائقها، وكلمة ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، هنا جاءت على شكل الالتباس. أي عندما يلتبس شيء على المتّقي، فإن تقواه تجعله في بصيرة من أمره. فمدخل الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾. ثم إذا حصل لهم ﴿طَٰٓئِفٌ﴾، ما يطوف في البال، وهو من الطَيف الذي يبثّه ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، إلى الإنسان، ونتيجة ذلك تتداعى إليه خواطر شيطانية.

فغير المتّقي، ينجرّ خلف تلك الخواطر، ويستَطيبها، فيكون ذلك استدراج ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ له، حتى يفعّل في قلبه هذه الخواطر إلى أعمال، فيمضي وفق المخطّط الذي خطّطه له ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. وكل ذلك يحدث لغير المتّقين ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. لماذا؟ لأنهم لا يـ ﴿تَذَكَّرُواْ﴾، وهذا اللا تذكّر يجعلهم في حالة عدم إبصار الحق، فيتّبعون الضلال الذي يضلّهم به ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾. أمّا ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ فهؤلاء ﴿إِذَا﴾، وجاءت ﴿إِذَا﴾ فجائية، ومعنى ذلك أن الخاطرة الشيطانية تأتيك بشكل مفاجئ

(١) رواه الترمذي.

على شكل ﴿طَـٰٓئِفٌ﴾ يطوف في بالك. ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾.

المَس هنا معنوي وغير مادي، لأن مَس ﴿ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ هنا هو خاطرة تخطر في قلب الإنسان، وعند ذاك ﴿إِذَا﴾ وقع هذا المَس المفاجئ للمتّقين ﴿تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾.

جعلهم الذكر في بصيرة فسلموا. ولا يعني ذلك أن المتّقي يسلم دوماً من هذا المَس، لأن ﴿ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ يلبث يلاحقه ليحقّق مراده فيه، فيستغل كل وقت وكل موقف كي يمسّه بـ ﴿طَـٰٓئِفٌ﴾ منه. وهذا يأتي إلى نقاط ضعف الإنسان، أو إلى مواقف تحصل معه في حياته اليومية، وما إلى ذلك. فقد يحصل أن تحلو له الخاطرة الشيطانية، فيسترسل فيها، لكنه وبشكل مفاجئ أيضاً ينتبه إلى ذلك ويتراجع. فقد يزلّ المتّقي أيضاً إلى ذنب، لكنه سرعان ما يتوب ويتراجع، لأن التقوى لا تدعه يستمرّ، فتنقذه وتجعله في بصيرة.

[٢٠٢]

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

الأخوّة هنا هي أخوّة شيطانية، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧]. فهؤلاء ومن منطلق رابطة الأخوّة الشيطانية، يمدّون بعضهم البعض بكل ما هو باطل، و﴿لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ في ذلك تجاه بعضهم البعض. والتقصير هنا بمعنى الملل، أي لا يملّون من ذلك بكل أشكال وتفرّعات ﴿ٱلْغَىِّ﴾.

الباب التاسع والثلاثون: الاستماع والانصات إلى القرآن

[٢٠٣]

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

عندما يتأخر التنزيل على النبي صلى الله عليه وسلم، يقول له أهل مكة استهزاءً:

﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾، لقد تأخرتَ في الآيات، فأنشئ وافتعل آيات أخرى، كما أنشأت وافتعلت من قبل. يوجّه الله رسوله كي يرد عليهم: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمّد ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾. عنعما أتلقى التنزيل، أتلوه عليكم، وعندما لا أتلقاه، أكون في حالة انتظار، لأن لا شيء لدي أقوله من تلقاء نفسي. ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾. الـ ﴿بَصَائِرُ﴾ هي مصدر الإبصار، فالمؤمن يبصر بِما يبصّره به القرآن. ودون ذلك لا يبصر مهما ادّعى ذلك. فقال ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ تميّزون به الحق من الباطل. ﴿وَهُدًى﴾، بعد أن تبصروا الحق من خلال نور القرآن، تهتدون ﴿وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ بهذا القرآن ويعملون به.

[٢٠٤]

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

﴿الْقُرْآنُ﴾ ليس كأي كتاب، وقراءته ليست كأية قراءة، فهو كتاب الله إلى الناس، ولذلك يجب على الإنسان أن يعمل بهذه الخصوصية التي عليها القرآن. والقراءة هنا هي الصوت الذي يقرأ القرآن، فإن كنتَ في مكان و﴿قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾، فعليك أن تكف عن الحديث، وتولي سمعك إلى آيات الله التي تُقرأ، لأن ذلك أفضل من أي كلام آخر يمكن لك أن تقوله أو تسمعه.

﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾، إلى القرآن من خلال الصوت الذي يحمله إلى أسماعكم. ﴿وَأَنصِتُوا﴾، كونوا في حالة إنصات، أي هيبة الاستماع إلى كلمات الله.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾. لعل رحمة الله تعالى تصيبكم وأنتم تستوعبون آياته، عندما يُقرأ ﴿الْقُرْآنُ﴾، من خلال استماعكم وإنصاتكم. فالإنصات هو الذي يفعّل حالة الاستماع، ويجعل الإنسان في حالة استيعاب لِما يسمع.

الباب الأربعون: حكمة السجود

[٢٠٥]

﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥ ﴾

الكلمة الأولى من الآية هي الذكر، والكلمة الأخيرة هي الغفلة، فتعلم هنا بأن الذكر هو عملية طرد للغفلة، وبدون ذكر الله عز وجل، يلبث الإنسان في غفلة، حتى يذكر الله، ولا شيء يُخرج الإنسان من الغفلة سوى ذكر الله. والذكر هنا لا يقتصر على الكلمات التي يقولها الإنسان، مثل الدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير، وما إلى ذلك، ولكنه أيضاً في الأعمال، فتعمل حسناً في سبيل الله، وتنتهي عن سيء مخافة الله. والتضرّع هو الخضوع، أي تكون خاضعاً لله، ولذلك قال: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ ﴾. خوفاً، وهذا الخوف الذي أرشد الله تعالى إليه، يجعل الإنسان حذراً، ومتوقعاً أن تقع عليه مصيبة في أي لحظة، فيبقى خائفاً من الله، لأن هذا الخوف يجعله أكثر صلاحاً.

﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾. في وقتَين انتقاليَين، ﴿بِٱلۡغُدُوِّ﴾، بدايات طلوع الشمس لبداية نهار جديد، ﴿وَٱلۡأٓصَالِ﴾. بدايات غروب الشمس لبداية ليل جديد. ففي هذين الوقتين، ترى كيف أن الأحوال كلها تتقلّب رأساً على عقب، فقد اختلف الأمر تماماً، من نهار صاخب، إلى ليل ساكن، وهذا مدعاة إلى الخوف من الله، والتضرّع إليه. فجاء قوله ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾. سواء في النهار، أو في الليل.

[٢٠٦]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦ ﴾

يبيّن الله ﴿ إِنَّ ﴾ الملائكة ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هم في الملأ الأعلى ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ

﴿عِبَادَتِهِۦ﴾، يعبدون الله دون استكبار، ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ ينزّهونه ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾. تكون عبادتهم خالصة لله وحده.

تنتهي السورة بكلمة السجود، لأن الإنسان إن سجد لله، يكون قد نزع من نفسه الاستكبار، ففي البدء جاء اللااستكبار، واستناداً إلى ذلك يتحقق التسبيح الخالص، ويتحقق السجود الخالص لله.

وهذه دعوة من الله إلى الإنسان حتى يتجنّب الاستكبار، ويصلح العمل، وهي أول سجدة من خمس عشرة سجدة في القرآن الكريم.

عن عمرو بن العاص: (أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم خمس عشرة سجدة، منها ثلاث في المفصل، وفي سورة الحج سجدتان)(١).

ورُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله عند سجدة التلاوة: "اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ"(٢).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه دعا في سجود التلاوة: "اللَّهمَّ اكتُب لي بِها عندَكَ أجرًا، وضَع عنِّي بِها وزرًا، واجعَلها لي عندَكَ ذُخرًا، وتقبَّلها منِّي كما تقبَّلتَها من عبدِكَ داودَ عَليه السَلام"(٣).

عن ابن عمر: (كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ علينا السورة فيها السجدة فيسجد ونسجد حتى ما يجد أحدنا موضع جبهته)(٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ"(٥).

علاقة متكاملة بين اللااستكبار، والعبادة وعندما يكون الاستكبار، لا تكون

---

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارقطني.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) رواه الترمذي.

(٤) صحيح البخاري.

(٥) رواه مسلم.

العبادة، ولذلك جاء التسبيح، والسجود.

فالتسبيح هو يقين بوحدانية الله الذي لا إله إلا هو، والسجود هو انتزاع لكل شكل من أشكال الاستكبار من نفس الإنسان.

فعندما يسجد الإنسان لربه، فإنه يتواضع، ولا يتحقق التواضع إلا عند عدم الاستكبار، ومن خلال ذلك يستمد الإنسان تواضعه في سائر علاقاته بالناس.

والله أعلم.

تم بفضل الله تعالى في مدينة أربيل

يوم الجمعة، السادس عشر من جمادى الأولى ١٤٣٩هـ

الثاني من فبراير ٢٠١٨م

فهرس المحتويات

سورة الأنعام.. ٣

استهلال.. ١٣

الباب الأول: الخَلق والجَعل ٢٣

الباب الثاني: وظيفة الطين ٢٨

الباب الثالث: السر والجَهر ٣١

الباب الرابع: أنتم وهم.. ٣٤

الباب الخامس: حِكمةُ التمكين.. ٣٧

الباب السادس: آفة الاستكبار ٣٨

الباب السابع: الحيق ٤١

الباب الثامن: ولايةُ الله.. ٤٤

الباب التاسع: قُدرةُ الله.. ٤٧

الباب العاشر: عَقيدةُ التَكذيب ٤٩

الباب الحادي عشر: النَهي والنأي.. ٥٤

الباب الثاني عشر: الخسران ٥٧

الباب الثالث عشر: الحَسرة.. ٥٩

الباب الرابع عشر: الجحود بالرسالة ٦٢

الباب الخامس عشر: أُمَم.. ٧٢

الباب السادس عشر: الصرف والصدف.. ٧٩

الباب السابع عشر: بُنية المساواة ٨٣

الباب الثامن عشر: الاستبانة ٨٧

الباب التاسع عشر: النجاة ٩٤

الباب العشرون: الذكرى والإعراض ٩٨

الباب الواحد والعشرون: قدوة الهُدى ١٠٤
الباب الثاني والعشرون: شكر الله وتعظيمه ١١٩
الباب الثالث والعشرون: التبريك والتصديق ١٢٦
الباب الرابع والعشرون: آفة التكهّن ١٢٧
الباب الخامس والعشرون: الاهتداء والاستيعاب ١٣٣
الباب السادس والعشرون: المُستَقَر والمُستَودَع ١٣٤
الباب السابع والعشرون: المُشتَبَه والغير مُتشابِه ١٣٧
الباب الثامن والعشرون: الخَرق ١٤٠
الباب التاسع والعشرون: المُدرِك اللامُدرَك ١٤٣
الباب الثلاثون: حدود البلاغ ١٤٥
الباب الواحد والثلاثون: شيطان وشياطين ١٤٩
الباب الثاني والثلاثون: الحَكَمُ الحَق ١٦٠
الباب الثالث والثلاثون: اسم الله ١٦٢
الباب الرابع والثلاثون: مَكرُ الأكابر ١٦٧
الباب الخامس والثلاثون: الشرح والضيق ١٧٠
الباب السادس والثلاثون: غِنى الله ١٧٨
الباب السابع والثلاثون: حلال الله وحرامه ١٨٠
الباب الثامن والثلاثون: الترتيب الإلهي ٢٠٣
سورة الأعراف ٢١١
استهلال ٢٢١
الباب الأول: كلماتٌ في حروف ٢٣٥
الباب الثاني: سِعةُ الصدر ٢٣٧
الباب الثالث: اتّباع الهدى ٢٤٣
الباب الرابع: عندما يجيء بأس الله ٢٤٧
الباب الخامس: حضور الله ٢٥١

الباب السادس: مَوازين ومَوازين ٢٥٣
الباب السابع: تمكين ومعايش.. ٢٦١
الباب الثامن: الأنا الإبليسية.. ٢٦٥
الباب التاسع: عداوة الشيطان للإنسان ٢٧٦
الباب العاشر: خطيئة الإنسان ومغفرة الله ٢٩٤
الباب الحادي عشر: خير اللباس ٣١١
الباب الثاني عشر: القِسط.. ٣١٧
الباب الثالث عشر: الاستمتاع بالزينة والطيبات ٣١٩
الباب الرابع عشر: التقوى والصلاح.. ٣٢٥
الباب الخامس عشر: ظلم الافتراء على الله ٣٢٦
الباب السادس عشر: المُضِلّون والمُضَلّون.. ٣٢٨
الباب السابع عشر: مِهاد وغواش الظالمين ٣٣٦
الباب الثامن عشر: التكليف ٣٣٧
الباب التاسع عشر: أعراف الله.. ٣٣٩
الباب العشرون: وزر الجحود بآيات الله.. ٣٤٧
الباب الواحد والعشرون: تفصيل الكتاب ٣٥٢
الباب الثاني والعشرون: حكمة التأنّي ٣٥٤
الباب الثالث والعشرون: التضرّع والخفية في الدعاء ٣٦٢
الباب الرابع والعشرون: بشارة الرياح بالمطر ٣٦٥
الباب الخامس والعشرون: بين الطيّب والخبيث.. ٣٦٩
الباب السادس والعشرون: نوح عليه السلام ٣٧٢
الباب السابع والعشرون: هود عليه السلام ٣٨١
الباب الثامن والعشرون: صالح عليه السلام ٣٨٨
الباب التاسع والعشرون: لوط عليه السلام.. ٣٩٧
الباب الثلاثون: شعيب عليه السلام ٤٠٤

الباب الواحد والثلاثون: موسى عليه السلام.. ٤٢٦
الباب الثاني والثلاثون: شهادة الربوبية ٤٦٨
الباب الثالث والثلاثون: الرجوع إلى الحق.. ٤٦٩
الباب الرابع والثلاثون: التحسّن بأسماء الله الحسنى.. ٤٧٣
الباب الخامس والثلاثون: استدراج المكذّبين ٤٧٦
الباب السادس والثلاثون: علم الله بالغيب ٤٨١
الباب السابع والثلاثون: ولاية الصالحين ٤٨٢
الباب الثامن والثلاثون: حصانة الاستعاذة.. ٤٨٥
الباب التاسع والثلاثون: الاستماع والانصات إلى القرآن ٤٨٧
الباب الأربعون: حكمة السجود.. ٤٨٩
فهرس المحتويات ٤٩٣

EAN	**9782745196026**		
ISBN10	**2-7451-9602-2**		
ISBN13	**978-2-7451-9602-6**		
عنوان الكتاب	القرآن الكريم (سورة الأنعام - سورة الأعراف) (التحليل الروائي)		
Book Title	alqraan alkrym (swrah al'an'aam - swrah al'a'araf) (althalyl alrwa'y)		
المؤلف	عبد الباقي يوسف		
المحقق-المترجم			
الناشر	دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان		
Publisher	Dar al kotob al ilmiyah - Beirut - Lebanon		
سنة النشر	2019	عدد الصفحات	496
اللغة	عربي	الورق	ابيض
القياس	17×24	الطباعة	لون واحد
التجليد	1	مجلد	-
الموضوع	دراسات - تفسير - قرآن		
السعر	14.00	USD	-
وزن النسخة	0.000	كلغ	سعة الطرد 51